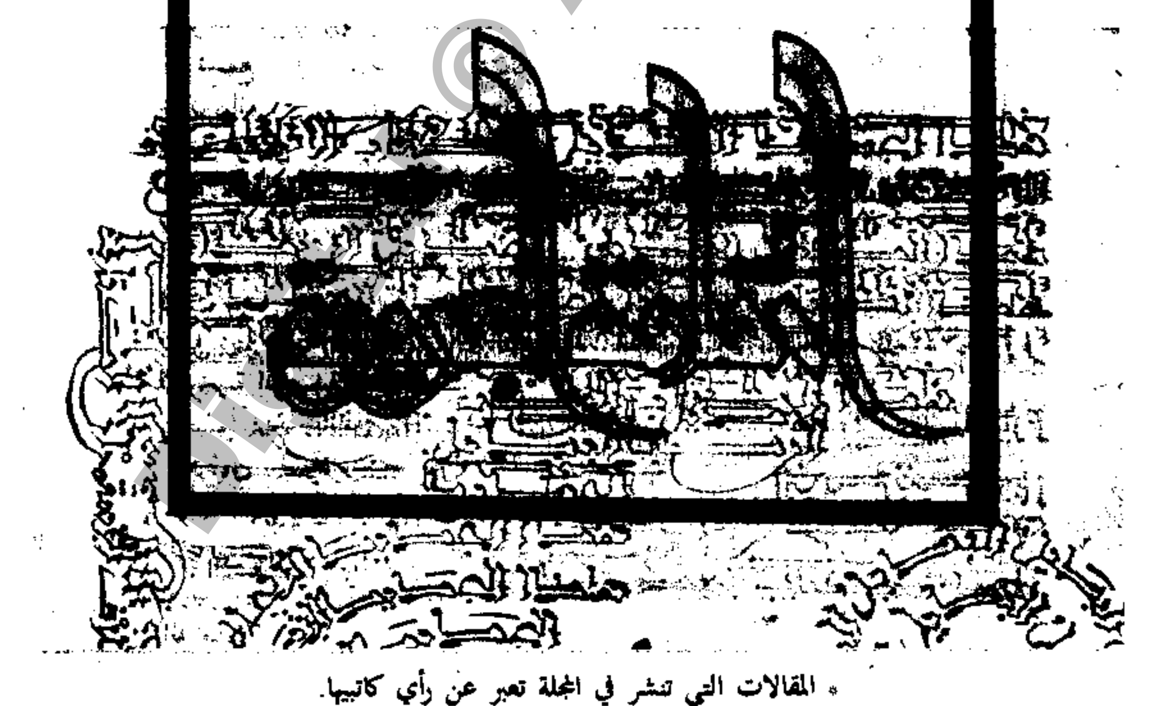
مجلــة فكريــة إبداعيــة

مجلة شهرية تصدر مؤقتا ست مرات في السنة . **العدد 26 /27 — السنة السادسة — 1983** . المدير المسؤول : **محمد بنيس**. هيئة التحرير : **محمد البكري، مصطفى المسناوي، عبد الله راجع، محمد العشيري**. العنوان : **ص.ب. : 505، المحمدية، المغرب**. التصفيف الالكتروني : **لينو النخلة، 5، زنقة مستغانم، البيضاء**. السحب : **مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر**. التوزيع : **سوشبريس**. رقم الايداع القانوني : **12ـــ1974**. الاشتراكات **بالمغرب** : الاشتراك العادي : **30 دهـ**. اشتراك المؤسسات : **75 دهـ. الاقطار العربية وأوروبا** : الاشتراك العادي : **75 دهـ**. اشتراك المؤسسات : **225 دهـ. اشتراك المساندة** : ابتداء من **50 دهـ. تبعث الاشتراكات باسم** : محمد بنيس **— الحساب البريدي : 1.383.41** الرباط.



* المقالات التي تنشر في المجلة تعبر عن رأي كاتبيها.
* المقالات التي لم تنشر لا ترد إلى أصحابها.

الموضوعـات

صفاء حسين زيتون

مذبحة صبرا وشاتيلا (*)

مقدمة

في أواخر القرن التاسع عشر، رفع تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية شعارا كاذبا يقول إن أرض فلسطين هي «أرض بدون شعب» لتبرير الاستطيان اليهودي في أرض فلسطين. وفي يونيو (حزيران) سنة 1969 رددت جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل المعنى ذاته حين تساءلت بوقاحة «الفلسطينيون... أين هم ؟ ليس هناك شيء بهذا الاسم».

وظل اقتلاع الفلسطينيين من أرضهم وإبادتهم هدفا من الأهداف الرئيسية للدولة الصهيونية منذ إنشائها، حتى لا يبقى هناك صوت يقول «أنا فلسطيني وأريد أرضي».

وتاريخ إسرائيل مليء بالمذابح التي دبرها ونفذها زعماء العصابات الصهيونية، لابادة أكبر عدد من الفلسطينيين، وإرهاب كل من بقي حيا، لكي يفر طلبا للنجاة تاركا وراءه أرضه وبيته.

إحدى هذه المذابح كانت مذبحة ديرياسين التي قامت بها عصابتا إيرجون وشتيرن تحت قيادة مناجم بيجين رئيس الوزراء الاسرائيلي الحالي، وإسحاق شامير وزير خارجيته. فقد هاجمت العصابتان أهالي قرية دير ياسين العزل في ليلة 8 ابريل (نيسان) 1948 وقتلت رجلا وامرأة وطفلا، وقطعت أوصالهم، وألقت بجثث عديدة في بئر القرية، وكومت الجثث الباقية في كومة رهيبة بجوار البئر.

ومذبحة أخرى تعرض لها أهالي قرية قبية في الضفة الغربية نفذتها فرقة خاصة من فرق الجيش الاسرائيلي تسمى الفرقة رقم 101 لا تلبس الزى العسكرى، ولا تستعمل الأسلحة التي يستعملها الجيش. هاجمت الفرقة بقيادة ايريل شارون وزير الدفاع الحالي قرية قبية في ساعة متأخرة من ليلة 14 أكتوبر (تشرين أول) 1953 وكان أهل القرية نائمين في منازلهم.

اقتحم القتلة المنازل وألقوا القنابل اليدوية داخلها، ووضعوا الشاحنات الناسفة حولها. وانسحبت الفرقة في الفجر بعد أن قتلت 66 شخصا معظمهم من النساء والأطفال، وأصابت 75 آخرين بإصابات خطيرة، ونسفت 45 منزلا. وادعى الجيش الاسرائيلي بعد المذبحة أنه ليس له علاقة بها، وأن من قاموا بها هم مجموعة من المتطرفين.

(*) تصدر قريبا عن دار «الفتى العربي» بالقاهرة.

ومذبحة ثالثة حدثت أثناء الاحتلال الاسرائيلي لغزة سنة 1956، فقد قتلت القوات الاسرائيلية 275 شخصا في مدينة خان يونس بعد أن هاجمت المنازل بحجة البحث عن السلاح.

أما في مذبحة كفر قاسم، فقد فرضت السلطات الاسرائيلية حظر التجول على كل السكان العرب في اسرائيل ابتداء من الساعة الخامسة مساء يوم 29 أكتوبر (تشرين أول) 1956، وكان أهالي قرية كفر قاسم لا يزالون في الحقول، لا يدرون شيئا عن حظر التجول. وعند رجوعهم الى قريتهم بعد الساعة الخامسة، استوقفهم الجنود الاسرائيليون عند مدخل القرية، أوطلقوا عليهم نيران بنادقهم. وكان عدد الضحايا في قرية كفر قاسم من الرجال والنساء والأطفال 37 إنسانا قتلوا بتعمد ووحشية.

كذلك انفضح الدور الاسرائيلي في مذبحة تل الزعتر، عندما تعرض ايريل شارون وزير الدفاع الاسرائيلي لهجوم عنيف وجهه إليه شيمون بيريز زعيم المعارضة، لتوريطه الجيش الاسرائيلي في مذبحة صبرا وشاتيلا، فقد رد عليه شارون متسائلا : وأين كان الجيش الاسرائيلي سنة 1976 أثناء مذبحة تل الزعتر ؟. كان شيمون بيريز في ذلك الوقت (يوليو ـ اغسطس 1976) وزيرا للدفاع. وقد اعترف مؤخرا أن اسرائيل مولت وسلحت ودربت قوات الكتائب. كما اعترفت الجرائد الاسرائيلية[1] أن خبراء إسرائيليين كانوا في بيروت الشرقية أثناء حصار تل الزعتر الذي استمر 60 يوما، واشتركوا في التخطيط للمذبحة التي تعرض لها الفلسطينيون يومي 13، 14 ـ أغسطس (آب) 1976 عند خروجهم من المخيم. وفقد الفلسطينيون في تل الزعتر 2000 شهيد.

إن المذبحة التي وقعت في مخيمي صبرا وشاتيلا لم تكن الأولى في تاريخ الدولة الصهيونية، ولكن الشعب الفلسطيني لا يزال صامدا يقاوم. وسيظل يردد : «أنا فلسطيني، وأريد أرضي» .

التمهيد للمذبحة

رحيل المقاتلين :

رحلت المجموعة الاخيرة من المقاتلين الفلسطينيين يوم 1 سبتمبر (أيلول 1982). رحل حماة بيروت الذين صمدوا في وجه البرابرة تسعة وسبعين يوما كاملة. رحلوا لكي يجنبوا المدنيين في بيروت المزيد من المعاناة والقصف والدمار، بعد أن يئسوا من وصول النجدة العربية. رحلوا بعد أن تعهدت كل من الحكومة اللبنانية والحكومة الامريكية بتأمين سلامة المقاتلين الراحلين، وسلامة المدنيين الابرياء الباقين في بيروت، وبعد أن وعدت الدول المشاركة

في القوة المتعددة الجنسيات بأن قواتها المنتشرة على خطوط التماس لن ترحل حتى يستتب الأمن والنظام، وتتولى السلطة الشرعية اللبنانية زمام الأمور في بيروت الغربية. رحلوا بعد أن أكد المسئولون في الحكومة الامريكية أن القوات الصهيونية الغازية لن تدخل بيروت الصامدة، رحل المقاتلون وتركوا زوجاتهم وأولادهم وأمهاتهم وآباءهم أمانة في عنق من قدموا الضمانات والوعود.

وفي ذات اليوم الذي رحلت فيه المجموعة الأخيرة من المقاتلين، هاجمت عصابة من المسلحين منزل اسرة فلسطينية في حارة الناعمة في جنوب بيروت، وكانت تحت الاحتلال الاسرائيلي، وقتلت العصابة ثلاثة من أفراد الاسرة ومثلت بجثثهم. ولم يبق من الأسرة سوى فتاة صغيرة لتروى ما حدث.

التحركات الاسرائيلية :

وخلال اليومين التاليين، تقدمت القوات الاسرائيلية واحتلت موقعا جديدا بالقرب من السفارة الكويتية يكشف مخيمي صبرا وشاتيلا بالكامل. واحتج شفيق الوزان رئيس الوزراء اللبناني على تقدم قوات الاحتلال، واعتبره خرقا لاتفاق وقف إطلاق النار المتفق عليه مع فيليب حبيب المبعوث الامريكي. ورد عليه السفير الامريكي في لبنان مؤكدا أن تحرك القوات الاسرائيلية الغرض منه هو إزالة الالغام والمتاريس الموجودة على الطرق الرئيسية المؤدية إلى بيروت[2] وأن القوات الاسرائيلية سوف تتراجع بعد أن تقوم بهذه المهمة.

وتنفيذا لاتفاقية حبيب، بدأ الجيش اللبناني يتسلم مخازن الاسلحة التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية الموجودة في منطقة الجامعة العربية والفكهاني. وانتشرت قوى الأمن الداخلي في دوريات منتظمة داخل بيروت الغربية. وبدأت مظاهر الحياة الطبيعية تعود الى المنطقة. وعاد الناس الى بيوتهم التي هجروها طوال فترة الحرب. وبدأت عمليات الترميم والاصلاح. وفتحت البنوك والادارات الحكومية أبوابها. واستعدت المدارس لاستئناف الدراسة.

وفي يوم 7 سبتمبر (أيلول) ادعت الحكومة الاسرائيلية أن الفي مقاتل فلسطيني يعززهم نحو ألف مقاتل من القوات الوطنية لا يزالون يرابطون في منطقة الجناح في بيروت الغربية، وهددت اسرائيل بتجاوز خطوط وقف اطلاق النار حول بيروت اذا لم يرحل الفلسطينيون، وتنسحب القوات الوطنية من المنطقة[3]. وإثباتا لجدية تهديداتها اقتحم الجنود الاسرائيليون مبنى سفارة جمهورية اليمن الديمقراطية، واحتلوا مبنى السفارة المجرية المهجور. وتفاديا للمواجهة العسكرية أعلنت حركة «أمل» الشيعية اللبنانية أنها مستعدة للتخلي عن مواقعها في الجناح، للقوة المتعددة الجنسيات أو للجيش اللبناني. ونفى المتحدث باسم حركة «أمل» وجود مقاتلين فلسطينيين في المنطقة. وتم تسليم المواقع للجيش اللبناني في اليوم التالي[4]. وقام الجيش اللبناني بإزالة السواتر الترابية والمتاريس حول بيروت الغربية وداخلها.

وقامت قوى الأمن الداخلي بتسلم مواقع حركة الناصريين المستقلين اللبنانية «المرابطون» داخل المدينة. وبدأت عملية جمع الاسلحة من بيروت الغربية، وبالرغم من احتجاج القوات الوطنية، ورفضها التخلي عن السلاح طالما بقيت قوات الاحتلال الاسرائيلية في لبنان. كذلك دخل الجيش اللبناني مخيم برج البراجنة، وأزال حوالي 300 لغم كان سكان المخيم قد وضعوها لحماية أنفسهم من أي هجوم خارجي. وبدأت عملية تجميع الاسلحة المتبقية في المخيم رغم ممانعة السكان وإصرارهم على الاحتفاظ بأسلحتهم الفردية للدفاع عن أنفسهم. ودخل رجال الشرطة اللبنانية مخيم صبرا واتخذوا مواقع لهم على مداخل مخيم شاتيلا، وساد الهدوء في المخيمين، كان السكان يتوقعون دخول الجيش اللبناني، ولكن وجود الموقعين الاسرائيليين بالقرب من المخيمين كان يثير المخاوف ويعرقل عملية انتشار الجيش وسيطرته على الوضع الأمني[5].

رحيل القوة المتعددة الجنسيات :

في يوم 9 سبتمبر (أيلول) أعلنت الولايات المتحدة الامريكية أن مشاة البحرية الامريكية التابعين للقوة المتعددة الجنسيات سوف يرحلون في اليوم التالي، أي بعد 16 يوما فقط من وصولهم، وذلك خلافا لما اتفق عليه من قبل بأن تبقى القوة المتعددة الجنسيات لمدة شهر حتى تستتب الأوضاع الامنية في بيروت. وتعقيبا على اعلان الولايات المتحدة الأمريكية سحب قواتها، صرحت المصادر الدبلوماسية الغربية في بيروت ان القوات الفرنسية والقوات الايطالية لن تستطيع البقاء دون القوات الأمريكية.

ساد بيروت شعور بالقلق نتيجة لهذه التصريحات. وعبرت عدة مصادر لبنانية عن شكها في قدرة الجيش اللبناني وقوات الأمن الداخلي على السيطرة على الوضع الأمني في العاصمة اللبنانية بعد مغادرة القوات المتعددة الجنسية. وطالب زعماء بيروت الغربية بأن تبقى القوات المتعددة الجنسيات حتى ينتهي انتدابها الأصلي وهو يوم 21 سبتمبر (أيلول). واتصل رئيس الوزراء اللبناني شفيق الوزان بالسفير الامريكي وطلب منه تأجيل رحيل مشاة البحرية الامريكية، وقال إن انسحاب القوات المتعددة الجنسيات الآن يناقض روح الخطة التي أعدها حبيب، حيث إن إحدى مهام تلك القوة هي ضمان سلامة المدنيين والفلسطينيين طالما بقيت القوات الاسرائيلية حول بيروت[6].

ولكن الرئيس المنتخب بشير الجميل صرح في نفس اليوم أن القوة المتعددة الجنسيات قد أنهت مهمتها. وأن عليها أن ترحل.[7]

ورحلت القوة الأمريكية يوم الجمعة 10 سبتمبر (أيلول)، وتبعتها القوة الايطالية يوم السبت 11 سبتمبر، ثم القوة الفرنسية يوم 13 سبتمبر. وهكذا رحلت القوة المتعددة

الجنسيات قبل ثمانية أيام من انتهاء المدة التي حددتها خطة حبيب، وهي 21 سبتمبر. رحلوا وبقي الاسرائيليون.

اغتيال بشير الجميل :

في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الثلاثاء 14 سبتمبر، اغتيل الرئيس المنتخب بشير الجميل في معقل الكتائب في بيروت الشرقية، قتل بشير الجميل في مقر الحزب بالاشرفية بالرغم من الاجراءات الأمنية المشددة التي لا يخترقها إلا المقربون والحلفاء. فقد كان بشير مجتمعا بالقيادات العسكرية للحزب عندما انهار المبنى على من فيه، إثر انفجار شحنة ناسفة تم تهريبها الى المبنى، وفجرت لاسلكيا من مكان قريب بعد التأكد من وجود بشير الجميل في الاجتماع.

وقامت عناصر من ميليشيا الكتائب بالبحث بين الانقاض عن الرئيس المنتخب حتى وجدوه بعد مضي ثلث ساعة على الانفجار. وكان مشوه الوجه لا يتحرك[8].

لم تعلن الاذاعة اللبنانية خبر مقتل بشير الجميل الا عند منتصف الليل. ولكن الاستعدادات العسكرية الاسرائيلية كانت قد بدات. فقد أكد أحد ضباط الامن اللبناني وكان موجودا في المطار في ذلك اليوم، أن القوات الاسرائيلية المحتلة فتحت منذ الساعة السادسة مساء الثلاثاء وحتى الساعات الاولى من صباح الأربعاء، جسرا جويا عبر مطار بيروت الدولي، حيث هبطت طائرات «هيركيوليز» العسكرية محملة بالجنود والاسلحة والمعدات[9].

وفي الساعة الخامسة من صباح الاربعاء 15 سبتمبر (أيلول) فرضت قوات الاحتلال الاسرائيلية حظر التجول في كل المدن والقرى في جنوب لبنان[10] لتغطية تحركات الجيش الاسرائيلي والميليشيات الحليفة. وبدأ الهجوم على بيروت الغربية.

اجتياح بيروت الغربية :

تقدمت القوات الاسرائيلية نحو بيروت الغربية بعد أن نحت الجيش جانبا. وكان هجومها على ستة محاور. ثلاثة منها كانت عبر الطرق الرئيسية التي نظفها الجنود الاسرائيليون من الألغام والمتاريس قبل عشرة أيام. أما المحاور الأخرى فكانت من بيروت الشرقية عبر منطقة «المتحف» و «الميناء» حيث احتلت المواقع التي أخلاها مشاة البحرية الامريكية. وقبل انتهاء صباح الاربعاء كانت الدبابات والعربات المدرعة الاسرائيلية قد اتخذت مواقعها على كل الطرق والمداخل الرئيسية.

أرسل رئيس الوزراء اللبناني برقية للرئيس ريغان يحتج فيها على الهجوم الاسرائيلي. ورد علية ريغان قائلا : «إن إسرائيل ترى أن هذا التقدم المحدود ضروري للمحافظة على الامن بعد مقتل بشير الجميل» ورد شفيق الوزان رافضا التبريرات الاسرائيلية[11].

دافعت القوات الوطنية اللبنانية عن بيروت الصامدة دفاعا مستميتا، وخاضت معارك شرسة في عدة مناطق منها «الطريق الجديدة»، «والمزرعة» و«الفاكهاني»، وعلى حدود المخيمات، وفي منطقة «الروشة». وبعد ظهر الاربعاء أحاطت الدبابات الاسرائيلية بمخيمي «صبرا» و «شاتيلا» وبدأت تقصفها بالمدفعية، بينما كان الجنود الاسرائيليون يقومون بتفتيش البيوت المجاورة للمخيمات، ثم اتخذوا مواقع لهم في المباني القريبة والمطلة على المخيم. وعند حلول الظلام قطعت القوات الاسرائيلية التيار الكهربائي عن بيروت الغربية[12].

استمرت المعارك صباح يوم الخميس 16 سبتمبر (أيلول)، ولكن القوات الاسرائيلية تمكنت من السيطرة على بيروت الغربية، وعزلت الأحياء عن بعضها، وفرضت حظر التجول في المدينة وأمرت السكان بعدم مغادرة منازلهم، وأغلقت جميع الطرق المؤدية الى العاصمة، وبدأت عملية اقتحام البيوت وجمع الأسلحة والاعتقالات، واستمر القصف على مخيمي «صبرا» و «شاتيلا»، كما استمر انقطاع التيار الكهربائي عن بيروت الغربية طوال نهار وليل يوم الخميس.

وعند ظهر يوم الخميس كانت القوات الاسرائيلية تحاصر مخيمي «صبرا وشاتيلا» بما يزيد على 150 دبابة، و 100 ناقلة جنود، و 13 عربة مدرعة تحمل مجموعة من المدافع المختلفة و 20 جرافة (بلدوزر)[13].

نقطة التجمع :

بعد ظهر يوم الخميس 16 سبتمبر (أيلول)، شاهد أهالي مدينة «الشويفات»، وهي المدينة المطلة على مطار بيروت الدولي، سيلا متدفقا من الشاحنات وناقلات الجنود المدرعة تتجمع في أحد ممرات المطار بالقرب من الموقع الاسرائيلي في المطار. وذكر الشهود أن الناقلات كانت تحمل جنودا يرتدون زي الميليشيات، وكانت تتدفق من جهتين : من الطريق القادم من جنوب لبنان «معقل سعد حداد»، ومن الطريق القادم من بيروت الشرقية «معقل الكتائب» وقد أكدت مصادر في الجيش اللبناني ما قاله أهالي الشويفات[14].

وعندما اكتملت الحشود، تحركت القوات من المطار الى المخيمات الفلسطينية، مسترشدة بعلامات حديثة الطلاء على جانبي الطريق، على شكل دائرة بداخلها مثلث.

وقد ذكر المراسلون الصحفيون أن هذه العلامات كانت واضحة على طول الطريق من «الدامور» الى الممر الغربي للمطار، وكذلك على طول الطريق من بيروت الشرقية الى الممر نفسه حيث ترابط القوات الاسرائيلية[15].

في الساعة الرابعة، وصلت قافلة القتلة الى حدود المخيمات التي تحاصرها القوات الاسرائيلية. وفتح لها الجنود الاسرائيليون الطريق، وغطوا دخولها بتكثيف القصف على المخيمات، وبدأت المذبحة.

شـهـادات المـوتـى[16]

انتشرت رائحة الموت وأسراب الذباب وأكوام الجثث في كل مكان. في الطرقات والشوارع الفرعية، تحت العربات، وفوق أكوام الأنقاض والقمامة، في مداخل البيوت وداخل غرف النوم.

عند المدخل الجنوبي لمخيم شاتيلا، صف من البيوت الصغيرة انهارت فوق أصحابها نتيجة للقصف المكثف. وعلى مسافة خمسين مترا كومة من الجثث تشابكت أرجلها وأيديها وكأنها تحتمي ببعضها البعض من قسوة الموت، قتلوا جميعا برصاصات في الرأس، أحدهم قطّعت خصيتاه، وجزت أعناق آخرين. كانت عيونهم مفتوحة ومتشنجة لم يقو الموت على إزالة ما فيها من رعب، وخاصة في أعين الأطفال.

وعلى مسافة قريبة جثث خمس نساء وعدد من الأطفال، ملقاة فوق كومة من تراب. بينها امرأة مستلقية على ظهرها، وقد شق الثوب عن صدرها، وقطعت حلمتاها. وإلى جانبها رأس بدون جسد لطفلة مليحة التقاطيع تنظر الى القتلة بغضب. وطفلة اخرى لا يزيد عمرها عن الثالثة، ترى ثوبا أبيض ملطخا بالدم والطين، ورأسها مهشم برصاصة.

وأمام بوابة منزل تهدم نصفه، امرأة شابة سقطت على وجهها وهي تحتضن رضيعها. كانت تسعى الى الفرار من وجه القتلة وطفلها بين يديها. ولكن المجرمين أطلقوا النار عليها في ظهرها، فاخترقت الرصاصة جسدها واستقرت في جسد الرضيع، فسقطت على وجهها وهي تشد الرضيع الى صدرها وتتشبث به.

وبجوار جدار، اصطفت عشرون جثة مربوطة الايدي، لفتية في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة لن يروا مدرستهم ولن يراهم مدرسوهم وزملاؤهم بعد الآن.

وفوق تل من الأنقاض تمدد جسد طفلة في الرابعة من عمرها. كانت تبحث عن أمها بين أحجار بيتهم المهدم. فرآها أحد القتلة، وأفرغ رصاصته في عجزها فسقطت على وجهها ولا يظهر منها إلا عجزها الدامي.

ووسط كوم من القمامة، تمدد جسد عدنان نورى البالغ من العمر 90 عاما وقد اخترقت رصاصة صدغه الأيسر، وبجواره عكازه، وبدا شعره الأبيض من تحت طاقيته الصوفية. وعلى بعد خطوات منه تكوم جسد جاره محمد دياب البالغ من العمر 70 عاما، مقتولا برصاصة في رأسه. وفي حفرة قرب مستشفى عكا عجوز آخر جز القتلة عنقه بسكين.

وأمام جثة مهشمة الرأس، وقفت امرأة تحمل بطاقة هوية ملطخة بالدماء، وتصرخ قائلة : «هذا أخي إنه لبناني وليس فلسطينيا».

وفي أحد الأزقة، طفلتان في الحادية عشرة او الثانية عشرة من عمرهما مستلقيتان على ظهريهما متباعدتا الساقين. قام القتلة باغتصابهما قبل أن يطلقوا الرصاص على رأسيهما.

وأكوام متفرقة من أنقاض المنازل والأحجار، كومتها الجرافات فوق الجثث، وبرزت من وسطها اذرع وأرجل الضحايا. وفي وسط كومة من الانقاض امتدت يد امرأة حاملة بطاقتها اللبنانية.

وفي أحد البيوت، جثة امرأة في مطبخها، قتلت وهي تعد الطعام لأسرتها. وفي بيت ثان اسرة كاملة رشت بالرصاص وهي تتناول طعامها، وبقيت الأطباق نصف ممتلئة، وفي بيت ثالث، في غرفة مظلمة، خمس جثث تلتصق ببعضها لرجل وامرأة وصبيين وطفل رضيع، قتلوا وهم نائمون فوق فراش على الأرض. وفي بيت رابع طفل رضيع يتحرك بين ذراعي أمه المقتولة. وجثة رجل معلقة تترنح من احدى النوافذ. وفي بيت آخر امرأة حامل بقر القتلة بطنها وأخرجوا الجنين من أحشائها. وجثث أخرى، وفي بيوت أخرى قطعت أوصالها، أو هشمت رؤوسها، أو طعنت بالسكاكين، وحولها برك من الدماء المتجمدة التي تؤكد أن عمليات التعذيب قد تمت قبل القتل[17].

تتناثر محافظ النقود حول أكوام الجثث، تؤكد أن القتلة كانوا ضحاياهم[18]، كما تتناثر الاعيرة النارية الفارغة وعلب الذخيرة الفارغة والأوراق الملونة التي تغلف ألواح الشيكولاتة. وكلها مصنوعة في إسرائيل وعليها كتابات بالعبرية[19].

وآثار الجرافات على الطريق الرملية تؤدي إلى أماكن القبور الجماعية. فقد حاول القتلة إخفاء الجثث بنسف المنازل فوقها، أو بردمها بالجرافات في وسط الأنقاض، أو بحملها بواسطة الجرافات الى شاحنات نقلتها الى أماكن مجهولة[20]، أو بدفنها في قبور جماعية، يضم كل منها ما بين 80 الى 200 جثة، وتجمدت فوقها الدماء وأسراب الذباب.

قدر عدد الضحايا في مذبحة صبرا وشاتيلا بما يزيد عن 4000 ضحية[21]. ولم يكن في المخيم جثة واحدة يرتدي صاحبها زيا عسكريا[22]. ولم يعرف بعد عدد الجثث التي التقطتها الجرافات وحملتها الشاحنات إلى أماكن مجهولة خارج المخيم.

شهادات الأحياء[23]

«أم كايد» فلسطينية

«لا أستطيع أن أنسى ما فعله الوحوش بالنساء والأطفال. كدت أفقد عقلي عندما بقروا بطن أم مبارك الحامل في شهرها التاسع بسكين طويلة. وبعثروا أحشاءها وأخرجوا الطفل وجهزوا عليه بالرصاص... قتلوا عفاف بنت محمود ووالدها... قتلوا صلح الطيبي وأخاه

أحمد. قتلوا ماجد خريبي وأحمد حشمي وعبد السلام بركة... قتلوا علي الطوخي وسعيد العابدي وموسى العابدي وإبراهيم العابدي ووالدهم المسكين... قتلوا رجلا اسمه ماضي وأخاه محمد ووالدهما... قتلوا قاسم أبو حرب ووالده وأخويه وليد ومحمود».

أما جارتي التي كانت تسكن قبالتي، فبقيت مع عائلتها لأنها لم تنتبه الى ما كان يحدث، فنحن نعيش منذ مدة وسط دوى القذائف وصوت الرصاص ، وجدناها موثقة اليدين مذبوحة. انتزعوا سروالها، واعتقد أنهم اغتصبوها. أما أفراد عائلتها فلم نجد لهم أثراً.«تعال معي أريك كيف قتلوا أبو علي مقداد... قتلوه وقطعوا يديه بالبلطات.. فصلوا رأسه عن جسده». اضحك يا أبو علي... وراك رجال راح ينتقموا... استفردوا فينا يا ابو علي بعد ما راح الأبطال. كانت أم كايد تندب «ابو علي» المذبوح والى جانبه بركة من الدماء... وعلى بعد مترين كان رأسه منتصبا وقد شوهت ضربات السكين معالم وجهه.

«.....» لبناني رفض ذكر اسمه

«كنت وزوجتي نغادر مخيم «شاتيلا» بعد زيارة لأقربائي هناك. وجاء المسلحون في سيارات عسكرية إسرائيلية. كانوا يرتدون لباسا مدنيا. بدأوا يطلقون النار على كل جسم يتحرك ركض أبناء المخيم في كل اتجاه طالبين النجاة. انهمر علينا الرصاص ونحن نركض. ولكننا لم نتوقف. وصلنا إلى مشارف المخيم من الجهة الشرقية. فوجئنا بمجموعة من الاسرائيليين يقيمون حاجزا على الطريق. تقدموا مني فأبرزت هويتي اللبنانية على الفور. ولكنهم انهالوا علي ضربا بالهراوات. حاولت زوجتي أن تصرخ فلم تستطع . كان الدم ينزف من صدرها. بصقوا عليها، وراحوا يتحدثون بلغة لم أفهم منها شيئا. وفي هذا الوقت صاح أحدهم مشيرا الى عائلة كانت تحاول الخروج من المخيم، وانطلق هو ورفاقه وراء العائلة وهم يطلقون الرصاص.

وكانت هذة فرصتنا، تحاملت على نفسي، وساعدت زوجتي على النهوض، كانت كلما سارت خطوتين تقع على الأرض، تمكنا من الوصول الى الطريق الآخر. ولكن زوجتي سقطت صريعة. وجلست بجوارها أبكي، الى أن جاءني رجل وشدني الى بيته القريب».

«حسين المقداد» لبناني

«وقفت دقائق وسط الشارع، لا أدرى أين أتوجه، أفقت على صراخ امرأة وهي تشدني بقوة من قميصي وتقول : اهرب... إنهم يذبحون الجميع... لماذا تقف كالابله». وحاولت أن أستوضح الأمر لكنها غابت بين الناس»

بدأت أركض. سمعت صوتا يقول : «قف والا قتلناك». حاولت الالتفات، سمعت أصوات طلقات نارية، وظللت أركض. بدأت أشعر بثقل في ساق اليسرى، وأن سائلا ساخنا

ينساب عليها... ولحقت بالنساء والأطفال والشيوخ الهاربين. وبدأوا ينظرون الي ويتهامسون. اقترب مني أحد الرجال وقال : إنك تنزف، يجب أن تذهب الى المستشفى».

بعد ثلاثة أيام، قال لي احد أقربائي : «لقد نسفوا بيتك، ووجدنا زوجتك مربوطة ومذبوحة وسكاكين القتلة عملت في أجساد أطفالك... لقد تمكنا من دفنهم... وبعد أن تشفى يمكنك زيارتهم».

«يسرية عطية العموشي» مصرية

«دخلوا ملجأين بالقرب من مستشفى عكا، وقتلوا جميع العائلات التي كانت بداخلهما ثم قاموا بنسف الملجأين بالديناميت».

«سمعت أصوات الانفجارات عند الساعة السادسة مع حلول الظلام. لا أعرف كيف حملتني ساقاى على الهرب. وعدت يوم السبت، ووجدت رجال الاسعاف ينتشلون الجثث. لم يكن سهلا التعرف على أي من الضحايا».

«.......» لبنانية

كنت في الملجأ مع زوجي وأولادي الخمسة، حيث اختبأ ما يزيد عن سبعين شخصا أثناء القصف الوحشي. ابنة الجيران واسمها «عايدة أبو ردينة»، وتبلغ من العمر تسعة عشر عاما، قالت : «سأخرج لاحضر بطاقات الهوية، أنا فتاة ولن يعترضوني».

وبعد لحظات سمعنا طلقات الرصاص وصرخة تبعها صمت، وصمم والدها العجوز أن يخرج لكي يستطلع الأمر. حاولنا منعه دون جدوى، وخرج ولاقى مصير ابنته عايدة.

حبسنا أنفاسنا ولم يقو إنسان منا على التحرك داخل الملجأ خوفا من اكتشاف أمرنا. لكنهم قدموا. طلبوا منا الخروج من الملجأ. قلنا لهم نحن نسوة ومعنا أطفال. لكنهم أصروا على خروجنا. فرزوا الرجال والأولاد. طلبو منهم الانبطاح على الارض. ورشوهم بالرصاص. صرخنا وركضنا لحماية رجالنا. لكنهم لم يرحمونا، قتلوا امرأتين وأصابوا أكثر من ثلاث نساء بجراح.

بعد ذلك أخذوا ثلاث فتيات وربطوهن بالحبال، واغتصبوهن على مرأى منا.

«منير ...» فلسطيني

(منير فتى فلسطيني في الثالثة عشرة من عمره. استشهد والده وشقية في مذبحة تل الزعتر سنة 1976، وانتقلت العائلة الى مخيم الرشيدية قرب صور. ثم انتقلت مرة ثانية الى مخيم شاتيلا بعد الغزو الاسرائيلي لجنوب لبنان سنة 1978)

«كنت ووالدتي وشقيقي وشقيقاتي الثلاث في المنزل عندما بدأت القذائف تتساقط في كل مكان. فتوجهنا الى ملجأ قريب، تجمعت فيه تسع عائلات أخرى. في الساعة السابعة والنصف جاء المسلحون، وطلبوا منا أن نخرج من الملجأ. كان المخيم مضيئا كأننا في وضح النهار.

كانوا يتحدثون العربية بلهجة أهالي جنوب لبنان. كانوا يرتدون زيا عليه صورة شجرة أرز على الكتف اليمنى. وشارة مستديرة عليها كتابات في أعلى الصدر. ولم أتمكن من قراءة المكتوب على هذه الشارات.

بدأوا في فرز الرجال والنساء والاطفال. ووقف الرجال بمحاذاة الحائط وسرت أنا ضمن مجموعة النساء والاطفال.

وعند رحيلي تمكنت من مشاهدة أفراد الميليشيا وهم يضربون الرجال بالعصي. وكان الرجال يسقطون الواحد تلو الآخر.

«أخذونا الى محطة بنزين قريبة. وتركونا في حراسة بضعة رجال بعد أن قالوا: انتظرونا سنذهب لتناول العشاء».

«وما إن عادوا بعد ساعة حتى أطلقوا النار علينا. وقع الجميع على الأرض. عندئذ قالوا لنا : على الذين أصيبوا أن ينهضوا لننقلهم الى المستشفى. لم أنهض رغم إصابتي وهمست في أذن أمي، وكانت قد سقطت بجواري : لا تنهضي. إنهم كاذبون.

وبالفعل، فقد أطلقوا النار على الجرحى للاجهاز عليهم، وصوبوا عليهم ضوء كشافاتهم للتحقق من أنهم ماتوا جميعا. ووضعت رأسي على الأرض وحبست أنفاسي الى أن رحلوا. وقضيت الليل بجوار أسرتي، من مات منهم ومن كان يحتضر. ولم أشعر بموت أمي.

وفي صباح يوم الجمعة عادوا لكي يضعوا علينا أغطية. ولاحظ أحدهم أنني أرتعش. فأطلق على النار مرتين. لم تصبني الرصاصة الاولى، أما الرصاصة الثانية التي كانت مصوبة الى رأسي، فقد أصابت خدي الأيمن الذي كنت أضع عليه يدي. وأصابت الرصاصة سبابتي ولامست خدي ثم سقطت على الارض. وفرد القاتل الغطاء فوقنا فلم أعد أرى، ولكنني سمعتهم ينادون سكان المخيم طالبين منهم الخروج والتجمع في «المدينة الرياضية».

بعد ذلك رحلوا، ولم أعد أسمع شيئا. واغتنمت الفرصة لكي أنهض، وسرت في أول شارع ضيق، ودخلت أول منزل قابلني. وأردت تغيير ملابسي التي كانت ملوثة بالدماء.

فاجأني اثنان من الميليشيا، وصرخا في وجهي : «أنت لا تزال حيا، سوف نقتلك كما قتلنا الآخرين. اعطنا ما وجدته من ذهب ونقود». قلت لهم إنني لم أسرق شيئا، وكل ما فعلته

في المنزل هو تغيير ملابسي. وتوسلت اليهم أن يتركوني. سألني أحدهم : هل أنت لبناني أم فلسطيني ؟ فأجبته بأنني لبناني. فقال : أذهب لو كنت فلسطينيا لقتلناك.

«سرت نحو مخيم «صبرا» وأنا اعرج، وأمام المسجد وجدت شبانا من المخيم أخذوني الى مستشفى غزة».

في المستشفى غاب منير عن الوعي ولم يستيقظ الا في اليوم التالي، حيث وجد نفسه في مستشفى في وسط بيروت الغربية. فقد نقله الصليب الأحمر الدولي الى هناك.

ويضيف عمه الذي عثر عليه : «منذ يوم السبت الماضي وهو لا ينام، ويسألنا دائما : هل أنتم واثقون من أنهم لن يأتوا إلى هنا».

«علي خليل عفانة» : طفل في الثامنة

«كانت الساعة الحادية عشرة والنصف. سمعنا صوت انفجار كبير وتلاه صوت امرأة تئن. وفجأة اقتحموا منزلنا، واندفعوا كالذئاب يفتشون الغرف. صاحت أمي تستنجد، فأمطروها بالرصاص. مد أبي يده يبحث عن شيء يدافع به عن نفسه، لكن رصاصهم كان أسرع. لم أقوعلى الصراخ... فقد انهالوا عليه طعنا بالسكاكين.

«لا أدري ماذا جرى بعد ذلك. لكني وجدت نفسي في المستشفى كما تراني، ملفوف الرأس والساقين».

«قال لي رفيق في المدرسة، كان في زيارة أمه في المستشفى، إن بيتنا تحول إلى أنقاض... جاءت خالتي أمس لزيارتي، فسألتها عن مصير إخوتي الثلاثة، ولكنها لم تجب... لقد ماتوا جميعا، أنا أعرف ذلك».

وحاول أن يغطي وجهه بيديه، كان يشعر أنه أكبر من دموع ساخنة انسابت بقوة على خديه الصغيرين.

«.....» فلسطيني

شيخ عجوز جاوز الستين من عمره يتكيء على عصاه... وكتف حفيدته السمراء، يسير بين أنقاض المخيم. والأسى مرتسم على تجاعيد وجهه.

«بحثت عن عائلتي داخل البيت بين الأنقاض، ولم أجد أثراً لأحد منهم. البيت تحول الى أطلال. قال لي رجال الاسعاف أن أتوجه الى مسجد المخيم أو المدينة الرياضية، للبحث عن عائلتي بين جثث الضحايا.

في المسجد وجدت بنتي مربوطة اليدين والقدمين، مذبوحة. الى جانبها طفلها الرضيع يشد صدر أمه... هو الآخر طعنوه بالسكين.

على بعد قدمين شاهدت زوجتي المسكينة.. كانت مذبوحة أيضا، يدها اليمنى كانت تمسك بذراع إحدى بناتي، يبدو أنها دافعت عن ابنتها. وبالقرب منهما كانت ترقد ابنتي الصغرى مضرجة بدمائها... تناثرت حولها أوراق ممزقة من القرآن الكريم... وقد تبللت بالدم».

«هؤلاء المساكين... اعتقدوا أن المسجد آمن فالتجأوا إليه».

«جميلة ....» لبنانية من مخيم شاتيلا

«يوم الخميس مساء سمعت الناس يركضون في الشارع وهم يصرخون. تسللت أنا وابنتي «أمل» إلى مستشفى عكا بحيث قضينا الليل. وفي صباح يوم الجمعة عدت الى المخيم لأطمئن على والدي ووالدتي فعثرت عليهما جثة هامدة في الطريق».

حاولت الرجوع الى المستشفى. فأمسك بي أحد المسلحين. أبرزت له بطاقتي اللبنانية، فقادني الى بيت قريب، كان هناك أربعة اخرون، اغتصبوني جميعا».

«ليتهم قتلوني كما قتلوا أبي وأمي وأشقائي لقد قتل المجرومون 23 فردا من عائلتي».

فاطمة على شمس الدين : لبنانية

«كنا في المنزل عندما ما بدأ إطلاق الرصاص. خرجت أبحث عن أختى، فوجدتها في الطريق جثة هامدة وقد اخترق الرصاص ظهرها. عدوت نحو المنزل لاخبر الجيران، وصرخت فيهم أن يهربوا، فقالوا لي : نحن لبنانيون ولن يصيبنا شيء. قضيت الليلة في المستشفى وعندما عدت في الصباح وجدتهم جميعا جثثا هامدة».

«أمينة أحمد حسين» : فلسطينية :

أعرف أن زوجي وابني البالغ من العمر 15 سنة قد قتلا، ولكني لم أعثر على حتى الآن على جثتيهما، سمعت صوت طلقات الرصاص يوم الخميس، خلال الليل كان المسلحون يستخدمون المشاعل لاضاءة طرقات المخيم، وفي يوم الجمعة ادركنا أنهم سيقتلوننا، ففررنا الى مستشفى عكا. اقتحم المسلحون المستشفى، وأخذوا معهم جميع الرجال الفلسطينيين، ومن بينهم ابن وزوجي. كانوا يسألون كل فرد عن جنسيته فإذا كان فلسطينيا أوقفوه بجوار الحائط. وكانوا يضربونهم بأعقاب البنادق، أخذوا النساء الى استاد المدينة الرياضية وأمروهن بعدم العودة الى المخيم.

حاولت العودة الى المخيم يوم السبت، وقتربت مع آخرين من نقطة تفتيش اسرائيلية. وقال لنا أحد الاسرائيليين : «لماذا لم ترحلوا مع المنظمة» إن هذا البلد ليس بلدكم».

«.....» لبنانية ممرضة في مستشفى عكا :

«حاصروا المستشفى يوم الجمعة. حاول حارس المستشفى عم ابو سعيد أن يستوقفهم، لكنهم أمطروه بالرصاص. ظل ينزف دون أن يقوى على مساعدته أو الاقتراب منه أحد. وعبر مكبرات الصوت طلبوا من الجميع مغادرة المستشفى.

قرر عدد من الاطباء أن يخرجوا لمقابلة المسلحين والتفاهم معهم. رفعوا راية بيضاء، وتقدموا نحو مدخل المستشفى. لكن المسلحين قابلوا الراية والرداء الأبيض بقنبلة ألقوها بين أقدام الأطباء. سقط الاطباء على الارض، وكانوا ينزفون بغزارة. أخذت زميلة لي حجرا وألقته على القتلة وهي تصرخ بجنون، واندفعت نحو الاطباء لمساعدتهم، فأمسك بها المجرمون... صفعوها بقوة فسقطت على الارض وقد أغمي عليها، ومزقوا رداءها الأبيض، وجروها على الطريق الى الرصيف الآخر. واغتصبوها... تناوب عليها خمسة وحوش.

واقتحم عدد من المسلحين المستشفى، وطلبوا من الرجال الوقوف جانبا. حاول بعض الاطباء الأجانب مساعدتنا، لكن المسلحين سبوهم بالانجليزية والفرنسية والعبرية، وصفع أحدهم طبيبا نرويجيا وبصق عليه.

ساق المسلحون الرجال الى جهة مجهولة. أما نحن فقد حملونا في سيارة كبيرة توجهت الى سن الفيل. توقفت السيارة أمام مبنى كبير كان يرتفع على ساريته علم الكتائب. تقدم منا أحد الضباط وسأل المسلحين : «ما هذا ؟ جئتم بالنساء ؟ أريد الرجال». ورد عليه المسلحون : «قتلناهم ياسيدي» ابتسم الضابط ابتسامة عريضة، وهنأ القتلة على ما فعلوه وقال لهم أنتم أبطال».

«مصطفى جبرا» : فلسطيني من مخيم شاتيلا :

«كان عددنا يقارب الثلاثين. اعتقلنا القتلة يوم الجمعة مساء. أمرونا أن نصطف عند جدار أحد المنازل. وبدأوا يطلقون علينا النار من أسلحة أوتوماتيكية. ولم نستطيع أن نراها بسبب الظلام.

بعد رحيلهم، سمعت شخصا الى جانبي يئن. كان جريحا سقط فوقه أحد الضحايا، ساعدته على النهوض، وزحفنا الى منزل مهجور حيث مزقنا بعض الاقمشة وربطنا بها جراحنا النازفة. وفي الصباح جاء بعض أهل المخيم ونقلونا الى المستشفى.

«في صدري رصاصة عجز الأطباء عن إخراجها، وفي ذراعي وساق شظايا لرصاص متفجر. حاول الأطباء إخراج الرصاص لكن الشظايا ما تزال موجودة فيها».

«زوجتي وأطفالي الثلاثة مفقودون، لكن والدتي مريم تقول إنهم موتى، ونؤكد أن القتلة قطعوهم بالبلطات».

«وجنات زين عبد اللطيف» مصرية

«كان عدد كبير من المصريين يسكنون هنا في مخيم شاتيلا، وكثيرون منهم مازالوا مفقودين مع عائلاتهم، لكني عثرت على جثث العشرات منهم».

«لجأت إلى مستشفى غزة يوم الجمعة عندما علمت بالمذبحة، ولكنهم حاصرونا داخل المستشفى يوم السبت صباحا، وكان عدد اللاجئين الى المستشفى يزيد عن 1000 شخص، فصلوا الفلسطينيين عن الاجانب، واقتادوهم رجالا ونساءا وأطفالا الى منطقة المدينة الرياضية. هناك وضعوهم في حفرة عميقة، أحدثتها صواريخ الطائرات خلال القصف الوحشي، طلبوا منهم الانبطاح داخل الحفرة، وصبت البنادق الرشاشة حممها داخل الحفرة... فيما راحت ثلاث جرافات اسرائيلية تدفن الاحياء والأموات... الكثير من الرجال حاول الافلات من الجحيم دون جدوى فقد كان القتلة يطلقون النار عليهم.»

«رأيت ذلك بعيني. فقد لحقت بهم، واختبأت خلف حائط قديم عملت أحداث القصف فيه بعض الثقوب، رأيت من خلالها ما جرى دقيقة بدقيقة».

«كاد أحد المسلحين أن يكتشف أمري، فقد صرخت دون إرادة عندما مرت الجرافات على أجساد الاطفال والرجال والنساء».

«بقيت هناك فترة لا أدري مداها، مختبئة بين أكياس من القش، كنت في شبه غيبوبة لا أعني شيئا... أفقت على صراخ النسوة وهن يبحثن عن اقربائهن القتلى. أخبرت الصحفيين ورجال الاسعاف المدني، لم يصدقوني، ولكنهم عندما اكتشفوا الحقيقة طلبوا مني مغادرة المنطقة والاختباء».

ساعات الرعب في المستشفيات

في الساعات الاولى من مساء الخميس 16 سبتمبر (أيلول)، أشتد القصف على المخيمات وانتشر القتلة في الطرقات يطلقون النار عشوائيا على كل شيء يتحرك بما في ذلك القطط والكلاب والخيول. وأدرك سكان المخيمات أن المهاجمين هم عصابات من القتلة هدفها إبادتهم جميعا. حاول عدد كبير من الأهالي الفرار الى اماكن أكثر أمانا. فلجأت مجموعات

كبيرة منهم الى المستشفيات (مستشفى عكا ومستشفى غزة) والمساجد والملاجيء، أما بقية سكان المخيمات الذين كانوا في بيوتهم وقت الهجوم، وكان أغلبهم عائلات ذات أطفال صغار، فلم يعرفوا هوية المهاجمين، واعتقدوا أن الجيش اللبناني هو الذي دخل المخيم لجمع الاسلحة والتأكد من بطاقات الاقامة أو الهويات اللبنانية، ولذلك فقد احتموا في منازلهم، واستعدوا بالأوراق الرسمية التي تثبت شرعية وجودهم. وخاصة أنه لم يكن لديهم اسلحة.

هاجم القتلة المنازل، وأطلقوا النار على كل من استنجد أو حاول الدفاع عن نفسه، وذبحوا الباقين، كما هاجموا الملاجيء وأمروا كل من فيها بالخروج، ورصوهم بجوار الحيطان، وأجهزوا عليهم ببنادقهم، أما الملاجيء التي رفض من فيها الخروج، فقد نسفوها على كل من فيها بالديناميت.

طوال ليلة الخميس قضى اللاجئون في المستشفيات ساعات رهيبة وهم يتبادلون ما رأوه من رعب وأهوال.

مستشفى عكا

يقع مستشفى عكا على الحدود الجنوبية لمخيم شاتيلا، على بعد 200 متر تقريبا من المبنى الذي اتخذه الاسرائيليون مركزا لهم. وقد ذكر أحد أطباء المستشفى أنه ابتداء من الساعة السادسة من مساء الخميس بدأ سيل من الجرحى يتدفقون على المستشفى، وأن أحد الجرحى وهو طفل صغير أخبره أن الشارع الرئيسي في مخيم «شاتيلا» يمتليء بالجثث، وأضاف الطبيب أنه في ذلك الوقت كان ملجأ المستشفى مزدحما بما يزيد عن 500 شخص من سكان المخيم الهاربين من القصف والرصاص، وأن حالة الرعب السائدة كانت تتزايد بقدوم لاجئين جدد، ووصفهم لما رأوه في الطريق.

في الصباح الباكر كانت حالة الرعب في المستشفى قد وصلت الى درجة لا تطاق، وخاصة لقرب المستشفى الشديد من مواقع الاسرائيليين وحواجز المسلحين. لذلك فقد فر بعض المدنيين متوغلين في المخيم شمالا الى أماكن أكثر أمانا.

وقد ذكرت إحدى الممرضات في مستشفى عكا أن الرعب كان شاملا لدرجة أن «مخيم شاتيلا» قد خلا تقريبا من السكان أثناء الساعات الأولى من صباح الجمعة. فالطوابق العليا للمستشفى تطل على المخيم، وقد تعود العاملون في المستشفى أن يروا ويسمعوا حركة وأصوات المخيم كل يوم. أما في هذا اليوم فقد كانت الطرقات صامتة، لم يكن في الطريق شخص واحد. ولا أثر للحياة في المساكن المواجهة للمخيم.

حاول عدد من الأهالي الفرار الى خارج المخيم، ولكن الاسرائيليين المحاصرين للمخيم والمسلحين الذين أقاموا الحواجز على كل مداخل المخيم، ردوهم على أعقابهم تحت تهديد

السلاح. فقد صور فريق من التليفزيون الدنماركي، كان موجودا بالصدفة أمام مدخل شاتيلا في الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم الجمعة، عددا من المسلحين يمنعون سيارة شحن ممتلئة بالنساء والأطفال من الخروج من المخيم. وكان الاطفال يصرخون، والنساء يبكين ويتوسلن وأيديهن على وجوههن. بينما وقفت الدبابات الاسرائيلية على مسافة قريبة من المسلحين.

وعلى نفس الشريط صور الفريق رجلا عجوزا يلبس طاقية بيضاء وهو يرتد الى المخيم مبتعدا عن المسلحين الذين وقفوا مترصدين وسلاحهم مصوب نحوه. وقد تعرف المراسلون الصحفيون على الرجل العجوز هو عدنان[25] فقد شاهدوا جثته ممددة فى أحد طرقات المخيم عندما سمح لهم بالدخول يوم السبت صباحا.

كذلك سجل الفريق التليفزيوني مشهدا لسيارة من سيارات الجيب التابعة للجيش اللبناني تحمل دورية من الجنود تقترب من مدخل المخيم، ولكن أحد المسلحين أطلق عليهم النار، وأمرهم بالنزول من السيارة، وساقهم أمامه الى داخل المخيم وهم رافعون أيديهم، وبقيت سيارتهم ورقمها 58293 مهجورة في الطريق.

هاجم المسلحون مستشفى عكا ثلاث مرات يوم الجمعة وقد علق احد الأطباء الأجانب في المستشفى على ذلك بقوله ان المجموعات الثلاث كانت مجموعات مختلفة ترتدى زيا مختلفا، وإنه كان واضحا أنه لا يوجد تنسيق بين المجموعات الثلاث.

حوصر المستشفى في الساعة 11،20 من صباح يوم الجمعة وأمر المسلحون كل من في المستشفى بالخروج، حاول أربعة من الأطباء التفاهم مع المهاجمين. فخرجوا بردائهم الأبيض وهم يرفعون راية بيضاء، ولكن القتلة القوا عليهم قنبلة يدوية، قتلت ثلاثة منهم وجرحت الرابع. واقتحم القتلة المستشفى وطلبوا من العاملين الاجانب أن يتوجهوا الى مدخل المخيم لاستجوابهم، وعلى باب المخيم تحقق الجنود الاسرائيليون من أوراقهم الرسمية. وكان هناك عدد من الدبلوماسيين النرويجيين الذين تدخلوا لاخلاء سراح النرويجيين العاملين في المستشفى أما الباقون فقد سمح لهم بالعودة الى المستشفى.

وعندما عاد العاملون الاجانب الى المستشفى اكتشفوا اختفاء جميع الذين كانوا في الملجأ وعددا من الجرحى وطبيبين فلسطينيين وممرضتين لبنانيتين. وقد عادت واحدة من الممرضات بعد ذلك، وروت كيف اغتصب عشرة من المسلحين زميلتها ثم أطلقوا عليها النار. كما عثر العاملون في المستشفى على جثة إحدى الممرضات الفلبينيات مقتولة وملقاة بجوار المستشفى.

في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة هوجم المستشفى مرة أخرى. وقام المجرمون بإطلاق النار على اثنين من الاطباء الفلسطينيين وأحد المدنيين الجرحى، وهاجموا الجرحى الآخرين وانتزعوهم من أسرتهم وجروهم في ممرات المستشفى.

وفي الساعة 3،55 جاءت مجموعة أخرى من المسلحين وسألوا عن الممرضات، فرد عليهم أحد الاطباء الاجانب بأن الممرضات قد هربن، فطلبوا تفتيش المستشفى. وعندما وجدوا صورة ياسر عرفات في غرفة الطبيب اتهموه بأنه إرهابي، وهددوه بالقتل، وأمروه باحضار الممرضات قبل الساعة السابعة مساء.

ولحسن حظ الطبيب ومن معه، أن فريقا من الصليب الاحمر الدولي تمكن من الوصول الى المستشفى في الساعة الخامسة مساء. وعند وصولهم، شاهدوا جثث الاطباء الثلاثة بالقرب من الباب وبجوارهم الراية البيضاء، وداخل المستشفى كانت هناك أربع جثث أخرى، وقام فريق الصليب الأحمر الدولي بإخلاء المستشفى ونقل الباقين من الاطباء والجرحى الى خارج المخيم.

وقد ذكر المراسلون الصحفيون الذين تمكنوا من الاقتراب من مستشفى عكا يوم الجمعة مساء، أن مبنى المستشفى قد احترق.

مستشفى غـــزة[26]

يقع مستشفى غزة في أقصى شمال المخيم، وقد وصل اليه القتلة صباح السبت 18 سبتمبر (أيلول) وكانوا في عجلة من أمرهم، فقد انقضت المهلة التي منحها لهم رؤساؤهم من ضباط الجيش الاسرائيلي حتى يتموا مهمتهم.

ذكرت احدى الممرضات الأجنبيات أن عدد المدنيين الذين احتموا في المستشفى، بعد أن دمرت منازلهم في مخيمي صبرا وشاتيلا، كان يزيد على 1000 شخص، هذا بالاضافة الى اللاجئين الذين لم يجدوا مكانا لهم في المستشفى فاحتموا في المباني المجاورة.

في الساعة السادسة من صباح يوم السبت أتى المسلحون بمكبرات الصوت، وحاصروا المستشفى والمناطق المحيطة، وأعلنوا أنهم جنود اسرائيليون، وأمروا الجميع أن يخرجوا من مخابئهم وأكدوا أنه ليس هناك مبرر للخوف.

وقد ذكرت الممرضة الاجنبية أن المسلحين كانوا يلبسون الخوذات الاسرائيلية، ويحملون البنادق الاسرائيلية وأنهم اقتحموا المستشفى، واعتقلوا ما يقرب من ألف مدني، و 82 من الجرحى، و 55 طبيبا وممرضا وممرضة، وأمروهم بالخروج من المستشفى، وعندما احتج الفريق الطبي بأنه لابد من بقاء بعض العاملين بجوار الجرحى والمرضى، سمح المهاجمون ببقاء اثنين من العاملين.

اقتاد المسلحون أسراهم تحت تهديد السلاح الى الشارع الرئيسي في «مخيم شاتيلا» وهناك تم توزيعهم الى ثلاث مجموعات.

المجموعة الأولى كانت من الأطباء والممرضات الاجانب، طلب منهم المسلحون أن يخلعوا ارديتهم البيضاء، واقتادوهم عبر الشارع الرئيسي للمخيم تحت تهديد السلاح وأخذوا يسبونهم ويعنفونهم لتعاملهم مع الفلسطينيين. وشك المسلحون أثناء الطريق في طبيبين من المجموعة، وعندما اكتشفوا أن واحدا منهما فلسطيني والآخر سوري، أطلقوا النار عليهما في الطريق، بعدما طلبوا من الأجانب أن يلتفتوا الى الجهة الأخرى.

اقتاد المسلحون الاطباء الى مبنى من مباني الامم المتحدة خارج المخيم لاستجوابهم. وهناك قام آخرون بمراجعة أوراقهم الرسمية من جنسياتهم وسألوهم : «هل أنتم مسيحيون ؟ أنكم قذرون لأنهم تعملون مع الفلسطينيين».

بعد ذلك اقتاد المسلحون الاطباء الى مقر القيادة الاسرائيلية على مدخل المخيم.

وذكر الأطباء أن الجنود الاسرائيليين احتجزوهم فترة من الوقت قبل أن يسمحوا لهم بالرجوع الى المستشفى.

المجموعة الثانية كانت من المواطنين اللبنانيين وقد اقتادهم المسلحون حيث تم التحقيق معهم. وكان المحققون يشطبون وجوه الأسرى بالسكاكين كلما أجابوا باجابات* لا تعجبهم. وقد تم الافراج عن بعض اللبنانيين، أما الباقون فق نقلوا الى معسكرات الاعتقال في الجنوب.

المجموعة الثالثة كانت من الفلسطينيين. وقد اقتادهم القتلة الى مكان ما خارج المخيم وعبر الخطوط الاسرائيلية. ولم يعرف أحد مصيرهم. ويعتقد المراسلون الصحفيون أنهم قتلوا ودفنوا في مقبرة جماعية خارج المخيم.

عندما وصل فريق الصليب الاحمر الدولي الى مستشفى غزة لنقل العاملين والنزلاء، لم يكن في المستشفى من الـ 1137 شخصا الذين كانوا موجودين في الصباح سوى 25 جريحا منعتهم اصاباتهم البالغة من الحركة، و 15 طبيبا أجنبيا.

المجرمون ... وأكاذيبهم

تلقى العالم أنباء المذبحة الرهيبة بعد ظهر يوم السبت 18 سبتمبر (أيلول)، وكانت ردود فعل الجرائد والمجلات العالمية هي الاستنكار والادانة والتنديد ببشاعة الجريمة ووحشية المجرمين.

الأكاذيـب

أعرب الرئيس ريجان عن غضبه واشمئزازه، والرعب الذي أصابه عندما سمع بالمذبحة. واتهم اسرائيل بأنها خرقت الاتفاقيات التي عقدتها مع حبيب. وصرح بأن اسرائيل تعهدت بعدم دخول بيروت الغربية بعد خروج الفلسطينيين

وأتى هذا التصريح بعد يوم حافل، شارك فيه ريجان في مهرجان انتخابي في ولاية نيوجرسي، حيث برر الاجتياح الاسرائيلي لبيروت الغربية، بقوله إن الجيش الاسرائيلي كان يتعرض لهجمات المقاتلين اللبنانيين التابعين للاحزاب اليسارية، وهو تبرير لم تدعه اسرائيل نفسها[27].

ورد السفير الاسرائيلي في واشنطن على تصريح الرئيس ريجان قائلا إن إسرائيل لم تتعهد بشيء من ذلك[28].

أما في إسرائيل فقد صرحت وزارة الخارجية في ساعة متأخرة من الليل، بعد صمت دام طوال النهار بأن «اسرائيل تدين المذبحة، وأن قوات الدفاع الاسرائيلية قد فعلت كل ما في وسعها لايقاف المذبحة بمجرد علمها بها[29]

وادعى بيجين أنه لم يسمع عن المذبحة إلا من نشرة الاذاعة البريطانية يوم السبت مساء.

وفي مجلس الأمن قال يهودا بلوم ممثل اسرائيل في الأمم المتحدة، إن الجيش الاسرائيلي كان متمركزا غربي المخيمات الفلسطينية، تاركا الجانب الشرقي مفتوحا أمام الجيش اللبناني الذي لم يتول السيطرة على المنطقة كما كان متوقعا[30].

وحمل رئيس الاركان الاسرائيلي رفائيل ايتان الولايات المتحدة الامريكية مسئولية المذبحة، قائلا إنها عرقلت الأتصالات المباشرة بين الجيش اللبناني والجيش الاسرائيلي. لذلك لم يتسلم الجيش اللبناني المنطقة.

بينما حملت وزارة الخارجية الاسرائيلية المسئولية للجيش اللبناني، لأنه رفض تسلم المخيمات بحجة أنه ليس مستعدا أو منظما بدرجة كافية. وأدعت أن ما حدث كان نتيجة لرفض الجيش اللبناني.

وردت الولايات المتحدة على ذلك بقولها إن الجيش اللبناني كان مستعدا للسيطرة على المخيمات لولا الاجتياح الاسرائيلي لبيروت الغربية يوم الثلاثاء 13 سبتمبر (أيلول)[31].

وأدان متحدث باسم ميليشيا الكتائب المذبحة، ونفي اشتراك جنود الكتائب فيها.

وشجب الرائد سعد حداد، الحليف المخلص لاسرائيل، المذبحة، وقال إنها عمل وحشي. ونفي أن تكون قواته التي تسلحها وتدربها وتنفق عليها إسرائيل، قد اشتركت في قتل النساء والأطفال. وقال إن قواته لديها أوامر مشددة بعدم تجاوز مدينة صيدا شمالا.

وهكذا اكتملت حلقة الاكاذيب التي أحكمها شركاء الجريمة، ولكن أكاذيبهم لم تدم طويلا فقد بدأت تنهار الواحدة بعد الأخرى، وبدأ المجرمون يتراجعون في أقوالهم، كلما انكشفت كذبة جديدة.

انفضاح الاكاذيب

ذكرت جريدة الهيرالدييون أن ايريل شارون تحدث يوم الجمعة 9/20 عن التخلص من 2000 «إرهابي» لا يزالون في بيروت بعد خروج منظمة التحرير الفلسطينية. وأضافت الجريدة أن أحد الضباط الاسرائيليين قد صرح من موقعه على حدود مخيم شاتيلا أنه يعمل على أساسين رئيسيين : أولهما أن المنطقة يجب أن تنظف، وثانيهما أن الجيش الاسرائيلي يجب ألا يتحمل مزيدا من الضحايا. ونسي الاسرائيليون أنهم دخلوا الغربية بحجة المحافظة على الأمن ومنع وقوع المذابح[32].

وذكرت إحدى الصحف الامريكية أن إسرائيل نقلت مجموعة من قوات سعد حداد من جنوب لبنان الى بيروت مساء الخميس[33].

ونشرت صحيفة الجارديان على لسان المراقبين الدوليين في بيروت أنهم شاهدوا ألفا من جنود المليشيات يرتدون زى الكتائب بالقرب من المخيمات قبل وبعد المذبحة. ويدل موقعهم على أنهم أتوا عبر الخطوط الاسرائيلية في المطار[34].

وقد علقت الجريدة على ذلك بقولها أن من شاهد مواقع الاسرائيليين يوم الجمعة 9/17 على بعد أقل من ربع ميل من المخيم، لا يستطيع أن يصدق أنهم لم يسمعوا ولم يروا المذبحة، فقد أقام الاسرائيليون مركزين للقيادة على سطح بنايتين عاليتين تكشفان المخيم تماما. ولابد أنهم شاهدوا ما قام به المسلحون، وخاصة أنهم نفذوا جزءا كبيرا من مهمتهم في وضح النهار، ولابد أنهم سمعوا أيضا صرخات المحتضرين.

وعلقت جريدة التايمز على النفي الاسرائيلي قائلة إن الاسرائيليين كانوا يسيطرون تماما على المناطق المحيطة بالمخيمين. وأنهم دخلوا بيروت الغربية بحجة أن وجود قواتهم يحول دون وقوع أي قتال أو سفك دماء في بيروت الغربية. ومن الواضح أن مرتكبي الجريمة لم يكونوا عددا قليلا من المسلحين المعزولين. فنطاق العملية واستخدام الجرافات يوحى بدرجة من التنظيم ووجود وحدة أو وحدات. ولا يمكن تصديق أن مجموعة بهذا الحجم قد تسللت الى المخيمين دون علم القوات الاسرائيلية المحيطة بالمنطقة[35].

وأذاع التليفزيون الاسرائيلي شريطا إخباريا يظهر قوة عسكرية مشتركة من عناصر الكتائب وجيش سعد حداد تقدر بلوائين (1800 جندي) تدخل المخيمات تحت سمع القوات الاسرائيلية وبصرها.

وسأل الصحفيون إيتان رئيس الاركان الاسرائيلي، لماذا سمح جيش الدفاع الاسرائيلي لجنود الكتائب بدخول المخيم ؟ فقال : نحن لانصدر أوامر للكتائب، ولسنا مسؤولين عنهم، فهم لبنانيون ولهم حق التصرف في لبنان كما يعجبهم[36].

وفي اليوم التالي نشرت جريدة الديلي تلجراف نص بيان أذيع من محطة جيش الدفاع الاسرائيلي في الدقيقة الثانية عشرة بعد منتصف ليلة الخميس/ الجمعة. وسجله قسم الرصد في هيئة الأذاعة البريطانية. يقول البيان «لن يقوم جيش الدفاع الاسرائيلي الليلة بعمليات «تنظيف» لمخيمي صبرا وشاتيلا، فقد تقرر أن يعهد لقوات الكتائب القيام بعملية التنظيف. «وأضاف المذيع» أن الجيش الاسرائيلي الآن يحيط ببيروت الغربية تماما، وقواته تسيطر على مفارق الطرق والطرق الرئيسية. وبقيت عملية «تنظيف» البيوت الموجودة في المنطقة، وكما ذكرنا فقد عهد لقوات الكتائب القيام بهذه المهمة».

وقد علقت الجريدة على هذا البيان قائلة : «ويتضح من ذلك أن الجيش الاسرائيلي قد أمر الكتائب أن تقوم بعملية «تنظيف» وليس اعتقال القوات الفلسطينية الباقية. كما يتضح أيضا أن المنطقة المذكورة منطقة صغيرة، وأن الاسرائيليين كانوا يسيطرون على الطرقات سيطرة كاملة. ومن الصعب أن نصدق أنهم لم يعرفوا أن عملية التنظيف قد تحولت الى مذبحة رهيبة، كما أن محتويات البيان المذاع تتعارض مع ماقاله إيتان يوم الاحد «إننا لا نصدر أوامر للكتائب. ولسنا مسئولين عنهم»[37].

كذلك نقلت الجريدة ذاتها عن مراسل جريدة يد يعوت احرونوت الاسرائيلية، أن القرار بإدخال قوات الكتائب الى المخيمات الفلسطينية وافق عليه مجلس الوزراء الاسرائيلي بالاجماع في جلسة خاصة عقدت ليلة الخميس 1982/9/16.

وفي يوم الاربعاء 9/22 اعترف شارون أنه وافق على دخول الكتائب الى المخيمات لكي يعتقلوا الارهابيين الباقين دون التعرض للنساء والأطفال، وبرر ذلك بأنه كان يريد الحيلولة دون وقوع المزيد من الضحايا بين قوات الدفاع الاسرائيلية. واعترف أن الجيش الاسرائيلي اشترك في تخطيط العملية وتقديم المساعدات. وقال إن اجتماعات تنسيق تمت بين ضباط اسرائيليين وضباط كتائبيين. وأضاف أن القوات الاسرائيلية أطلقت قذائف مضيئة لمساعدة الكتائب على التقدم داخل المخيمات[38].

واشتكى شارون من رفض الكتائب تقديم تقرير عما حدث.

وفي اليوم التالي أكد المراسل العسكري لجريدة الجرو سالم بوست الاسرائيلية أنه رأى بعينه برقية مرسلة الساعة 11 مساء الخميس 9/16 من مقر قوات الكتائب في شاتيلا الى مقر القيادة الاسرائيلية في بيروت الشرقية. وتقول البرقية : حتى الآن قتلنا 200 مدني وإرهابي، وأضاف المراسل أن البرقية تم توزيعها في الحال على 20 ضابطا من المسئولين في مقر قيادة الجيش الاسرائيلي، كذلك أرسلت نسخة منها الى تل أبيب[39].

ونشرت الجرائد الاجنبية ما كتبه «زئيف شيف» مراسل جريدة ها ارتز الاسرائيلية بأنه سمع بالمذبحة يوم الجمعة صباحا، وأنه قام بتوصيل الاخبار الى زيبوري وزير المواصلات الاسرائيلي الذي قام بدوره بتوصيلها الى شامير وزير الخارجية الاسرائيلية.

ونفي وزير الخارجية الاسرائيلي وصول أية معلومات عن المذبحة يوم الجمعة صباحا. ثم تراجع بعد ذلك وقال إن المعلومات وصلت اليه، ولكنه عندما تحقق منها وجد أنها إشاعات كاذبة[40].

وفي مقابلة صحفية مع الرائد سعد حداد، صرح أنه كان في المطار يوم الجمعة 9/18 حيث نقلته طائرة هليكوبتر اسرائيلية، وأنه قدم للعزاء في بشير الجميل.

وأضاف سعد حداد أنه ربما كان بعض رجاله يعملون مع القوات الاخرى في بيروت، وأكد أن قواته لا تفعل شيئا دون تنسيق مع الجيش الاسرائيلي،وأ ن كل خطوة تقوم بها يجب أن يتم تنسيقها مع القوات الاسرائيلية أولا[41].

وذكر الدكتور بول موريس الطبيب في مستشفى غزة، في شهادته أمام لجنة التحقيق الاسرائيلية أن عدة جنود اسرائيليين أكدوا له اشتراك رجال سعد حداد في المذبحة[42].

ونسبت صحيفتا الواشنطون بوست ونيويورك تايمز الى أمين الجميل الذي خلف شقيقه بشير الجميل في رئاسة الجمهورية، أنه قال لدبلوماسي أمريكي خلال عطلة الاسبوع أن بعض قوات الكتائب كانت في مخيم شاتيلا وقت المذبحة[43].

وادعى ايريل شارون أمام لجنة التحقيق أن الجنود الاسرائيليين لم يروا شيئا، أنهم فقط سمعوا الطلقات النارية في المخيم، واعتقدوا أنها صادرة من المقاومة المسلحة في المخيم، وأنهم تدخلوا لايقاف القتال فور عملهم بالذبحة. وقدم الى لجنة التحقيق الصور التي تثبت أن الجنود الاسرائيليين لا يمكنهم أن يروا شيئا من مواقعهم المطلة على المخيمات[44]. ولكن المراسلين الصحفيين جميعا أثبتوا كذب كلامه، فقد ذكر مراسل الجرو سالم بوست الذي زار المخيم بعد المذبحة مباشرة، أن وضع الجثث داخل البيوت وأمام الجدران، والثقوب التي احدثها الرصاص في الجدران وراء الضحايا، تؤكد أن الضحايا لم يموتوا وهم يقاتلون[45].

وأقر أحد الضباط الاسرائيليين أن جنوده الذين كانوا يراقبون المخيم شاهدوا عمليات القتل، والجثث الملقاة في الازقة يوم الجمعة صباحا. ولكنه ادعى. أنه اتصل في الحال بمسئول الكتائب في المنطقة، وطلب منه إيقاف القتال في صبرا وشاتيلا، وأن الجيش الاسرائيلي منع دخول قوات كتائب جديدة الى المخيمات يوم الجمعة مساء.

ولكن مراسل الجرو سالم بوست، والمراسل العسكري للتليفزيون الاسرائيلي، أكدا أنه في يوم الجمعة كانت قوة من جنود الكتائب موجودة ومجهزة بالدبابات، وحاملات الجنود المدرعة، ومدافع المورتر في ممر المطار. وأن جزءا من هذه القوة دخل المخيمات يوم الجمعة مساء.

وقال مراسل التليفزيون إن الضباط الاسرائيليين لم يطلبوا من قوات الكتائب وقف اطلاق النار في المخيم إلا يوم السبت صباحا. وأضاف أن رئيس قوات الكتائب رد قائلا إنه قد فقد السيطرة على جنوده[46].

وروى المراسلون الصحفيون، الذين كانوا موجودين على مدخل المخيم طوال يوم الجمعة 9/17، عدة روايات تثبت علم القوات الاسرائيلية بالمذبحة وتورطها فيها.

فقد ذكر مراسل مجلة نيوزويك أنه سأل أحد المسلحين عما يجري، لدى سماعه الطلقات النارية داخل المخيم، فكان جوابه : إننا نذبحهم[47]

وذكر مراسل صحفي آخر أنه رأى نساء المخيم يستعطفن أحد الجنود الاسرائيليين أن يتدخل لمنع المسلحين من ذبح أطفالهم وأزواجهم، وكان رد الضابط الاسرائيلي أنه لا يحق له التدخل في الشؤون الداخلية اللبنانية[48]

وذكر عدة مراسلين صحفيين أن الجنود الاسرائيليين منعوهم من دخول المخيم يوم الجمعة بحجة «ان القتال لايزال مستمرا». وقال مراسل مجلة تايم إنه كان يسمع رشات البنادق وانفجار القنابل وكان واضحا أن الطلقات النارية تصدر من جانب واحد بينما كان الجنود الاسرائيليون يجلسون باسترخاء أمام مدخل المخيم، ولا يبدو عليهم القلق[49].

وذكرت صحيفة نيويورك تايمز أن القوات الاسرائيلية تولت مهمة تزويد الميليشيات بالماء والطعام عندما كانوا يخرجون من المخيم للراحة. كما أطلق الجيش الاسرائيلي القذائف المضيئة لتوفير الأنارة للمسلحين في المخيمات. وكان معدل القذائف المطلقة قذيفتين كل دقيقة [50].

وأضاف المراسلون أيضا أن الجرافات والشاحنات كانت تحمل جثث الضحايا لدفنهاخارج المخيم تحت سمع وبصر القوات الاسرائيلية[51]

اعترافـــات

وأمام هذا السيل من الادلة، اعترف شارون وزير الدفاع الاسرائيلي بأن مجلس الوزراء الاسرائيلي وافق على اشتراك قوات الكتائب في الحرب بجانب القوات الاسرائيلية قبل ثلاثة أشهر، وفي 15 يونيو (حزيران) 1982، وأن مجلس الوزراء أكد القرار في الاجتماعات التالية، كما اعترف شارون بأنه ناقش القرار مع موريس اريبر المبعوث الامريكي[52]. وأضاف شارون أنه في يوم 1982/9/15 اتفق هو ورفائيل ايتان رئيس الاركان الاسرائيلي على ادخال قوات الكتائب للمخيمات لتنظيفها من 2000 مقاتل فلسطيني، وأن مجلس الوزراء الاسرائيلي صادق على القرار في اجتماعه الذي تم مساء 1982/9/16 [53].

واعترف أمير دروري قائد القوات الاسرائيلية في لبنان بأن شارون وزير الدفاع اجتمع مع قادة قوات الكتائب صباح الأربعاء 1982/9/15، حيث تم الاتفاق على دخول الكتائب الى المخيمات. وأضاف أنه تم الاتفاق في اجتماعات لاحقة بين أموس بارون قائد القوات الاسرائيلية في بيروت وبين قادة الكتائب على أن تتولى القوات الاسرائيلية إنارة المخيم وتغطية

العمليات بالقصف المركز. كما اتفق أيضا على تعيين ضابط اتصال اسرائيلي (من المخابرات الاسرائيلية) في مقر قيادة الكتائب، وضابط اتصال كتائبي في مقر قيادة أموس بارون الذي يطل على المخيمات.

كذلك اعترف دروري بأنه اشترك في اجتماع آخر في الساعة 3،30 من بعد ظهر يوم الجمعة 9/17، بحضور رئيس الأركان رفائيل إيتان، وبعض المسئولين في الكتائب، وقائد عملية المخيمات. وذكر دروري أن إيتان طلب من قائد العملية وقف القتال في المخيمات، ولكنه منحه مهلة حتى صباح السبت لمغادرة المخيمات «لأنه لم يكن هناك مبرر للاستعجال». وأضاف دروري أن المسئولين في الكتائب ذكروا في الاجتماع أن الامريكيين أيضا طلبوا منهم مغادرة المخيمات(54).

واعترف جرابونسكى، قائد إحدى الدبابات التي كانت تحاصر المخيمات أنه ما بين الساعة 8 و 9 من صباح الجمعة 9/17، رأى هو وطاقم دبابته المسلحين وهم يقتلون خمسة نساء وأطفال. وأنه روى الحادثة لقائد فرقته الذي رد قائلا : «نحن نعرف ذلك» وأمرهم بعدم التدخل.

وأضاف جرابونسكى أنه عند ظهر يوم الجمعة اقترب أحد المسلحين من الدبابة فسأله أفراد الطاقم لماذا تقتلون المدنيين فرد المسلح. «إن الحوامل يلدن إرهابيين. وعندما يكبر الاطفال يصبحون إرهابيين».(55)

واعترف آموس يارون قائد القوات الاسرائيلية في بيروت الغربية بأنه تسلم برقية من قائد العمليات في المخيم يوم الخميس الساعة 11 مساء تقول «حتى الآن تم قتل 300 مدنى وإرهابي» وأضاف أنه سمح بدخول قوات جديدة الى المخيمين وأمداد المسلحين بأسلحة وذخيرة إضافية، وكان ذلك بعد الاجتماع الذي تم في الساعة 3،30 من بعد ظهر يوم الجمعة 9/17 وحضره إيتان ودرورى، وهنأ فيه إيتان قادة الكتائب على أدائهم الممتاز، وسمح لهم بالاستمرار في مهمتهم حتى صباح السبت. كما وافق إيتان على اعطائهم جرافة «لتدمير المباني غير الشرعية في المخيمات»(56). وهكذا استمرت المذبحة 30 ساعة تقريبا، ولم يتوقف القتل حتى الساعة التاسعة من صباح السبت 1982/9/18. وبدأ القتلة يخرجون تدريجيا من المخيمات، ولم يبق شيء على قيد الحياة في صبرا وشاتيلا.

لن ننسى ... لن نغفر ... لن نركع

بصوت بارد أعلن ايريل شارون وزير الدفاع الاسرائيلي أن القوات الاسرائيلية دخلت بيروت الغربية للقضاء على ألفين من المقاتلين الفلسطينيين، ادعى أنهم بقوا في العاصمة بعد

خروج قوات منظمة التحرير الفلسطينية وبحماس أعلن أن هذه المهمة تركت لميليشيا الكتائب.

اعترف المجرم بالاتفاق الجنائي على القتل العمد، وهي جريمة تعاقب عليها كل القوانين ليس لفرد واحد وانما لالفي انسان. وسواء استخدم المجرم في تنفيذ جريمته يده أو كلابه المسعورة، فقد قتل بالفعل ضعفي هذا العدد على الأقل.

إن الذين عذبوا وقتلوا بالرصاص والقنابل والبلطات والمدى تتراوح أعمارهم من شهر الى تسعين سنة. نساء ورجال وأطفال وشيوخ وحتى حيوانات، كل ذنبهم أنهم من سكان مخيمي «صبرا وشاتيلا». سكان جدد في هذين المخيمين. معظمهم جاء من قرى الجنوب أو من مخيمات أخرى بعد أن عهدمت خلال الغزو الاسرائيلي الهمجي، وبعضهم جاء من الدول العربية الشقيقة يطلب العمل في لبنان، وحوصر أثناء الحرب في بيروت، وكلهم لم يجد مكانا خارج المخيمين. لو وجدوا أي مكان آخر لفضلوه بالتأكيد على الأكواخ المتهدمة التي حملت اسم صبرا وشاتيلا، والتي تعرضت أثناء الغزو لقصف مجنون بمختلف القنابل المدمرة ثلاثة أشهر متتالية.

لم يكونوا ارهابيين ولا مقاتلين، فالمقاتلون خرجوا من بيروت، بل كانوا أصلاء طيبين، صدقوا الوعود والعهود التي قدمها الكبار، أصلاء طيبون صمدوا وتحملوا ودعوا الله أن ينصر لبنان وفلسطين وتعطشوا لهدوء يعيدون فيه بناء ما عهدم، فكان جزاؤهم الذبح.

أكثر من أربعة آلاف ضحية... لكل منهم قصة، بعضها قصير جدا... ولد أثناء حصار بيروت وذبح وهو يرضع قبل أن يبلغ سن التمييز بين الاصوات أو الألوان. وبعضها طويل جدا... ولد في فلسطين في أواخر القرن الماضي، أجبر على الهجرة مرارا، دفن أبناء وأحفادا سقطوا شهداء على طريق العودة الى فلسطين، حمل ذاكرته وحاول الخروج من المخيم أثناء المذبحة، ذبح جهارا نهارا وتعرفت عليه كاميرات المصورين حيا ومذبوحا.

وعلى القارىء أن يتخيل القصص والتفاصيل. على القارىء أن يتخيل عبارة مثل «كان بالمستشفى حوالي ألف مدني وعندما عدنا كانوا قد أخذوا وقتلوا»... ألف في عبارة واحدة... على القارىء أن يقرأ هذه العبارة الآف المرات، لأن هذه الكلمة الصغيرة تعني ألف إنسان... ألف حكاية... ألف مأساة..

إلى أصحاب الضمائر الحية، الى الذين يحترمون حياة الانسان الفرد احترامهم لحياة كل البشر، نقدم هذا الكتيب.

لم تكن هذه المذبحة هي الأولى في تاريخ فلسطين الحديث. وواجبنا أن نجعلها الاخيرة.

لقد هزت المذبحة ضمير كل من سمع بها في العالم وفي الوطن العربي وحتى داخل المجتمع الصهيوني.

وعلينا أن نواصل التذكير بها، أن نجعل منها جرحا في ضمير العالم لا مجرد واقعة في تاريخه.

علينا أن نوصل أخبارها الى كل من لم يسمع عنها، ونذكر بها كل من سمع عنها، ونجمع حولها كل من تحرك لادانة مرتكبيها.

علينا أن نحشد اليهود الذين أدانوها ونوسع صفوفهم، وخاصة أولئك الذين خرجوا الى الشوارع متظاهرين ضد مرتكبيها.

علينا أن نبصر الرأي العام الغربي عامة والامريكي خاصة بما جرى، وبضرورة توقيع العقاب على المجرمين.

وعلينا في المقام الأول أن نوصل أخبار المذبحة الى كل عربي وعربية، استصراخا للهمم، وعوة لرص الصفوف، لكي نمنع جرائم أخرى من أن يجرى تنفيذها والاعداد لها ضد أمتنا العربية.

فلنواصل فضح القتلة، ولندمغ بالجريمة قادةالكيان الصهيوني من أمدهم بالسلاح والأموال، ومن شاركهم في تنفيذ المذبحة البربرية.

ولنطلب ممن يريد البراءة أن يثبت براءته، أن يسهم في عقاب القتلة، وأن يشارك قولا وفعلا في عدم أصحاب الحق، في عدم حق الشعب الفلسطيني في الحياة الحرة الكريمة في وطنه المستقل.

الهوامش

(1) جريدة الجرو سالم بوست الاسرائيلية، 1982/9/23، هيرش جودمان.
(2) جريدة الانباء الكويتية، 1982/9/5، نقلا عن رويتر.
(3) جريدة الجروسالم بوست الاسرائيلية، 1982/9/7، مناحم هورويتز وجريدة الهيرالدتريبيون الامريكية تصدر في باريس، 1982/9/7، إدوارد والش.
(4) جريدة الشرق الاوسط العربية تصدر في لندن، 1982/9/8، عن وكالات الأنباء.
(5) جريدة نيويورك تايمز الامريكية، 1982/9/26 توماس فريدمان.
(6) جريدة الشرق الأوسط العربية تصدر في لندن، 1982/9/10 عن وكالات الانباء.
(7) جريدة الجروسالم بوست الاسرائيلية 1982/9/10 ديفيد فرانك.
(8) مجلة تايم الأمريكية، 1982/9/27، ديفيد هالفي.
(9) نيويورك تايمز الامريكية، 1982/9/26، توماس فريدمان.
(10) جريدة الجروسالم بوست الاسرائيلية، 1982/9/16.
(11) جريدة التايمز البريطانية 1982/9/16.

(12) جريدة الهيرالدتريبون الامريكية تصدر في باريس.
(13) جريدة الشرق الاوسط العربية تصدر في لندن، 1982/9/21 نقلا عن اذاعة الجيش الاسرائيلي.
(14) جريدة النيويورك تايمز الامريكية، 1982/9/26 توماس فريدمان.
(15) جريدة الهيرالدتريبون الامريكية تصدر في باريس، 1982/9/21 ديفيد لامب.
(16) مقتطفات من وصف المراسلين الصحفيين للمذبحة في الجرائد العالمية.
(17) جريدة الشرق الاوسط العربية تصدر في لندن 1982/9/20 عن وكالة الصحافة الفرنسية.
(18) جريدة الأنباء الكويتية، 1982/9/20، عن اليونايتدبرس.
(19) جريدة النيويورك تايمز الامريكية، 1982/9/26، توماس فريدمان.
(20) جريدة الوطن الكويتية، 1982/9/19 عن اليونايتدبرس والاوبزرفر البريطانية، 1982/9/19 كولين سميث.
(21) جريدة الاتحاد الخليجية، 1982/9/23 نقلا عن راديو اسرائيل.
الارقام التي نشرت في الصحف الاجنبية هي فقط عن الجثث التي عثر عليها في المخيمات وأمكن التعرف على أصحابها، ولم تذكر الصحف عدد الجثث التي لم يعرف أصحابها بسبب احترائها أو تشويهها بالبلطات والفؤوس، ومازال البحث جاريا عن الجثث التي دفنت خارج المخيمات.
(22) جريدة الوطن الكويتية، 1982/9/19 عن اليونايتدبرس.
(23) كما رواها الناجون من المذبحة للجرائد اللبنانية والاجنبية.
(24) كما رواها كل من :
جريدة التايمز البريطانية 1982/9/21 روبرت فيسك.
جريدة النيويورك تايمز الامريكية 1982/9/26 توماس فريدمان. .
جريدة الاوبزرفر البريطانية 1982/9/26 كولين سميث.
جريدة الهيرالدتريبون الامريكية تصدر في باريس 1982/9/21 يفي لامب.
(25) تعرف عليه روبرت فيسك مراسل جريدة التايمز 1982/9/22.
(26) كما رواها كل من :
جريدة النيويورك تايمز الامريكية 1982/9/26 توماس فريدمان.
جريدة التايمز البريطانية 1982/9/21 روبرت فيسك.
جريدة الوطن الكويتية، 1982/9/19 عن اليونايتدبرس.
جريدة الشرق الاوسط العربية تصدر في لندن 1982/9/22.
(27) جريدة التايمز البريطانية، 198°/9/24 روبرت فيسك.
(28) جريدة الصنداي تلجراف البريطانية، 1982/9/19 باري شيرز.
(29) جريدة الصنداي تلجراف البريطانية، 1982/9/19 باري أوبراين.
(30) جريدة عكاظ السعودية، 1982/9/20 عن رويتر.
(31) جريدة الجروساليم بوست الاسرائيلية، 1982/9/20 ديفيد لندو.
(32) جريدة الهيرالديبيون الامريكية تصدر في باريس، 1982/9/20.
(33) جريدة الديلي امريكان الامريكية، 1982/9/22 نقلا عن التايمز.
(34) جريدة الجارديان البريطانية 1982/9/20 جيمس مكمانوس.
(35) جريدة التايمز البريطانية، 1982/9/22.
(36) جريدة الجروسالم بوست الاسرائيلية 1982/9/21 عن الاستوشيتدبرس.
(37) جريدة الديلي تلجراف البريطانية 1982/9/21 ديفيد ادامسون.
(38) جريدة الهيرالتريبيون الامريكية تصدر في باريس 1982/9/23 عن الاسوشتيتدبرس.

(39) جريدة الجروسالم بوست الاسرائيلية 1982/9/24 هيرش جودمان ونيويورك تايمز الامريكية 1982/9/26 توماس فريدمان.

(40) جريدة الديلي تلجراف البريطانية 1982/9/21 باري أوبراين والتايمز البريطانية 1982/9/21 موشيه بريليانت.

(41) جريدة الشرق الأوسط العربية تصدر في لندن 1982/9/24 نقلا عن التايمز.

(42) جريدة التايمز البريطانية 1982/11/2 نقلا عن كريستوفر والكر.

(43) جريدة الشرق الأوسط العربية تصدر في لندن 1982/9/22.

(44) جريدة الجروسالم بوست الاسرائيلية 1982/9/26 ديفيد لاندو.

(45) جريدة الجروسالم بوست الاسرائيلية 1982/9/20.

(46) جريدة الجروسالم بوست الاسرائيلية 1982/9/21 هيرش جودمان وبن يشاى مراسل التليفزيون الاسرائيلي.

(47) مجلة نيوزويك الامريكية 1982/10/4 جيمس برينجل.

(48) جريدة الوطن الكويتية 1982/9/19 عن اليونايتدبرس.

(49) مجلة تايم الأمريكية 1982/9/27 روبرتوسيرو.

(50) جريدة الشرق الأوسط العربية تصدر في لندن 1982/9/22.

(51) جريدة التايمز البريطانية 1982/9/21.

(52) جريدة الديلي تلجراف البريطانية 1982/10/26 باري أوبراين.

(53) جريدة التايمز البريطانية 1982/10/26 كريستوفر والكر.

(54) جريدة الجروسالم بوست الاسرائيلية 1982/11/1 ديفيد ريتشاردسون.

(55) جريدة الجروسالم بوست الاسرائيلية 1982/11/1.

(56) جريدة الهيرالدتريبون الامريكية تصدر في باريس 1982/11/8 إدوارد والش.



محمد أركون

الوحي ، الحقيقة ، التاريخ *
(نحو قراءة جديدة للقرآن)

هذا النص ...

نقدم للقارىء هنا نصاً مهماً للاستاذ محمد أركون. وهو بالرغم من أهميته ظل غفلًا بالنسبة للقاريء العربي مع كونه يطرح قضايا تستحق كل العناية. إنه يضع الخطوط الكبرى «لمشروع قراءة جديدة» للقرآن، قراءة تسترشد بالانجازات التي حققتها علوم اللسنيات والانتربولوجيا والفلسفة والتاريخ وتتخذ محورا لها التوتر بين الوحي والحقيقة والتاريخ.

إن إعادة قراءة القرآن بمنظور جديد، تندرج ضمن مراجعة التراث والتاريخ الاسلاميين وفق منهج معاصر مستمد من تقدم العلوم الانسانية. وهذه القراءة لها ما يبررها سواء من الوجهة الاسلامية أو من الوجهة التاريخية.

هذه مهمة المؤرخ الذي يُعنى بفهم العالم الاسلامي في ضوء شروط الحياة الجديدة، كما أنها مهمة الفيلسوف الذي يشتغل بالبحث عن المعنى، ذلك أن القرآن الذي تجسد في التاريخ ما فتىء يطبع بطابعه كل ما هو سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي، وعليه فإن المشكل بالنسبة للفكر العربي هو فهم تاريخية الحقيقة المنزلة أو جدلية الوحي، الحقيقة، التاريخ.

وإن تبني هذه الاشكالية معناه الانفتاح على فلسفة تعالج اللغة والدين والتاريخ، كمواقع ممتازة للخطاب الفلسفي في الفكر العربي المعاصر.

* العنوان الاصلي : Comment lire le coran Mohamed Arkoun. in Le «Coran». Traduit par Kasimirski, Garnier Flammarion 1970

وقد أعيد طبع هذا المقال في كتاب جديد صدر مؤخرا راجع :

Mohamed Arkoun, Lecture du Coran Maisonneuve et Larose Paris 1982

لقد اعترضتنا صعوبة في تعريب هذا النص، وربما سيلاحظ القارىء «قلق العبارة» الذي عانت منه هذه الترجمة في نقل بعض المصطلحات التي ليست واردة في اللغة العربية، غير أن عذرنا في ذلك هو أن أية ترجمة تقتضي حدا أدنى من «الخيانة» للنص الاصلي، ومن هنا فأنها توشك أن تكون إعادة كتابة. على أن الترجمة تعني أيضا الوفاء للاصل والمحافظة عليه.

عندما نكون أمام نص مغلق Hérmetique وشامخ كهذا، فإن ثمة إمكانيتين أمام المترجم : أما الاولى فهي تعامله مع النص انطلاقا من هم المحافظة على الاصل و «الامانة» في النقل، فيسقط في نوع من التعريب يتيه في فنون المقابلة ومراعاة النظير، وهكذا ينتهي الى مقابلة الكلام بالكلام فيبتدع نصا قد يكون دقيقا من الناحية الفسيفسائية، ولكنه يجعل الوحدة تضيع وينفرط عقدها في فحص الجزئيات. هذا العمل لا ينفذ الى معنى النص ولا يفيد في تعقله بل إنه ينحرف بالخطاب عن مواقعه ليسقطه في غياهب اللا معنى، إنه باختصار «ذهول عن المقاصد».

أما الموقف الثاني ففيه يرفض المترجم أن يستدرج من قبل النص، أو أن يضيع في جزئياته، إنه يحاول أن يبدع النص من جديد، ولذا فإنه لا يجد مناصا من إختراقه وتفجيره، ثم إستعادة انتظامه للنفاذ الى معناه دون تشويهه ودون ائتلاف وحدته الكلية مع «المحافظة» عليه كنص إجرائي Opératoire يمكن استخدامه والانتفاع به.

إن الترجمة إختيار، بل انها «قراءة» ضمنية أو صريحة، لذلك سيلاحظ القارىء الكلمات والصياغات المستعارة من القرآن أو من القاموس التقليدي العربي. لقد عمدنا الى هذا قصداً لاعتقادنا أن القارىء العربي في تعامله مع النصوص لا يقرأها بالعقل فحسب بل يقرأها أيضا بذاكرته تلك «الذاكرة الموشومة» بالقرآن والخطاب التقليدي واللغة التراثية التي لازال لمفرداتها ومعانيها رجعا Connotation يتردد صداه في الفكر والذاكرة معا.

وعسى أن نكون قد وفقنا الى مد القارىء بما من شأنه أن يقربه من فضاء النص الاصلي، اذا نحن لم نوفق في نقل ذلك الفضاء إليه هو.

المترجـم

إن القرآن أحد النصوص ذات الاهمية الكونية، قيل وكتب عنه الكثير، إلا أنه يظل مع ذلك غير معروف حق المعرفة. فاذا اقتصرنا على حالة الجمهور الفرنسي، يجب الاقرار بأنه لم يتجاوز أفكارا مقتضبة عنه، على الرغم من الترجمات المتنوعة التي عرضت عليه، وبالتالي فقد أبقى على أحكامه المسبقة العتيقة بصدده. صحيح أن «الكتاب الالهي» يثبط من أوجه عدة جهود أحسن المفسرين، وصحيح أكثر من ذلك أن القارىء غير المسلم ليس مهيئاً لذلك الشعور الديني الذي يظل اضمن سبيل لتلقي الرسالة. فبالنسبة لفكر معاصر متعود على اتباع نوع معين من البرهان، والايحاء، والوصف والسرد في نصوص يتم انشاؤها حسب مخطط صارم، فإن القرآن مدعاة للنفور بعرضه غير المنظم، واستخدامه غير المعتاد للخطاب، ووفرة ايحاءاته الاسطورية، التاريخية، الجغرافية، الدينية، وكذلك بتكراره، وانعدام ترابطه، باختصار بمجموعة كاملة من الرموز التي لم تعد تجد البتة دعائم ملموسة سواء في طرق تفكيرنا أو في محيطنا الطبيعي والاجتماعي والاقتصادي والاخلاقي. وان استحالة ولوج عالم القران هذا مرتبط بالتحول العقلي الذي خضعت له الانسانية منذ مجيىء عصر الصناعة، فحتى المسلمون أنفسهم يزداد أسرهم داخل هذه الاستحالة بما أنهم صاروا فريسة لطوفان الايديولوجيات ـــ الديانات المعاصرة ـــ التي تبرر كل التضحيات بهدف التنمية الاقتصادية، إذ يصدق عليهم ما يصدق على البشر كافة، من أن الدافع الدنيوي ينتهي دوما بإقصاء الدافع الديني.

من هنا فان المشكل الاساسي الذي ينبغي على تقديم حالي للقرآن طرحه وحله، هو معرفة كيف يمكننا اليوم قراءة هذا الكتاب ؟ فهل يجب أن يتوفر لنا ركام من العلم المتبحر لبعث ـــ لحظة القراءة ـــ معاني غائبة عن وجودنا اليومي ؟ أو هل يمكننا أن نكتفي بمخطط لتحليل المفاهيم، واختزال كلام الله في وثيقة لا غير، مجرد وثيقة تفكك من طرف فقيه اللغة، وذات أهمية بالنسبة لمؤرخ الأفكار ؟ أم من الأنسب لنا أن نستمر في اعتبار القرآن مهما كان الأمر كتاب المسلمين، وأن غير المسلم قد يكتشفه في أحسن الاحوال بتعاطف وتسامح دون ان يشعر بأنه منذر على نحو مباشر.

إن أسئلة من هذا القبيل سبق طرحها في المحافل اليهودية والمسيحية بخصوص الانجيل والعهد الجديد، وهناك علماء لاهوت وفلاسفة ذوو سمعة بارزة يجهدون أنفسهم منذ سنين في تجاوز الاشكاليات التقليدية بهدف الحديث عن الاله الموحي بما يتناسب ومتطلبات العقل المعاصر ـــ إن جهدا مماثلا لم يغر أحدا بالقيام به في الفكر الاسلامي حتى الآن. فهذا الأخير لا يقدم ما يعادل أعمال أ. نيهر بالنسبة للفكر العبراني. و جـ. دانيلوس. كونغار وجـ. مارتيان وي. جيلسون ...الخ بالنسبة للفكر الكاثوليكي. وكـ. بارث ور. بولتمان وأ. دوماس... بالنسبة للفكر البروتستاني، وهذا الركود تفسره أسباب عدة لا يسعنا عرضها هنا(1). ومن المؤسف أنه يؤدي الى غياب الشهادة الاسلامية في النقاش الدائر الآن حول الوحي، والحقيقة، والتاريخ(2).

كل ما نستطيع قراءته عن هذا الموضوع بأقلام المسلمين، هو اعادة تأكيدات تراوح بين شدة الحماسة وضعفها، لصفة الحق والخلود والكمال في الرسالة التي تلقاها وقام بتبليغها النبي محمد، هو «حجاج دفاعي» إذن أكثر من كونه بحثاً عن المعقولية، فلا غرو أن الادبيات المعاصرة حول القرآن تقل درجة من أوجه عدة عن الادبيات التقليدية[3]. وعليه فإن كلام الله المكذب والمحبط من طرف ممارسات مجتمعاتنا الحالية، المبجل من طرف المسلمين، ولكن في الواقع المجافي من قبلهم، هذا الكلام الذي اختزلته المعرفة الاستشراقية في مجرد حدث ثقافي، ليؤدي الى الجمود أكثر مما يبعث على التقدم، إنه ينتظر أن يبعث من جديد في كامل قصديته على اعتباره دعوة موجهة لكل البشر من الاله الحي، المبدع والحَكَم الذي أُوحي به في الانجيل، ومن هنا سيفهم أننا لن نعير أية أهمية في هذا التقديم، للمعارف المتداولة حول التاريخ الخارجي، وصلته بمضمون الكتاب، وذلك للتأكيد على الشروط التي من شأنها أن تسمح بإعادة دمجه ليس فقط في الحياة الروحية للمسلمين، بل وفي الافق العلمي للفيلسوف الذي يطمح الى فهم الواقع الديني كمقولة للوعي البشري. إن موقفنا، كما هو واضح، موقف فلسفي، غير أنه يظل متفتحا تجاه اسهامات وتساؤلات علوم اللاهوت القديم منها والحديث. إن سعينا يرمي الى الانخراط في النقاش الدائر الآن حول اللحظة «الاقتصادية» واللحظة «الانطولوجية» في المذهب المقدس SACRA DOCTRINA[4] وذلك لحمل علوم اللاهوت وفلسفات الدين التي هي في طور النشوء، على ان تخطو الخطوة الفاصلة [5] التي ستدخلها في المنزلة الابستمولوجية STATUT EPISTEMOLOGIQUE المشتركة بين سائر الابحاث العملية.

يقول ب. كونغار «إن كلمة الله، هي حقاً يسوع المسيح وما من أحد سواه، فالله لا يدرك أو يعرف الا في المسيح»[6]. لاشك أن كل المسلمين سيعلنون انضواءهم تحت هذا المبدأ لكن شريطة أن يحل القرآن محل المسيح، وهكذا فقد أبقى الناس خلال قرون عدة على يقينيات ذاتية، ظلوا يأسرون أنفسهم داخلها، وإنه يتوجب على الوعي المعاصر، بل يستطيع أخيرا أن يتجاوزها، أما الامر الذي يعنينا الآن فهو إظهار أن التعارضات ذات الاصل الديني أنما هي تعارضات تقع على مستوى الرموز اللسنية والطقوسية والتاريخية والفنية التي تحيل الى المتعالي TRANSCENDANCE ذاته، الى الاله الواحد القائل «أنا الموجود»[7]، غير أنه لايجب أن نعتبر أننا هنا أمام خليط تلفيقي سهل؛ فالأجدر بنا ان نسلم بالبداهة المقبولة في الوضع الراهن لمعارفنا الا وهي : إن كلمة الله التي تجلت في الانجيل، ثم في المسيح، قد تجلت أيضا في القرآن. وإن التحليل النصوصي وكذا فينومينولوجية الوعي الاسلامي لا يتركان مجالا للشك في هذا الامر، وعليه سيعود الوحي الذي أنزل على محمد للظهور من جديد في وجه «أهل الكتاب» بهيبة التحدي الاول، الا أن الامر سيتعلق هذه المرة بتحد علمي بدل كونه تحديا سجاليا يعارض بالعقيدة عقائد أخرى. فإما أن الوحي القرآني ليس سوى منطوق بشري يحاكي التنزيل الحق، وسيتعين علينا إذن في هذه الحالة أن نفسر لماذا تؤدي محاكاة التنزيل الى نتائج نفسية، ثقافية وتاريخية مشابهة إن لم تكن مطابقة لنتائج التنزيل الحقيقي، وإما أن القرآن

هو أيضا كلام الله في كليته إذ يحتل مكانة ضمن ما يسميه المسيحيون باقتصاد الخلاص، وفي هذه الحالة فإن الاجتهاد اللاهوتي لا يمكن أن يستمر مخاتلا في تلافيه من حيث هو كذلك كما قد فعل حتى الآن(8).

إن طموحنا يتوق الى جعل «أهل الكتاب» يتعهدون الكتب المقدسة بشكل تضامني. ولهذا الغرض فإننا ندعو القارىء الى تشفير(9) (تفكيك رموز) القرآن وفق قواعد المنهج الذي اصبح يطبق على النصوص المذهبية الكبرى بكاملها ويقوم هذا المنهج على :

1 ــ استخراج معنى ما يمكن أن نسميه بالمذهب المقدس في الاسلام وذلك باخضاع النص القرآني وكل النصوص الاخرى التي حاولت طوال تاريخ الفكر الاسلامي توضيحه لفحص نقدي يختص باجلاء الالتباسات وابرز الاخطاء والتحريفات وأنواع القصور وكذا بالارشاد الى تعاليم دائمة الصلاحية.

2 ــ تحديد معيارية تحلل ضمنها الدوافع التي يمكن للعقل المعاصر اعتمادها في تسويغ الابقاء على المفاهيم المدروسة أو في طرحها(10).

ان الامر يتعلق هنا ببرنامج بالغ الاتساع بحيث لا يمكن انجازه ضمن هذا المدخل ولهذا سنكتفي بوضع بعض المعالم التي من شأنها أن تسمح بالإلماع الى مصاعب هذا الطريق.

1 ــ معنى القرآن

من السخف الذي نأباه على أنفسنا أن نحدد ــ أخيرا ــ المعنى الحقيقي للقرآن. فأجيال المفسرين الذين أغراهم هذا الوهم، هي من الكثرة بحيث أن البحث عن المعنى يتوجب عليه اليوم أن يبدأ بإبطال مظهر العجائبية Demystifier عن التأويلات المتلاحقة وذلك بفصل نواة الدلالة الاصلية عن رواسب من كل الاصناف ما فتىء الفكر التأملي يجرها وراءه. بل إن ثمة ما يغرينا باستبدال المنهج «الموضوعي» الذي ليس الا دوغمائية محتجبة، بمنهج الهزء، وبديهي ان الاستهزاء في هذا المقام لا يستهدف رسالة القرآن الذي يدعو دوما الى التأمل وانما نجعل هدفه كل زعم يدعي اثبات معناه بصفة نهائية. إننا نوجد إزاء مجموعة من الامكانيات يتعلق تحقيقها بالتساؤل وبما يثير هذا المتسائل، وهكذا فحين ننطلق من وضعنا الروحي والفكري في النصف الثاني من القرن العشرين، يتوجب على قراءتنا أن تتضمن لحظات ثلاث :

أ) لحظة لسنية تتيح لنا اكتشاف نظام عميق تحت ظاهر من الفوضى والتشوش.

ب) لحظة انتربولوجية قوامها التعرف في القرآن على كلام ذي بنية اسطورية.

ج) لحظة تاريخية حيث يجري تحديد مدى وحدود التفاسير المنطقية ـ القاموسية وكذا التفاسير الخيالية التي تصدى لها المسلمون حتى يومنا هذا.

أ) التناول اللسني :

لقد أقترح يلمسلف Hselmlev، استخلاصاً لنتائج نظرية دوسوسير القائلة بأن اللغة ليست جوهرا بل شكلا، استبدال المنهج التقليدي ـــ الذي هو استقرائي ـــ في دراسة اللغات، بمنهج تحليلي وتخصيصي أدى تطبيقه على القرآن الى نتائج مشجعة(11) فبدل الانطلاق من وقائع معزولة (تصويت، كلمات، قضية، جملة) يجب أن نهتم بالنص في كليته كنسق من العلاقات الداخلية. فالدلالة توجد على مستوى هذه العلاقات وليس على مستوى الوحدات المعزولة بشكل مصطنع عن كليتها. وبإعادة اكتشافنا كل العلاقات الداخلية التي تؤسس النص القرآني، فإننا لن نبرز البنية والدينامية التي تخص اللغة العربية وحسب، بل اننا سندرك نمط التفكير والاحساس الذي سيلعب بالضبط دورا بارزا في التاريخ المشهود (المعيش) للوعي الاسلامي.

وهذا يعني أيضا أن هذا التحليل لا يمكن انجازه الا داخل اللغة العربية لاظهار كيف تؤسس الفيزيولوجيا، التصويت (السماع)، السيكولوجية علم الاجتماع والتاريخ بعضها بعضا وكيف تؤدي لتكوين شبكة من الدلالات لا تنفصم عن بعضها.

ولتوضيح هذه الرؤى النظرية سنأخذ ثلاثة من بين أكثر الامثلة إيحاء : مال، كتاب، جاهل، فإذا اكتفينا بادراك معنى هذه الكلمات في مستوى الآيات التي ترد فيها وحسب، فاننا سنقتصر على معرفة مشتتة في تفاصيل اصطلاحية، تشريعية، أخلاقية وسيكولوجية. ان كل ما تكتسبه هذه الكلمات من قصدية **النص**(12) في دلالتها وكليتها وكل ما تمنحه بالمقابل، لتلوين النص وتوجيهه بكيفية معينة، كل هذا سيقصى في ما هو ضمني، أي بالنسبة لنا نحن المعاصرين(13) فيما هو غير مدرك وبالتالي غير مجدي.

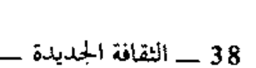
وبهذه الكيفية فإن كل ما يتعلق بالمال في القرآن (الثروات المادية، النساء، البنون، العبيد، والارث ...الخ) سيولد جدالات مغلوطة ولا نهاية لها من نوع الاسلام والرأسمالية، الاسلام والاشتراكية، الاسلام والديموقراطية

... وبالمثل فان كلمة كتاب من السهل أن ترتبط بمعنى محايد، عندما تنطبق على القرآن فمن شأنها أن تنفصل عن التداعيات التي تعيد إكساب معناها قوة على مستويات عدة، أما مثال جاهل فأنه أكثر استعصاء ذلك أن أي جهد نبذله في ترجمتها أو حتى في تحديدها من شأنه أن يكسر أحد الارتباطات المحورية في النص.

لبلوغ المعنى، يتعين علينا التخلي هنا عن كل قراءة خطية (أحادية) و التي تعطي تفضيلا للفهم المعتاد والدراج وللمنطق النحوي. فحتى لو صنفنا الآيات وفق مواضيع الاهمية(14)، فإنه سيظل مطروحا علينا بالضرورة تجاوز النظام الخطابي بغية اكتشاف نظام أكثر جوهرية هو النظام البنيوي.

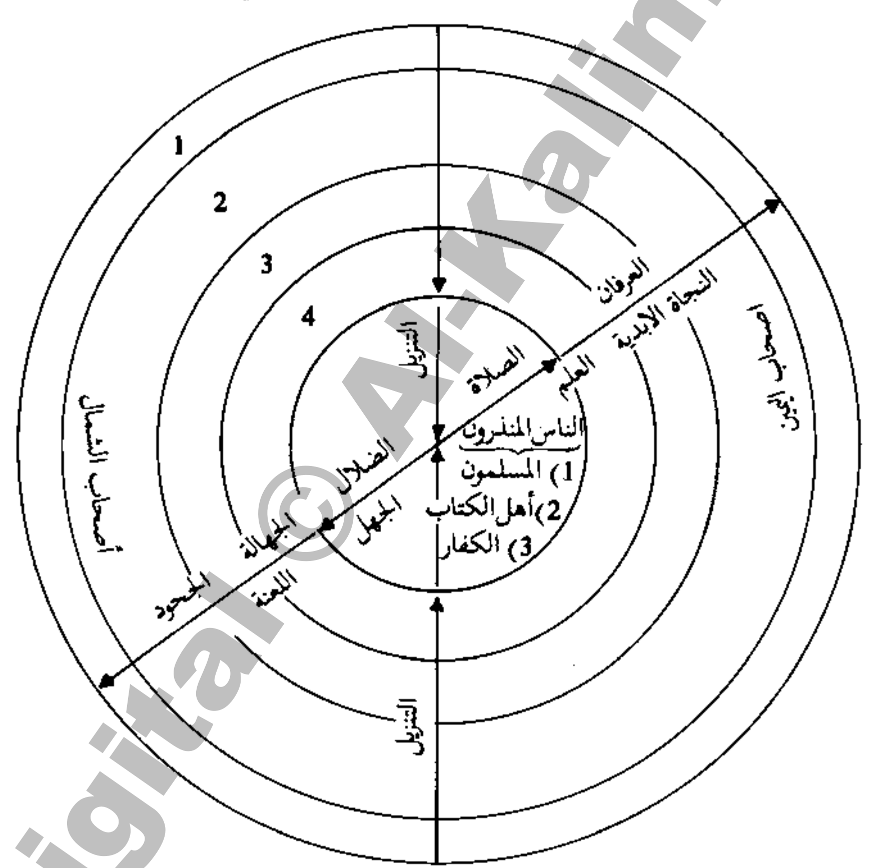
إن الخطاب القرآني هو في الواقع تنظيم موسيقي ورمزي في الآن الواحد لمفاهيم ــ مفاتيح جرى استيعابها من قاموس عربي مشترك طرأت عليه تغيرات جذرية عبر عدة قرون. ولن نعير هنا أي اهتمام للمظهر الاسلوبي الذي درسه المؤلفون العرب بإمعان للبرهنة على إعجاز الكتاب. بيد أننا سنعود للامثلة الثلاثة التي سقناها لتحديد الخطوط الكبرى لتحليل بنيوي.[15] سننطلق من فكرة ترتئي أن القرآن يستخدم توظيفا عموديا للحديث ويفرض بذلك على القارىء القيام بحركة دائمة صعودا ونزولا عبر أربع دوائر للدلالات، تلك الدوائر التي يهيمن عليها بدورها الله.

في الشكل المقابل نرى كيف أننا ننتقل من الاقل إدراكا الى الاكثر ادراكا، من اللا محدود الى المحدود، من الخالد الى الفاسد[16]، وذلك تبعا «للنزول» الوحي (التنزيل). هذا التنزيل يطبع وقائع هذا العالم وذلك بأن يوحي للانسان وجود الغيب، وبالكشف له عن شروط الحياة الاخرى (الآخرة) وباطلاعه على بدائع السماوات والارض. إن «العلم» الذي تم ايحاؤه يضطلع بوظيفة إغناء النظرة الباطنية (القلب، اللب، العقل[17]) والاسراء بدعوات الانسان وخواطره (ذات الصدور) وأعماله نحو السماء.



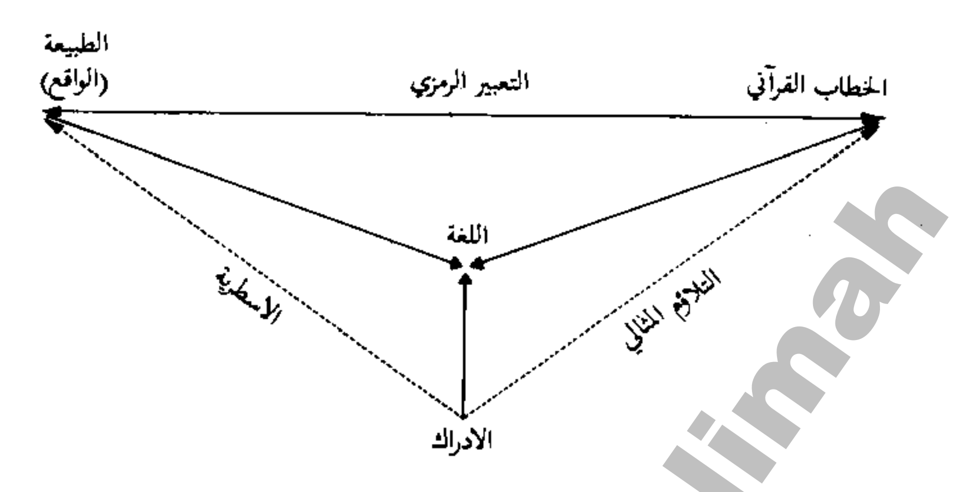
1) دائرة الغيب.
2) دائرة الآخرة.
3) دائرة السماوات.
4) الارض : الاشياء الدنيوية (بدائع الخلق؛ ما أعطاه الله لمعرفته = الملك والاستطاعة، والقيمة ← موضوع فعل الانسان الموجه الى ← الله)

ولله ما في السموات والارض، وكان الله بكل شيء محيطا



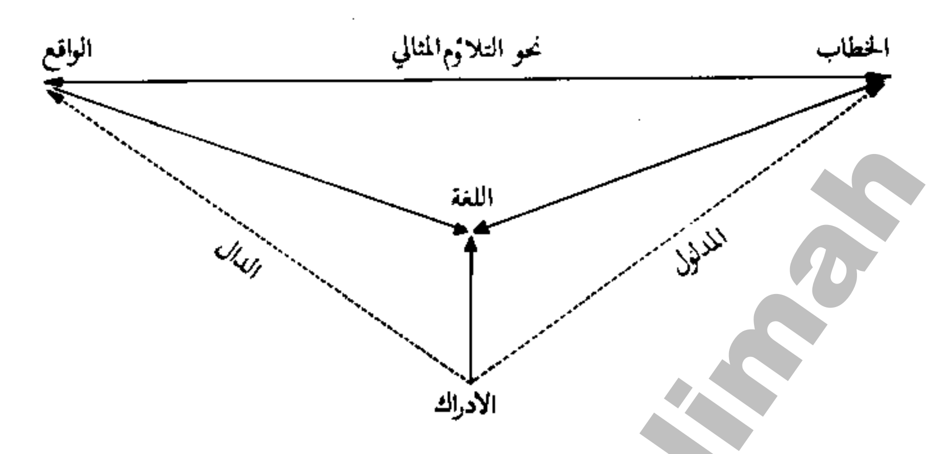
ملاحظة :

لقد سيطرت رمزية الاستدارة على الرؤية القديمة والوسطوية. فهي تحيل الى الوحدة، والكلية والى إله الكليانية الذي يذكي القرآن الاحساس به عن طريق تقديمه للخلق.



الشكل 1 الكائن ــ في العالم ــ المخلوق.

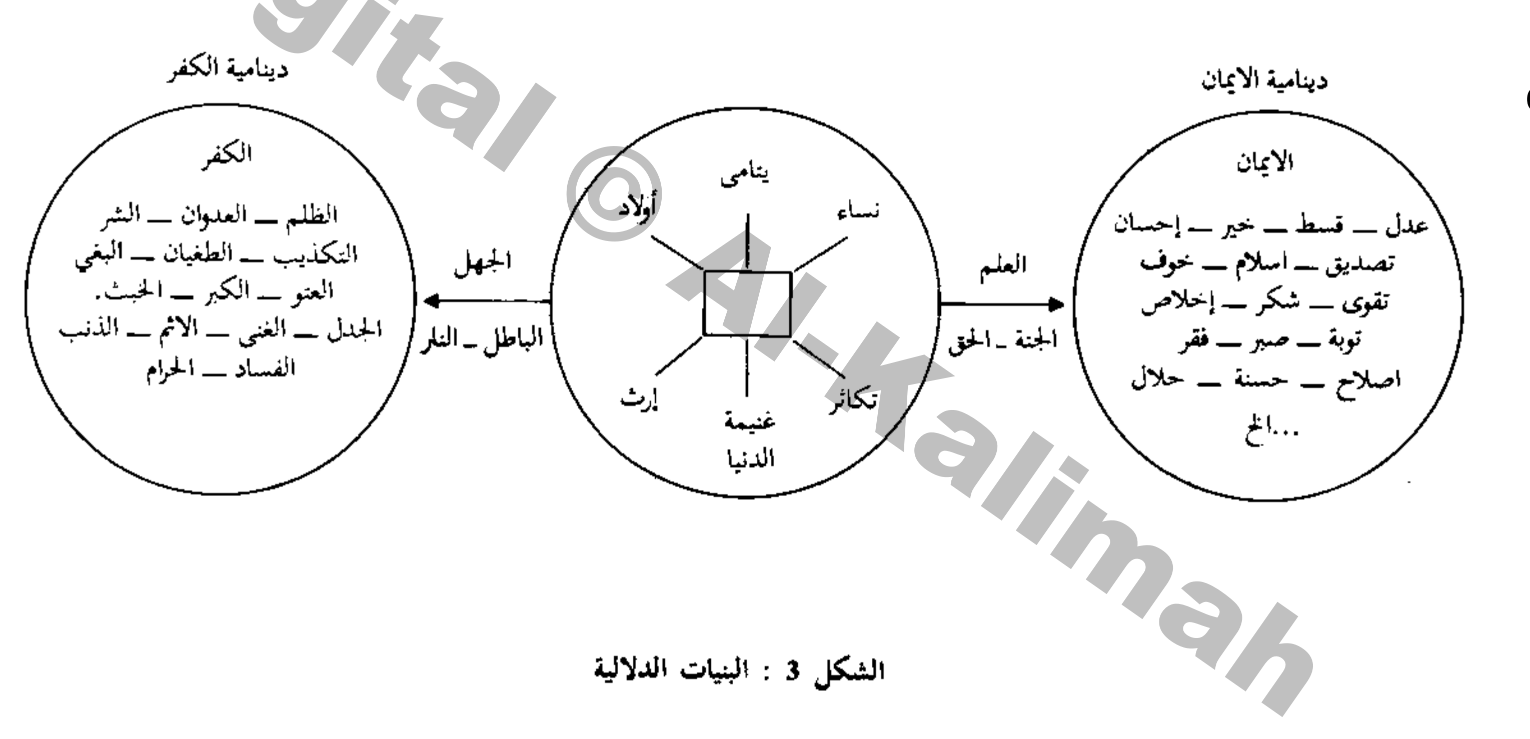
ان الخطاب القرآني يغرف من اللغة العربية التي سيعمل بالمقابل على تغييرها بشكل عميق ودائم. إن الانسان سيستمد الدلالات الحقة من هذا الخطاب، كوسيط ضروري بينه وبين الطبيعة. غير ان اللغة تظل الوسيط المشترك لاغماط أخرى من الادراك : «إنها كلية غير تأملية، فهي عقل بشري له أسباب لا يعرفها الانسان» (كلودليفي شتروس ــ الفكر الوحشي) وهكذا فأن العلاقات بين ادراك ــ طبيعة لغة كلام ستتطور متجهة نحو الموقف المقترح في الشكل الثاني. وعليه فإن المشكل يتلخص اليوم في معرفة قراءة القرآن حسب الشكل الاول مثلا دون التخلي عن الشكل الثاني.



الشكل 2 : الكائن — في — العالم.

ان الادراك يستهدف تجاوز الخيال الذهني لجعل الوقائع الدالة تقترن في الخطاب بالوقائع المدلولة، إذ يتوجب على الفكر الموضوعي أن يستقر في لغة تصبح «كلية تأملية».





الشكل 3 : البنيات الدلالية

وينجم عن ذلك أن اللغة تنعم بامتياز لن يطرح موضع النقاش الجدي الا بعد مجيىء العلم المعاصر. ان كلام الله يؤسس نمطا متميزا في معرفة الكائن ــ في العالم ــ المخلوق (الرسم الاول) والمتميز كلية عن نمط معرفة الكائن ــ في العالم ــ الموضوعي (الرسم الثاني).
إن اللغة والفكر يتظافران في التئامهما في عالم من الدلالات التي تحيل الى الله الخالق ــ المدبر بواسطة تداعيات متسلسلة تثيرها كل كلمة ــ رمز. هذا ما يجعل مال، كتاب، جاهل، التي وقفنا عندها أعلاه، لا تقوم بوظيفتها الا اذا ادركت ككلمات ــ رموز وليس كمجرد دلائل لسنية بسيطة. إن المال وكل الموجودات أو الموضوعات التي تجسده (والتي احصيت داخل الدائرة. الرسم الثالث) هي مواطن تجلي الرابط المقدس الله ــ الانسان، والانسان ــ الله اكثر منها وقائع وضعية نروم حيازتها، والمحافظة عليها، وتدبيرها. من هنا تأتي النظرة الثنائية لكل معطى دنيوي بحسب احترام الميثاق (العهد في الانجيل) من طرف المؤمن،، الطائع، الشاكر، أو نقض هذا الميثاق من قبل الكفور، العاصي، الجاهل، ويجدر بنا أن نلاحظ أن كلا الموقفين يحيلان الى الكائن المطلق ذاته الذي يتكشف كذلك من خلال نقائض رمزية بدورها كما تؤكد ذلك تعبيرات مثل اصحاب الشمال / أصحاب اليمين، العليون / أسفل سافلين.

1ب) كلام ذو بنية أسطورية :

ان الاسطورة[18] مفهوم من المفاهيم الاكثر خصوبة، والتي استعادت اعتبارها وعادت الى البروز مع الانثربولوجيا الاجتماعية والثقافية. لقد اقترنت الشبهة التي لحقت بالأسطورة مع صعود العقل منذ أرسطو أساسا وهي بذلك قد أخلطت بالخرافة، أي الحكاية الخالية من كل أساس واقعي[19].

أما اليوم فالكل يتفق على اعتبار الاسطورة تعبيرا رمزيا عن وقائع أصيلة وكونية. فالحكاية الاسطورية هي على نحو شديد أو يسير من الارتباط بالوضع الثقافي للمجتمع الذي يؤسسها ولدينا كأمثلة على ذلك : الحكايات الشديدة الصفاء التي تغمر الانجيل حيث تثار رمزيا توابث الوضع الحياتي للانسان، وكذا الميثولوجيا الشاعرية للعصر الاغريقي ــ الروماني القديم، وكذلك الاساطير العابرة والفاقدة لاهميتها في حضارتنا الصناعية.

إن وظيفة الاسطورة تقوم في جميع الاحوال على عودة الانسان الى زمن البراءة، الى مكان ذهني حيث الاعمال البشرية ليست ممكنة فحسب بل مرغوبا فيها. وإن تعريفا على هذا النحو يعطينا صلاحية عظمى تمكننا من تأويل عميق لكل الثقافات اذا نظرنا اليها كما هي في ذاتها أو اعتبرناها بالقياس الينا نحن، وعليه فلو تساءلنا أي صنف من الميتولوجيا يؤسس القرآن، سنضاعف بذلك حظوظنا في ادراك الإواليات الرهيفة في تعبيره الرمزي، كما سنكتشف في الآن الواحد لماذا تثير دعوته رجعاً يتردد صداه في الفكر المعاصر.

لقد حملنا التناول اللسني على معارضة المفهوم، الفكرة العامة ــ المستخدمة كأساس للمعرفة التي تجعل من المنطق ضالتها ــ بالكلمة ــ الرمز، النبع الفياض بالخواطر المتعددة التي تجد حركيتها في علاقات التعارض، والاقتضاء، والارتباط و التناظر. إن ارتقاء الكلمة ــ الدليل حيث تستحيل كلمة ــ رمزاً يُؤَمِنُ صعود الكلام البرهاني أو الملوس ليغدو كلاما أسطوريا. فكل الخصائص التي يحوزها هذا الكلام والتي سبق التعرف عليها في الانجيل ثم في العهد الجديد يعاد اكتشافها في القرآن[20]، وعليه فمن اليسير أن نظهر بأن الكلام القرآني :

1) «صحيح»، لانه يمارس فعله في الوعي البشري الذي لم يرتق بعد من طرف كلام اسطوري آخر من شأنه أن يفتح آفاقا مماثلة.

2) فعال، لانه يربطنا بالزمن الاول للخلق ولانه يدشن بذاته زمنا متميزا، زمن الوحي، وزمن دعوة محمد والسلف الصالح، هذا الزمن الذي يريد الوعي الاسلامي العودة اليه باصرار لينطلق من جديد على طريق الهدى الذي شرع الله والذي ضاع عبر مسالك التاريخ. وقد يقول التأويل الوضعي ان الاسلام يجهل فكرة التقدم، ولكن الا يقتضي التقدم بالنسبة للوعي الاسطوري عودة الى زمن البدء[21] ؟

3) عفوي، لانه انبجاس دائم لليقينيات التي لا تستند الى برهان بل الى تلاؤم عميق لوثبات الشعور الانساني الدائمة. وان الخصائص الاسلوبية للجملة الاسمية التي يكثر ورودها في القران تزيد قوة الانبجاس هذه حدة، هذا الانبجاس الذي يغمر في وقت واحد كل المستويات النفسية للمستمع (ذلك بأن القرآن يجب أن يتلى جهرا لا أن يقرأ بصمت). بل وحتى في المقاطع الجدالية ضد «أهل الكتاب» والمكذبين والمنافقين يظل الاسلوب، أسلوب تقرير أكثر منه اسلوب تفنيد. أسلوب إشراق الحقيقة تجاه الافتراءات، والترهات، وتهافت من ضرب على سمعهم، و الجاحدين، ومن ختم على قلوبهم.

4) رمزي؛ وإنه يتوجب علينا أن نخلص من السخرية التي تتحدث عن «جنة الله المملوءة بالحور العين حيث تجري أنهار من الخمرة والعسل»... الخ. ذلك أن أخطار التداعيات التي تستند الى صور محسوسة تزداد حدتها هنا بفعل الترجمة. فتلك الصور لا تستمد قوة اثارتها وقيمتها الايحائية القصوى إلا اذا ربطناها ببنيات الخيال الشعري لدى الاعراب البدو. ان الاوصاف «الواقعية» للجنة و النار تستهدف الغاية نفسها من القصص المستمدة من التاريخ المقدس، حيث التذكير الملحاح بالبلوى النموذجية للشعوب التي عرفت النجاة، أو التي حلت بها اللعنة، وحيث التذكير بالسلوك المثالي للانبياء : فالأمر يعني تغذية الرجاء المؤسس لوضعنا البشري وجعله مشروعا. وإنه لفي هذا الرجاء يلتقي انتظار العدل الكامل الذي لا راد له، وكذا الرغبة في اختراق الالغاز التي لا حصر لها، في الانسان، في العالم، وفي الله (راجع الايات «العلمية» وكذلك الصفات) وأيضا ارادة تجاوز نواحي النقص، وعدم الاطمئنان، وهزال حياتنا الدنيا. إن القرآن بتوظيفه الامكانات الشاعرية في اللغة العربية

على نحو من الكمال الذي لا مثيل له؟ يغمر الوعي بأن يعرض له بناء رمزيا رحبا، ما فتىء يلهم عمل المؤمنين وفكرهم حتى أيامنا هذه ونتبين هذا البناء في التميز التالي :

أ) «رمزية الوعي بالخطيئة» الذي عمل التأمل الكلامي، والتشريعي والاخلاقي، على تسطيحه في مدونة شكلية، تتسم بالصلابة والقهر. وهذا التحول من النبوة الى المشروعية، من القيادة «كشكل للحضور أي كتعبير عن إرادة قدسية» الى فتاوي الفقهاء قد جرى تحليله من قبل بول ريكور بالنسبة للعهد القديم في مفاهيم يمكن تطبيقها على القران.[22]

ب) «رمزية الآخرة» التي تعطي للتاريخ معنى؛ أي اتجاها، ودلالة. وبذلك فالعرب وكل الشعوب التي اسلمت ستستوعب في التاريخ المقدس لشعب الله، باعتبارها حاملة لآخر تعبير عن الارادة المقدسة ــ ذلك بأن محمداً هو خاتم الرسل والنبيئين ــ وعليه فهم يصبحون الشعب المختار الذي أخرج للناس ليبين لهم أفق الخلاص.

جـ) رمزية الامة التي تترجم الرمزية السابقة والتي تكتسب تجليا تاريخيا ملموسا في المدينة العام الاول للهجرة (622 م)، ويجب أن نلح هنا على الخيار الفلسفي الجلل الذي يقدم عليه ضمنيا المؤرخ المعاصر ــ الشيء الاكثر ضررا ــ عندما يكتفي بالحديث عن ميلاد دولة اسلامية سنة 662 وحسب، و بالفعل، فان كل الحقب التاريخية التي عاشتها الامة حتى أيامنا هذه تتركز في هذا الحدث المدشن الذي عاشه المعنيون بالأمر كتحقيق للارادة الالهية على الارض، والدخول في المرحلة الختامية من سير الناس كافة نحو النجاة الأبدية. فالطابع الرمزي للحدث قد تأكد بقيام عهد جديد. غير أن التعالي الذي أصبح على هذا النحو في ملك الانسان سيتعرض للخرق، وللدنس، ولتناقضات التاريخ المشخص. وستؤدي التوترات بين الوحي والتاريخ، بعد أن ازدادت تعقيدا من قبل تدخل العقلانية الارسطية، الى ميلاد الصراع الأكبر في الوعي الوسطوي : الا وهو صراع العقل والايمان. ولهذا يتعين قراءة مصير الامة ــ المدينة كجدلية لا تتوقف بين الوحي ← الحقيقة ← التاريخ[23].

د) «رمزية الحياة والموت» وهذه لا تبلغ نفس الرمزية في العهد الجديد، بما أنها تقوم أساسا على النقيض المضني بين احتقار هذه الدنيا والبعث، بين الحياة الدنيا المنظور اليها كبلوى عابرة وبين الحياة الخالدة المقدمة كحياة ثانية وكخلق نهائي. وستلتقي هذه الموضوعات مع مثيلاتها في الفلسفة الافلاطونية والرواقية وتفضي بذلك الى الادبيات الغزيرة ذات المنحى الاخلاقي ــ الديني[24]

إن هذه الرمزيات المختلفة، كما أظهرت ذلك دراسة المعاني، تتداخل و تتكاثف لتؤسس نظرة «صحيحة» للعالم ونفهم من ذلك نظرة «وظيفية» تلائم بشكل دائم البحث عن نجاتنا. وسنقول بوضوح أكثر انها نظرة «صحيحة» لانها تحدد في شكل نظريات الامكانات الوجودية والانطلوجية للانسان؛ إنها تغمر المخيال بتمثيلات اسطورية تتصدع بالاصطدام بها

كل إدعاءات العقل البرهاني الذي يطمح الى ابطال العجائبية عنها. بل وتتكسر على هذه التمثلات الوقائع الكثيفة للتاريخ الواقعي أيضا. ففي الاسلام على الخصوص ستكون الغلبة للنظرة الخيالية اللا تاريخية على النظرة الميتافزقية المعقلنة[25].

1جـ) قيمة التفاسير التقليدية وحدودها :

إن كل تأمل جدي حول دلالة الحدث الديني المنظور اليه كاحدى معطيات الواقع الموضوعي، عليه أن يأخذ في اعتباره ليس الكتب المقدسة فحسب بل وأيضا القراءات المتعددة التي حاولتها الاجيال الماضية. غير أن هناك صورتين للعناية بالتفسير التقليدي : فأما أننا سنبحث فيه عن حلول تؤسس سلطة يعتد بها وذلك بايثارنا التوجه الى الفقهاء الذين كرسهم الاجماع الواسع. وإما أننا سنعني بوصف كل الشروح التقليدية بقدر ما هي استشهادات عن الوعي الاسلامي تستهدف دمج النص الموحي في مستويات مختلفة من الواقع. في الحالة الاولى نستفيد علما معترفا بصلاحيته، واذن فهو في مأمن من كل نقد، وأما في الحالة الثانية فإننا نضع الفكر الاسلامي كله ضمن المنظور الفينومينولوجي والابستمولوجي. فالأمر يتعلق هنا باكتشاف وتعيين وسائل ومعايير هذا الفكر بالقياس الى وسائلنا ومعاييرنا نحن. وإننا نعتقد أن المنهج الاخير هو وحده الذي من شأنه ان يحرر أفقنا الفكري من المفترضات اللاهوتية والفلسفية العتيقة وأن يفتح بذلك طريقا جديدا لاعادة قراءة النصوص المقدسة. إن ماركس ونيتشه وفرويد، يمثلون قمة ينحدر منها تياران في تاريخ العقل؛ ماض يسوده «الوعي المغلوط»، ومستقبل متفتح على الفكر الموضوعي. فالأول قد أمن مجيئ العقل الجدلي المطبق على دور الاقتصاد في التاريخ؛ أما الثاني فقد حدد شروط قيام ما بعد الفلسفة، أي تفكير في «ما وراء الخير والشر» والصواب والخطأ، «والانساني، جد انساني»؛ وأما الثالث فقد عمل على ابراز القارة النفسية الشاسعة والمحتجبة التي تقع تحت ضغط الوعي الواضح المتميز. يقول ريكور «إذا رجعنا الى النية المشتركة لدى هؤلاء فأننا سنقف على نية إعتبار الوعي أولا في كليته كوعي مغلوط. ومن هنا فأنهم يرجعون كل في إطار متميز الى مشكل الشك الديكارتي لوضعه في قلب حصن ديكارت. فالفيلسوف الذي تكون في مدرسة ديكارت يعلم على القطع أن الاشياء تبعث على الشك وأنها ليست بالكيفية التي تظهر عليها، غير أنه لا يشك في كون الوعي ليس على النحو الذي يظهر به، إذ يلتقي فيه المعنى والوعي بالمعنى. لقد أصبحنا نشك منذ ماركس ونيتشه وفرويد. فبعد الشك في الشيء دخلنا مرحلة الشك في الوعي ذاته»[26]

هذا التلخيص القيم لتاريخ الفلسفة يلقي ضوءا جديدا على دلالة الفكر الاسلامي وحدوده. فبقدر ما نما هذا الاخير على أسس الوحي والمفهومية المنطقية لارسطو، والثنائية الافلاطونية الجديدة فإنه يتهاوى تحت ضربات كل الانتقادات الموجهة للفلسفة الاسكولائية المسيحية، و بصورة أعم للمثالية الموضوعية. فمن اليسير إظهار كيف ان الاتجاهات الرئيسية

الثلاثة في التفسير المطبق على القرآن ــ الاتجاه المنطقي واللغوي والنبويّ ــ لم تعمل الا على تنصيب الوعي المغلوط حكما أعلى للمطلق والنسبي للصواب والخطأ، للخير والشر،... الخ. فحيثما نظرنا سنجد نفس التفكير الماهوي الذي جمد تحت التأثير القوى للميتافزقا التوحيدية[27] Syncrétiste تلك اللغة ذات البنية الاسطورية التي تعرفنا عليها في القرآن، في استدلالات أحادية وشكلية، في نقائض مجردة لا رجعة فيها، في خلافيات سطحية و عقيمة، وفي بناءات غنوصية. بل يجب ان نضيف الى هذا ان البشريةالوسطية كانت تستعيد بالطقوس ما كانت تفقده بالتأمل، كما أن بوسعنا اليوم أن نستعيد بفضل معرفة مطابقة للواقع، المعنى الذي لا نستطيع الامساك به لتخلينا عن الطقوس. فهذه الاخيرة كانت تضبط الوجود اليومي للمؤمن وذلك بجعله في اتصال دائم مع القُدُس. فهي كانت تسمح بتجسيد النماذج والمقاصد الموحى بها في الاساطير ــ الرموز[28]، عبر اللسان والجوارح. وعليه فالمشكل الآن هو معرفة لماذا وكيف انحدر في اغلب الأحيان هذا العالم الاسطوري الذي خلدته الطقوس، الى درك أصبح فيه عبارة عن نظم مكلسة على صعيد التأمل. لنحاول الجواب عن هذا السؤال كاشفين عن مكامن الانفصال الاساسية في كل من التيارات الثلاثة المشار اليها سابقا. من الوجهة التي تشغلنا ــ أي تحليل طرق القراءة المطبقة على القرآن ــ يصعب فصل التيار المنطقي عن التيار اللغوي. أكيد أننا لا نعرف بدقة ماذا تدين به الدراسات النحوية والقاموسية منذ نشأتها في العراق أثناء القرن الثاني للهجرة للمناهج المنطقية الفارسية ــ اليونانية.[29] غير أنه من اليسير أن نبين أن كلام الله الذي تغلغل في التاريخ بعمق بفعل إسماعه صوته للناس في منطوق بشري، سرعان ما جرى توظيفه في كل مجالات المعرفة، وجميع ميادين الوجود اليومي بحسب مناهج الفهم والتأويل المعتاد استعمالها ضمن أوساط العلماء في الشرق الادنى، وقد ساد في مرحلة أولى دونما شك التأثير المنتشر للعوائد الفكرية الفارسية البيزنطية على التيار العلمي. إن التدخل القوى للفلسفة الاغريقية منذ بداية القرن الثالث والتي عرفت حظوة وامتيازا من قبل نظام كان يبحث عن «ايديولوجية» سيمكن من الاداة «العلمية» لخيانة مزدوجة : من جهة لان الناس سيغريهم سحر الاشتقاق والبنية النحوية وصنعة الاساليب الخطابية، ومن جهة أخرى فإن الفقهاء ــ وكذا المتكلمين والاصوليين ــ سيحولون الوحي الى مدونة اخلاقية ــ دينية تعرض العمل التشريعي للمغالط وتجنح به الى البؤس، دون أن يسعفهم ذلك نظريا فى انقاذ الطابع المتعالي لكلام الله الذي جعلوه بحكم الظرف نظيرا للحديث[30].

اما من جهة الفلاسفة، فانهم سيعرضون عن القران علنا، وسيوترون عليه تعاليم الحكيمين ــ أفلاطون وأرسطو. ولقد نتج عن ذلك انتشار واسع للميتافزقا التقليدية في الثقافة الاسلامية بكاملها. وللوقوف على ماخلفه هذا الانتصار من نتائج سيئة على التاريخ العام للاسلام، ظهر لنا من المجدي أن نذكر بالمبادىء الموجهة التي تحكمت في تشفير

الكتب المقدسة وبالتالي في مصير المجتمعات [31]، في الغرب المسيحي أو الاسلام على حد سواء وسنؤكد هنا على خمسة مبادىء :

أ) أن مقولات ارسطو كما تلقيناها عن الشراح، قد رفعت الى منزلة الجواهر الميتافزقية تقطيعا للواقع تختص به اللغة اليونانية. فلقد جرى تقعيد العربية واللاتنية وكذا اللغات الغربية في بنياها النحوية تقعيدا منطقيا بشكل جعل التفكير في الله والكتب المقدسة يتم داخل أطر مفاهيمية متعسفة [32].

ب) لقد كرست مبادىء العقل مثل الهوية وعدم القياس مفهوما للزمن الاجتماعي يتصف بالتجانس حيث أصبحت ممارسة الاستدلال عن طريق القياس (قياس الغائب على الشاهد)[33] ممكنة بل ضرورية. وهكذا فقد تم فرض هذا الاستدلال من قبل الفقهاء المسلمين كمنهج لمراقبة التاريخ عن طريق الوحي. لكم هو خادع هذا المنهج ومضر مخالف بالأخص للقصد الحيي لكلام الله الذي يحرك التاريخ. إن ذلك سيفضي بنا الى المفارقة البالغة الدلالة لعمل واحد من أكثر المفكرين إجلالا في الاسلام: الغزالي (مات سنة 505 هـ) الذي قدم تعليما موجها كله نحو «إحياء علوم الدين»، والذي كرس أحد تصنيفاته للبرهنة على أن القرآن يحتوي على كل أشكال وضروب القياس. [34] وبصورة أعم، فإن شراحا عديدين، والذين اغتذوا من هذه المبادىء العقلية، يطبقون على القرآن مفاهيم الجوهر، والوضع والجنس والنوع... الخ التي تقتضي بالضرورة القيام بتقطعيات سكونية في زمن الصيرورة الواقعي.

ج) إن مبدأ العلية قد جرى رفضه من قبل الكلام السني، في صيغته الفلسفية وليس في منظوره الجبرى، الاحادي والمجرد الذي يقتضيه بالضرورة. وبدل القول بالمحرك الاول، أو العلة الاولى، سيعم القول بأن كل موجود (شيء) يعاد نشوؤه وخلقه في كل لحظة من طرف الخالق[35] وهكذا فقد تمت تذرية Atomisation للعلية وليس رفضها من حيث هي مبدأ مفسر يجهل التكوين الملموس للواقع، وصيرورته وديناميته الجدلية.

د) بجانب الحقيقة المنزلة ــ أو في مواجهتها ــ تتأكد حقيقة عقلية ــ منظور إليها كنتيجة ملزمة للتطبيق الصحيح لهذه المبادىء والمقولات اللازمنية، وهكذا ستتولد تلك الصراعات الطريفة بين العقل والايمان وكذا اشباه الحلول التي ندين بها للفلاسفة على الخصوص.

هـ) إن ازدواجية النفس والجسد التي علم أفلاطون، والتي أكد عليها افلوطين، وجرى توظيفها من قبل الرواقيين على طريقتهم، تُحِل أسطورية للارادة محل الرجاء الذي انفتح بالوحي ــ ان الارادة المتنورة بالعقل تستطيع أن تختار خلاص النفس ــ وهي مبدأ روحي، خالص، خالد موطنه الحق هو السماء ــ على حساب الجسد ــ كواقع مادي، غير خالص، وعابر. وينجم عن هذا نظام للقيم الاخلاقية ــ السياسية سيجري اسقاطها على التعاليم القرآنية. لقد

عرفت هذه المبادىء تطبيقا تعظم صرامته وتتضاءل بحسب المؤلفين. وهم في كل الاحوال قد عملوا، ضمن النص القرآني على ابراز تناقضات «منطقية» مثل تلك التي تتعلق بالجبر والقدر وبالنبوة وكذا الولاية والخلافة. ــ الامارة ــ والسلطان، وكذلك بمسألة خلق القرآن أو قدمه، والآيات المتشابهات، وقضية الصفات... الخ. وللبقاء على الرغم من ذلك على طريق الهدى الذي يوصل الى الله، برزت الى الوجود حلول تأملية متنوعة، ترتبط بمواقف سياسية ــ دينية في ظروف تاريخية محددة. وهكذا فان الآخذين بحرفية النص (الحنابلة، الظاهرية) يعبر قعودهم عند الظاهر في النص وتعلقهم به، عن الانشغال ازاء تضمين دعوة الله داخل كل عقلنة ممكنة، كما يعبر في الوقت ذاته عن الرفض الاجتماعي ــ السياسي لارستقراطية قد بالغت في الاشتغال بالدنيا، أما الآخذون بالعقل (من معتزلة وأشاعرة وفلاسفة) فان ثقتهم بالعقل الارسطي ــ المقدم كأنه هو العقل البشري ــ تترجم انخراطا في الايديولوجية الرسمية،[36] أي التدبير الفعال لشؤون الامة باستخدام الدين كأسطورية وكمدونة للقانون؛ وأخيرا هناك من سنسميهم بالمتخيلة Imaginatifs (من صوفية وشيعة) والذين تتراوح مذاهبهم بين المرموزات المعتبرة كشفا بالتجربة للاساطير ــ الرموز، وبين العرفان Gnose المعيش كحلم محرر[37].

إن هذه العصبة الاخيرة من الافكار قد جسدت التيار النبويّ في التفسير. فالشيعة الذين ابقاهم منافسوهم السنيون الذين سيطروا على السلطة وحدهم حتى سنة 344[38]، في موقف المعارضة السياسية ــ الدينية قد أسسوا فلسفة نبوئية ترتكز على شخص الامام ــ الزعيم الروحي Le guide charismatique ــ تستخلص النتائج البعيدة لقصد موجه ولكن بشكل ضمني في القرآن، فالصراعات العنيفة التي نشبت بين الشعية والسنة منذ وفاة النبي ــ الزعيم الروحي الاول ــ تعبر بشكل كامل عن المعنى الكلي للوحي الذي يحرك الجدلية في التاريخ بتضمينه بعد التعالي. وبالفعل فان الذين حازوا اسم أهل السنة والجماعة قد عملوا على تبني منهج في قراءة القرآن يناسب تأسيس نظرية الامر الواقع : فالطاعة تجب للخليفة ولي الامر وذلك بإضفاء المشروعية على حكمه حسب النصوص الصريحة وحسب سلوك التابعين الأول. إنه يكفي، بعبارة أخرى، الالتزام بالأوامر والنواهي المطابقة للعقل[39]، ومراعاتها في حرفيتها. وهكذا فقد جرى رفض إمكانية وجود معنى باطن للقران ذاتها من قبل هؤلاء. غير أن هذا المعنى الضمني هو بالضبط ما سيحظى بالامتياز من طرف الشيعة الذين سيجهدون في إبرازه وتوضيحه بفضل تقنية في التأويل تخترق ظواهر الكلم لبلوغ الباطن. وبحكم هذا فان الذين قدمتهم الايديولوجية الرسمية كمارقة من الدين هم الذين كانت لهم جدارة في معارضة الموقف الذرائعي (البراغماتي) واللائكي للسنين بموقف ديني أوحد قادر على ابقاء الالحاح الاول للوحي في قلوب الناس على أن يجسدوا بجهد جهيد التعالي في التاريخ.

لقد نافح هؤلاء عن موقف يرى أن الدلالة القصوى للنبوة هي الاشراق المستمر للوحي الالهي الذي لايعتريه الكلل، على الوجود الانساني. فالنبي قد بلغ إرادة الله على الارض وطبقها

بشكل كامل ووفي. وهذا التدخل قد خلق وضعا لاراد له ولا رجعة فيه : ان الامة لا محيد لها عن زعيم روحي يقودها، دون أن تسقط في الكفر. ولهذا وجب أن تمتد النبوة في الولاية، الخلافة الروحية التي تقتضي إظهار الحضور الحي للاله، أمام الناس حتى قيام الساعة. لان الولي، هو حقا الخذن المقرب لله، الرجل الذي يحقق ببركة مخصوصة مبادلة كل أوجه المحبة على نحو كامل.

إن الامر يتعلق، كما نرى، بشرح لكلام الله، الذي يؤخذ في مستوى لغة ذات البنية الاسطورية(40) إن الامام الشيعي المدعو أيضا بالسيد العادل، يركز في شخصه الرمزي التطلعات النماذجية Archetypales للبشر، كل هذه التطلعات التي زادها القران شغفا وجعلها تقبل التحقيق، غير أن التشيع لم يسلم بطبيعة الحال من العوارض الثقافية للعصر، فقد ربط على ذلك النحو الميراث الروحي بسلالة محمد، وعندما ستستولي الاسماعيلية على السلطة في إفرقية(41) ثم في مصر، كان من الضروري تحويل الالحاح الروحي المحقق على مستوى الخطاب الى الحاح تبريري وطقوسي بغيته امتلاك عنان التاريخ وضبطه(42)

2 ـ القرآن تجاه الفكر المعاصر

لقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن الافاق التي فتحها النص القرآني وكذا عن مختلف التناولات التي قام بها الفكر الاسلامي التقليدي لهذا النص، لنخلص الآن الى معالجة السؤال الثاني الذي سبق أن طرحناه في بداية هذا العرض : فما هي الاسباب الداعية بالفكر المعاصر للاهتمام بالقران ليس كوثيقة تاريخية وأدبية فحسب، بل باعتباره نمطا للتعبير وموقعا لنبع الوعي الكوني ؟

إن دراسة القرآن وكذا الفكر الاسلامي وفق الخط الذي رسمناه بإمكانها أن تستجيب لثلاث ضرورات ملحة يمكن صياغتها كالتالي :

أ) تجاوز عقلية التمركز العرقي والتفردات اللاهوتية تجاوزا نهائيا.

ب) تنمية بحث علمي حيث يجري أعتبار الوحي والحقيقة والتاريخ في علاقاتها الجدلية كمفاهيم مبنينة للوجود البشري.

ج) إعادة لم شتات الوعي المعاصر وكذا اللغات التي يعبر بها عن ذاته وسنقتصر أيضا هنا، نظرا لضيق المجال، على بعض الاشارات المؤقتة حول المنظورات التي يفتحها القرآن صوب بناء نزعة انسانية على مقاس عصرنا.

2أ) تجاوز التفردات

لقد اعتدنا الحديث عن التمركز الذاتي الغربي على الخصوص، وإن هذا الموضوع لازال يلقى الحظوة في طرد الشياطين النشطة للعهد الامبريالي، وكذا في إبطال العجائبية عن ادعاء

اخرق للكونيه. ان التقدم الذي حققته الانعربولوجيا و الاثنولوجيا حديث العهد ولازال مثارا للنقاش، ثم انه غير كاف لمعادلة وزن الآثار التي يمارسها احساس جديد قديم فيما يخص الحقائق الدينية. فهذه الاخيرة ترتبط بالعرق، والذهنية، وبكل ما يؤسس، على مستوى اللاعقل، رفضا جذريا للآخر، وبالتالي رفضا للقيم التي يعيش عليها. ومما لاشك فيه أن الثقافة الجامعية قد تجاوزت التعصب (التشدد)؛ فالمسيحيون الذين يبدون حماسة للحركة الكونية oeucuménique، يبحثون عما من شأنه أن يخدم التآخي الروحي مع الاديان غير المسيحية (43) لكن الامر الذي يظل واردا هو اقتصار الجامعي على الوصف «الموضوعي» للظواهر التي لا تعنيه مطلقا من الوجهة الوجودية؛ في حين أن عالم اللاهوت لن يتخلى مطلقا عن تشبثه باشكالية تفردية(44).

ومهما يكن فإذا لم يتوصل في الغرب الى قطع الخطوة الاخيرة في اتجاه تعهد فكري للثقافات الاجنبية، فمن الاجدى الاعتراف على الاقل أن مطلبا كهذا يزداد التعبير عنه أكثر فأكثر. بينما لا يتم الامر على هذا النحو بالنسبة للبلدان المسماة متخلفة، أي بالنسبة للمسلمين على الخصوص، فالتغرب لدى هؤلاء، يتلخص منذ القرن التاسع عشر في الاستشراق الذي يتميز اما بالقبول الساذج للافكار الثورية، و تقنيات التعبير الادبي وعلاوة على ذلك، غزو الحضارة المادية، وإما، كما ظهر مؤخرا برفض انفعالي لانسانية بلا روح. وهكذا سيرد البعض بلعناته على الانانيات الثقافية للبعض الاخر. وإن ارتقاء القرآن في هذه الشروط الى منزلة الوثيقة الشاهدة على الوعي الكوني لما يتم بعد. والحال ان هذا الارتقاء هو ما يتوجب على هؤلاء وأولئك تأمينه لفتح طرق جديدة للعلوم التاريخية والفلسفية واللاهوتية، فالأمر لا يعني أن نحقق «في الخيال وفي الوجدان»(45) موقفا شبيها بموقف المسلم، باعلاننا جزافا ان الله قد وجه دعوته للناس بواسطة محمد، بل الامر عكس ذلك فالاسهام الاصيل الذي يورده القرآن بالنسبة لفلسفة الدين، هو أنه على الرغم من روابطه الظاهرة بظروف سيرة النبي، فانه لا يكف عن تقبله باعتباره وحيا، ومن ثمة فانه يفرض علينا ان نعتبر ظاهرة بشرية في جميع مقتضياتها الوضعية تلك الظاهرة التي تُركت حتى الآن مجالا للبناءات الدوغمائية لعلماء اللاهوت ولتأويلات العلمويين المتعسفة. انه لامر بالغ الدلالة ان مبحثا بالغ الاهمية مثل تاريخ الاديان المقارن لم يغز موقعه بعد في التعليم الجامعي(46) فالمأمورية الجسيمة في ابطال العجائبية وإبطال الاسطرية في التاريخ الديني للبشرية لازالت تنتظر القيام بها بقصد علمي متحرر من كل المسبقات اللاهوتية. بل ان الاعمال اللاهوتية الكبرى ذاتها يجب ان تصبح موضوعا لهذا الفحص-النقدي. فما ينقص المجهود المبذول في هذا الاتجاه بخصوص المسيحية هو المضي بثبات صوب مقصد انعربولوجي : إن المقاومات التي تبذل حيال نزع الاسطرية تدل على انه ليست هناك نية في تجاوز التأمل حول إيمان معين الى فهم للايمان كواقع بشري وظيفي ضمن مواقف تاريخية متنوعة. إن الامر يتطلب تحديد منهجية ولغة مشتركة — وتلك شروط كل علم — من شأنها ان تسمح بقراءة كل الكتب المقدسة باعتبارها احداثا تشكل

جزءا من اقتصاد الخلاص الانساني. وبذاك سننتقل من اللاهوت كخطاب يستعمل استعمالا محدودا الى فلسفة للاهوت، وسيكون هدفنا حينذاك ليس الدفاع عن حقيقة ايمان ما، بل فهم الايمان كحقيقة (حق)، وبهذا الشرط سيكف القرآن عن حال كونه خاتمة للتنزيل بالنسبة للبعض، أو مجرد بناء على جانب من العبقرية بالنسبة للبعض الاخر.

2ب) التعالي ومغامرات الجدل.

سيقول المؤمنون التقليديون معترضين ان تناولا من هذاالقبيل سيفصل الانسان عن التعالي وسيحرمه من هذا الرجاء الذي لا يغذيه سوى الدين. والواقع اننا باختزالنا الدين في مجموعة من الطقوس والمؤسسات والمناشط الدنيوية القابلة للتحليل العلمي، فإننا نسرع من وقع مسار ابطال القداسة عن العالم وعن الوجود الانساني لنستقر آخر الامر في الدنيوي، المباشر، والعارض. وحينذاك سنزيد من صواب تلك النظرة التي تقصر الدلالات على مستوى التاريخ الواقعي المحلل كتتابع من المغامرات غير الهادفة، بل والتي كثيرا ما تتميز بالعبث. وسيفضي بنا هذا الى النتيجة التي تميز بخصوصيتها عصرنا حيث يتأكد الحنين الى الانسان القديم كاتهام في وجه الالتزام بالعمل التاريخي دونما تحفظ، هذا العمل الذي يخضع لجدلية القوى الاقتصادية والسياسية. وان رفضنا الربط بين المتعالي وبين مغامرات الجدل لهو بالذات شكل من أشكال التعبير عن هذا الحنين، لانه يتيح لنا ان نفهم لماذا اصبح الناس اليوم اقل معاصرة بشكل لم يكونوا عليه ابدا. ففي العصر الوسيط كان الغني والفقير، السيد والعبد، العالم والجاهل، كلهم يلتقون سواء بسواء في الزمن والمكان المقدسين اللذين ارستهما الاساطير والطقوس، أما اليوم فأن الانفصال اصبح جذريا بين العبد لله والمواطن : وأما الجهود التي تبذل لاختزال المسافة فأنها لا تتجاوز مستوى اللغة، أو بالاحرى اللغة التي تحمل هي بالذات آيات التصدع. ان قسطا عظيما من التأمل الفلسفي و اللاهوتي لازال يعمل على تخليد الاشكالية العتيقة حول الروحانية والمادية، والتي تخفي عجز العقل البشري عن الارتفاع الى مستوى يعيد فيه طرح السؤال بصدد التأويلات الجزئية طرحا اساسيا. ان القراءة التي نقترحها لا تفصل الانسان عن التعالي، وإنما هي تفرض متابعة هذا الاخير عبر الواقع التاريخي حيث تجسد بأشكال مختلفة. وعليه فاذا اعيد الاعتبار لنص كالقرآن، في كل مدلولاته الفينومنيولوجية والتاريخية، مثله في ذلك مثل الانجيل والعهد الجديد، فان ذلك سيؤكد الاهمية القصوى والامكانية المتاحة لاعادة قراءة الماضي البشري بأعين اخرى. فليس من الاكيد ان الانعزال والتشتت اللذين يطبعان الوعي حاليا، ناتجان فقط عن التقدم الذي حققته الحضارة الصناعية. إن العقل الذي توغل لاول مرة في جميع ميادين المعرفة يرتادها بالحاح علمي لم يتوصل بعد الى مستوى النظرة الموحدة. إن التاريخ، بوجه خاص تجري الآن إعادة بنائه في واقعه الاقتصادي والسياسي بعد ان تم بناؤه خلال قرون عدة باهتمامات لاهوتية، أخلاقية وأيديولوجية. غير إنه يتوجب علينا من الآن فصاعدا طرح السؤال التالي : هل من المشروع،

حقا وواقعا، أن نسرد التجربة التاريخية المعيشة «تحت راية القرآن»(47)، أو في ظل التأثير المباشر أو المقنع للاناجيل والانجيل (الكتاب المقدس)، وأن نستمر في التمييز بين التاريخ المذهبي، والتاريخ الحدثي والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي ...الخ؟ ألا زال في وسعنا الاكتفاء باختزال التاريخ في وصف مسهب للوقائع المعاينة والمرقمة؟ ـــ أو البنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية كما يقول الماركسيون ـــ وأن نترك الميدان الهائل للسيكولوجية التاريخية قابعا في الظل ؟ إن الواقع الذي لا ريب فيه أن هناك اليوم نزعة سوسيولوجية Sociologisme تتوق ان تخلف وضعية Positivisme الامس، فالشعور الديني ينظر اليه في اغلب الاحيان في انعزاله، كظاهرة متضايفة Epiphénoméne بينما تستمر التعارضات : دنيوي / مقدس، زمني / روحي في اثارة تخطيطية Schématisation للواقع البشري الكلي، وهكذا سيود البعض كما لو أن الامر يتعلق بصلاة، إن الزمني في الاسلام لا ينفصل عن الروحي بالمقارنة مع المسيحية حيث يبدو الانفصال حاسما، كما سيمتنع عن فهم تحولات المقدس في الدنيوي وكذا الدنيوي في المقدس. ان هذه الافكار المقتضبة تتوق ان تطبع بمصداقيتها معرفة تاريخية تكون مهمتها في كل عصر وبالنسبة لكل مجموعة بشرية تقييم الاهمية المتتالية للوحي والحقيقة والتاريخ الملموس ـــ أو اذا اردنا بصيغة اخرى الاسطورة، العقل والحدث (التاريخي) في تطور البشرية، وذلك بدون اية فكرة مسبقة.

إن ما نسميه بالتاريخ الكلي هو نتيجة لهذه العوامل الثلاثة التي توجد في توتر دائم كما أشرنا الى ذلك سابقا، وأن الحضارات الاسلامية تسمح لنا تجسيد هذه الرؤى بأمثلة عديدة وخصبة. ففي القرآن يمكننا متابعة تدخل التعالي في التاريخ، وأسطرة الوعي، كما يمكننا بالمقابل متابعة تأريخية(48) التعالي وكذا عقلنة الاسطورة. وهذه الجدلية ستكتسب وتيرة حادة مع تدخل اللوغوس اليوناني(49). إن تناولا على هذا النحو، كما يتضح، له جدارة العودة بمفهوم التعالي الى أفق الفكر المعاصر، ذلك التعالي الذي يحرك وجودنا كما يحرك الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في الآن الواحد(50).

إن هذا التناول هو وحده الممكن تصوره حاليا، لانعاش إئتلاف الوعي عن طريق إئتلاف اللغة.

2ج) نحو تبادل أشكال الوعي.

إننا باستعادتنا لمعنى التعالي في التاريخ، نستعيد في الوقت ذاته ذاكرة اسطورية يجري الآن اقصاؤها من قبل الذاكرة التاريخية. إن هذه الاخيرة تتميز بكونها منقسمة، متبددة، جزئية ومنحازة بالضرورة، في حين أن الاخرى منظارية Synoptique، كلية، منفتحة على التجليات الرمزية للكائن، وإذن فهي متفتحة على التواصل العميق. كثيرا ما يتردد أن اليهود، والنصارى، والمسلمين هم سليلو ابراهيم الروحيين، فهم يؤمنون بالاله الاحد، الحي، الخالق، الذي ظهر للناس بواسطة الانبياء : مما يدفع الى اللجوء للغة هي ذات بنية اسطورية تستخدم رموزا

موحدة. غير ان حظوظ التواصل التي تفتحت على هذا النحو، قد اقصيت من قبل الذاكرات التاريخية المتباينة؛ حيث يتبلور التاريخ بالفعل، وبالنسبة لكل أمة في «قيم خصوصية» مودعة في التاريخ المكتوب، والادهى من ذلك ان كل دين قد استخدم خلال قرون عدة لتكريس ـــ بمعنى حرفي ـــ السلوك الاقتصادي والسياسي للمؤمنين به، من هنا يأتي الابهام القاتل للكلمة الدالة على الافعال التعبدية والعقائد التي يترجم الانسان بواسطتها علاقته بالله، بل ايضا الكلمة الدالة على مجموع المذاهب والمدونات، والمناسك والاعراف التي نمت في كل كيان اجتماعي. لقد سمح الشطط في تمطيط الديني على هذا النحو بتقديس الدولة والمؤسسات الاسلامية مثلما حدث في اليهودية والمسيحية، وهذا ما يفسر اليوم توضيحا حازما على غرار مانجد في هذه الفقرة لكارل بارث :

«ان الدين ليس بمستطاعه أن يغير كون فعل الانسان في هذا العالم يعم بغير الله. فلا حول له سوى في الكشف عن الالحاد في اجلى تفتحه، لان الدين باعتباره كينونة الانسان وملكه وعمله، لهو اللحم الذي يكسوه. فهو يسهم في فوضى الانسان وفي طابعه الدنيوي، إنه ذروته الاعلى، إنه مماته، فهو ليس تجاوزا له أو إعادة نشأه. لا دين المسحيين الأُوَل[51] ولا دين عيسى ولا دين المصلحين. فليس من قبيل الصدفة أن رائحة الموت تنبعث من قمم الدين بالذات : وان ينشر زوينكل حوله ليبرالية بورجوازية سطحية، وكير كغادر افراطا مسموما في التقوى ودستويفسكى تمزقا هستريا... انها لمأساة، الا يخرج غير الدين من اعالي قمم الدين !انه لا يحرر بل يأسر، في شروط أشد وطأة من كل قيد آسر»[52].

وهكذا فقد تكونت خلال عهود أنماط من الوعي المستقر، والمأسور داخل جدران من اليقينيات المقدسة من قبل عمل بطيء للاسطرية. وهذا العمل هو ما يسعى العقل المعاصر بجرأة «آثمة» لتحليله للكشف عن إواليانه، وتحليل مكوناته ليتمكن اخر المطاف من تأسيس معقولية بدون موارية وبدون وساطة وتأسيس قراءة مباشرة وكليانية Totalisante للواقع. وقد يحدث اثناء مباشرة الاستقصاء أن يتحول إبطال الاسطرية المعلن عنه بطريقة خفية الى اسطرية جديدة. وهذا الخطر أكثر تهديدا لكوننا نعيش عهد الايديولوجيات التي هي اسطوريات معقلنة، حيث حل المفهوم محل الرمز، ولهذا يحرص الفلاسفة، وعلماء اللاهوت على التمييز بين إبطال الاسطرية وإبطال الاسطرة. إن هدم الأوثان الذي يتميز به النقد المعاصر يلتقي في النهاية بالموقف الاكثر تباثا في الاسلام التقليدي، فهذا قد دعى مثلا الى العودة للوحي بعيدا عن التأويلات، والخيانات، والاوثان من جميع الاشكال التي ولدها التاريخ. ولقد ردد الصوفية أننا يجب ان نستعيد الطراوة الاولى لكلام الله. أما اليوم فإننا نقول إنه من اللازم تحرير النواة الاسطورية الاصلية، والقصد المحرر للكتب من كل الاعراف والطقوس والمعتقدات التي أُخلطت باسم الدين. إن الامتياز الذي تنعم به تجاه القدماء، هو ان باستطاعتنا تحقيق ابطال الاسطرية هذا دون ان نرفض التاريخ بل إننا على العكس من ذلك سنقوم فيه بنشاط اكثر

وضوحا واقل استيلابا. لقد دخلت اشكال من الوعي مافتىء عددها يزداد في حوار نتابعه «مبادلة المنظورات» وذلك بفضل المطلب النقدي الملح المنفتح على الدعوة والممارس بدون هوادة على الربوبيات التي ابتدعها الانسان وان القراءة التي نقترحها تستهدف تحسين ظروف هذا الحوار.

كل الرؤى السابقة تتطلب بالتأكيد أن تسند الى تحليلات تمارس على النصوص ويكون وازعها الدقة والاحتراز، كما تتطلب ابحاثا واسعة ومتنوعة، ومواجهات صارمة مع المعطيات المتغيرة للفكر العلمي الذي شهد تطورا شاملا. بيد أننا نأمل أن نورد مستقبلا مساهمة أكثر جوهرية في هذا المشروع الواسع. أما الآن فعلينا أن نعترف طوعا بأن عدم صبرنا على وضع حد للبداهات المشينة والتي لازالت تجد رواجا تجاه واحد من الاكثر النصوص المعروضة على نظر الانسان روعة، يكون قد حملنا على صياغات غير حذرة، وليتذكر القارىء كلما احس بذلك، أننا ندعوه الى التأمل أكثر مما ندعوه الى تقبل حلول نهائية. ومهما يكن، فإننا نستطيع أن نسجل النقط التالية كمكتسبات :

1) أن النقد التاريخي والفيلولوجي، مع كونه عملا اوليا لاغنى عنه في اتجاه التوضيح، يفقد ماله من حقوق تجاه الوصف الفينومينولوجي للدلالات كما تلقاها وعاشها الوعي الاسلامي.

2) أن العقل الجدلي المنضاف الى الخيال الرمزي، أو بتعبير آخر، الوعي اللامجزء هو وحده القادر على دمج كلم الوحي، بما فيه من «تناقضات» عملت ضمنه على ابراز العقل المعقلن، هذا «العقل الذي تأخذه الرجفة أمام كل صفحة من القرآن» كما يقول فولتير.

3) إن القرآن لا يمكن اعتباره مجرد وثيقة أدبية وتاريخية؛ هذا يعني انه يتوجب علينا بالضرورة قلب المنهج الذي عرف حظوة على يد الاصوليين القدامى والشراح المُحْدَثِيْنْ؛ فالايات لا تستمد معناها من «أسباب النزول» بل يمكنها أن تمد المؤرخ بدلائل حول وضع الثقافة والمجتمع في الجزيرة العربية ابان القرن السابع (الميلادي). إن ربط الآيات بالظرف التاريخي، معناه اعطاء مصداقية للفكرة الوضعية حول تنزيل انتهازي، حول نبي يدعو الاله لنجدته في اللحظات المناسبة؛ معناه أن نجمد فيما هو عارض، أهمية نص مقصده الاساسي ونتيجته الفعلية، هما تحريك التاريخ، لقد آن أوان مراجعة هذا الموقف القائل للكلام الماهوي الذي تطور في العصر الوسيط.

4) إن المطلب النقدي الملح فيما يخص التأويل قد وصل الى درجة صار فيها أمام خيارين، إما ان يحكم عليه بتكرار نفسه وتبدده في فحص الجزئيات، وإما أن يتجاوز نفسه نحو إعادة ائتلاف الكلم وتبعا لذلك نحو إعادة إئتلاف الوعي. والحال أن هذه المرحلة الجديدة من البحث ما لبثت تبدأ فهي الآن في طور النشوء.

ترجمة : العربي الوافي

الهوامش :

1 ــ يجب التنبيه مع ذلك الى المحاولة الشجاعة لاستاذ مصري، محمد خلف الله الذي نشر سنة 1953 أطروحة مجددة عن «الفن القصصي في القرآن» الطبعة الثالثة. القاهرة 1965.

2 ــ من هنا نفهم لماذا لا يستطيع الاستشراق ان يقدم شهادة مماثلة : فهو يبدي احتراما يقود من الوجهة العلمية البحتة الى جعل العقل في حل من كل التزام. وعلينا ان نعترف إذن ان مسألة العلاقات بين الوحي والحقيقة والتاريخ لا تشغل الا بعض الباحثين : راجع : H.I. Marrou, Théologie de l'Histoire. Seuil 1968

3 ــ لقد تحدد الكلام في القرون الوسطى «كحجاج دفاعي» ايضا الا أنه حافظ حتى في بعض جزئياته الجدالية على مفهوم للتعالي يفتقر اليه المعاصرون اكثر فاكثر فهؤلاء لم يتوفقوا حتى الآن في ان يحملوا على عاتقهم ضرورة النقد لعصرنا الراهن ولا أن يحيوا بشكل حقيقي الوعي الشامل للقدماء

4 ــ لتحديد التعابير أو المفاهيم الواردة بين مزوجتين يراجع Y.M.J. Congar: le moment «économique» et le moment «ontologique» dans la Sacra doctrina (Revelation, Theologie, somme théologique), in Mélanges, M.D Chenu 1967 pp135.

5 ــ نفضل استعمال كلمة فاصلة بدل حاسمة لان النعت مستعملا في هذا السياق يحيل الى الفصلة أو الانفصال Rupture. (المترجم)

6 ــ المرجع نفسه p. 146

7 ــ Exode, III, 14

8 ــ يفتح تخطيط الفاتيكان الثاني حول الاديان، افاقا في هذا الاتجاه بدون ان يتخلى على الاقل منهجيا عن الوطن الوحيد للحقيقة الدينية اي الكاتوليكية الذي ستتجه نحوه وتلقي فيه الاشكال الاخرى للتعبير عن الارادة الالهية، غير انه يظهر لنا في عصرنا هذا الذي تسوده الايديولوجية السوائية، أنه يتوجب على المشروع اللاهوتي ان يراوح الخطو على الاقل مع المشروع الفلسفي «فالايمان الباحث عن العقل» يجب ان يكتمل على جميع مستويات البحث بالعقل الذي ينشد الايمان. ثم ان هناك تواطؤا موضوعيا بين الأيديولوجية السوائية غير ذات الاسس البيولوجية النفسية الانطولوجية وبين علوم اللاهوت الدوغمائية المؤسسة على الكتابات (الكتب المقدسة) الجزئية المحرفة عن مواضعها كما يقول القرآن.

9 ــ تمنا باشتقاق هذا المصطلح من شفرة ذات الاصل العربي كما تقول القواميس الفرنسية، ونعني بالتشفير Déchiffrer فك رموز نص مغلق مكتوب برموز أو طلاسم تتطلب تفسيرا وتأويلا حسب قواعد معينة. (المترجم)

10 ــ هذا السعي يقترحه هـ.كوهية بالنسبة لتاريخ الفلسفة بكامله، راجع :
Les grandes Avenues de la pensee philosophique en France, Paris 1968

11 ــ راجع : T. Izutsu, Godand Man in the koran semantical analysis of the koranic weltanschaung tokyo 1964

12 ــ عندما نشدد على كلمة نص فاننا نريد بذلك التأكيد على ان الخطاب القرآني نظام شامخ التأسيس من العلاقات الدلالية (من حيث التداعيات والاقتضاءات و التعارضات) وهكذا فأن كل نص خاص أو آية لا يجد معناه الكامل الا اذا ارتبط بشبكات قاموسية منطقية تقود اعادة بنائها دوما الى النص.

13 ــ بمن فيهم المسلمون الذين لم يعودوا يحفظون القرآن حسب القواعد والاضطراء كما في الماضي.

14 ــ كما حاول القيام بذلك جـ. لابوم راجع : J. Labeaume, Le coran analysé ومن بعده مصطفى عبد الباقي، تفسير آيات القرآن الكريم القاهرة 1955.

15 ــ يجد القارىء تطبيقا أشمل لهذا المنهج عند T.Izutsu المرجع السابق

16 ــ من الفساد بالمعنى الارسطي (المترجم)

17 ــ لكل من هذه المفردات مضمون نفسي دقيق في القرآن.

18 ــ بدل المحافظة على كلمة ميث، سنستعمل اسطورة مقابل Mythe وذلك لما تتيحه الكلمة من اشتقاقات؛ وهكذا ستقابل اسطرة Mythisation وإبطال الاسطرة Démythisation. كما سنستعمل أسطرية مقابل Mythologisation وإبطال الاسطرية مقابل Démythologisation. أما كلمة Mythologie، فقد درجنا على مقابلتها بأسطورية، غير اننا سنتخدم ايضا كلمة ميثولوجيا وهو شيء معتاد. (المترجم)

19 ــ راجع : G. Durand, L'imagination symbolique
P.U.F. 1964; M. Eliade, Aspects du mythe, Gallimard 1963

20 ــ هذا لا يعني ان الاساطير مطابقة لبعضها، بالعكس، ان منهجنا يمكن من تلافي المقارنات النصية والتاريخية اللاتحدية والتي تنتهي الى القول بعدم امانة القرآن تجاه العهد القديم والقول بالتحريفات والتبسيطات...الخ راجع تطبيقا حديثا لهذا النقد النصي عند : H.Speyer: die Biblischen erzählungen im Qoran Hildesheim 1961 فالامر يتعلق باظهار الكيفية التي يستعمل بها القرآن بطريقته الخاصة الشخوص والقصص، والرموز التي سبق توظيفها لارساء اسطوريته الخاصة فهناك تشابه في طرق التأسيس وفي هدفية الاساطير، في حين أن ثمة اختلاف في الوقائع التي يتم الوقوف عليها.

21 ــ هذا الموقف يمثله بشكل جيد في الاسلام تاريخ المذهب الحنبلي راجع هنري لاوست،
H. Laoust, Les Schismes dans l'Islam, Payot 1965

22 ــ راجع : P. Ricœur, La Symbolique du mal, Paris 1960, pp 55-57 et passim

23 ــ لقد قمنا بهذه المحاولة في القراءة باعتمادنا على اعمال الغزالي راجع :
Mohamed Arkoun, Révélation, et histoire d'après l'œuvre de Ghazali, Mélanges, J. schecht, studia Islamica XXXI

وفي هذه المحاولة نلتقي بالتفسير الماركسي ولكن مع اختلاف أساسي : فالدين ليس بالضرورة «افيون الشعوب» بل هو شكل من أشكال التحقيق التاريخي للانسان ومن ثمة فهو مرتبط بعاديات التاريخ حيث يخلد تأكيد المقدس.

24 ــ لدراسة هذه اللقاءات راجع عملنا : Contribution à l'étude de l'humanisme arabe au IVe siècle de l'hégire, Miskawyh philosophe et historien

اما الرمزيات الاربع فقد عمل على تجليتها وتمييزها. د. بارثيل راجع : P. Barthel, interprétation du langage mythique et théologique bibtique Leydé, 1963.

25 ــ راجع H. Corbin, Histoire de la philosophie islamique, Gallimard 1964

26 ــ راجع P. Ricœur, De l'interprétation, Seuil 1965, p41

27 ــ حيث ينتظم التعليم الافلاطوني الحديد (أثيولوجيا ارسطو) وعناصر من الغنوص مختلفة الاصول انتظاما اقل أو اكثر بواسطة مقولات ارسطو

28 ــ حول الطقس راجع : J. Cazeneuve, les Rites et la condition humaine, P.U.F. 1957
ولدراسة الطقوس الاسلامية فان احسن عمل يظل هو كتاب احياء علوم الدين للغزالي الذي لا يقف عند الوصف الخارجي للافعال والاشكال.

29 ــ راجع H. FLEISCH, Traité de philologie arabe t1 Beyrouth 1961

30 ــ والظاهر ان هذا التناظر يجب ان يؤول كعرض من أعراض الوعي الاسطوري الذي يوحد كل شيء في المقدس

31 ــ هذه الصياغة تعني فقط حركة التفاعل بين الثقافة والمجتمع. فلا يجب اذن ان نعتبر ان في الامر علية ذات اتجاه واحد

32 ــ راجع E. Benveniste, catégories de pensée et catégories de langue in, Problèmes de linguistique générale, Gallimard 66, PP. 63-74

33 ــ لقد كان تطبيق القياس الارسطي في صورته الشرعية اي قياس الغائب على الشاهد طامة كبرى على الفكر العربي الاسلامي اذ تحول الى «فعل عقلي لا شعوري» ساهم في تحديد الحقل المعرفي العام والمباطن (الابتسمي) الذي يتحرك ضمنه هذا الفكر مما ادى الى غفلته عن واقع متغير ووقوفه عند الفروع يردها الى الاصول والاشباه والنظائر وقياسه الحاضر و«المستقبل» على الماضي «لقد ترتبت على هذه الالية الذهنية التي اصبحت تشكل ــ ومازال ــ الفعل المنتج في نشاط العقل العربي نتائج خطيرة منها : الغاء الزمان والتطور : فالحاضر كل «حاضر» يقاس على الماضي وكأن الماضي والحاضر والمستقبل عبارة عن بساط ممتد لا يتحرك ولا يتموج عبارة عن «زمان راكد» ومن هنا لاتاريخية الفكر العربي» «راجع كتاب الاستاذ محمد عابد الجابري. نحن والتراث دار الطليعة، بيروت 1980. ص 13 ــ 16 راجع أيضا ما يقول الاستاذ عبد الله العروي عن الاستعمال التبريري للمنطق الارسطي لدى العرب القدماء العرب والفكر التاريخي دار الحقيقة بيروت 1973. ص 135. 136. (المترجم)

34 ـــ راجع : أبو حامد الغزالي، القسطاس المستقيم منشورات شلهوت بيروت 1959.
35 ـــ يتجلى ذلك مثلا في فكرة «الكسب» الاشعرية وفي القول «بالبداء» عند الشيعة (المترجم)
36 ـــ لاحظ على الخصوص الدور الذي لعبه المعتزلة في «الجهاز الايديولوجي للدولة» العباسية على عهد المأمون مما دعاهم الى اعادة تأسيس الاسلام وتجديده على اساس العقل «ففي عهد المأمون، كانت نزعة المعتزلة جهدا لتقديم عقيدة جديدة الى الامبراطورية الموسعة، عقيدة تستطيع ان توحد في ايمان واحد جماعات من السكان غير متجانسة، ولم يكن يمكن الحديث عن فرض هذه الوحدة التي لاغنى عنها، بالعنف والارهاب، لذلك فقد توجب ادماج التقاليد الثقافية الثلاثة الاكثر غنى : الاغريقي، والعربي والفارسي، مع اللجوء الى المعيار الوحيد المقبول من الجميع : العقل المجرد... وذلك هو القصد العميق لاعمال الجاحظ غير المتلاحمة ظاهريا» راجع كتاب الاستاذ عبد الله العروي الايديولوجية العربية المعاصرة. دار الحقيقة بيروت 1970 الصفحة 123 وما يليها (المترجم)
37 ـــ راجع H. Gorbin,
كلمة حلم Rêverie يجب اعتبارها في المعنى الذي جرى تحديده في اعمال غاستون باشلار.
38 ـــ وهو تاريخ الاستيلاء على سدة الحكم في بغداد من طرف البويهيين الذين كانوا على مذهب الشيعة، راجع هنري لاوست. المرجع السابق.
39 ـــ لقد كان التطابق المطلق لمقتضيات الشريعة مع العقل الشغل الشاغل للفقهاء الذين حملهم الفلاسفة على هذه الحادة، ولقد ساهم هذا بشكل فعال في اعطاء الاولوية للدين كمدونة قانونية طبقها القائمون على الامور تجاه الروح الدينية
40 ـــ حول علاقة الاسطورة باللغة من المفيد الرجوع الى عمل رولان بارث حول الاسطوريات الذي يعتبر فيه ان الاسطورة كلام Le mythe est une parole ولكن ليس أي كلام ذلك أن اللغة تقتضي شرطا كي تصبح أسطورة فهذه الاخيرة هي نظام للتواصل، انها خطاب أو رسالة لا تستخدم الكتابة فحسب بل الافعال والطقوس ايضا راجع : Roland, Barthes, Mythologies, seuil 1957 p 193. 194... (المرجع)
41 ـــ وهي المجموعة السياسية التي كانت تضم في العصر الوسيط جزءا من ليبيا الحالية وتونس و شرق الجزائر.
42 ـــ يبرز ذلك بشكل قوي في فكرة «البداء» التي يقول بها الشيعة، وهي من الافكار الاساسية التي ترتبط بالعصمة والامامة، اذا استبعدنا المعنى اللغوي، أمكن القول ان هذه الفكرة تعني عندهم ان الله يظهر ما خفي، ويظهر له امر بعد امر ورأي بعد رأي» فالبداء هو التغير الذي يحدثه الله في كتاب المحو والاثبات، فيثبت ما لم يكن مثبتا ويمحو ما اثبت فيه... والقول بالبداء رد على القول بأن الله فرغ من الامور... وهكذا يكون معنى البداء انه يتجدد لله تقديرات وإرادات حادثة كل يوم بحسب المصالح المنظورة له. فتكاليف الخلق تتبدل وتختلف، بتبدل الاوضاع والاحوال واختلافها» انظر ادونيس الثابت والمتحول الجزء الاول الاصول دار العودة بيروت 1974 ص 202. 203 (المترجم)
43 ـــ راجع الهامش رقم 8
44 ـــ هذا الموقف من قبل عالم اللاهوت قابل للتفهم، فهو يخشى ان تقود فلسفة الواقع الديني الى نهاية الاديان بسرعة، بيد ان هذه الاخيرة هي الآن في طور تحول تحت الفاعلية المفتتة لعوامل اخذت تقصي حتى انشغال الفيلسوف ذاته
45 ـــ حسب تعبير ريكور.
46 ـــ كل سنة يختار مرشح أو اثنان فقط الاسلام. لاجتياز شهادة تاريخ الاديان بجامعة السوربون.
47 ـــ وهو عنوان موح لعمل مشهور لمصطفى صادق الرافعي.
48 ـــ نستعمل تأرخية بالهمزة مقابل Historisation وذلك تمييزا لها عن تاريخية (بدون همزة) التي تقابل Historicité
49 ـــ ان عمل الجاحظ الكاتب الذي نال الاعجاب في القرن الثالث للهجرة يشهد على هذا بوضوح بيد ان الامثلة في هذا الشأن وفيرة.
50 ـــ في الوضع الحالي لمعارفنا حول الانسان، ليس بامكاننا ان نقول «مثيلا» لذلك أو «أقل» أو «أكثر» اذ ينبغي على بحث مفتوح ان يقول ذلك ولكن هل سيتوصل يوما بحث ما لهذا؟
51 ـــ نضيف، ولا حتى دين «السلف الصالح» الذي يثيره المسلمون كلما تاقوا الى بعث الدين «الصحيح».
52 ـــ K. Barth, cité dans H. Brouillard, K. Barth I, p. 54.

محمود أمين العالم

ثنائية «الارض ـــ السماء» في الفكر العربي الاسلامي المعاصر(*)

ما أكثر الثنائيات المتوافقة أو المتصارعة في نسيج الفكر العربي الاسلامي المعاصر.....

فهناك ثنائية الشرق والغرب، والقديم والحديث، والماضي والحاضر، والاصالة والمعاصرة، والتراث والتجديد، والنقل والعقل، والقلب والعقل، والايمان والالحاد، والدين والدنيا، الى غير ذلك. غير انه يمكن تجريد هذه الثنائيات المختلفة وتركيزها في ثنائية واحدة هي ثنائية السماء والارض، بحيث تصبح هذه الثنائية العمودية رمزا لتلك الثنائيات الافقية، أو العكس، فتصبح تلك الثنائية الافقية جذرا موضوعيا لتلك الثنائية العمودية ـــ الرمز.

ويختلف الموقف من هذه الثنائيات من تيار فكرى الى آخر. فهناك من يرفضون احد طرفي هذه الثنائيات مكتفين بطرف واحد منها، وهناك من يغلبون طرفا منها على حساب الطرف الاخر، وهناك من يحتفظون بطرفي الثنائية على نحو متواز أو متوازن أو متجاور وهناك من يحاولون تجاوز الثنائية تجاوزا جدليا، تأكيدا لطرف ثالث جديد.

وتحرص بعض هذه التيارات على تأكيد ان ثنائيتها او موقفها من هذه الثنائية أو تلك هو جوهر الفكر العربي الاسلامي قديما وحديثا، والحق انه ليس هناك جوهر ثابت للفكر العربي الاسلامي قديما وحديثا، فما اكثر التيارات والاتجاهات المتعارضة والمتصارعة التي تشكل التاريخ الحي لهذا الفكر. والقول بجوهر للفكر العربي الاسلامي، أو للشخصية العربية او للحضارة العربية، كما يفعل الكثير من الدراسين العرب والمستشرقين هو قول تجريدي غير تاريخي يطمس تلك التيارات والاتجاهات، بل يسعى لتجميد الرؤية الموضوعية لامكانيات وآفاق تطورهذا الفكر، بل اذا كان هناك اسلام واحد يتجسد في نصوص القرآن وفي السنة، فليس هناك اسلام واحد في الممارسات التاريخية والاجتماعية المختلفة والتي تتخذ من تفسيرها الخاص للقرآن والسنة سندا لمشروعيتها الخاصة. ولهذا كذلك لا يمكن القول بان الفكر العربي الاسلامي المعاصر هو مجرد امتداد للفكر العربي الاسلامي القديم، مما تشابهت بعض ظواهره، فكل فكر مرتبط ببنيته التاريخية والاجتماعية هو تعبير عنها ووظيفة فيها.

(*) نشر النص الفرنسي لهذا المقال في مجلة La Pensée عدد نوفمبر 1982.

ان الثنائية قسمة من قسمات الفكر العربي الاسلامي في العصر الوسيط، ولكنها لا تعد جوهر الفكر العربي الاسلامي الوسيط. وفضلا عن ذلك فان الثنائية قسمة كذلك في الفكر العربي الاسلامي المعاصر ولكنها ليست امتدادا لتلك الثنائية القديمة، لاختلاف جذورهما ومنطلقاتهما الاجتماعية. حقا هناك تأثير فكري، ولكن التأثير الفكري هو نفسه وظيفة اجتماعية مشروطة تاريخيا وليست تأثيرا في فراغ عبر الاثير اللاتاريخي. على ان هذا لا يعني انه لا توجد خصوصية عربية اسلامية، بل توجد هذه الخصوصية، لا على نحو مجرد مطلق ثابت خارج التاريخ أو فوق التاريخ، وانما هي خصوصية مشروطة بالمراحل المختلفة للتاريخ العربي الاسلامي، وبكل ما يحتدم فيها من ملابسات ومعطيات داخلية وخارجية، وهي متنوعة — لذلك — على المستوى القومي وعلى المستوى الطبقي، فضلا عن انها امكانية مفتوحة متطورة وليست نمطا جامدا ابديا.

الا ان البحث عن جوهر الفكر العربي الاسلامي، وعن خصوصية هذا الفكر، وخصوصية حضارته، ما زال سؤالا دائرا حائرا منذ القرن الثامن عشر حتى اليوم. والثنائية — في صورتها المتوازنة أو المتوازية — تكاد تكون بحق القسمة الرئيسية في مختلف التجليات والممارسات الدينية والفلسفية والادبية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية للفكر العربي الاسلامي الرسمي، أو الايديولوجية السائدة في العصر الحديث.

وسنحاول في الصفحات التالية ان نعرض لبعض النماذج الفكرية المعبرة عن هذه الثنائية في مختلف تلك المجالات التي اشرنا اليها ولنبدأ بالفكر الديني.

ان الاسلام دين توحيدي، ولكن دعواه تتضمن رؤية ثنائية تجمع بين الدين والدنيا، العبادات والمعاملات، الروحانية والمادية. ولكن يختلف الموقف من طبيعة العلاقة بين طرفي هذه الثنائية بحسب الملابسات والاوضاع التاريخية والاجتماعية. على ان هذه الثنائية تعد — على حد تعبير د. ماجد فخري[1] «عنوان امتياز الدعوة الاسلامية عن سائر الدعوات»، ولهذا يختلف عدد من المفكرين الدينيين مع بعض من يحاولون التجديد في الاسلام بقصر الاسلام على الجانب الروحي الخالص وترك امور الدنيا للاجتهاد العقلي الخالص. بل يعتبر الشيخ محمد البهي[2] أن هؤلاء يشوهون الاسلام باسقاطهم أحد مقومات الاسلام باسم الروحانية المحضة «وانهم يحرفون الايات والاحاديث التي تؤيد **ثنائية الاسلام**» (التوكيد من جانبنا). وطرف الثنائية الاسلامية الذي يرى الشيخ البهي في اسقاطه تشويها للاسلام ليس هو مجرد الجانب الدنيوي على اطلاقه، وانما الدولة أو السلطة تحديدا. فالاسلام عنده ليس مجرد دعوة روحية بل هو جهاد ودولة كذلك[3]، وهو في الحقيقة يعبر بهذا عن جوهر فكر الاخوان المسلمين. فبرغم الطابع الاحادي لفكر حركة الاخوان المسلمين الذي يرفض بحسم ثنائية «الدين — المدنية الغربية» ويعتبر هذه المدنية جاهلية لابد من القضاء عليها، فاننا نجد الثنائية في نسيج فكر هذه الحركة وممارستها العملية. فمن ناحية هناك هذه الرؤية التوازنية بين المشيئة الالهية

والمشيئة الانسانية، بين المشيئة المطلقة الالهية وثبات السنن الكونية، بين عبودية الانسان المطلقة لله ومقام الانسان الكريم في الكون، على حد تعبير سيد قطب في الفصل الذي خصصه للتوازن(4) في كتابه «خصائص التصور الاسلامي ومقوماته» على اننا نلاحظ ان هذه التوازنية التي يقول بها سيد قطب انما تجنح للطرف الالهي اساسا. ومن ناحية اخرى نجد في فكر هذه الجماعة الدعوة الثنائية التي تجمع بين الايمان والجهاد، بين القرآن والسيف، بين الدعوة الدينية واقامة الدولة الدينية(5) وهي ثنائية تسعى لكي يصبح التشريع الديني هو شريعة المجتمع، ونلاحظ ان هذه الثنائية ــ رغم مظهرها الثنائي ــ هي في جوهرها احادية كذلك.

على اننا في الفكر الديني الحديث نجد ثنائية اخرى هي في الحقيقة القسمة الاساسية في فكر عصر النهضة ثم عند من يسمون بالمجددين عامة، وهي ثنائية توفيقية بين الدين والمدنية الغربية نتبينها عند الشيخ رفاعة رافع الطهطهاوي وخير الدين التونسي وجمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده والشيخ على عبد الرازق وخالد محمد خالد وغيرهم. انها ثنائية التوفيق بين النقل(6) والعقل، بين التراث والتجديد، بين مبادىء الدين الاسلامي وحقائق المدنية الحديثة، بين احترام النص الديني وضرورة التأويل والاجتهاد بما يتلاءم ومقتضيات الحياة الجديدة، وهي ثنائية رغم طابعها التوفيقي تجنح دائما الى الطرف العقلاني.

وهكذا نجد في الفكر الديني، أكثر من ثنائية، هي ثنائية العلاقة بين الله والناس، وثنائية العلاقة بين الدين والسلطة، وثنائية العلاقة بين الدين والمدينة الحديثة، الى غير ذلك. على ان جميع هذه الثنائيات الدينية وغيرها تنبع من ثنائية اولى هي ثنائية العلاقة الاشكالية بين ثبات النص الديني وتجدد الحياة.

وتختلف طبيعة هذه الثنائية بغلبة طرف من طرفي الثنائية على الطرف الاخر. على انها في ارقى صورها لا تخرج عن حدود التوازن والتوفيقية بين الطرفين. ولكنه توازن وتوفيقية لا تخلو رغم هذا من تميز طرف على اخر.

اما في الفكر الفلسفي، فلعل الدكتور زكي نجيب محمود ان يكون ابرز الدين حاولوا ان يصوغوا من الثنائية فلسفة تعبر عن الاصالة العربية على حد قوله. ففي كتابه «تجديد الفكر العربي» يسأل : «هل من سبيل الى انتاج فلسفي عربي اصيل ؟» ويجيب : «لو تأملنا(7) ضمائرنا لوجدنا هناك مبدأ راسخا عنه انبعثت، وما تزال تنبعث، سائر أحكامنا في مختلف الميادين:.. وأعني به مبدأ الثنائية التي تشطر الوجود شطرين لايكونان من مرتبة واحدة ولا وجه للمساواة بينهما، هما الخالق والمخلوق، الروح والمادة، العقل والجسم، المطلق والمتغير، الازلي والحادث، أو قل هما السماء والارض»، والى جانب هذا الطابع الديني لهذه الثنائية، نجد لديه ثنائية اخرى هي ثنائية التوفيق بين الثقافة العربية وعلم الغرب. فهو ينتقد من يرجع الى الماضي أو من يتجه رأسا الى العلم الاوروبي بحثا عن الثقافة العربية المعاصرة، لأنه

«اذا كان الفريق الاول عربيا فليس هو بالمعاصر، واذا كان الفريق الثاني معاصرا فهو ليس بالعربي وانما العسر كل العسر هو ما تصدى له فريق ثالث ما زال يتحسس خطاه على الطريق بغية ان يصوغ ثقافة فيها علم الغرب وفيها قيم التراث العربي جنبا الى جنب لا، بل متضافرين في وحدة عضوية واحدة»(8).

ونلاحظ عند د. زكي نجيب محمود ان ثنائيته تفضي الى قيمة ثالثة هي وحدة عضوية بين طرفي الثنائية، وان كنا نلاحظ في كثير من نصوصه ترجيحا لطرف في هذه الثنائية، هو دائما الطرف الروحي. وعلى خلاف ذلك نجد مفكرا مصريا آخر هو د. عبد الحميد ابراهيم الذي يخصص كتابا ضخما في 588 صفحة لدراسة ما يسميه بالوسطية(10) العربية، يتفق فيه مع د.زكي نجيب محمود في ان الثنائية هي جوهر الفكر العربي الاسلامي، ولكنه يختلف معه في طبيعة العلاقة بين طرفي الثنائية، فهي ليست علاقة عضوية بل علاقة تجاورية، متوازية، ومتوازنة. وهو يتخذ من النخلة رمزا لفكرته. فالنخلة على حد تعبيره هي الرمز الذي «يعبر عن الروح العربي الذي يتجاوز الشيئين وأحيانا الضدين».... «فالنخلة اذن تجسيد للروح العربي الذي يتجاوز فيه الشيئان، ان رأسها في الشمس وأقدامها في الماء.»(11) على انه يشير الى رمز آخر هو القسطاس او الميزان اذ انه «يفيد الوسطية بالمعنى الاسلامي الذي يراعي الجانبين أو الكفتين ويقيم توازنا بينهما(12)» وهو يدعم رأيه بأول سورة نزلت بالمدينة على النبي وهي «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس»(13) وهو يميز بين الوسطية الارسطالية وهذه الوسطية الاسلامية فالوسطية الارسطالية وسطية ــ كما يقول ــ تجعل شيئا في مقابل شيئين، فضلا عن انها عقلية استنباطية سكونية على حين ان الوسطية تجاورية تجمع بين شيئين مختلفين وهي وسطية حياة يعيشها العربي(14) انها دنيا ودين مادية ومثالية، واقع وخيال خير وشر، ومن هنا كانت اقرب الى واقع الانسان وتركيبه، بل هي تحل إشكال مسألة الشر والقبح. فالشر لازم والقبح لازم والظلم لازم، ولن يفهم الخير والجمال والحق الا من خلال الاضداد، والوسطية العربية تعترف بالاضداد وترى انها لازمة لمسيرة الحياة (15). واذا كانت الوسطية العربية الاسلامية تختلف مع الوسطية الارسطالية فهي تختلف كذلك مع الجدلية الماركسية لأنها تجاورية وليست جدلية.(16) وهو يضرب مثالا لبيان هذه الطبيعة التجاورية بموقف اهل السنة من العلاقة بين الارادة الالهية والارادة الانسانية. فليس هناك تناقض بين الارادتين على حد تعبير ابن تيمية، بل هناك جمع بينهما، يبينه الغزالي على النحو التالي: «ففعل النار الاحتراق ــ مثلا ــ جبر محض، وفعل الله تعالى اختيار محض، وفعل الانسان على منزلة بين المنزلتين، فانه جبر على الاختيار، فطلب اهل الحق لذلك عبارة ثالثة، لأنه لما كان فنا ثالثا وائتموا فيه بكتاب الله تعالى، فسموه كسبا، وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه»(17).

ونلاحظ ان الثنائية عند د. عبد الحميد ابراهيم تفضي الى موقف ثالث يحتفظ في داخله بطرفي الثنائية ولا يوحد بينهما توحيدا عضويا.

ونجد مفكرا آخر هو د. محمد عمارة يقول بالثنائية في قلب التوحيد نفسه ! فالتوحيد الاسلامي ليس توحيدا دينيا فحسب، بل هو توحيد قومي كذلك. فالتوحيد الديني والتوحيد القومي وجهان «لعملة واحدة ترمز لحضارتنا العربية الاسلامية، حضارة التوحيد»[18] ومن فكرة التوحيد هذه يبرز مفهوم التوازن بين المتقابلات والمتناقضات واتخاذ الموقف الوسطي العادل... الذي يثمر «الموقف الثالث» الوسطي ويتساءل د. عمارة ! لماذا فقدت حضارتنا العربية الاسلامية استقلالها ؟ ويجيب لانها فقدت خاصيتها اي طابعها الوسطي المتوازن، اي اصيب توحيدها بالتمزق والانفصام.[19]

مرة اخرى نجد ان القول بالثنائية يفضي الى القول بموقف ثالث ومع مفكر آخر — عرف بانه اديب اكثر مما عرف بأنه مفكر — هو توفيق الحكيم، نجد كتابا له مكرسا لهذه بعنوان «التعادلية» وتقوم التعادلية عند توفيق الحكيم على الفعل ورد الفعل بين طرفين متعارضين[20]. فهناك تعارض بين العلم والايمان، بين الفكر والعمل، بين القلب والعقل، بين الحرية الانسانية والارادة الالهية، بين الحكمة والقدرة، بين الفن والحياة. على انه لا توازن ولا تعادل في الحياة — كما يقول — بغلبة احد الطرفين على الاخر. ان مأساة الغرب كما يقول الحكيم : هي اختلال التوازن لمصلحة طرف واحد هو العلم وهو العمل وهو العقل. ولهذا يدعو الحكيم في كتابه ان تقوم الحياة على عمودين لا على عمود واحد أو كما يقول في مسرحيته «أوديب» هذه هي عظمة الحياة الشرقية... ان الشرقي يعيش دائما في عالمين، على حين ان الغربي يعيش في عالم واحد. يعيش الشرقي في عالمين متعادلين لا ينفي احدهما الاخر.[21] والتعادل عند الحكيم يكمن في بقاء القوتين المتعارضتين معا دون ان تتلاشى إحداهما، بما يتفق وفلسفة التجاوز عند د. الحميد ابراهيم. وان كنا نجد عند الحكيم ميلا في تعادليته الى الطرف الروحي الوجداني على حساب الطرف المادي العقلي.[22] ملتقيا في هذا مع ثنائية د. زكي نجيب محمود.

ونكاد نجد فلسفة توفيق الحكيم التعادلية متجسدة في مسرحياته ورواياته وقصصه بل في مواقفه الاجتماعية والسياسية.

ولعل هذا ينقلنا الى مجال الادب. ففي جميع كتاباته الادبية والمسرحية خاصة هناك صراع بين ثنائيات مجردة، ففي مسرحية «شهرزاد» صراع بين القلب والعقل حيث العقل هو المأساة والقلب هو الخلاص، وفي مسرحية «اهل الكهف» صراع بين الزمن المادي الموضوعي وبين القلب، وفي مسرحية «بيجماليون» صراع بين الفن والحياة، وفي مسرحية «اوديب» صراع بين الارادة الالهية والارادة الانسانية وهو صراع اقرب الى التوفيق والمصالحة بين الارادتين، فلا نجد سيطرة القدر التي نتبينها في المسرح اليوناني القديم، ولا التحدى الانساني البروميثيوسي الذي نجده في المسرح الاوربي الحديث، وكذلك الامر في مسرحية «رحلة الى الغد» التي تعبر عن الصراع بين العلم والايمان، بين العقلانية والروحانية، بين الغرب والشرق، والتي تكاد ان

تكون تسفيها للعلم والعقلانية لحساب الايمان والروحانية وهكذا الامر في بقية اعمال توفيق الحكيم الادبية[23] بشكل عام.

على اننا نجد هذه الثنائية المتصارعة كذلك في اعمال المفكر والاديب التونسي محمود المسعدي. ففي مسرحية «السُد»[24] يحتدم هذا الصراع بين «غيلان» رمز العقل ــ المغامرة ــ الممكن ــ، «وميمونة» رمز الحياة والفطرة والارض والتسليم والاستقرار. وتنتهي المسرحية بتحطيم السد رمز المغامرة البرميثيوسية الفاشلة، على حين اننا في قصته «المسافر» نستشعر الدعوة الى انكار عالم البشرية والى الانتساب الى عالم الوجود المطلق، الله[25]، ولكننا نجد في «حدث أبو هريرة[26] قال...» احتدام الصراع بين الشرق والغرب، بين الجسد والروح، بين «ريحانية» التي ترمز للجسد و «ظلمة» التي ترمز للروح، ويظل ابو هريرة معلقا بينهما بين الروح والجسد، بين السماء والارض ولا يجد في ذا أو في ذاك كامل ذاته كما يقول د. توفيق بكار[27] على اننا في الحقيقة نجده أقرب الى الارض منه الى السماء، ألم تنزل معه طعمه نفسها الى ارض المتعة ؟ على ان «اباهريرة ــ المسعدى» شخص متناقض ــ كما يقول د. بكار ــ نصف صوفى نصف بروميثى، قديم حديث، تراثى معاصر[28].

ومع نجيب محفوظ نتبين كذلك ثنائية متوازنة متجاورة في أغلب رواياته. بل يكاد عالم نجيب محفوظ ان يكون عالم الثنائيات المتوازنة، وتكاد المأساة في هذا العالم ان تكون في الخروج عن طرف من طرفى هذه الثنائية الموازنة فنجد في اغلب رواياته ثنائية رجل الدين ورجل العلم، او ثنائية المؤمن والمادي أو ثنائية الاخ المسلم والشيوعي. ورغم، ما بينهما من تعارض وتناحر في عالم نجيب محفوظ، فانهما يلتقيان ويتوازيان في هذا العالم بل يتساويات من حيث القيمة، بل انهما ــ الاخ المسلم والشيوعي ــ يتواجدان في نهاية روايته الكبيرة «الثلاثية» في عربة واحدة متجهة الى معتقل «الطور» وانهما ــ الدين والعلم ــ يلتقيان معا في رواية «اولاد حارتنا» ليصوغا ما يمكن أن نسميه التصوف الاشتراكي او الاشتراكية المتصوفة في رؤية نجيب محفوظ الادبية[29].

هذه النزعة الوسطية الثنائية نجدها كذلك في كثير من النظريات او الممارسات الاقتصادية السائدة في البلاد العربية، رغم اختلاف طبيعة العلاقة بين طرفى الثنائية واختلالها لصالح هذا الطرف أو ذاك، في هذه التجربة او تلك، عند هذا التيار السياسي أو ذاك. سنجد هذه الثنائية الوسطية الاقتصادية في فكر الاخوان المسلمين، كما سنجدها في برنامج احزاب الطبقة الوسطى عامة، كما سنجدها في ممارسات بعض الدول ذات النزعة القومية التقدمية، على ما بينهما من اختلاف، واختلال في العلاقة بين الطرفين، الثنائية كما اشرنا من قبل، نتيجة لملابسات ومعطيات داخلية لا مجال للتعرض لها هنا، انها ثنائية التوازن الاقتصادي بين التطبيق الماركسي والتطبيق الرأسمالي، بين التخطيط الاقتصادي الكامل، وليبرالية السوق الحرة، بين القطاع العام المؤمم والقطاع الخاص الحر. انها «النظام الاقتصادي الوسيط» على

حد تعبير الشيخ محمد الغزالي أحد قادة حركة الاخوان المسلمين في مصر. على ان هذا النظام الاقتصادي في اطار دعوة الاخوان المسلمين لا يخرج عن حدود الرأسمالية المرشدة، التي تقوم على تنظيم الزكاة دخلا ومنصرفا بحسب الشريعة، وتحريم الربا وتشجيع المشروعات الاقتصادية الوطنية الخالية من الاحتكار، فضلا عن تأميم المرافق الاساسية والموارد العامة كالماء والنور والوقود والنقل العام والمصائد العامة وما شابه ذلك(30)

ولن نخرج عن هذا المفهوم الاخواني في الفلسفة الاقتصادية التي نادى بها الزعيم المغربي علالا الفاسي والتي يتبناها حزب الاستقلال في المغرب، إنها دعوة وسطية متوازنة (!) بين الاقتصاد الموجه او الملكية العامة للمرافق الاقتصادية الاساسية، وبين الاقتصاد الليبرالي اي الملكية الخاص لمختلف المشروعات، فضلا عن منع تكتلات رؤوس الاموال الكبيرة، وتطبيق الشريعة الاسلامية بفضل الزكاة وتحريم الربا(31). ولهذا كذلك فهي رؤية رأسمالية مرشدة، لن تستطيع ــ سواء بسواء كالرؤية الاقتصادية الاخوانية ــ التحرر من التبعية للتقسيم الدولي للعمل. ان ثنائيتها تجنح جنوحا كاملا نحو تكريس البنية الاقتصادية الرسمالية ويكاد الدين ان يستخدم في اخفاء الطابع الاستغلالي، وفي اعطاء خصوصية موهومة لتغييب التبعية البنيوية للرأسمالية العالمية.

على اننا نجد في ممارسات بعض الانظمة العربية ذات التوجه القومي التقدمي بشكل عام وخاصة في تجربة البعث في سوريا والعراق، وفي التجربة الناصرية في مصر، هذا الاتجاه الثنائي الوسطي كذلك في المشروع الاقتصادي الذي يجمع بين القطاع العام والقطاع الخاص، بين التخطيط والليبرالية، ويسعى لتوازن علاقاته التجارية والاقتصادية بين الدول الاشتراكية والدول الرأسمالية وقد نجد في هذه التجارب ميلا أكبر وأعمق راديكالية نحو سيطرة القطاع العام على القطاع الخاص، والحرص على التخطيط في مواجهة قوانين السوق الحرة والتعامل ــ احيانا وعند الضرورة ــ مع البلدان الاشتراكية اكثر من التعامل مع البلدان الرأسمالية ومحاولة التحرر تدريجيا من التبعية المباشرة للتقسيم الدولي للعمل، وذلك بمحاولة الحد من النمو الرأسمالي، أو على الاقل محاولة وضع سقف اعلى لهذا النمو. على ان هذه المحاولات لا تنجح بنيويا في ايقاف نمو الطرف المعاكس الآخر ذي الركائز الاعمق في بنية اقتصادية لم تتغير جذريا في البنية الرأسمالية التابعة والتي يعاد انتاجها باستمرار رغم كل النوايا الحسنة وكل الشعارات المتقدمة والمشروعات الجزئية. ان الانقلاب الاقتصادي الذي حدث في مرحلة السادات بما يسمى بالانفتاح الاقتصادي والذي تسلح ايديولوجيا بثنائية «العلم والايمان»، لم يهبط من اعلى، ولم يكن مجرد غزو من الخارج وانما كان ــ اساسا ــ انتصارا لطرف من طرف الثنائية المتوازنة (!) في قلب تجربة الاقتصاد الناصري.

وفي الفكر والممارسة السياسية والاجتماعية نجد نفس هذه الثنائية المتوازنة حينا، والتي تميل الى هذا الطرف او ذاك في اغلب الاحيان، ولعل «علال الفاسي» ان يكون اصرح من

عبر عن هذه الثنائية كفلسفة عامة لحزب الاستقلال المغربي بتبنيه لكلمة التعادلية «كفلسفة لهذا الحزب» واقرار الحزب لذلك رسميا في الوثيقة التي اصدرها الحزب في 11 يناير 1963[32]. والتعادلية عند حزب الاستقلال ــ فلسفة تسعى الى تحقيق التعادل في المجتمع حتى «لا تطغى فيه قوة على قوة ولا تطغى فرصة على فرصة ولا تطغى فيه طبقة على طبقة[32]». وإنها دعوة الى «مجتمع بلا طبقات» ولكن كيف ؟ ان ذلك لا يعني ان الطبقة غير موجودة، أو ان الطبقية ستختفي... «ولكن يعنى الحد من غلواء الطبقات المسيطرة اقتصاديا واجتماعيا وسلطويا لانشاء مجتمع متقارب في طبقاته، تستغل كل طبقة ممكناتها لصالح[33] المجموع». ان الصراع الطبقي لا يدخل اذن في المشروع التعادلي ذلك مشروع التوازن والتقارب والمصالحة الطبقية. ينعكس هذا بالضرورة في شكل الحكم. انه التوازن بين الملكية والديموقراطية الليبرالية، فهما طرفان لابد منهما للتعادل السياسي والاجتماعي، ولهذا فالتعادلية ــ كما يقول احد مفكريها وهو «عبد الكريم غلاب» ــ حينما يقيمها دارس متفتح بعقلية عملية مستقلة سيجد كثيرا من مبادئها ونظرياتها في صميم اليسار، بالمفهوم الاوروبي، وسيجد كثيرا من مبادئها ونظرياتها في صميم اليمين بالمفهوم الاوروبي، ولكن التعادلية ترفض ان توصف بانها يمين أو يسار لأنها تتسم بالاستقلالية وترفض ان تكون ذيلا تابعا ليمين اوروبي أو يسار أوروبي»[34] فضلا عن انها ذات ايديولوجية دينية اسلامية ذات خصوصية قومية. إنها ثنائية فكرية ترتفع الى طريق ثالث لتخفي بخصوصيته الدينية والوسطية بنيتها البرجوازية وطبيعتها السياسية التوفيقية.

ونستطيع كذلك ان نتبين هذا الاتجاه الثنائي الوسطي في الاتجاه السياسي ومن منهج الممارسة السياسية لكثير من الاحزاب والدول القومية ذات التوجه التقدمي وخاصة تجربة البعث والتجربة الناصرية. حقا ان الرؤية الطبقية في هاتين التجربتين اكثر راديكالية وأعمق علمانية من الرؤية التعادلية التوفيقية لدى «علال الفاسي» وحزب الاستقلال المغربي، وخاصة فيما اتخذتاه من اجراءات اقتصادية واجتماعية ضد الرأسمالية الكبيرة المندمجة المصالح مع الامبريالية العالمية، ولمصلحة العمال والفلاحين، فضلا عن كثير من الموقف الحاسمة ضد الامبريالية والصهيونية، الا ان هذه الرؤية وهذه الممارسة ــ رغم هذا ــ كان يسيطر عليها الطابع القومي العام، ويكاد ان يغيب عنها الطابع الطبقي في الممارسة في كثير من الاحيان، وان لم يغب هذا الطابع عن الشعار الرسمي المعلن، وقد انعكس هذا في بعض التيارات الفكرية التي اخذت تبرز في قلب هاتين التجربتين، مثل القول باشتراكية عربية (رغم معارضة عبد الناصر لهذا القول) ومثل الدعوة الى طرف ثالث بين الرأسمالية والاشتراكية على اساس من مفهوم قومي شوفيني، ومثل شعار «لا شرقية ولا غربية»[35]، ومثل تفسير الحياد الايجابي بانه موقف وسطي بين المعسكر الاشتراكي والمعسكر الامبريالي، ومثل استخدام مفهوم تذويب الفوارق بين الطبقات استخداما اصلاحيا، بديلا ومناقضا لمفهوم الصراع الطبقي، كما انعكس هذا كذلك على شكل تنظيم الجماهير، فجاءت التنظيمات السياسية تجميعا فضفاضا

للجماهير والفئات المختلفة دون تحديد طبقي لها، كما انعكس كذلك في تعريف العامل والفلاح، مما سمح لفئات اجتماعية برجوازية ان تتبوأ مقاعدها في المجالس النيابية باسم العمال والفلاحين، كما انعكس في الحد من الحريات الديمقراطية، والعداء للتنظيم الماركسي وان استفيد من بعض جوانب الفكر الماركسي. كما انعكس في بعض الاجراءات الاقتصادية القاصرة وخاصة في المجال الزراعي، كما انعكس في بعض الاحيان في محاولة ممارسة لعبة التوازن في السياسة الدولية بين المعسكرين الاشتراكي والامبريالي، وفي تغذية مفهوم علوي بيروقراطي للوحدة القومية، وفي تكريس واعادة انتاج المفاهيم الدينية السلفية والنزعات اللاعقلانية.

ولعل هذه الثنائية القلقة، والتي يغلب عليها في كثير من الاحيان الطابع الانفعالي والمثالي، والتي كانت تصل احيانا الى حد التناقض الحاد بين المفهوم القومي والمفهوم الطبقي في المنظور السياسي سواء على المستوى العربي أو على المستوى العالمي، أن تكون وراء ما نشهده اليوم من أوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية متردية في بعض بلاد عربية، كانت طليعة النضال من أجل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي والوحدة القومية الديمقراطية.

هذه بعض النماذج الفكرية المعبرة عن الثنائية في مختلف المجالات الدينية والفلسفية والادبية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وما اكثر النماذج الاخرى التي نتبينها عند العديد من المفكرين والكتاب العرب وفي العديد من الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية العربية. وإذا كنا لا نعتبر هذه الثنائية جوهرا للفكر العربي الاسلامي، قديما وحديثا، ونرفض القول بتقديمها وتأبيدها كما تحاول بعض الكتابات، فاننا نؤكد في الوقت نفسه انها سمة ايدولوجية سائدة في الفكر العربي الاسلامي، على الاقل منذ بداية عصر النهضة في القرن الثامن عشر حتى اليوم، على انها سمة مشروطة بالملابسات والأوضاع والمعطيات الاجتماعية والتاريخية طوال مراحل هذه الفترة التاريخية، ولهذا تتنوع وتختلف تجلياتها واشكال ممارساتها، وان تكن تصدر جميعها من الشرائح المتوسطة والصغيرة للبرجوازيات العربية التي تسيطر ايديولوجيتها على الفكر العربي طوال هذه المرحلة.

وقد كان من الطبيعي ان يستهل فكر عصر النهضة نشأته متسما بهذه الثنائية ذلك ان عصر النهضة كان تعبيرا عن البدايات الاولى لنمو البورجوازيات العربية، وخاصة في بلاد الشام ومصر، وكان في الوقت نفسه تعبيرا كذلك عن اجهاض النمو المستقل لهذه البورجوازيات منذ البداية، ففي الوقت الذي اخذت تنمو الجنينيات الاولى لهذه البورجوازيات العربية، كانت الرأسمالية الاوروبية قد اخذت تنتقل الى الطور الاحتكاري أي تتحول الى امبريالية وأخذت تتطلع الى استيلاء على امبراطورية «الرجل المريض» الدولة العثمانية، التي كانت معظم البلاد العربية آنذاك تحت سيطرتها.

ومنذ بداية انهيار الامبراطورية العثمانية، حتى هزيمتها اخيرا في الحرب العالمية الاولى، اخذت البرجوازيات العربية النامية تدخل شيئا فشيئا في اطار التبعية البنيوية للرأسمالية

الاحتكارية الاوروبية، واخذت تفقد قدرتها على النمو المستقل وكانت المرحلة الحاسمة في حياتها، وهي اواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين مرحلة زاخرة بالتناقضات المأساوية؛ اذ كانت هذه البرجوازيات العربية تواجه «عدوين ــ صديقين» في وقت واحد : لقد كانت الدولة العثمانية حاملة لراية الاسلام، ورمزا لوحدة العالم العربي في اطار الخلافة الاسلامية، ولكنها كانت في الوقت نفسه تمثل ابشع صور الاستبداد والقهر والتخلف. وكانت البرجوازيات العربية النامية ممزقة بين الدعوة الى اللامركزية في اطار الدولة العثمانية، وبين الدعوة الى الاستقلال القومي الكامل عنها. ومن ناحية اخرى، كان هناك هذا الوافد الاوروبي الجديد، الذي كان في البداية يحمل وجه الحضارة والصناعة والعلم والعمل والانتاج وقيم العقلانية والحرية والاخاء والمساواة، وكانت البرجوازيات العربية لا ترى فيه في البداية الا هذا الوجه الجميل. ولكن سرعان ما أخذ يتكشف لها وجهه الامبريالية القبيح، دون أن يفقد عند الكثير منها حقيقته كحضارة وكقيم متقدمة. وفضلا عن هذا فان البرجوازيات العربية قد نشأت في معظمها من أحضان وجيوب كبار ملاك الاراضي شبه الاقطاعيين، ولم تنشأ بالصراع معهم كما كان الشأن في اوروبا. ولهذا اختلطت ايديولوجيتها الرأسمالية بالايديولوجية ما قبل الرأسمالية. ولهذا كان الدين الاسلامي باختلاف نزعاته السلفية والتجديدية بعدا من ابعاد هويتها القومية بل خصوصيتها في مواجهة «الآخر» الغربي.

وهكذا تعقدت خريطة المتناقضات وتداخلت اطرافها، فكان هناك من يتمسكون بالخلافة الاسلامية العثمانية دفاعا عن وحدة الرباط الرسلامي للعرب، وحماية لانفسهم من الدخيل الاوروبي المسيحي، وتطلعا الى حكم محلي ديمقراطي في اطار الدولة العثمانية، وكان هناك من يناضلون ضد الدولة العثمانية تطلعا الى استقلال قومي، وتطلعا الى الغرب لا كاستعمار او امبريالية، وانما كحضارة جديدة تعبر عن قيم العقلانية والديمقراطية والتاريخية التي لها تراث عميق في خبرتهم الذاتية النامية. وكان هناك من يحاولون التوفيق بين الاسلام كدين او على الاقل كتراث وبين منجزات الحضارة الغربية ومتطلبات الحياة الجديدة، وكان هناك من يناضلون في آن واحد ضد الدولة العثمانية كسيطرة وضد الغرب كاستعمار، أو يناضلون ضد احد الطرفين لحساب الطرف الآخر. وكان هناك من يرفضون الغرب وحضارته جملة، ويدعون الى العودة الى الاصول، الى الينابيع الاولى الدينية كسبيل وحيد لاصلاح الحاضر. وكان هناك من يرون انه لا سبيل الى الاصلاح والتقدم الا بالقطيعة مع الماضي التراثي جملة والاندماج في الغرب الحضاري كلية.

وهكذا نشأت ــ ومازالت تتوالد ــ في الايديولوجية العربية السائدة، مختلف الثنائيات والمواقف المزدوجة بحثا عن اجابة لسؤال «النهضة» العربية المجهضة والتي ما تزال مجهضة حتى يومنا هذا. ذلك ان الهياكل المختلفة للاوضاع ما قبل الرأسمالية المتداخلة في الهياكل الرأسمالية التابعة، ما تزال منذ عصر «النهضة» المجهضة القسمة الرئيسية للواقع الراهن للبلاد العربية. وما

تزال ثنائية القلب والعقل، الدين والعقلانية، الدين والمدنية الحديثة، الدين والاشتراكية، الدين والقومية، القومية والاشتراكية، الرأسمالية والشيوعية، الاصالة والتحديث، التراث والتجديد، الشرق والغرب، السماء والارض، ما تزال ثنائيات توفيقية ــ على اختلاف وتنوع العلاقة بين طرفيها ــ تبشر أو توحي بطريق ثالث جديد، هو في الحقيقة تعبير عن ايديولوجية ثورية المظهر اصلاحية الجوهر، تخفي بخصوصيتها الزائفة استمرار إعادة انتاج البنية الاستغلالية التابعة المتخلفة، رغم كل «الفترينات» الخارجية اللامعة والكلمات الزاعقة حول خصوصية التحديث، أو تحديث الخصوصية، أو الخصوصية الخاصة جداً !!!

هل استطيع ان اقول في النهاية ان مستقبل العالم العربي وامكانية تحريره من التخلف والاستغلال والتبعية رهن بحسم هذه الثنائية الوسطية المزدوجة في الواقع العربي والفكر العربي على السواء ؟!

ولكن كيف ؟ ... هذا موضوع آخر يحتاج الى معالجة أخرى.

المراجـــع

1) د. فخري ماجد : دراسات في الفكر العربي. دار النهار للنشر 1977، بيروت. صفحة 258.
2) والمرجع السابق صفحة 259
3) د. البهي محمد : الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي مكتبة وهبة القاهرة 1964 الطبعة الرابعة فصل «الاسلام دين لا دولة !» ص 227 وما بعدها
4) قطب سيد : خصائص التصور الاسلامي ومقوماته، دار الشروق، لبنان، الطبعة الرابعة 1978 ص 136 وما بعدها.
5) البنا حسن : رسالة المؤتمر الخامس. نشر دار الاعتصام 1977 القاهرة صفحة 38 وما بعدها.
قطب سيد : معالم في الطريق. دار الشروق بيروت بلا تاريخ صفحة 55 وما بعدها.
6) عبده محمد : رسالة التوحيد، كتاب الهلال، فبراير 1964 القاهرة صفحة 42
7) محمود زكي نجيب : تجديد الفكر العربي دار الشروق بيروت 1971 صفحة 274
8) المرجع نفسه. صفحة 271 راجع كذلك فصل «التوفيق بين ثقافتين في كتابه «ثقافتنا في مواجهة العصر» دار الشروق بيروت الطبعة الثانية 79
9) المرجع نفسه صفحة 275
10) راجع ابراهيم عبد الحميد : الوسطية العربية : دار المعارف القاهرة 1979.
11) المرجع السابق : صفحة 48
12) المرجع السابق : صفحة 78
13) المرجع السابق : صفحة 79
14) المرجع السابق : صفحة 189
15) المرجع السابق : صفحة 188
16) المرجع السابق : صفحة 302
17) المرجع السابق : صفحة 217 وان كان المفكر المغربي محمد عابد الجابري يرى على خلاف ذلك ان المنطق الثلاثي القيم هو الذي يشكل الناظم الاساسي في بنية الفكر العربي في المشرق عند مختلف فرقه من معتزلة وأشاعرة وشيعة وفلاسفه، على حين ان المنطق اليوناني ثنائي القيم، ولهذا فهو يعتبر «الكسب» قيمة ثالثة، وبصرف النظر عن ·كرة

«الناظم الاساسي في بنية الفكر العربي في المشرق» التي تحتاج الى مناقشة، فالملاحظ ان الدكتور الجابري لا يدلل على وجود قيمة ثالثة مشتركة لدى المدارس الفكرية المختلفة بالنسبة لمفهوم او قضية معينة مهما اختلفت صيغة هذه القيمة الثالثة، وإنما ينتقى قيمة ثالثة في قضايا ومفاهيم متفرقة تختلف فيها المدارس الفكرية وتظل الثنائية هي السائدة. على أن القضية تحتاج الى مزيد من التأمل (راجع في ذلك : محمد عابد الجابري. نحن والتراث. دار الطليعة بيروت 1980 — صفحة 111 — 112

18) د. عمارة محمد : ماذا يعني الاستقلال الحضاري لامتنا العربية» مقال في مجلة الهلال المصرية. فبراير 1982 صفحة 9 — 10

19) المرجع السابق صفحة 11

20) العالم محمود امين : توفيق الحكيم الفكر والفنان، دار القدس بيروت 1975 صفحة 74.

21) نفس المرجع والوضع

22) نفس المرجع ص.ص 76 — 77

23) المرجع السابق : فصل مسرح الذهن ص 103 وما بعدها

24) المسعدى محمود : السُد : تونس 1955

25) المرجع السابق ص. 190 وما بعدها

26) المسعدى محمد : «حدث ابو هريرة قال...» تونس 1979

27) المرجع السابق : المقدمة ص. 36

28) د. بكار توفيق : جدلية الشرق والغرب، تحليل نص «حديث العمى» من «حدث ابو هريرة قال...» مجلة الحياة الثقافية عدد يناير — فبراير 1981 (ص. 22)

29) العالم محمود أمين : تأملات في عالم نجيب محفوظ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. 1980. ص.ص. 36 — 68 — 86

30) قطب سيد : العدالة الاجتماعية في الاسلام. مكتبة مصر ومطبعتها بلا تاريخ ص.ص 101 — 136

البنا حسن : «نحو النور» كتاب الدعوة. الشركة المصرية للطباعة والنشر 1977 ص.ص 114 — 115

31) الفاسي علال : النقد الذاتي : الطبعة الرابعة الرباط 1979 الباب الثالث الفكر الاقتصادي ص.ص 181 — 240

32) غلاب عبد الكريم : الفكر التقدمي في الأيديولوجي التعادلية 1979 ص. 34

33) المرجع السابق ص. 115

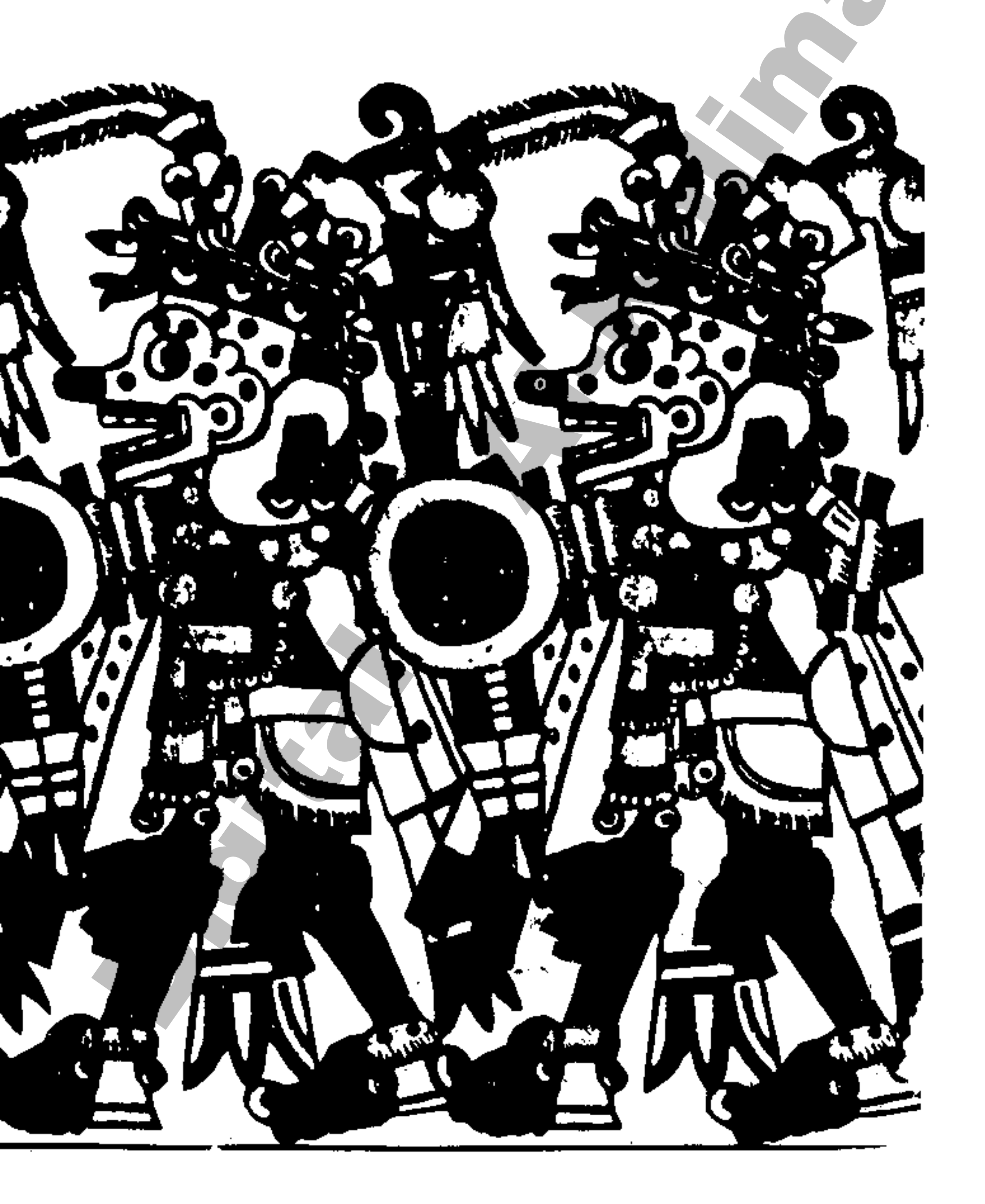
34) غلاب عبد الكريم : المرجع السابق ذكره ص. 200

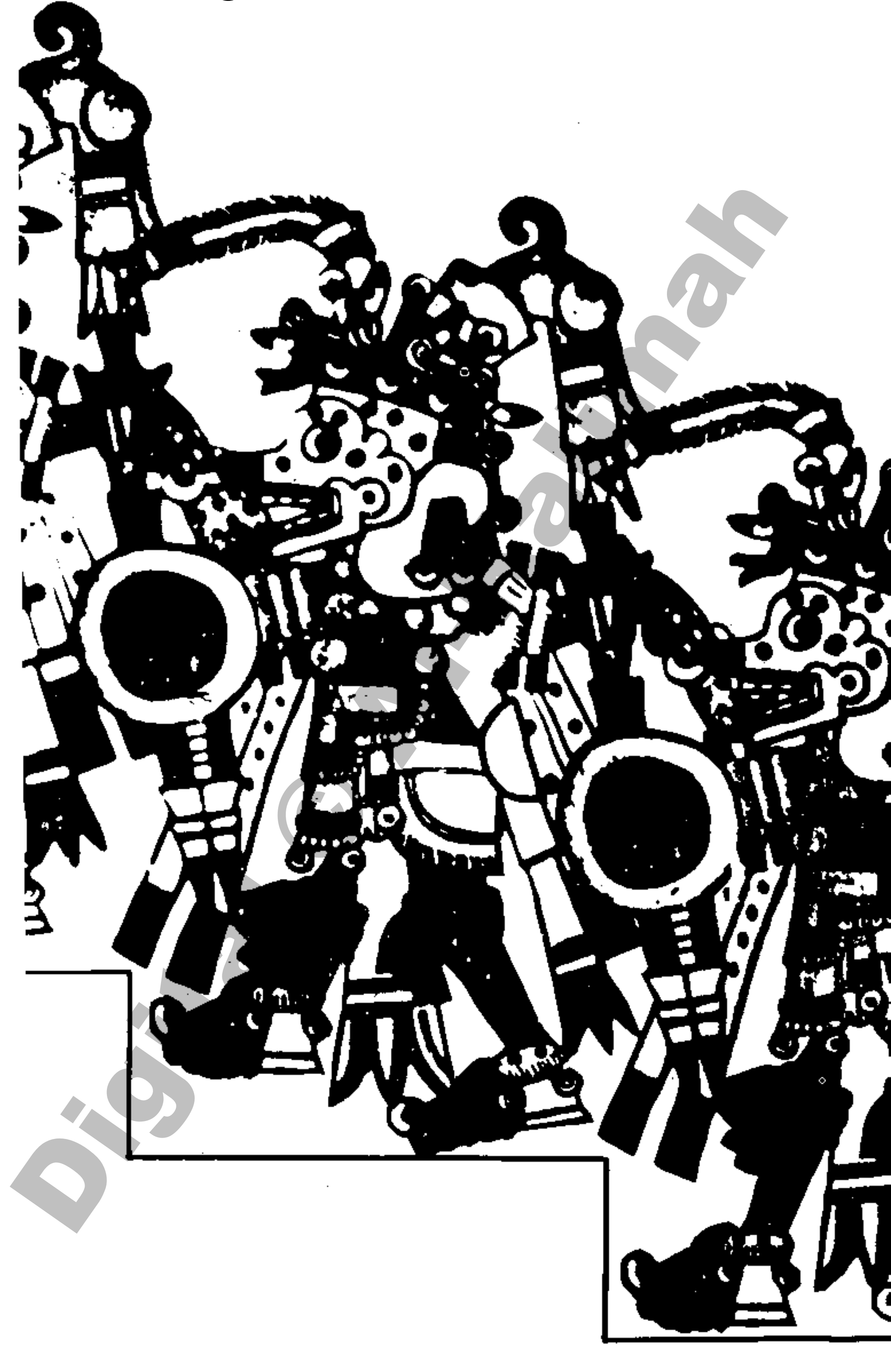
35) يجد الشيخ البهى في سياسة الحي والأنجاني ايديولوجية «لا هي بالشرقية الالحادية ولا هي بالغربية الصليبية» راجع كتابه المذكور سابقا ص. 5

الأسطـورة، الـدم، الغنـاء

(القصة القصيرة في اميريكا اللاتينية)

(ملــف)





يتفتح العالم العربي باستمرار على العطاء الثقافي الانساني، يعبر القارات والحضارات، ولكنه ما يزال، خاضعا عموما لسيطرة أروبا بفعل تعقد الأسباب وتداخلها، ذلك الخضوع الذي آن لنا أن نراجعه.

وقد حاولنا في «الثقافة الجديدة» التنبيه لأهمية هذه المراجعة برؤية تختار لمس الشمول، رغم ان استراتيجية المراجعة لا يمكنها ان تتحقق بغير توفر العديد من الشروط، لا ندعي ان «الثقافة الجديدة» مصدرها أو قصديتها المباشرة، لأنها اختيار حضاري قبل ان يكون مجرد مؤشر ينبثق من هنا او هناك ليندثر بعد لحظات، بحكم الوضع المعرفي، والاجتماعي ــ التاريخي للعالم العربي.

ضمن استراتيجية المراجعة لغيرنا (وبارتباط جدلي بمراجعة الذات) هيأنا هذا الملف الخاص بالقصة القصيرة في امريكا اللاتينية، لان الادب الحديث، في هذه القارة الراقصة بين الشمس والحجارة، والذاهبة في فضاء الاسطورة والدم والغناء، نتاج صراع بلوري مع الاستعمار الاسباني، وسعي مستمر لابداع نص يتأسس من صدى ومواقع التحولات الاجتماعية ــ التاريخية في الذاكرة الفردية والجماعية. انه نتاج حوار طويل وعنيف مع لغة المستعمر وآدابه، بتمازج فيها اثر الذات والغير.

بروز أدب أمريكا اللاتينية، شعرا وقصة ورواية، بل بروزها الابداعي (تشكيليا ومعماريا وسينمائيا) أساسه قوة التجربة، وسعة المعرفة، وقدرة فريدة على تذويب الثقافات والتقنيات في نص يختزن دوما لغز طبيعة وجسد راقصين على حد الحياة والموت. وهذا ما ميز أدب امريكا اللاتينية منذ مطلع القرن العشرين كإعادة انتاج للغة الاسبانية، وهو ما جعل الآخر (اسبانيا أولا ثم عموم أوربا فيما بعد) ينصت للانفجار الامريكي اللاتيني.

معايير هذا الملف ارتكزت اساسا على استقراء طويل النفس للعطاء القصصي في امريكا اللاتينية، فابتعدت بذلك عن الصدفة، واختارت منذ البدء مغامرة استقصاء يستنفذ امكانات التجربة القصصية، مستخلصة اهم الأعمال، لذلك لم نكتف بالوقوف عند أسماء بعينها، دون التغافل عن ابرزها، ولم تضيق المجال الجغرافي. **كان النص هو الأسبق مهما كان صاحبه، وحيثما وجد.** وليس ما يقدمه هذا الملف كافيا، ولا نهائيا. انه ما امكنت ترجمته، اضافة الى نصوص اخرى تعذر العثور عليها في اصلها الاسباني، وأخرى تم ارجاء ترجمتها اعتبارا لحجم المجلة.

يشمل هذا الملف حوارا مطولا مع غبرييل غرثيا ماركيث، نشر في 1982، وهو مدخل لرحلة تحتفظ بغرابتها ولغزها، ونماذج قصصية تظل برأينا اكثر تقدما وغنى وتمثيلية لهذا الجنس الأدبي في امريكا اللاتينية مع كلمة قصيرة عن الترجمة يختتم بها الملف.

تشمل هذه المختارات مرحلة تاريخية طويلة من الحداثة القصصية، نبدأ من الرواد (مثل أوراثيو كيروغا ـــ الأوروغواي) و (خوان رولفو ـــ المكسيك) وننتهي بالشبيبة (مثل خوسيه اميليو باتشيكو ـــ المكسيك). وطول المرحلة يتقاطع مع تنوع مستويات الكتابة، منها «التقليدية» التي رافقت بداية هذا القرن، ومنها المتقدمة جدا في تقنياتها، وهي التي تميز بها جيل السبعينيات.

لقد وضعت «الثقافة الجديدة» منذ سنتين هذا الملف ضمن سلسلة الملفات التي تنجزها، وتكلف كل من محمد العشيري ومصطفى المسناوي بالانجاز الذي تمت متابعة مراحله بكل دقة وصبر، لأن تقديم الملفات بالنسبة **للثقافة الجديدة** يعني **عملا نوعيا**، مهما كان بسيطا وأوليا.

وتكليف «الثقافة الجديدة» لكل من محمد العشيري ومصطفى المسناوي بهذا الملف يندرج ضمن التقاليد التي تجهد لتأسيسها، لانه برأينا الأسلوب الأكثر فاعلية في تغيير بعض الممارسات الثقافية السائدة. فبفضل معرفتهما بالاسبانية، واطلاعهما على التجربة القصصية في أمريكا اللاتينية،تمكنا من الاحساس باقتراب ملموس من تجربة هذا الجنس الأدبي، ومن عدم تكرار مأساة الترجمة العربية.

وبغية تنفيذ مشروع الملف زار محمد العشيري مدريد مرتين للاستطلاع وجمع اعداد من بعض المجلات، وقد كان هذا مفيدا رغم ان وفرة الاعداد لم تكن تحمل بالضرورة نصوصا جيدة.

أيضا تمت اتصالات بكتاب من امريكا اللاتينية، فوافانا الكاتب البانامي روخيليو سينان (ROGELIO SINAN) بمجموع اعماله، وساعد الشاعر المكسيكي هوغو غوثييريث بيغا (HUGO GUTIERREZ VEGA) في ترجمة بعض التعابير والكلمات المحلية الميكسيكية، اضافة الى جميل العون الذي خص به الأستاذ بيرنارد لوبياس (BERNARD LOUPIAS)، (استاذ الاسبانية وآدابها بكلية الآداب بالرباط) هذا الملف، من نصوص قصصية، واختيار ما يصلح منها للنشر، وكذا الشاعر البانامي روكي خافيير لورنثا (ROQUE JAVIER LAURENZA).

لهؤلاء جميعا نمد ورود التحية والصداقة.

الثقافة الجديدة

غَبْرييل غَرْثِيا ماركيث

رائحـة الْغُـوافَــة[1]

أحاديث مع :
بْلينيو أبولييو مينْدوثا

الأصــل :

كان القطار (قطار تذكره بعد ذلك أصفر مُغَبَّراً ومحاطا بدخان كثيف خانق) يصل إلى البلدة كل يوم في الحادية عشرة صباحا، بعد عبور مغارس الموز الشاسعة. حذاءَ السكة كانت تتقدم، عبر طرق طافحة بالغبار، عربات بطيئة محملة بعناقيد موز أخضر تجرها ثيران، وكان الهواء حارقا رطبا. والحرارة شديدة عند بلوغ القطار البلدة، والنساء المنتظرات في المحطة كن يحتمين من الشمس بمظلات ملونة.

كانت في عربات الدرجة الأولى كراسي من اغصان السَّوْحَر، وفي عربات الدرجة الثالثة، حيث يسافر العمال المياومون، مقاعد خشبية صلبة. احيانا كانت تجيء موصلة بالعربات الاخرى، عربةٌ ذات زجاج أزرق مبردة تماما، حيث يسافر كبار موظفي شركة الموز. لم يكن الرجال الذين ينزلون من تلك العربة يشبهون السكان الذين يلتقي المرء بهم في شوارع البلدة، فثيابهم ماكانت كثياب هؤلاء، وبشَرَتهم لم تكن في لون الخردل مثلهم، وكان مظهرهم يختلف كليا عن المظهر الناعس للسكان. كانوا حُمْراً كالاربيان، شقرا واقوياء، ويلْبسون على طريقة الرواد، خُوَذاً فلينية وَرَاناً، ونساؤهم كن (لما كانوا يجيئون بهن) هشات وكانهن مذهولات في ثيابهن الخفيفة من نسيج مَوْصِلِيّ.

«أميركيون شماليون» كان يفسر له جده العقيد بظل استخفاف، نفس الاستخفاف الذي كانت تتخذه الأُسَر القديمة في البلدة تجاه جميع الدخلاء.

لما ولد غبرييل، كانت اثار حمى الموز التي هزت المنطقة كلها قبل اعوام، مازالت موجودة. كانت اراكاطاكا تبدو بلدة من غرب اميركا الشمالية البعيد، ليس فقط بقطارها

---

(1) هذه هي الترجمة الكاملة (عن الاسبانية) لكتاب :
GABRIEL GARCIA MARQUEZ "EL OLOR DE LA GUAYABA".
Conversaciones con PLINIO APULEYO MENDOZA.
الذي صدرتْ طبعته الأولى في أبريل 1982، عن الدار البرشلونية BRUGUERA.

ودیارها الخشبية القديمة وشوارعها التي تغلي وتمتليء بالغبرة، بل بخرافاتها واساطيرها ايضا. كانت البلدة قد عرفت عَهْدَ ازدهار وتبذير حوالي 1910، لما نصبت الـ United Fruit مخيماتها في قلب مغارس الموز الظليلة. كانت الاموال تجري جريانا شؤبوبيا. النساء كن، حسب ما كان يقال، يرقصن الكومبيا[2] عاريات امام اقطاب المال الذين يقربون اوراقا نقدية من النار ليشعلوا بها سجائرهم.

هذه الاسطورة واساطير اخرى تشبهها، قادت الى تلك البلدة المنسية في الساحل الشمالي لكلومبيا حشودا من مغامرين وعاهرات، «نُفايات من نساء وحيدات ورجال كانوا يربطون بغلاتهم في عمود من اعمدة الفندق، حاملين معهم كمتاع وحيد صندوقا خشبيا او حُزَيْمَة ملابس».

لم تكن تلك العاصفة من وجوه غير معروفة وسط الشارع ورجال مبدلين ملابسهم في الطريق ونساء جالسات على الصناديق بمظلات مفتوحة وبغلات متروكة تموت جوعا في اصطبل «الفندق»، لم تكن بالنسبة الى الجدة ضونيا[3] طرانكيلينيا التي كانت اسرتها واحدة من اقدم اسر البلدة، سوى «الأوراق الساقطة»، اي الفُضالات البشرية التي اودعها الثراء الموزي في اراكاطاكا.

كانت الجدة تدير شؤون الدار التي تذكرها هو بعد ذلك كبيرة قديمة، بفناء يحترق فيه شذا شجيرة ياسمين في ليالي اشتداد الحرارة وغرف لاتحصي حيث يتنهد الموتى احيانا. لم تكن حدود مضبوطة جيدا بين الموتى والاحياء بالنسبة لضونيا طرنكيلينا التي كانت اسرتها قد جاءت من الغواخيرا، شبه جزيرة برمال حارقة وهنود ومهربين وساحرين. كانت تحكي أشياء خيالية وكانها حوادث يومية عادية. كانت امرأة صغيرة حديدية، ذات عينين زرقاوين مهلوستين، كلما ازدادت شيخوخة وعمى ازداد ضعف تلك الحدود بين الاحياء والموتى، فانتهت اخيرا متكلمة مع الميتين ومستمعة شكواهم وتنهداتهم وبكاءهم.

لما كان الليل ــ ليل المناطق المدارية الخانق الطافح بروائح الترديين والياسمين واصوات الجداجد ــ ينزل فجاة على الدار، كانت الجدة تجلس غبرييل (وهو وقتئذ طفل عمره خمس سنين) على كرسي وتمنعه من الحركة مخوفة اياه بالموتى الموجودين هناك : بالخالة بيطرا، بالخال لاثارو، بتلك الخالة مرغاريتا، مرغاريتا ماركيث التي ماتت وهي شابة جدا حلوة جدا، والتي ظلت ذكراها تحترق في ذاكرة جيلين للاسرة. كانت الجدة تقول للطفل : «اذا تحركت ستجيء الخالة بيطرا،هي في غرفتها. او الخال لاثارو.»

---

(2) الهوامش المرقمة من اعداد المترجم.

(2) رقصة شعبية كولومبية معروفة.

: من رواية «الاوراق الساقطة» لماركيث.

ظلت ذكراها تحترق في ذاكرة جيلين للاسرة. كانت الجدة تقول للطفل : «اذا تحركت ستجيء الخالة بيطرا،هي في غرفتها. او الخال لاثارو.»

(اليوم، بعد خمسين عاما من ذلك، عندما يستيقظ غرثيبيا ماركيث في جُنح الليل، في فندق بروما أوبانكوك، يسيطر عليه من جديد للحظة ذعر طفولته القديم ذاك : موتى قريبون يسكنون الظلام.)

تلك الدار التي عاش فيها طفلا لم تكن في الواقع لأبويه بل لجديه لامه. كانت ظروف خاصة قد جعلت منه طفلا تائها في عالم يكونه كبار مثقلون بذكريات حروب وازدهار وخصاصة ماضية. كانت لويسا امه احدى فتيات البلدة الجميلات، ابنة العقيد ماركيث، محارب قديم في الحرب الاهلية، محترم في الناحية كلها، وكانت قد ربيت في جو من الصرامة والعناية، جو قشتالي بالتاكيد، تختص به اسر الناحية القديمة التي كانت بهذه الطريقة تبقي الدخلاء والغرباء على مسافة.

كان الرجل الذي عبر تلك المسافة وجاء ذات مساء ليخطب لويسا هادئا مجاملا، احد هؤلاء الغرباء الذين يثيرون الارتياب داخل الاسرة. كان غبرييل اليخيو غرثيبيا قد جاء الى أراكاطاكا ليعمل ابراقيا، بعد ان انقطع عن الدراسة الطبية في جامعة قرطجنة. قرر ان يتخذ لنفسه مصير موظف عمومي ويتزوج لما وجد نفسه بلا امكانيات مادية لانهاء دراسته. بعد ان استعرض ذهنيا جميع فتيات البلدة، قرر ان يخطب لوسيا ماركيث : كانت جميلة وجدية للغاية، ومن اسرة محترمة. ذهب اذن عنيدا الى الدار ليعرض عليها الزواج، دون ان يقول او يكتب لها قبل ذلك ولو كلمة حب واحدة. لكن الاسرة اعترضت : لوسيا لايمكن ان تتزوج بابراقي. الابراقي كان من بوليفار، وهذه محافظة يمتاز سكانها بالزعق والصراحة، وليست لهم صرامة ورصانة العقيد واسرته.ثم ان غرثيثا ــ وهنا يبلغ السيل الزبى ــ كان من حزب المحافظين، وهو حزب حاربه العقيد ــ بالسلاح احيانا ــ حياته كلها.

أُرسلتْ لويسا مع أمها ــ بهدف إبعادها عن طالب الزواج ذاك ــ في رحلة طويلة الى بَلْدات أخرى ومُدُن بعيدة في الساحل. ذلك لم يُفِدْ : في كل مدينة كان يوجد ابراق، كان الابراقيون، وقد غَدَوْا مُساعدي زميلهم الذي في اراكاطاكا، يوصلون الى الفتاة رسائل الحب الذي كان هذا يبعثها بواسطة شفرة مورس. تلك البرقيات كانت تتبعها حيثما ذهبت، كما كانت الفراشات الصفراء تتبع مَوْريثيو بابيلونيا. أمام اصرار بهذه الدرجة، لم تجد الاسرة بُداً من الإذعان.. بعد الزواج، ذهب غابرييل إليخيو ولويسا للعيش في رييوآتشا، وهي مدينة قديمة على شواطيء الكاريبي كانت في الماضي هَدَفاً لهجومات القراصنة.

بطلب من العقيد وضعتْ لويسا ولدها الأول في اراكاطاكا. وتركتْ الوليد في رعاية جَدَّيْه، ربما بهدف إطفاء آخر جمرات الحقد التي أشعلها زواجها بالإبراقي. لهذا السبب كبر

غبرييل في تلك الدار، كان الطفل الوحيد وسط عدد كبير من النساء. ضونيا طَرَنْكيلينا التي كانت تتكلم مع الموتى كأنهم أحياء. الخالة فْرَنْثيسْكا، الخالة بيطرا، الخالة إلْبيرا : كلهن نساء خياليّات، مقيمات في ذكرياتهن البعيدة، كلهن بقابلية مُدهشة للاحساس بأحداث مستقبليّة وأحيانا لا يقلّ تطيُّرهن عن تَطيُّر هنديات الغواخيرا خدّامات الدار. هنّ كذلك كُنَّ يَعْتَبِرْنَ الخوارق اشياء طبيعيّة. الخالة فرنثيسكا سيمونوسيبيا مثالا، وكانت امرأة قوية لا تتعَب، جلستْ يوما تُخَيِّطُ كَفَنها. «لماذا تصنعين كفناً؟»، سألها غبرييل. «ياولد، لأني سأموت»، أجابت هي. وفِعْلا، لما أكملت الكفن استلْقَتْ على فراشها وماتت.

أهَمُّ شخصية في الدار كانت جَدّ غبرييل طبعا. في أوقات الأكل التي لم تكن تجمع كل نساء الدار فقط، بل كذلك اصدقاء وأقارب وَصَلوا في قطار الحادية عشرة، كان الشيخ يرأس المائدة. كان العقيد ماركيث أعور بسبب زَرَق اصابه. وكان ذا شهية متينة وبطن بارز وقدرة جنسية نشيطة تركتْ بذورها في عشرات الابناء غير الشرعيين عبر المنطقة كلها، وكان ليبراليَ المباديء ومحترما جدا في تلك البلدة. الرجل الوحيد الذي سبَّه في حياته مات على يده بفعل طلقة واحدة فقط.

شارك العقيد شاباً في الحروب الاهلية التي خاضها الليبراليون الفدراليون والاباحيون ضد الحكومات المحافظة التي كان يدعَمها كبار الملاكين والكنيسة والقوات المسلحة النظامية. آخر هذه الحروب (بدأت في 1899 وانتهت في 1901) تركت في ميادين القتال مئة ألف قتيل. شباب ليبرالي بأسْره أُهْلِكَ إهلاكا بعد أن تلقّى تكوينه في حُبِّ غريبالدي والراديكاليّة الفرنسية وذهب الى المعارك بأقمصة ورايات حمراء. حصّل العقيد على لقبه العسكري مُقاتلا في الاقاليم الساحليّة، حيث كانت الحرب بالغة الدموية، تحت قيادة الزعيم الاسطوريّ الليبرالي القائد رافاييل أوريبي أوريبي (شيء من مزاج أوريبي وكثير من ملامحه أخذها غرثيينا ماركيث لِيُكَوِّنَ شخصية العقيد أوريليانو بوينديا.[4]

نشأت بين الجد ابن الستين (الذي كان مازال يحيا في ذكرى الأحداث المذهلة لتلك الحرب) وحفيدِهِ ابن الخمس سنين (الذَّكَرَيْن الوحيدَيْن في أسرةٍ امتلأت بالنساء) صداقة فريدة من نوعها.

احتفظ غبرييل دائما بذكرى العجوز، بالطريقة البَطْرِيَرْكِيَة الهادئة التي كان يأخذ بها مكانه في صدر المجلس حول المائدة أمام الطبق المحتوي على السنكوتْشو[5] الذي يتصاعد منه الدخان، وسط الثرثرة النشيطة لجميع نساء الدار، بالنزهات التي كان يقوم بها معه عشيةً في البلدة، بالطريقة التي كان يقف بها وسط الشارع، بتنهدةٍ فُجائية، ليعترف له قائلا (له هو الطفل الذي لا يتجاوز الخامسة) : «أنت لا تعرف كيف يُثْقِلُ ميت»

(4) إحدى شخصيات «مئة عام من العُزْلة» الرئيسية.

(5) أكلة في أمريكا الوسطى والجنوبية يصنعونها باللحم والموز وغيرها ويستهلكونها في الغداء.

لم يَنْسَ غبرييل كذلك الصباحات التي كان العجوز يأخذه فيها الى المغارس ليعوم في أحد الجداول النازلة من الجبال. الماء الجاري جريانا سريعا، البارِدُ البالِغُ الصفاءِ بين أحجارٍ كبيرة بيضاء كأنها بيض قَبْتاريخي وصمتُ المغارس والصريرُ الغامض للزيزان عند بداية الحرارة والعجوز المتكلم له دائما عن الحرب الاهلية، عن المدافع التي تجرها بغلات، عن الحصارات، عن المعارك، عن المجروحين المحتضرين في أروقة الكنائس، عن الرجال الْمُعْدَمين في أسوار المقبرة : كل هذا بقي دائما يرتعش على الرُحْبَة الجليدية لذاكرته.

الأصدقاء الذين كان جده يلتقي بهم في مقهى ضون(6) أنطونيو دَسْكونْتي (نموذج لِبييطْرو كْريسبي، شخصية «مئة عام من العُزْلة») كانوا مثله ليبيراليِّين قُدامى حصلوا على رُتَبِهم العسكريِّة وسط البارود وقصف الحرب. نُقَباء وعُقَداء أو قُواد، كانت ذكرى تلك الحرب الوحشية مازالت مُضْطرمة في أحاديثهم الطويلة الطافحة بالحنين تحت مراوح المقهى، كأن ماحدث بعدها، بما في ذلك حُمّى الموز، لم يكن له أية أهمية في حياتهم.

كان العقيد العجوز المعتدل يعطي حفيده أهميةً قصوى. يُنْصت اليه، يَرُدُّ على جميع أسئلته. لما لم يكن يعرف كيف يُجيبه، كان يقول له : «تعال نَرَ ماذا يقول القاموس» (منذئذ تعلم غبرييل أن ينظر باحترام الى ذلك الكتاب الْمُغَبَّر المحتوي جوابَ عدد كبير من الألغاز) كان العجوز كلما نَصَبَ سِرْكٌ خيمتَه في البلدة، يأخذ الطفلَ من يده لِيُرِيَهُ الْغَجَر والبهلوانيين والْجِمال؛ وذات مرة عمِل على أن يُفْتَح له صندوق سمكٍ فَجّاجٍ مُجَمَّد ليكشف له سِرَّ الجليد.

كان يَفْتِن غبرييل أن يذهب مع جده حتى تُخُوم شركة الموز. في الجهة الأخرى من الشُبّاك السلكيّة التي تُسيِّجُ الْمُخَيَّم، كان كلُّ شيء يبدو نظيفا مُبَرَّدًا وبلا أية علاقة بالغُبار والحرارة الحارقة للبلدة. مسابح ذات مياه زرقاء حولها طاولات صغيرة ومظلات؛ حقولٌ شديدة الْخُضْرةُ يبدو كأنها مأخوذة من صورة لولاية فرجينيا؛ فتيات يلعبن التِّنِس : عالمٌ مُنْتَمٍ الى روايات سكوت فيتزجرالد وُضِع في قلب مناطق المدار.

كانت هؤلاء الفتيات الأميركيات الشماليات، وهن لابسات حسب موضة العشرينات بحيث كان يمكن جعلهن في مونبارناس اعوام الجنون أو في بهو فندق بلاثا بنيويورك، يخرجن عشية في سيارة للقيام بنزهة عبر الشوارع الحارقة لأراكاطاكا. كانت السيارة محسورة الغطاء وهن كُنَّ هشّاتٍ مرحات وكأنهنّ مُحَصَّناتٌ ضد الحرارة في ثيابهن الشفافة مِن مُوصِلِيٍّ أبْيَض، كُنَّ يجلسن بين كلْبَيْن هائلين. وكانت نظرات ناعسة تتابعهن من العَتَبات، عبر الغبار الذي ترفعه السيارة.

---

(6) السيد

ذالك الغبار، الفتيات، السيارة المحسورة الغطاء وهي تتجول في الشوارع عشيةً، العسكريون الشيوخ المهزومون والجد وهو يتذكر دائما حروبه، الخالات وهن يخطن أكفانهنّ، الجدة وهي تتكلم مع موتاها، والميتون وهم يتكلمون في حُجَر النوم، شُجَيْرَةُ الياسمين في الْفِناء والقطارات الصفراء الْمُحَمَّلة بالموز، وجداول الماء البارد الجاري وسط ظلال المغارس وكروانات الفجر : كل ذلك ذهبتْ به الريح، كما ذهبت بماكوندو في الصفحات الاخيرة من «مئة عام من العزلة».

كان موت الجد، وعمر غبرييل ثماني سنين، نهاية طفولته الأُولى، نهاية اراكاطاكا أيضا، بعد أن أُرْسِل الى العاصمة النائية الْمُضبِيَّة للبلاد، في الهضْبة العالية الممتدة، لم يرجع الى بلدته الا بعد زمن مِنْ تَرْكِهِ دراستَه القانونية، وفي زيارة سريعة، ليجد خراب ما كان فقَدَ وجودَه حتْماً.

جاء مع أمه لبَيْع الدار التي كانت لجده. في المحطة الغارقة في أسفل درجات الانحطاط، العامرة بالناس والمظلات الملونة سابقا، لم يكن يوجد أحد، ولهذا فبمجرد أن وَضَعَهُما القطار في صمت الظهر المتلألِيء الذي تُثَقِّبُهُ غناء الزيزان الحزين، استأنف سيره كأنما مَرَّ ببلدة اشباح. كان كل شيء يبدو مخربا مهجورا، مُلْتَهَما من طرف الحرارة والنسيان. كانت غَبَرَةُ السنينَ قد نزلت على الديار الخشبية القديمة وعلى أشجار اللوز الهزيلة الموجودة في الساحة.

بينما كان غبرييل وأمه يتقدمان وسط خراب الشوارع، مأخوذَيْن بالمفاجأة، حاولا أن يجعلا في ذلك المشهد الطافح بالرثاثة الذكرى البعيدة لتلك الأيام الزاخرة بالحركة والتبذير التي عاشاها. كانا يكادان لا يعرفان أماكن وديارا، دون أن يفهما كيف أمكن أن تُؤْوِيَ في الماضي أسَراً محترمة تنتمي إليها نساء مرتديات ثيابا فاخرة وقواد صارمون ذوو شعر كثيف في العارضَيْن.

أول صديقه وجدتْها أمه (كانت في ظُلَيْل غرفة، جالسة قُبالةَ مَكِنَة خياطة) لم يَبْدُ أوّل وهلة أنها تذكرتْها، فأخذت المرأتان تتبادلات النظر كأنهما تحاولان أن تعثرا وراء المظهر المتعَب الكهل على ذكرى الفتاتين الحُلْوتين الباسمتين اللتين كانتا في الماضي.

رنّ صوت الصديقة حزينا، وكأنه فوجيء :

ـــ أختي ـــ هتفتْ، قائمة.

تعانقت المرأتان وانفجرتا باكيتَيْن معا.

«هنالك، في ذلك اللقاء، خرجت روايتي الأُولى» يقول غرثيا ماركيث.

روايته الأُولى وجميع الروايات التي جاءت بعدها على الأرجح.

أهلـه

ــ ذكرياتي الأزخر بالحياة والأشد الحاحا لا تتعلق بالاشخاص بل بدار أراكاطاكا نفسها حيث عشت مع جدّتي. انه حُلْم يعود ومازال مستمرا. وأكثر مِنْ هذا : في كل يوم من أيام حياتي أفيق بالاحساس (الكاذب أو الحقيقي) بأني حلَمْت أني موجود في تلك الدار. لا أني رجعْت اليها، بل أني هناك، بلا عُمْر وبلا سبب خاصّ، كأني ما خرجت قطّ من تلك الدار القديمة الهائلة. ومع ذلك، فما زال مستمراً ذاك الذي كان شعوري الْمُهَيْمِن طوال تلك الفترة :القَلَق الليليّ. كان شعورا لا مفرّ منه، يبدأ دائما في المساء ويُقلقني حتى أثناء النوم، إلى أن أعود أرى عبر شُقوق الابواب ضوءَ النهار الجديد. لا أتمكّن من تحديده جيّدا، لكن يظهر لي ان ذاك القلق مصدره مُحَدَّد، وهو أن جميع تصوُّرات جدّتي ونذورها ومخاطبتها الموتى كانت تتجسّد ليلا. تلك كانت علاقتي بها : حَبْلًا لا مرئيا نتصل بواسطته بعالم فَوْطَبيعي. في النهار كان عالم جدّتي السحري بالنسبة لي فاتنا، كان عالمي الخاصّ. لكنه في الليل كان يُسَبِّب لي الذعر. مازلتُ اليوم، عندما أكون نائما وحدي في فندق بمكان ما من العالم، أستيقظ أحيانا فجأة مضطربا بفعل ذاك الخوف الرهيب الذي يسببّه لي وجودي وحيدا في الظلام، وأحتاج دائما الى دقائق لاخضاعه الى سلطان العقل والعودة الى النوم. أما الجدّ فبالعكس، كان اليقين بالنسبة لي داخل العالم الغير الاكيد لجدتي. القلق كان يتلاشى معه وحده، فأحسّ بقدميَّ على الأرض وبنفسي في الحياة الواقعية. الغريب في الأمر (بعد التفكير في ذلك الآن) هو أني كنت أحبّ أن أكون كجدتي ــ واقعيا، شجاعا، واثقا ــ لكني لا أستطيع أن أقاوم الاغراء الملح في الاطلال على عالم جدّتي.

ــ تكلّمْ لي عن جدّك. مَنْ كان ؟ كيف كانت علاقتك به ؟

ــ العقيد نيكولاس ريكاردو ماركيث ميخيا (هذا كان اسمه الكامل) هو ربما الانسان الذي تفاهمتُ معه احسن من أي إنسان آخرَ والذي كان لي معه أفضل اتّصال عرفْتُه في حياتي، ولكن، وعلى بعد خمسين سنة، يُخَيَّل إليَّ أنه لم يكن قط واعيا ذلك. هذا الظن الذي برز في نفسي زمن مراهقتي، كان بالنسبة إليّ (لا أدري لماذا) صدمة دائما. هو مثل إحباط، كما لو كان محكوما عليّ أن أعيش حتى آخر أيامي بشَكٍّ في حاجة الى توضيح، ولكنه لن يوضح أبدا، لأن العقيد مات لما كان عمري ثماني سنين. لم أرهُ يموت، لأني كنت أيامئذ في بلدة أخرى بعيدا عن أراكاطاكا، وحتى الخبر لم يَنْقُلْه لي أحد بطريقة مباشرة، بل سمعتهم يتحدثون عنه في الدار التي كنت فيها. أتذكر أنه لم يُثِرْ فيَّ ايّ أحساس. ولكن طَوال حياتي كإنسان بالغ، وكلّ مرة تحدث لي فيها شيء، وخصوصا كل مرة تحدث لي فيها شيء مفرح، أحسّ أن الشيء الوحيد الذي ينقصني لكي تكون فرحتي تامة، هو أن يعرف ذلك جدي. ولهذا فكل أفراحي وأنا إنسان بالغ كانت وستبقى حتى آخر أيامي تُشَوِّشها بذرة الاحباط تلك.

ــ أهُناك شخصية من شخصيات كتبك تُشبهه ؟

ــ الشخصية الوحيدة التي تشبه جدّي هي العقيد بلا اسم لرواية «الأوراق الساقطة». أكثر من هذا هو يكاد يكون نَسْخا دقيقا لصورته ومزاجه، ولكن ربما كان هذا ذاتيا، لأنه غير موصوف في الرواية، وراجح جدا أن يكون القارىء قد كَوَّن عنه صورة تختلف عن التي في ذهني. جدي كان قد فَقَدَ إحدى عينَيْه بكيفية بَدَتْ لي دائما أدبية بشكل مُفْرط، بحيث لا يمكن أن تُحْكى : كان يتأمّل مِنْ نافذةِ مكتبه جوادا أبيض رائعا، وأحسّ فجأة بشيء في عينه اليسرى، فغطّاها بيده، وفَقَد الرؤية بلا ألم. أنا لا أتذكّر الحدث، لكنّي سمعته يُحْكى مرات كثيرة وأنا طفل، وجدتي كانت دائما تقول في النهاية : «الشيء الوحيد الذي بقي في يده هو الدموع». ذاك العيب الجسميّ يوجد مُبَدَّلا في شخصية «الاوراق الساقطة» : العقيد فيها اعرج، لا أتذكر هل أقول ذلك في الرواية، لكني فكّرت دائما أن مشكلة تلك الساق نتجتْ عن جُرح في الحرب. الحرب الأهلية، حرب «الألف يوم»، التي كانت آخر حروب كولومبيا في السنين الاولى لهذا القرن، والتي حصل فيها جدي على رتبة عقيد ثوري الى جانب الحزب الليبرالي. الذكرى التي كان لها اكبر تأثير عليّ والتي أحتفظ بها لجدي. لها صِلَةٌ بذلك : قبل موته بقليل، كان الطبيب يفحصه في الفراش، لا أدري ما السَّبَب، وفجأة توقَّف عند نَدَبَةٍ قريبة جدا من أصل فخذه، قال له جدّي : هذه طلقةُ رصاص. كان قد تكلم لي مرات كثيرة عن الحرب الأهلية (ومن هنا جاء الاهتمام البارز في جميع كتبي بذاك الحدث التاريخي) لكنه ماقال لي قط إن تلك النَّدبة سبَّبَتْها له رصاصة. لما قال للطبيب ذلك، كان الأمر بالنسبة إليّ مثل إفْشاءٍ لشيء أسطوريّ بطوليّ.

ــ أنا اعتقدْتُ دائما أن العقيد أوْرِيليانو بوينديّا يُشْبِه جدَّك...

ــ لا، العقيد أوريليانو بوينديا هو الشخصية المناقضة للصورة التي احتفظ بها لجدي، كان هذا قصيرا سمينا، دمويَّ اللون، وكان زيادة على هذا اشرهَ أكولٍ عرفته، وزانياً خارقا للعادة، حسب ما عرفت بعد ذلك بكثير. أما العقيد بويِنْدِيينا فبالعكس، هو لا يطابق فقط الهيئة الْعَظَمِيَّة للقائد رافاييل أوريبي أوريبي، بل لديه كذلك نفس الميل إلى التقشف الذي عُرف به أوريبي أوريبي. هذا لم أرَهُ قطّ، طبعا، لكن جدتي كانت تحكي انه قبل ولادتي مَرَّ باراكاطاكا وكان في مكتب جدتي يشرب البيرة مع محاربين قدماء آخرين في الحروب التي خاضها. صورته التي احتفظت بها جدتي مُطابِقة للوصف الذي قامت به اديلايدا (زوجة العقيد في «الأوراق الساقطة») لما رأت الطبيب الفرنسي لأول مرة، هذا الطبيب الذي بداها (كما تقول هي بنفسها في الرواية) شبيهاً بعَسكريّ. ما سأقوله لا يُذْكَر في الرواية : في طَوِيتي أنا أعرف أنها كانت تعتقد أنه هو القائد أوريبي أوريبي.

ــ كيف ترى العلاقة بينك وبين أمك ؟

ــ ما يُمَيِّز علاقتي بأمي، منذ أن كنت طفلا، هو الجِدّ. هي العلاقة الأكثر جدا التي عرفتُها في حياتي، وأظنّ أنه لا يوجد أي شيء لا يمكن أن يقوله أحدنا للآخر ولا أي موضوع لا يمكن أن نعالجه، لكننا نكاد نكون فعلنا ذلك دائما، لا بروح صداقة حميمة فقط، بل أكثر من هذا بدقة قريبة من أن تُعْتَبر مِهْنِيّة. هو مفهوم يصعب تفسيره، لكنه هكذا، ربما كان ذلك راجعا الى أني بدأت أعيش معها ومع أبي لما كنت في سِنّ الادراك ــ بعد ما مات جدي ــ ودخولي الدار لاشك أنه كان بالنسبة اليها كدخول احد يمكن أن تتفاهم معه (وسط ابنائها الكثيرين الذين كانوا جميعا اصغر مني) ويساعدها على التفكير في المشاكل المنزلية التي كانت صعبة وغير سارة اطلاقا ضِمْنَ فقر بلغ أحيانا حد الادقاع. زيادة على هذا، لم تُتَحْ لنا قط فرصةُ العيش تحت سقف واحد لمدة طويلة متواصلة، لأني بعد ذلك بسنينَ قليلةٍ (لما بلغتُ الثانية عشرة) انتقلْتُ الى المدرسة، أولا في بارّانكيبا، وبعد ذلك في ثيباكيرا، ومنذئذ حتى اليوم لم يَرَ أحدنا الآخر الا في زيارات قصيرة، في البداية أثناء العطل المدرسية، وبعد كُلِّ مرة أذهب فيها الى قرطجنة، وهذا لا يحدث قط أكثر من مرة واحدة في السنة ولا يدوم قط أكثر من خمسة عشرَ يوما. هذا يخلق حتما مسافة في التعامل، حياءً يجد تعبيره الاكثرَ اراحة في الجِدّ. لكن : منذ حوالي اثني عشر عاما وأنا أكلمها في التلفون ــ منذ أن توافرت لدى امكانيات لاقوم بذلك ــ كل أحد في نفس الساعة، من أي بقعة من العالم، والمرات القليلة جدا التي لم اعمل فيها ذلك كانت بسبب استحالات تقنية. هذا ليس لأني ابن بار، كما يُقال، ولا لأني احسن من أي ابن آخر، بل لاني اعتبرتُ دائما أن تلك المكالمة الاحدية هي جزء من جد العلاقة التي تربط بيننا.

ــ أصحيح أنها تكتشف بسهولة مفاتيح رواياتك ؟

ــ نعم، في الواقع هي التي عندها أحَدُّ غريزة بين جميع قرائي، وعندها طبعا أفضل المعلومات لمعرفة شخصيات كتبي في الحياة الواقعية. هذا ليس سهلا، لأن جميع شخصياتي تكاد تكون كألغاز مُرَكّبة بأجزاء أشخاص مختلفين كثيرين، وبأجزاء مِنّي أنا طبعا. مَزِيّة أمي هي أن لديها في هذا الميدان المهارة نفسها التي لدى الأثريين لما يتمكنون من إعادة تركيب حيوان قَبْتاريخي بكامله، انطلاقا من فِقْرة واحدة وَجَدوها في حَفْر. هي اثناء قراءتها كتبي تحذف بكيفية غريزية خالصة الأجزاء المضافة، وتعرف الفقرة الاولية الاصلية التي بَنَيْت أنا حولها الشخصية. أحيانا، أثناء القراءة، أسمعها تقول : «آه، مسكين هذا الصديق، يبدو هنا كأنه مُخَنّث» أنا أقول لها ذلك غير صحيح، تلك الشخصية لا علاقة لها بالصديق، لكنني أقول ذلك لكي لا أبقى ساكتا، لأنها تعرف أني أعرف أنها تعرف.

ــ مَنْ مِنْ شخصياتك الانثوية تشبهها.

ــ لم أجعل أمي أساسا لأية شخصية قبل رواية «أخبار موت مُعْلَن». يوجد في مزاج أورسولا إغواران (شخصية «مئة عام من العزلة») بعض مميزاتها، لكن هذا المزاج لديه مميزاتٌ

أكثر لنساء أخريات عرفتُهن في حياتي. الواقع أن أورسولا هي بالنسبة لي المرأة المثالية، بمعنى أنها النموذج للمرأة الجوهرية كما أتصورها أنا. الشيء المدهش هو الحقيقة التي تناقض هذا: كلما تقدمت أمي في السن أشْبَهَتْ أكثر الصورة الجامعة لأورسولا التي كانت في ذهني، وتَطَوُّر مزاجها يتأكد في ذاك الاتجاه. لذلك يمكن أن يبدو دورها في «أخبار موت معلن» تكرارا لشخصية أورسولا. لكن الأمر ليس هكذا: شخصية هذه الرواية هي صورة أمينة لأمي، كما أراها أنا، ولذلك توجد هناك باسمها الحقيقي. التعليق الوحيد الذي سُمع منها حول هذا، هو الذي قالته لما رأت نفسها باسمها الثاني: سانتياغا. «آه، يا ربي — هتفت —، قضيت حياتي كلها وأنا أحاول أن أخفي هذا الاسم القبيح، والآن سيعرفونه في العالم كله وفي جميع اللغات».

— أنت لاتتكلم عن أبيك قط. كيف تتذكره؟ كيف تراه اليوم؟

— لما بلغت الثالثة والثلاثين، فكرت فجأة أن هذه كانت سنّ أبي حين رأيته لأول مرة يدخل دار جديّ. أتذكر ذلك جيدا، لأنه كان يوم عيد ميلاده، وسمعتُ أحدهم يقول: «بلغتَ سنّ عيسى». كان رجلا رشيقا أسمر مَزّاحا خفيف الروح، بكسوة كلها من نسيج مُحَبَّك وقبعة Canotier[7]. رجلا كاريبيا كاملا من الثلاثينات. الغريب في الأمر هو أنه الآن في الثمانين وصحته ممتازة بكل ما في الكلمة من معنى، ولا أتمكن من رؤيته كما هو في الواقع، بل كما رأيته تلك المرة الاولى في دار جدي. قال لصديق قبل مدة إني اعتبر نفسي كهؤلاء الفراريج الذين يولدون دون مشاركة الديك، كما يُقال. قالها بلا أية شائبة خُبْث، بل بالعكس تماما، وبطريقته الميالة الى الدعابة، كعتاب لأني دائما أتكلم عن علاقتي بأمي، ولا أتكلم عنه الا قليلا. عنده الحق، لكن السبب الحقيقي لهذا الاستثناء هو أني أعرفه معرفة محدودة جدا، وعلى كل حال أعرفه أقل جدا مما أعرف أمي. الآن فقط (وقد كدنا نُمسي في نفس السن، كما أقول له أحيانا) عقدنا اتصالا هادئا، أظن أن لدي تفسيرا للمسألة. لما بدأت اعيش مع والدي، في الثامنة من عمري، كنت أحمل في ذهني صورة ابوية راسخة جدا: هي صورة جدي. وأبي ليس مختلفا جدا عن جدي فقط، بل يكاد يكون نقيضه. كان مزاجه مختلفا تماما، وكذلك مفهومه للسلطة ومفهومه الشامل للحياة ولعلاقته بالأبناء. الراجح جدا هو أني، في سني وقتئذ، تأثرت بذاك التغيير الذي كان مفاجئا جدا. وكانت النتيجة أن علاقتنا، حتى مراهقتي، كانت بالنسبة لي صعبة للغاية، ودائما بسببي أنا: لم أكن قط على يقين حول كيف يجب أن يكون سلوكي أمامه، لم أكن أعرف كيف ارضيه، وهو وقتئذ كان صارما صرامة كنت أظنها لا فهما. ومع ذلك اعتقد أن كلانا حلَلْنا ذلك حلا جيدا جدا، لم نصطدم قط اصطداما خطيرا، لم نصطدم في أية لحظة ومهما كان السبب.

---

(7) بالفرنسية في الأصل. قبعة من قش.

«ومن جهة أخرى، أظن أن عناصر كثيرة لميلي الادبي جاءتني منه هو، فقد كتب أبياتا في شبابه، وليس بطريقة سريّة دائما، وكان يعزف على الكمنجة بكيفية ممتازة لما كان ابراقيا في اراكاطاكا. الادب الجيد اعجبه دائما، وهو قارىء مفرط الشراهة، الى درجة أن الواحد منا لما يصل الى الدار لا يحتاج الى أن يسأل أين هو، لأننا جميعا نعرف ذلك : أنه يقرأ في غرفة نومه، وهي المكان الوحيد الهادىء في دار مجانين، لا يعرف أحد فيها كم سيكون عددنا حول المائدة، لأن هناك عددا لا يحصى من البشر الذين ليس لهم مَقر ثابت (أبناء، أحفاد، أبناء إخوة، أبناء أخوات) ندخل ونخرج كل ساعة، وكل واحد منا بموضوعه الخاص. أبي تجده دائما يقرأ كل ما يقع في يده : كتب أحسن الادباء، جميع الجرائد، جميع المجلات، كُتَيِّبات دعاية كُتيبات ثلاجات، كل شيء. لا أعرف احدا لدغته علة القراءة مثله. ثم إنه ما شرب نقطة كحول واحدة في حياته ولا دخن سيجارة واحدة، لكنه رزق بستة عشر ولدا، وهذا عدد المعروفين فقط، أما الذين لا نعرفهم فلا نعرف كم هو عددهم، الآن وهو في الثمانين (أقوى وأصحى مخلوق أعرفه في هذه السن) لا يبدو عليه أنه سيبدِّل عاداته، بل العكس تماما.

ــ نحن أصدقاءك نعرف جميعا الدور الذي لعبته مرثيديس في حياتك. احْكِ لي أين عرفتها، وكيف تزوجت بها، وبالخصوص كيف استطعت ان تحقق شيئا نادرا للغاية مثل حياة زوجية سعيدة.

ــ عرفت مرثيديس في سوكري، وهي بلدة قريبة من ساحل الكاريبي، حيث عاشت اسرتانا بضعة أعوام، وحيث كنا ــ أنا هي ــ نقضي عطلتنا. أبوها وأبي كانا صديقين منذ شبابهما. وذات يوم، في حفلة رقص للطلبة، في وقت كانت هي تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما فقط، طلبْت منها بلا دوران أن تتزوج بي. أفكر الآن أن العرض كان عبارة عن استعارة للقفز فوق جميع الدورات والدورات التي كان يجب القيام بها في ذلك الوقت للحصول على خطيبة. لابد أنها فهمت المسألة هكذا، لأن لقاءاتنا استمرت، وكانت تتم مصادفة دائما، وأظن أن كلينا كان يعرف بلا أي شك أن الاستعارة ستصبح حقيقة عاجلا أو آجلا. كما اصبحت فعلا بعد حوالي عشر سنوات من اختراعها، ودون أن نكون قد غدونا خطيبين حقا، بل اثنين كانا ينتظران بلا عجلة وبلا قلق شيئا كانا يعرفان ان لا مفر منه. الآن نكاد نبلغ الخامسة والعشرين من زواجنا وما وقع بيننا خلاف في أية لحظة. أعتقد أن السر يكمن في أن فهمنا للاشياء استمر على ماكان عليه قبل زواجنا. اعني ان الزواج، مثل الحياة برمتها شيء صعب صعوبة فظيعة وفيه يجب أن نعود الى الانطلاق من البداية كل يوم، وكل يوم من أيام حياتنا. المجهود لا يتوقف، وهو كذلك مرهق في كثير من الاحيان، لكن الهدف يستحق ذلك. احدى شخصيات رواياتي تقول هذا بطريقة اكثر خشونة : «حتى الحب يجب أن نتعلمه».

ــ أتوجد شخصية من شخصياتك أوْحَتْ هي بها ؟

ــ لا توجد أية شخصية في رواياتي تُشْبه مرثيديس. المرتان الاثنتان اللتان تبدو فيهما في «مئة عام من العزلة»، تفعل ذلك هي بنفسها، باسمها الحقيقي وهويتها كصيدليّة، والشيء نفسه يحدث في المرتين اللتين تظهر فيهما في «أخبار موت مُعْلَن». ما استطعت قط أن أذهب الى ابعد من هذا في الاستفادة منها أدبيا، وذلك لحقيقة يمكن أن تبدو boutade(8)، ولكنها ليست كذلك : أنا تمكنتُ من أن أعرفها منتهى المعرفة، الى درجة أني لم تَعُدْ لدي أية فكرة حول كيف هي في الواقع.

ــ وأصدقاؤك : ماذا يُمَثِّلون في حياتك ؟ هل استطعت ان تحافظ على صداقات الشباب كلها ؟

ــ بعض الصداقات بقيتْ منثورة في الطريق، لكن الصداقات الأساسية في حياتي ظلت على قيد الحياة رغم كل العواصف. لم يكن ذلك بالمصادفة، بل بالعكس تماما : أنا حرصت في كل دقيقة من حياتي وفي كل الظروف، على أن يكون الأمر كذلك. هذا يوجد في مزاجي، ولقد قُلته في مقابلات كثيرة : أنا ما نسيت قط، في اي ظرف، أني في حقيقة نفسي لست سوى ــ ولن أكون شيئا اكثر سوى ــ أحد ابناء ابراقي اراكاطاكا الستة عشر. في الخمسة عشر عاما الاخيرة، لما سقطت علي الشهرة كشيء لم افتش عنه ولم أرغب فيه، كان اصعب عمل قمت به هو أن أصون حياتي الخاصة. غدت حياتي مقيدة اكثر وقابلة اكثر للاختراق، ولكني استطعت أن افعل ذلك بما يكفي لكي يَسَعَ فيها الشيء الوحيد الذي في النهاية يهمني حقا في الحياة، وهو وُدّ ابنيَّ وأصدقائي. أنا أسافر كثيرا حول العالم، ولكن الغرض الاساسي من وراء تلك الاسفار هو دائما أن التقي اصدقائي المألوفين، وهم زيادة على ذلك ليسوا كثيرين. الواقع هو أن لحظات الحياة الوحيدة التي أحس فيها أني هو أنا بنفسي، هي لما أكون معهم. نكون دائما مجموعات عددها قليل جدا، أنا أتمنى الا يتجاوز العدد ستة، ولكن اذا كنا اربعة أحسن. اذا اخترتهم انا للاجتماع فذلك أفضل دائما، لأن أحد الاشياء التي أجيد القيام بها هو أن أجمع الاصدقاء حسب توافقهم، بحيث لن يحدث أي توتر داخل الجماعة. هذا يُكلفني وقتا طويلا طبعا، ولكني احقق ما أريد دائما، لأنه يستغرق وقتي الاساسي. الاصدقاء القليلون جدا الذين ضاعوا مني في الطريق، وقع لهم ذلك للسبب نفسه دائما : لأنهم لم يفهموا أن وضعي يصعب التحكم فيه صعوبة فوق العادة، وأنه دائما مهدد بخطر مستمر هو خطر الحوادث والإخطاء التي يمكن أن تؤثر للحظة في صداقة قديمة، ولكن اذا لم يفهم صديق هذا فإني اعتبره (بنفس متألمة) قد انتهى بالنسبة لي الى الأبد : الصديق الذي لا يفهم (ببساطة) ليس هو الصديق الذي كنا نتصوره. أما فيما يتعلق بجنس الاصدقاء، فإني لا أفرق في هذا الميدان، لكن يبدو لي دائما أني اتفاهم مع النساء أحسن من

---

(8) مزاح (بالفرنسية في الأصل)

الرجال. على كل حال أنا أعتبر نفسي أحسن اصدقاء أصدقائي، وأظن أن لا أحد منهم يحبني كما أحب أنا الصديق الذي أحبه أقل منهم جميعا.

ــ علاقتك بابنيك ممتازة. ما هي الوصفة ؟

ــ علاقتي بابني ممتازة فوق العادة، كما تقول أنت، للأسباب نفسها التي ذكرتها لك في كلامي عن الصداقة. مهما كنت ذاهلا ومهما كنت غارقا في الاشغال ومهما كنت غافلا أو متعبا، فانني دائما أجد الوقت لأتكلم مع ابني، لأكون معهما منذ أن ولدا. القرارات في دارنا، منذ أن بلغ ابنانا سن الادراك، جميع القرارات تناقش وتحل باتفاق اجماعي. كل شيء يُسَيَّر بأربعة رؤوس. لا أعمل هذا كمنهاج، ولا لأني أرى انه أحسن أو أسوأ طريقة، بل لأني اكتشفت فجأة ــ لما بدأ ابناي يكبران ــ أن مَيْلي الحقيقي هو أن أكون أبا : يعجبني كوني أبا، التجربة الاكثر إثارة في حياتي هي مساعدتي ابني على النمو، وأعتقد أن أحسن شيء حققته في حياتي ليس هو كتبي بل ابنيّ. انهما مثل صديقين بالنسبة الينا، صديقين ربيناهما نحن.

ــ أتسمح لهما بأن يشاركاك مشاكلك ؟

ــ إذا كانت مشاكل كبيرة، أحاول أن أجعل مرثيديس وابني يقاسمونني اياها، وإذا كانت كبيرة جدا، فالراجح أن ألجأ زيادة على ذلك الى صديق يمكن أن يساعدني بأضوائه، أما إذا كانت مفرطة الكبر فاني لا استشير احدا بسبب الحياء من جهة، ولأني لا أريد أن أشغل مرثيديس وابني، وربما صديقا طارئا، بِهَمٍّ اضافي من جهة أخرى. لهذا أزدرد المشاكل أنا وحدي. النتيجة طبعا هي قرحة المعي الاثني عشري التي تعمل كجرس انذار والتي اضطررت الى أن أتعلم العيش معها، كأنها عشيقة سرية، صعبة وأحيانا مؤلمة، ولكن لا يمكن أن أنساها.

الحِرْفة

ــ القولان كلاهما صحيح. لما كنت في البداية، لما كنت أكتشف الحرفة كانت الكتابة فعلا طافحا بالسرور، يكاد يكون لا مسؤولا. أتذكر أني في ذلك الوقت، لما كنت أنهي عملي في الجريدة، حوالي الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل، كنت أشعر أني قادر على كتابة أربع وخمس وحتى عشر صفحات لكتاب، وذات مرة كتبت قصة قصيرة في جلسة واحدة.

ــ بدأت أكتب مصادفة، ربما لابرهن لصديق أن جيلي قادر على أن ينتج كُتّابا، ربما لهذا فقط. بعدئذ وقعت في فخ الاستمرار في الكتابة لأني وجدت في ذلك لذة، ثم في فخ آخر وهو اكتشافي أن لا شيء يعجبني في العالم اكثر من الكتابة.

ــ قُلْتَ إن الكتابة متعة. كذلك قلت انها عذاب. ما هذا التناقض ؟ أي القولين الصحيح ؟

ـــ والآن ؟

ـــ الآن اعتبر نفسي محظوظا إذا استطعت أن أكتب فقرة جيدة واحدة في يوم واحد. مع مرور الزمن امست عملية الكتابة عذابا.

ـــ لماذا ؟ الانسان قد يفكر ان الكتابة بالنسبة اليك ـــ بعد أن اصبحت متمكنا أكثر من المهنة ـــ غدت أسهل.

ـــ ما يحدث ـــ ببساطة ـــ هو أن المسؤولية تزيد. يبدو لي أن كل حرف أكتبه له الآن صدى أقوى، أن التأثير يكون على عدد أكبر جدا من الناس.

ـــ ربما كان ذلك نتيجة للشهرة، أتضايقك إلى هذا الحد ؟

ـــ تضايقني، أسوأ ما يمكن أن يجري لانسان ليس عنده ميل للنجاح الادبي، في قارة لم تكن مهياة لانجاب كتاب ناجحين، هو أن تباع كتبه بالسرعة نفسها التي يباع بها السجق. أكره أن أتحول الى فرجة عمومية، أكره التلفزيون والمؤتمرات والمحاضرات والطاولات المستديرة...

ـــ والمقابلات.

ـــ كذلك. لا، النجاح لا أتمناه لأحد. يحدث للانسان ما يحدث للالبنيين الذين يستميتون في سبيل الوصول الى قمة الجبل ولما يصلون، ماذا يعملون ؟ ينزلون أو يحاولون أن ينزلوا بتعقل ومحافظين على كرامتهم قدر الإمكان.

ـــ لما كنت شابا وكان عليك أن تكسب قوتك بممارسة حرف أخرى، كنت تكتب في الليل، وتدخن كثيرا.

ـــ أربعين سيجارة كل يوم.

ـــ والآن ؟

ـــ الآن لا أدخن ولا أعمل إلا في النهار.

ـــ في الصباح

ـــ من التاسعة الى الثالثة بعد الظهر، في غرفة لا يصلها أي صوت ومدفاة تدفيئا جيدا. البرد والاصوات تشوشني.

ـــ أتغمك الورقة وهي مازالت بيضاء، كما يحدث لكتاب آخرين ؟

ـــ نعم، هي أغم شيء اعرفه بعد رهاب الاحتجاز. لكن ذاك الغم انتهى بالنسبة الي لما قرأت نصيحة لهمنغواي، تقول إن العمل لا يجب أن يوقف الا عندما يعرف الكاتب كيف سيستمر في اليوم التالي.

ـــ ما هي ـــ في حالتك ـــ نقطة الانطلاق لكتاب ؟

ــ صورة بصرية. الكتاب، عند كتاب اخرين، يولد، حسب ما أظن، مِنْ فكرة، من مفهوم. أنا أنطلق دائما من صورة. «قيلولة الثلاثاء» التي اعتبرها احسن قصة قصيرة لي، نَبَعَتْ من رؤية امرأة وطفلة بثياب سوداء ومظلة في نفس اللون، تمشيان تحت الشمس الحارقة وسط بلدة خالية. الرؤية في «الأوراق الساقطة» هي شيخ ذاهب بحفيده الى جنازة. نقطة الانطلاق في «لم تجيء العقيد أية رسالة»[9] هي صورة رجل ينتظر زورقا في سوق بارانكيبا. كان ينتظره في صمت قلق. بعد ذلك بأعوام وجدت نفسي في باريس منتظرا رسالة، ربما حوالة، وأنا قلق القلق نفسه، فوجدت تطابقا بين حالتي وذكرى ذلك الرجل.

ــ وما هي الصورة البصرية التي كانت نقطة الانطلاق لـ «مئة عام من العزلة» ؟

ــ شيخ ذاهب بطفل لمعرفة الجليد المعروض كأحد الأشياء الغريبة للسرك

ــ أكان هو جدك، العقيد ماركيث ؟

ــ نعــم

ــ هل الحادث مأخوذ من الواقع ؟

ــ ليس مباشرة، ولكن الواقع هو الذي أوحى به. أتذكر أن جدي ذهب بي وأنا طفل، في أراكاطاكا حيث كنا نعيش، لأعرف جملا في السرك. وفي يوم آخر، لما قلت له إني لم أرَ الجليد، ذهب بي الى مخيم شركة الموز. فأمر بفتح صندوق بسمك قُجّاج مُجَمَّد وجعلني ادخل يدي. من هذه الصورة تنطلق «مئة عام من العزلة» كلها.

ــأنت جمعت اذن ذكريين في الجملة الاولى للكتاب. ماذا تقول الجملة بالضبط ؟

ــ «بعد أعوام كثيرة، وقبالة فصيلة الاعدام، تذكر العقيد أوريليانو بوينديا تلك الامسية البعيدة التي ذهب به فيها أبوه ليعرف الجليد».

ــ أنت على العموم تعير الجملة الأولى للكتاب أهمية كبيرة. قلت لي إنك أحيانا تأخذ منك هذه الجملة الاولى وقتا أطول من بقية الكتابة كلها. لماذا ؟

ــ لأن الجملة الاولى يمكن أن تكون المختبر لوضع عناصر كثيرة للاسلوب والبناء وحتى لطول الكتاب.

ــ أتأخذ منك كتابة رواية وقتا طويلا ؟

ــ الكتابة في حد ذاتها، لا. هي عملية سريعة. في أقل من عامين كتبت «مئة عام من العزلة»، ولكن قبل أن أجلس قبالة الآلة ظللت خمسة عشر أو سبعة عشر عاما أفكر في الكتاب.

ــ وقضيت زمنا مثل هذا تعمل على أن تَنْضَج «خريف البطريرك». كمْ سنة استأنيت لتكتب «أخبار موت معلن»

(9) هذه الترجمة لعنوان الرواية أوضح وأدق من الترجمة الحرفية.

ــ ثلاثين سنة

ــ ولماذا كل هذا الزمن ؟

ــ لما وَقَعتِ الأحداث (في 1951) لم تُهمَّني كمادة لرواية، بل كريبورتاج، ولكن الرواية كانت جنسا ادبيا قليل التطور في كولومبيا في ذلك الوقت، وأنا كنت صحافيا محليا في جريدة محلية ربما لو كان عرض عليها الأمر لما كان أهمها. بدأت أفكر في المسألة أدبيا بعد بضعة أعوام من ذلك، ولكني دائما أخذت بعين الاعتبار الاستياء الذي كانت تحدثه لأمي فقط فكرة أن ترى هذا العدد الكبير من الاصدقاء (وحتى بعض الاقارب)، وقد أدخلوا في كتاب الفه أحد ابنائها. ومع ذلك فإن الحقيقة العميقة هي أن الموضوع لم يجرني جرا حقيقيا إلا لما اكتشفت، بعد أن فكرت في الأمر عدة أعوام، الشيء الذي بدا لي العنصر الاساسي : أن القاتلين لم يكونا يريدان ارتكاب الجريمة وعملا كل ما في إمكانهما لكي يمنعهما احد من ارتكابها، ولكنهما لم ينجحا. هذا هو في النهاية الشيء الوحيد الجديد فعلا الموجود في المأساة التي هي، من جهة أخرى عادية للغاية في أميركا اللاتينية. سبب لاحق من أسباب التأخير هو ذو طابع بنيوي. القصة في الواقع تنتهي بعد الجريمة بخمسة وعشرين عاما تقريبا، عندما يرجع الزوج بالزوجة المطلقة، ولكن كان دائما واضحا بالنسبة الي أن النهاية يجب أن تكون وصفا دقيقا للجريمة. كان الحل هو ادخال راو ــ هو لأول مرة أنا بنفسي ــ يكون في إمكانه أن يتجول كما يحلو له، طولا وعرضا، داخل الزمن البنيوي للرواية. أعني أني بعد ثلاثين عاما اكتشفت شيئا ننساه نحن الروائيين مرات كثيرة : أن أحسن قاعدة ادبية هي الحقيقة دوما.

ــ كان همنغواي يقول إنه لا يجب الكتابة عن موضوع بتعجل مفرط ولا يتأخر مفرط. ألم يقلقك أن تحتفظ بقصة في ذهنك دون أن تكتبها كل هذه السنين ؟

ــ الواقع هو أني ما أهمتني قط الفكرة التي لا تقاوم أعواما كثيرة من الاهمال. إذا كانت الفكرة جيدة بحيث تصمد الخمسة عشر عاما التي انتظرتها «مئة عام من العزلة» والسبعة عشر لـ «خريف البطريك» والثلاثين لـ «أخبار موت معلن»، فإن لا مفر لي من كتابتها.

ــ هل تسجل ملاحظات ؟

ــ لا، باستثناء ملاحظات العمل، أعرف بالتجربة أن عندما يسجل الانسان ملاحظات ينتهي مفكرا فيها وليس في الكتاب.

ــ أتصحح كثيرا ؟

ــ من هذا الجانب تغير عملي كثيرا. لما كنت شابا، كنت اكتب دفعة واحدة، وأخرج نسخا ثم أعود اصحح، الآن اصحح سطرا سطرا اثناء الكتابة، بحيث أني عندما ينتهي يوم العمل تكون عندي ورقة كاملة، بلا وسخ ولا تشطيب، تكاد تكون جاهزة للذهاب بها الى الناشر.

ـــ أتمزق أوراقا كثيرة ؟

ـــ كمية هائلة. أبدأ ورقة على الالة...

ـــ على الالة دائما ؟

ـــ دائما. على الآلة الكهربائية. ولما أغلط، أو لا تعجبني الكلمة المكتوبة، أو ببساطة عندما أرتكب خطأ آليا، أطرح الورقة جانبا ـــ بحكم عادة سيئة، بحكم هوس أو وسواس ـــ وأجعل في الآلة أخرى جديدة. يمكن أن أستهلك حتى خمسمئة ورقة لأكتب قصة قصيرة في اثنتي عشرة. أعني أني لم أستطع أن أتغلب على هوس الاعتقاد بأن خطأ آليا يبدو لي خطأ ابداع.

ـــ هناك كتاب كثيرون ينفرون من الآلة الكهربائية، أنت لا ؟

ـــ لا، التكامل الموجود بيننا بلغ حداً يجعلني لا أستطيع أن أكتب إلا على الآلة الكهربائية. أظن أن الانسان على العموم يكتب أحسن عندما تتوافر لديه كل الشروط التي تجعله في وضع مريح. أنا لا أومنُ بالخرافة الرومانسية التي تقول إن الكاتب يجب أن يعاني الجوع، يجب أن يكون منكوبا لينتج. نكتب أحسن لما نأكل جيدا ولما نعمل ذلك على آلة كهربائية.

ـــ نادرا ما تتكلم في مقابلاتك عن كتبك التي توجد في طريق الانجاز، لماذا ؟

ـــ لأنها جزء من حياتي الخاصة. الحقيقة هي أني احس ببعض الشفقة نحو الكتاب الذين يقولون في مقابلاتهم فحوى كتابهم القادم. ذلك دليل على ان عملهم لا يسير سيرا حسنا، ويجدون العزاء حالين في الصحافة المشاكل التي عجزوا عن حلها في الرواية.

ـــ لكنك اعتدت على أن تتكلم كثيرا مع أصدقائك الاقربين عن الكتاب الذي في طريق الانجاز.

ـــ نعم، أخضعهم لعمل مرهق. حين أكون منهمكا في كتابة شيء، أتكلم عنه كثيرا. هي طريقة اكتشف بها أين هي نقط القوة ونقط الضعف. طريقة أهتدي بها وسط الظلام.

ـــ تتكلم ولكنك تكاد لا تترك قط أحدا يقرأ ما أنت منهمك في كتابته.

ـــ لا، لا أترك أحدا قط، لقد حللت المسألة بطريقة تطيرية. أظن في الواقع أن الانسان في الشغل الادبي يكون وحده دوما. كغريق في عرض البحر. نعم، هي الحرفة الاكثر انعزالا في العالم. لا أحد يستطيع أن يساعدك على كتابة ما تكتبه.

ـــ ما هو بالنسبة اليك المكان المثالي للكتابة ؟

ـــ لقد قلت ذلك عدة مرات : في الصباح هو جزيرة خالية، وفي الليل المدينة الكبيرة، أنا أحتاج في الصباح الى الصمت. وفي الليل الى قليل من الخمر وإلى اصدقاء أوفياء

لنتكلم. دائما أحتاج الى أن أكون في اتصال مع ناس الشارع ومطلعا اطلاعا جيدا على الاحداث الجارية. كل هذا يطابق ما قصده ويليام فوكنير لما صرح أن الدار التي تناسب كاتبا مناسبة تامة هي ماخور، لأن في ساعات الصباح يخيم سكوت تام وفي الليل ـــ بالعكس ـــ تكون هنالك حفلة.

ـــ لنتكلم عن الجانب الحِرْفي للكتابة، في تعلمك الطويل هذا، أيمكن لك أن تقول لي من هم الذين افادوك ؟

ـــ أولا جدتي. كانت تحكي لي افظع الأشياء دون أن تتأثر كأنها شيء رأته منذ قليل. اكتشفت أن تلك الطريقة الهادئة وتلك الاستعارات الغزيرة هي التي كانت تساهم أكثر في اضفاء صفة الاحتمالية على قصصها. كتبت «مئة عام من العزلة» مستعملا طريقة جدتي نفسها.

ـــ أهي التي سوغت لك اكتشاف أنك ستكون كاتبا ؟

ـــ لا، بل كافكا الذي كان يحكي بالالمانية الاشياء بطريقة جدتي نفسها. لما قرأت «التحول» في السابعة عشرة، اكتشفت أني سأكون كاتبا. عندما رأيت أن غريغوريو سامسا يمكن أن يفيق في صباح وقد تحول الى خنفس عملاق، قلت لنفسي : «ما كنت أعرف أن هذا يمكن عمله. ولكن اذا كان الأمر هكذا، فالكتابة تهمني».

ـــ لماذا أثار الأمر اهتمامك الى هذا الحد ؟ ألأنه يفتح أبواب الحرية أمام ابتكار أي شيء ؟

ـــ في البداية ادركت أنه كانت توجد في الادب إمكانيات أخرى غير العقلانية والاكاديمية جدا التي كنت عرفتها حتى ذلك الوقت في الكتب المدرسية، كان الأمر كأنه تخلص من حزام العفة. مع مرور الزمن، اكتشفت مع ذلك أن الانسان لا يمكن أن يبتكر أو يتخيل ما يحلو له، لأنه يتعرض لخطر الكذب، والكذب في الادب أخطر من الكذب في الحياة الواقعية. داخل أكبر التجاوزات البادية هناك قوانين، يمكن للكاتب أن يخلع عنه ورقة الدالية للعقلانية، ولكن بشرط أن لا يقع في الفوضى، في اللا معقولية التامة.

ـــ في الوهم

ـــ نعم، في الوهم

ـــ أنت تكرهه، لماذا ؟

ـــ لأني أعتقد أن الخيال ليس سوى أداة لاعداد الواقع. لكن منبع الخلق في النهاية هو الواقع دائما. والوهم، أعني الابتكار الخالص على طريقة والت ديزني، بلا أي مقبض في الواقع، هذا الابتكار هو أكره شيء يمكن أن يوجد. أتذكر اني في مرة من المرات، وكنت مهتما بكتابة

(10) ظهرت هذه القصة ضمن مجموعة «ارينديرا...» الصادرة في 1972.

مجموعة قصص للاطفال، أرسلت اليك «بحر الزمن الضائع»[10] كتجربة. بصراحتك المعتادة قلت لي إنها لا تعجبك، وإنك تظن ان ذلك يرجع الى قصور لديك : ما كنت ترى أيّ شيء في القصة الوهمية. لكن تلك الملاحظات كانت مدمرة لأن حتى الاطفال لم تعجبهم القصة. ما يعجبهم طبعا هو القصة الخيالية. الفرق الذي بين الواحدة والأخرى هو نفسه الموجود بين كائن بشري ودمية مُقامِق.

ــ بعد كافكا، من هم الكتاب الاخرون الذين افادوك من حيث المهنة وحيلها ؟

ــ همنغواي.

ــ الذي لا تعتبره روائيا كبيرا.

ــ الذي لا أعتبره روائيا كبيرا، لكنه بالنسبة لي كاتب قصة قصيرة ممتاز. هناك نصيحة له يقول فيها إن القصة القصيرة، مثل الجبل الجليدي، يجب أن يكون أساسها الجزء الذي لا يرى : وهو الدراسة والتفكير، المادة المجموعة والغير المستعملة مباشرة في القصة. نعم، همنغواي يعلمنا أشياء كثيرة، يعلمنا حتى كيف يتوارى قط في ناصية.

ــ غرين علمك كذلك بعض الاشياء، تكلمنا عن هذا مرة.

ــ نعم، غراهام غرين علمني شيئا مهما وهو كيف أكتشف مناطق المدار. الانسان يكلفه مجهودا كبيرا أن يعزل العناصر الاساسية ليعمل خلاصة شعرية في بيئة يعرفها معرفة مفرطة، لانه يعرف كثيرا جدا الى حد أنه لا يدري من أين يبدأ، ولديه أشياء كثيرة جدا ليقولها الى درجة أنه في النهاية لا يعرف شيئا. هذه كانت مشكلتي مع منطقة المدار. أنا كنت قرأت باهتمام كبير ما كتبه خريستوف كولمبس وبيغافيطا[11] ومؤرخو الاراضي الاميركية[12] الذين كانت عندهم رؤية مبتكرة، وكنت قرأت كتابات سلغاري وكونراد والمداريين الاميركيين اللاتينيين المنتمين الى بدايات هذا القرن الذين كانت لديهم مرايا صغيرة أخذوها من الموديرنية[13]، وقرأت كتابات أخرى كثيرة، وكنت اجد مسافة كبيرة جدا بين رؤاهم والواقع. كان بعضهم يقع، في خطإ التعداد وهو ــ وياللغرابة ! ــ كلما زاد طولا حدّ رؤاهم أكثر وآخرون ــ هذا نعرفه جيدا ــ كانوا يسقطون في كارثة البلاغة. غراهام غرين حلّ هذه المشكلة الأدبية بطريقة صائبة جدا : ببعض عناصر متفرقة ولكن موحدة بتلاحم ذاتي دقيق جدا وواقعي. بهذه الطريقة يمكن حَصر كل لغُز منطقة المدار في شذا غوافة معفونة.

ــ أهناك درس آخر مفيد تتذكر أنك تلقيته ؟

---

(11) بحار ايطالي (1491 ؟ ــ 1534) نشرت يومياته عام 1800.

(12) هم مؤرخون اسبانيون رسميون كانوا يكلفون بالكتابة عن الاراضي الاميركية بعد اكتشافها.

(13) الموديرنية، مدرسة أدبية ظهرت في نهاية القرن الماضي، اهتمت بالاسلوب، زعيمها في الادب المكتوب بالاسبانية هو روبين داريو النيكاراغوي.

ـــ واحد سمعته مِنْ خوان بوش (14) في كاركاس، قبل خمسة وعشرين عاما. قال إن مهنة الكاتب وتقنياته ووسائله البنيوية، وحتى الأشياء الحرفية الدقيقة الخفية، يجب أن يتعلمها في شبابه. نحن الكتاب نشبه الببغاوات لا نتعلم الكلام بعد الشيخوخة.

ـــ الحاصل : أأفادتك الصحافة شيئا في مهنة الأدب ؟

ـــ نعم، ولكن ليس في ايجاد لغة فعالة كما قيل. الصحافة أفادتني بوسائل لأعطي قصصي صحة. منح ريميديوس الحسناء أغطية بيضاء لجعلها تصعد الى المساء، أو إعطاء كوب شكلاط (شكلاط وليس مشروب آخر) للاب نيكانور رينا قبل أن يرتفع عن الارض عشرة سنتيمترات ؟ هي وسائل وتدقيقات صحافية مفيدة جدا.

كنت دائما متحمسا للسينما. أتستطيع هذه أن تمنح الكاتب وسائل مفيدة.

ـــ لا أدرى بماذا أجيبك. السينما في حالتي أن كانت غنما وكانت تحديدا. علمتني كيف أرى بطريقة الصور، نعم، ولكن في الوقت نفسه أكتشف الآن أن في جميع كتبي السابقة لـ «مئة عام من العزلة»، هناك اندفاع مفرط لتصوير الشخصيات والمشاهد، وحتى فكرة ملحة دافعة الى الاشارة الى المُشرَف والضبط الصوري.

ـــ أنت تفكر بلا شك في «لم تصل العقيد أية رسالة».

ـــ نعم، هي رواية أسلوبها يبدو أسلوب قصة سينمائية. حركات الشخصيات كأن وراءها كاميرا تتبعها. ولما أعود الى قراءة الكتاب ارى الكاميرا اليوم أعتقد أن الحلول الادبية تختلف عن السينمائية.

ـــ لماذا لا تعطي الحوار إلا أهمية قليلة في كتبك ؟

لأن الحوار في اللغة الاشبانية ليس صادقا. أنا قلت دائما إن في هذه اللغة توجد مسافة كبيرة بين الحوار المتكلّم والحوار المكتوب. إذا كان حوار إسباني جيدا في الحياة الواقعية، فهو ليس بالضرورة جيدا في الروايات، لذلك أهتم به قليلا.

ـــ قبل أن تكتب رواية، أتعرف بالضبط ماذا سيحدث لكل واحدة من شخصياتك ؟

ـــ أعرف ذلك بكيفية شاملة فقط، أثناء تأليف الكتاب تحدث أشياء لم تكن متوقعة. فكرتي الاولى عن العقيد أوريليانو بويندييا هي أنه محارب قديم في حروبنا الاهلية يموت وهو يبول تحت شجرة.

(14) رجل سياسة دومينيكاني. مؤسس الحزب الثوري الدومينيكاني في 1939، انتخب رئيسا للجمهورية في 1963، لكن انقلابا عسكريا أسقطه في هذه السنة نفسها.

ـ حكت لي مرثيديس إنك تألمت كثيرا لمامات.

ـ نعم، أنا عارفا أني لابد أن أقتله في لحظة ما، ولم أكن أجرؤ على ذلك، كان العقيد أمسى شيخا يصنع سُمَيْكاته الذهبية. وذات مساء فكرت : «الآن انتهى حقا !» كان لابد أن أقتله. لما كملت الفصل، صعدت وأنا أترعد الى الطابق الثاني حيث كانت توجد مرثيديس. عرفت ما وقع لما رأت وجهي. قالت : «مات العقيد». استلقيت على الفراش وظللت ساعتين أبكي.

ـ ما هو الالهام بالنسبة إليك ؟ أهو موجود ؟

ـ هذه الكلمة فقدت الاعتبار بسبب الرومانسيين. أنا لا أرى الالهام كحالة هبة الا هية ولا كنفخة من عند الالاه، بل كتوفيق بين الكاتب والموضوع بحكم التمسك والسيطرة لما يريد الانسان أن يكتب شيئا، يقيم بينه وبين الموضوع نوعا من التوتر المتبادل، بحيث يسعر هو الموضوع والموضوع يسعره، وهناك لحظة تتهدم فيها جميع الحواجز وتحيد المآزق كلها، فتخطر للكاتب أشياء لم يحلم بها، آنئذ لا يوجد أي شيء في الحياة أحسن من الكتابة. هذا هو ما يمكن أن أسميه الهاما.

ـ أيحدث لك أحيانا أن تفقد هذه الحالة أثناء تأليف كتاب ؟

ـ نعم، وعندئذ أعيد مرة أخرى النظر في كل شيء من البداية. هي الأوقات التي اصلح فيها المزاليج والمناشب الكهربائية بالمفك وأطلي الابواب بالاخضر، لأن العمل اليدوي يساعد احيانا على التغلب على الخوف من الواقع.

ـ أين يمكن أن يكون الخلل ؟

ـ هو على العموم يعود الى مشكلة في البنية.

ـ أيمكن أن تكون أحيانا مشكلة في غاية الصعوبة ؟

ـ نعم الى درجة أنها تجبرني على أن أبدأ كل شيء من جديد. «خريف البطريك» أجلتها في مسكيكو، عام 1962، لما كنت أكاد أن أكمل ثلاثمئة ورقة، والشيء الوحيد الذي نجا من هذه الاوراق هو اسم الشخصية. استأنفتها في برشلونة عام 1968، علمت كثيرا أثناء ستة شهور، وعدت الى تأجيلها لأن بعض الجوانب الاخلاقية للبطل (وهو دكتاتور هرم) لم تكن واضحة وضوحا كافيا. بعد ذلك بحوالي سنتين شريت كتابا حول الصيد في أفريقيا لأن المقدمة التي كتبها هنغواي كانت تهمني. المقدمة لم تكن شيئا مهما، لكني استمررت قارئا الفصل عن الافيال، وهناك كان الحل بالنسبة للرواية. أخلاق دكتاتوري كانت تفسر جيدا ببعض عادات الافيال.

ـ هل اعترضتك مشاكل أخرى غير المتعلقة بالبنية ونفسية الشخصية الرئيسية ؟

ـــ نعم، اكتشفت ذات لحظة شيئا خطيرا : أني لم أتمكن من أن أجعل الجو يَحِرُّ في مدينة الكتاب، كان ذلك خطيرا، لأنها من مدن الكاريبي، حيث لابد أن يكون الجو حارا حرارة شديدة.

ـــ كيف حللت المشكلة ؟

ـــ الشيء الوحيد الذي خطر لي هو أن أتوجه نحو الكاريبي محملا بأسرتي كلها. ظللت أتسكع هناك عاما تقريبا، دون أن أعمل شيئا. لما رجعت الى برشلونة، حيث كنت أكتب الرواية، غرست بعض النباتات، جعلت رائحة، واستطعت أخيرا أن أجعل القارىء يشعر بحرارة المدينة، وانتهى الكتاب بلا عثرات تذكر.

ـــ ماذا يحدث لما يكون الكتاب الذي تكتبه في نهايته ؟

ـــ يفقد اهتمامي نهائيا. هو أسد ميت، كما قال همنغواي.

ـــ قلت إن كل رواية جيدة هي نقل شعري للواقع، أيمكن لك أن تفسر هذا المفهوم ؟

ـــ نعم، أعتقد أن الرواية هي تمثل مشفر للواقع، نوع من أحجية للعالم. الواقع الذي يسير في الرواية يختلف عن واقع الحياة، وإن كان يتخذ هذا أساسا له. كما يحدث مع الاحلام.

ـــ معالجة الواقع في كتبك ـــ وخاصة في «مئة عام من العزلة» وفي «خريف البطريرك» ـــ أطلق عليها اسم الواقعية السحرية. يبدو لي أن قراءك لا يرون الواقع الذي يوجد بها...

ـــ لأنهم بالتأكيد تمنعهم عقلانيتهم من أن يروا أن الواقع لا ينتهي في ثمن الطماطم أو ثمن البيض. الحياة اليومية في أميركا اللاتينية تثبت لنا أن الواقع زاخر بأشياء خارقة. بالنسبة الى هذا اعتدت أن أستشهد بالمستكشف الاميركي الشمالي آب دو غراف الذي قام، في أواخر القرن الماضي، برحلة لا تصدق عبر العالم الأمازوني حيث رأى ـــ الى جانب أشياء أخرى ـــ جدول ماء يغلي ومكانا كان الصوت البشري فيه يحدث وابلا متدفقا وفي كومودورو ريبادابيا، بأقصى جنوب الارجنتين، هبت ريح قطبية فقلعتْ سركا بكامله وذهبت به في الهواء، وفي اليوم التالي أخرج الصيادون في شباكهم جثث أسود وزرافات. وفي «جنازة الماما الكبيرة» (15) أحكي رحلة يتعذر تصورها، رحلة مستحيلة للبابا الى قرية كولومبية. أتذكر أني وصفت الرئيس الذي يستقبله على أنه أصلع قصير سمين حتى لا يشبه الذي كان يحكم البلاد وقتئذ وكان طويلا-عظميا. بعد أحد عشر عاما من كتابة تلك القصة، ذهب البابا الى كولومبيا وكان الرئيس الذي استقبله اصلع قصيرا سمينا، كما في القصة. وبعد كتابة «مئة عام

---

(15) قصة قصيرة ظهرت ضمن مجموعة بنفس العنوان في 1962.

من العزلة»، ظهر في بارانكيا طفل يعترف بأن لديه ذنب خنزير. يكفي أن نفتح الجرائد لنعرف أن الأشياء الخارقة تحدث بيننا كل يوم، أعرف ناسا عاديين قرأوا «مئة عام من العزلة» بمتعة واهتمام كبيرين، ولكن دون أن يفاجأوا، لأني في نهاية المطاف لا أحكي لهم أي شيء يختلف عن الحياة التي يحيونها.

ــ ألكل ما تضعه في كتبك أساس واقعي إذن ؟

ــ لا يوجد أي سطر في رواياتي ليس مبنيا على الواقع.

ــ أأنت متأكد ؟ في «مئة عام من العزلة» تقع أشياء خارقة للغاية، ريميديوس الحسناء تصعد الى السماء، وفراشات صفراء ترفرف حول ماوريثيو بابيلونيا...

ــ كل ذلك له أساس واقعي.

ــ مثالا...

ــ مثالا، ماوريثيو بابيلونيا، لما كنت أنا في الخامسة من عمري، جاء يوما الى دارنا بأراكاطاكا كهربائي ليبدل العداد. أتذكره كأني رأيته البارحة لأني فتنني الحزام الذي كان يربط به جسمه الى الاعمدة لكي لا يسقط. رجع الى الدار عدة مرات، في احدى تلك المرات وجدت جدتي تحاول أن تطرد فراشة بخرقة وتقول : «كلما جاء هذا الرجل الى الدار تدخل هذه الفراشة الصفراء». كان هذا هو الجنين بالنسبة لشخصية ماوريثيو بابيلونيا.

ــ وريميديوس الحسناء، كيف خطر لك أن ترسلها الى السماء ؟

ــ في البداية كنت نويت أن أجعلها تختفي لما كانت تطرز في ممر الدار مع ريبيكا وأمارانطا، لكن هذه الوسيلة التي توشك أن تكون سينمائية، لم تبد لي مقبولة. كانت ريميديوس ستبقى على كل حال في مكان ما هنالك. عندئذ خطر لي أن أجعلها تصعد الى السماء روحا وبدنا. الحادث الواقعي ؟ سيدة هربت حفيدتها في الفجر، ولكي تخفي هذا الهروب قررت أن تشيع بين الناس أن حفيدتها رحلت الى السماء.

ــ قلت، لا أتذكر أين، **إن جعلك إياها تطير** لم يكن أمرا سهلا.

ــ لا، لم أستطع أن أجعلها تصعد. وكنت يائسا لأني ما كنت أعرف ماذا سأعمل لتصعد. وفي يوم، بينما كنت أفكر في المشكلة، خرجت الى فناء داري. كانت الرياح تهب شديدة. وكانت هناك امرأة سوداء جدا جميلة (تجيء لغسل الملابس) تحاول أن تنشر الأغطية على حبل. لم تكن تستطيع لأن الريح تذهب بها. آنئذ جاءني الالهام. «وجدتها!» فكرت. ريميديوس الحسناء كانت في حاجة الى اغطية للصعود الى السماء. الاغطية في هذه الحالة عنصر مأخوذ من الواقع. لما رجعت الى الآلة، صعدت ريميديوس الحسناء، صعدت وصعدت وصعدت بلا صعوبة، وما استطاعت أية قوة أن تقف في طريقها.

التكـــوُّن

على الرمال التي تبرز في عرض النهر كان يُرى فجأة كَيْمان (16) سبخته الحرارة. عند انفجار الصباح أو عند انتهاء النهار بسناء حريق، كانت قرود وببغاوات تزعق في الضفاف البعيدة. وكانت الباخرة القديمة ذات العجلة ــ الشبيهة بالبواخر التي كانت تشق المسيسيبي في زمن مارك توين ــ تقضي ثمانية أيام صاعدة ببطء في نهر مغدالينا نحو داخل البلاد. في الثالثة عشرة استهل غبرييل على متن تلك الباخرة، للمرة الأولى فقط، نوعا من النفي سيكون حاسما في مجرى حياته.

بعد المركب جاء دور قطار يصعد مرهقا عبر السلسلة الجبلية الْمُضبَّبة. وفي نهاية تلك الرحلة الطويلة، في عشية يناريرية يتذكرها اليوم على انها أحزن عشية في حياته، وجد نفسه في محطة قطار ببوغوطا مرتديا بدلة سوداء (جعلوها على قده لأنها كانت لابيه) وصدرة وقبعة، وأمامه «صندوق كان يحيط به بعض جلال قبر السيد المسيح».

بدت له بوغوطا «مدينة بعيدة كئيبة حيث كان يسقط رذاذ لا يرحم منذ بداية القرن السادس عشر. أول شيء أثار انتباهي في تلك العاصمة المعتمة هو وجود عدد مفرط من الرجال مسرعين في الشوارع، وارتداء جميع هؤلاء مثلي بدلات سوداء وقبعات، وعدم رؤيتي على العكس أية امرأة. استرعت انتباهي الاحصنة القوية الكبيرة التي تجر عربات البيرة وسط المطر، وشرر الناريات المنطلق من الحافلات الكهربائية عند دورانها في الناصيات وسط المطر، وعوائق المرور لفسح الطريق أمام الجنازات التي لا تنتهي. كانت تلك أكأب الجنازات في العالم، كانت تتقدم بعربات ذات مذبح رئيسي وأحصنة سوداء مزينة بالمخمل وبخُوَذ عالية ذات ريش أسود، وجثث اسر محترمة تحس أنها هي التي اخترعت الموت».

الاوربي الذي لم يتعود سوى التغيرات السلمية للفصول ــ وهي تغيرات تنتظم في الزمان لا في المكان ــ لا يستطيع أن يتصور بسهولة التضاد العنيف الذي يمكن أن يوجد، في بلد واحد، بين عالم الكاريبي وعالم الجبال، عالم الانضيس. هو تضاد جغرافي أولاً، فالكاريبي، عالم الضوء والحرارة، لا يمكن أن يُرسَم الا بالأزرق والاخضر القويين. بينما جبال الانضيس (عالم الضباب والمطر الخفيف والرياح الباردة) تعرض سلما دقيقا من الالوان الرمادية والخضراء الحزينة.

هناك تضاد بشري أيضا. الانسان الساحلي المنحدر من الاندلسيين والسود وهنود الكاريبي الانوفين، إنسان صريح مرح لا يمت بصلة لاية مأساوية، ولا يكن أي احترام للرتب والبروتوكول. يحب الرقص؛ في موسيقاه المرحة دوما تحيا ايقاعات افريقية قارعة. أما كولومبي

(16) تمساح أميركي.

الجبال الذي طبعته الشكلية القشتالية والمزاج السكوت المرتاب للهندي الشيبشا، فهو بالعكس انسان ذو تحفظ رقيق ومجاملة؛ وهو كذلك رقيق الدعابة. الملاطفة التي في سلوكه تخفي أحيانا خلفية من العدوانية تتكلف الخمر أحيانا كثيرة بكشفها في غير وقتها. (العنف السياسي للبلد لم ينفجر قط في الساحل، بل في المرتفعات). وموسيقى إنسان الانضيس حزينة مثل الطبيعة المحيطة به : تعبر عن الهجر، عن البعد، عن الاحباب الذين يرحلون.

لم يكن أي شيء يبدو أغرب ولا أقسى لذلك الفتى (ذي الثلاثة عشر عاما الجائي من الساحل) من وجوده فجأة مرغما على العيش في عالم يختلف الى ذلك الحد عن عالمه. بقي مرتعبا وهو ينظر الى تلك العاصمة الكئيبة للغاية. كانت الاجراس تسمع في الشفق داعية الى تأدية الروساريو؛ عبر زجاج الطكسي كان يرى شوارع رمادية بفعل المطر. كانت فكرة العيش سنين في ذلك الجو الجنائزي تضغط على قلبه. انفجر باكيا أمام مفاجأة وصي الداخليين الذي كان قد ذهب الى المحطة لينتظره.

كانت المدرسة التي أرسل اليها بمنحة دراسية تقوم بعملها في «دير بلا تدفئة ولا زهور»، وكانت تقع في البلدة نفسها «البعيدة الكئيبة حيث ذهب أوريليانو الثاني للبحث عن فيرناندا ديل كاربيو على بعد ألف كيلو متر من البحر». «كانت تلك المدرسة عقابا وتلك البلدة المجمدة ظلما» بالنسبة إليه هو الذي ولد في الكاريبي.

كان عزاؤه الوحيد هو القراءة. وجد غبرييل ــ وهو الفقير البعيد عن الأسرة الساحلي الموجود في عالم متأنقين ــ في الكتب الوسيلة الوحيدة للهروب من واقع مظلم بذاك الشكل. في حجرة النوم الواسعة كانت تقرأ الكتب بصوت مرتفع : الجبل السحري، الفرسان الثلاثة، أحدب نوتردام، الكونت دي مونته كريستو. نهار الأحد لم يكن يجد الشجاعة لمواجهة برودة وكآبة بلدة الانضيس تلك، فكان يبقى في مكتبة المدرسة يقرأ روايات جول فيرن وسلغاري وكتب الشعراء الاسبانيين أو الكولومبيين الذين كانت توجد أبياتهم بين النصوص المدرسية. هؤلاء كان شعرهم رديئا، بلاغيا. لحسن الحظ صادف وقتئذ كشفا أدبيا : الشعراء الكولومبيين الشبان الذين كونوا ــ تحت تأثير روبين داريو وخوان رامون خيمينيث، وتحت التأثير الاقرب والاوضح لبابلو نيرودا ــ جماعة مسماة «جماعة حجر وسماء». هذه الجماعة المدمّرة أدبيا قضت على الرومانسيين والبرناسيين والكلاسيكيين الجدد. في باب الاستعارة كانوا يجيزون لانفسهم أجرأها وألمعها. «كانوا ارهابيي ذلك الزمن ــ يقول غرثيا ماركيث اليوم ــ لست متأكدا من أن مصيري كان سينتهي بكوني كاتبا لولا جماعة حجر وماء»

لما أنهى تعليمه الثانوي والتحق بالجامعة الوطنية لكولومبيا ليدرس القانون، كان الشعر مازال أهم شيء في حياته. وكان يقرأ الأبيات بدل القوانين. أبياتا وأبياتا وأبياتا، يقول اليوم. «كانت تسليتي الاشد شهوانية (في ذلك الوقت) هي ركوبي أيام الأحد الحافلات الكهربائية

ذات الزجاج الازرق التي تدور دورانا متواصلا ــ مقابل خمسة ثينطابوات ــ من بلاثا دي بوليفار حتى مخرفة الشيلي، وقضائي فيها تلك الأمسيّة الطافحة بالاسى التي كانت تبدو كأنها تجر وراءها ذيلا لا نهاية له من أيام أحد أخرى فارغة. الشيء الوحيد الذي كنت أعمله اثناء رحلة الحلقات المفرغة هي قراءة كتب تحتوي على أبيات وأبيات وأبيات، ربما بمعدل صف أبيات لكل صف مساكن تتركها الحافلة وراءها، حتى انشعال الاضواء الاولى في المطر الابدي، وعندئذ كنت لأذهب الى المقاهي الكئيبة للمدينة القديمة للبحث عن أحد يشفق علي متكلما معي عن الابيات والابيات والابيات التي قرأتها قبل قليل».

بدأ اهتمامه بالرواية في الليلة التي قرأ «التحول» لكافكا. يتذكر اليوم كيف وصل الى فندق الطلاب المتواضع ــ في قلب المدينة ــ حيث كان يقيم، بذلك الكتاب الذي أعاره زميل، خلع السترة والحذاء واستلقى على الفراش وفتح الكتاب وقرأ : «لما أفاق غريغوريو سامسا ذات صباح، بعد نوم مضطرب، وجد نفسه في فراشه وقد تحول الى حشرة هائلة». اغلق غبرييل الكتاب وهو يَتَرَعَّد. «العجب ــ فكر ــ يمكن للانسان اذن أن يكتب هذا» ونسي دراسته.

أبوه لم يفهم طبعا ذلك القرار البطولي. كان الابراقي القديم ينتظر أن يحصل ابنه على مالم يتمكن هو من الحصول عليه : شهادة جامعية. ولهذا لما عرف أن غبرييل أهمل دراسته، بدأ يعتبره بحزن ابنا لا يصلح لشيء. كان أصدقاء غبرييل ــ بحسن التفات ودعابة ــ لا يختلفون عن أبيه في الحكم عليه. كان يبدو إنسانا يسير على غير هدى بأسماله وذقنه الغير المحلوق وهو يتنقل بين المقاهي متأبطا كتابا ويبيت ويصبح في أي مكان. لكن بدل الابيات والابيات والأبيات كان يقرأ روايات وروايات وروايات : دوستويفسكي أولا؛ تولستوي؛ ديكنس؛ فرنسيي القرن الماضي : فلوبير، ستندال، بلزاك، زولا.

عاد الى الساحل وهو في العشرين من عمره. في قرطجنة ــ وهي مدينة قديمة محصورة داخل أسوار هائلة ذات شرف وشوارع ضيقة تعود الى زمن الاستعمار ــ وجد ضوء وحرارة الكاريبي من جديد، وكذلك عملا في مكتب التحرير المغبر لجريدة يومية ــ إل أونيبير سال ــ كمحرر أخبار قصيرة. لم يكن يعوزه الوقت ليكتب قصصا ويشرب روما مع أصدقائه في الخمارة الصاخبة للمرسى، منتظرا الفجر حيث تقلع سفن المهرّبين محملة بالعاهرات نحو جزيرتي أروبا وكوراثاو.

وهناك، في تلك المدينة اللامبالية المضيئة التي تعبد الرقص وملكات الجمال والبيسبول، أصابه ــ وياللغرابة ! ــ Coup de foudre مفاجيء نحو الاغريقيين، وخاصة سوفوكل، بفضل صديق لهو وشراب ــ وهو اليوم محام ناجح في الجمارك ــ كان يعرفهم جيدا كما يعرف أصابع يده. هو أيضا جعله يعرف كيركيغادر وكلوديل.

بعد الاغريقيين حدث اكتشاف أساسي في تكونه الادبي : أنكلوسكسونيي هذا القرن، وعلى الخصوص جويس وفرجينيا وولف ووبليام فوكنير. اكتشفهم بفضل جماعة مجانين (أصحاب لهو وشراب هائلين، ملدوغين من طرف الادب) تكونت في بارانكيبا (مدينة كولومبية أخرى في الكاريبي) حيث انتقل ليعيش بعد قرطجنة.

بارانكيبا، المدينة الواسعة الصناعية التي كبرت بفوضى وسط غبار وحرارة مصب نهر ماغدالينا، تخلو من فتنة قرطجنة، ومن مرآتها الزرقاء للشّرم، ومن الاسوار والفنارات والشرف القديمة وأشباح المركيزات والقراصنة، ومحققي محاكم التفتيش في ديار غارقة في الظليل تعود الى زمن الاستعمار. هي مدينة حشود مضيفة وفائضة بالصراحة رحبت بناس من كل مكان. بفرنسيين فروا من كايين قاطعين طريق بابييون(17) نفسه، بطيارين ألمانيين هزموا في الحرب العالمية الاولى، بيهود هربوا من مطاردة النازيين، بمهاجرين جاءوا من ايطاليا الجنوبية وسوريين ولبنانيين وأردنيين جاءوا قبل جيلين أو ثلاثة لا أحد يدري من أين، وكونوا أسرا هي اليوم محترمة في المدينة. إذا استثنينا الفترة البراقة للكرنفال الذي يرمي الى الشوارع عربات تفيض بالزهور والفتيات، وجماعات ضاجة لابسة أثوابا جديدة من نسيج الاطلس، إذا استثنينا هذا فان الصناعة والتجارة هما اللتان تحرقان عادة طاقات الناس هنالك. الميول الادبية والفنية محكوم عليها بهامشية مهلوسة في عالم أنشطة تجارية ولهو سهل أيضا. الكتاب والرسامون هناك هم ــ أكثر من أي مكان آخر ــ الاجسام الضدية في جسم المجتمع. لكن ــ وياللمناقضة الغريبة ! ــ ربما بسبب تلك الوضعية الهامشية التي يغرقها اليأس يبرز الفنانون في بارانكيبا بقوة اكبر منها في بوغوطا وهي مدينة ذات ادعاءات ثقافية متعجرفة منذ أن كانت البلاد مستعمرة.

تلك الجماعة من المفرطين في اللهو والشراب الذين لدغهم الادب والتقاهم غبرييل في حدود الخمسينات، هي موضوع دراسة جدية في جامعات أوربا والولايات المتحدة، من طرف متخصصين في الادب الاميركي اللاتيني. غرثيا ماركيث بالنسبة الى هؤلاء خرج من هذه الاسرة الادبية الطريفة المسماة «جماعة بارانكيبا».

وسواء كان هذا الانتماء الصارم صحيحا أو لا فالحقيقة هي أن تلك الجماعة كانت أثار الجماعات، وأكثرها اطلاعا في القارة. كانت حاسمة في تكوين غرثيبا ماركيث. هذه الجماعة المؤلفة من فتيان في غاية الشباب، فتيان شريبين، مفرطي الحيوية، عديمي الاحترام، كاريبيين نموذجيين، طريفين كشخصيات بانيول(18)، هذه الجماعة لم تكن تحمل نفستها محمل الجد، كانوا اصدقاء أوفياء مع بعضهم البعض ويقرأون كثيرا أيامئذ (جويس وفرجينيا

---

(17) بطل الكتاب المعروف بالاسم نفسه

(18) كاتب فرنسي.

وولف وكالدويل ودوس باسوس وهمنغواي وشروود أندرسون وتيودور دريسي و «الشيخ»، كما كانوا يسمون هواهم المشترك فوكنير). في أحيان كثيرة كانوا يصبحون شاربين متكلمين في الادب في مواخير اسطورية زاخرة بطيور ونباتات وفتيات صغيرات خائفات دفعهن الجوع الى احتراف البغاء، كما بقين مرسومات في «مئة عام من العزلة».

«كانت تلك الفترة بالنسبة لي فترة انبهار ــ يتذكر غرثيبا ماركيث اليوم ــ فترة أكتشافات كذلك، ليس اكتشافات أدبية فقط، بل حياتية أيضا. كنا نسكر حتى الصباح ونحن نتكلم في الادب. في كل ليلة كانت تظهر في الحديث عشرة كتب على الاقل لم أكن قرأتها. وفي اليوم التالي كانوا (أصدقاءه في الجَماعة) يعيرونني إياها. كانت كلها عندهم... زيادة على ذلك، كان هناك صديق كتبي كنا نساعده في عمل الطلبات. كلما كان يجيء صندوق من بوينوس آيريس، كنا نقيم حفلة. كانت كتب الـ Sudamericana والـ Losada والـ Sur[19]، تلك الاشياء الرائعة التي كان يترجمها أصدقاء بورخيس». كان الوصي الأدبي للجماعة هو رامون بينييس، وهو منفي قطلوني متقدم في السن وصل قبل أعوام إلى بارّانكيا بعد أن طرد من مسقط رأسه بسبب هزيمة الجمهورية[20] ومن باريس بسبب دخول النازيين. أحدث ضون رامون ــ وكان يكن للأدب التقدير نفسه الذي يكنه العسكري للسلاح ــ النظام في فوضى القراءات تلك. كان يسمح لهم بولوج روايات فوكنير مفتونين أو أن يتيهوا في مفارق الطرق التي فتحها جويس، لكنه كان من وقت لآخر يسترعيهم للنظام مذكرا إياهم بهوميروس.

بعد سنين من ذلك سدد غبرييل ماكان مدينا به للعجوز بينييس الذي انتقل الى برشلونة ليموت هنالك مأكولا بالحنين الى ماكوندو : هو الحكيم القطلوني في «مئة عام من العزلة». ماكوندو الصفحات الاخيرة للكتاب ليست في الواقع أراكاطاكا بل بارانكيا، بارانكيا ذلك الوقت.

مازال يخفق بعض الحنين في نفس غبرييل لما يتذكر حياته الباهرة البائسة أيامئذ. شارع الـ «كريمن» بباراته ومواخيره، بار Happy الذي تسببوا في افلاسه موقعين أسنادا، وبارا آخر، مشهورا جدا، لاكويبا، كان يجمع الى مكان واحد قناصين وصيادي الشابل ومن لدغهم الادب. خارات وليال ماكانت قط تنتهي.

يتذكر أحيانا فندق العاهرات حيث كان يقيم. لما كان يبقى بلا نقود لدفع ثمن غرفته، ثمن ليلة واحدة، يبقي عند الحارس رهنا مخطوطة الرواية التي هو منهمك في كتابتها «ذلك الفندق ــ يحكي اليوم ــ كان كبيرا جدا وذا حُجَر فواصلها من كرتون، حيث كانت تُسمع

---

(19) دور نشر في العاصمة الارجنتينية

(20) الجمهورية الاسبانية، عام 1939.

أسرار الحجر المجاورة، كنت أنا أميز أصوات موظفين حكوميين كبار كثيرين، وأتأثر لاكتشاف أن أغلبية هؤلاء لا يجيئون لممارسة الجنس وإنما ليتكلموا عن أنفسهم للرفيقات العرضيات. بما أني كنت صحافيا فإن مواقيت حياتي كانت تتفق ومواقيت العاهرات، كنا جميعا نفيق في الظهر ونجتمع لنفطر معا».

حدث في ذلك الوقت أن وجد عملا كبائع موسوعات وكتب طب في قرى الـ غواخيرا، الشبه الجزيرة ذات المساحات الرملية الحارقة حيث أقام أسلافه لأمه. ماكان يبيع شيئا، لكنه في ليالي الوحدة والحرارة الشديدة، كان ينزل في فنادق سائقي شاحنات وبائعين متنقلين، كانت رفيقته الاوفى هي سيدة انجليزية يعبدها في الخفاء : فرجينيا وولف.

هو يؤكد اليوم أن «السيدة دالوي»(22) دلته على الطريق الى كتابة روايته الاولى. لابد أن الامر كان كذلك بطريقة واعية. لكن الواقع هو أن السيدة الارستقراطية البكر على مايبدو، السيدة وولف، لم تكن وحدها جنبه لما جلس الى الالة ليكتب «الاوراق الساقطة». كان يوجد معه الاخرون كذلك، الكتاب الذين ساهموا في تكونه الادبي : كتب سلغاري وجول فيرن التي قتل بها وحدته في الداخلية، الشعراء، شعراؤه المحبوبون الذين قرأهم في الحافلات ذات الزجاج الازرق التي كانت تسير بطيئة في الامسية الخانقة لأيام الاحد البوغوطية، كافكاو الروائيون الروسيون والفرنسيون الذين اكتشفهم في فندق الطلاب، الاغريقيون الذين درسهم في قرطجنة، في جو بلغت حرارته ثلاثين درجة في الظل، الاميركيون الشماليون والانجليزيون الذين كان اصدقاؤه يكشفونهم له بين زجاجات البيرة في البارات والمواخير.

وهكذا لما رجع من تلك الرحلة التي رافق فيها امه الى اراكاطاكا، لم يكن لديه مايقوله فقط، بل كان يعرف ـــ بحكم معاشرته عددا كبيرا من الكتاب على مدى مراهقة وشباب أول كان شباب وحدة وبحث ـــ كيف يقوله كذلك.

قراءات وتأثيرات

ـــ أنبهك الى أن الكتب تعجبني لا لأني بالضرورة أظنها احسن الكتب، بل لاسباب عديدة ليست دائما سهلة التفسير.

ـــ تذكر دائما «أوديب الملك» لسوفوكل

ـــ أوديب الملك وآماديس دي غاولا(23) ولاثاريو دي طورميس(24) ويوميات

(22) رواية لفرجينيا وولف (1925)

(23) أشهر الكتب المعروفة بكتب الفروسية (القرن السادس عشر) التي كتب ثربانطيس ضدها رائعة «دون كيخوطي».

(24) رواية اسبانية معروفة مجهولة المؤلف (القرن السادس عشر) ترجمت الى لغتنا.

الطاعون لدانييل ديفو وأول رحلة حول الأرض لبيغافيطا.

ـ وكذلك «طرزان القرود».

ـ لبورفس، نعم

ـ ومن هم المؤلفون الذين تعيد قراءتهم بمثابرة أكثر ؟

ـ كونراد، سينت إكزيبرى...

ـ ولماذا كونراد وسينت إكزوبيري ؟

ـ السبب الوحيد الذي من أجله يعيد الانسان قراءة كتاب لمؤلف هو لأنه يعجبه. بعد هذا : ما يعجبني أكثر في كونراد وسينت إكزوبيري هو الشيء الوحيد الذي يتفقان فيه : طريقة اقتحام الواقع بشكل غير مباشر يجعله يبدو شعريا، حتى في لحظات امكانية كونه عاديا.

ـ وتولستوي ؟

ـ لا أحتفظ بأي عمل له، لكني مازلت أعتقد أن أحسن رواية كتبت هي «الحرب والسلم»

ـ ومع ذلك فلم يكتشف أحد من النقاد أثر لهؤلاء الكتاب في مؤلفاتك.

ـ الواقع هو أنني حاولت دائما الا أشبه أحدا. أحاول أن أتفادى من الكتاب الذين يعجبونني اكثر بدل التقليد.

ـ ورغم هذا فقد رأى النقاد دوما ظل فوكنير في مؤلفاتك.

ـ صحيح. وألحوا في تأثير فوكنير إلحاحا شديدا، الى درجة انهم تمكنوا من اقناعي خلال فترة. هذا لا يضايقني، لأن فوكنير هو أحد أكبر الروائيين في كل زمان ـ لكنني اعتقد أن النقاد يثبتون التأثيرات بطريقة لا أتمكن من فهمها. التشابه في حالة فوكنير تشابه جغرافي اكثر منه أدبي اكتشفت هذا بعد كتابة رواياتي الاولى بزمن طويل، وأنا أجوب جنوب الولايات المتحدة. القرى الحارقة الغائصة في الغبار، الناس الفاقدون الأمل الذين وجدتهم في تلك الرحلة كانوا يشبهون كثيرا هؤلاء الذين كنت استحضرهم في قصصي القصيرة. ربما لم يكن الامر يتعلق بتشابه مصادف، لأن اراكاطاكا، القرية التي عشت فيها طفلا، كادت أن تكون بنيت من طرف شركة اميركية شمالية، الـ United Fruit.

ـ قد يبدو للانسان ان التشابه يصل الى ابعد من ذلك. هناك قرابة، خط انتماء ما بين العقيد سارطور وعقيدك أوريليانو بوينديا، بين ماكوندو ومقاطعة يوكناباطوفا.هناك نساء ذوات طابع حديدي وربما بعض نعوت تحمل علامة المصنع. ألا تكون، بتفاديك من فوكنير كتأثير حاسم، مرتكبا جريمة قتل الأب ؟

ـ ربما، لذلك قلت ان مشكلتي لم تكن تقليد فوكنير، بل تدميره، كان تأثيره يخنقني.

ـ مع فرجينيا وولف يحدث العكس بالضبط: لا أحد يتكلم عن تأثيرها الا أنت. أين هو التأثير ؟

ـــ كنت ربما سأغدو كاتبا مختلفا عما أنا الآن لو لم أقرأ وأنا في العشرين هذه الجملة في «السيدة دالوي» : «لكن لم يكن هناك شك في أن في الداخل (داخل السيارة) يجلس شيء عظيم : عظمة كانت تمر مختبئة، في متناول الايادي العامية الموجودة لأول ولآخر مرة قريبة الى هذا الحد من صاحبة الجلالة ملكة انجلترا، الرمز الخالد للدولة الذي لابد للاثريين المثابرين أن يحققوا هويته عند الحفر الذي سيقومون به في خراب الزمن، لما تمسي لندن مجرد طريق يكسوه العشب، ويمسي الناس الماشون في شوارعها ذلك الصباح الاربعائي مجرد كومة عظام ببعض خواتم الزواج، مختلطة بغبارها نفسه وبترصيص الاسنان المسوسة التي لا تحصى». أتذكر أني قرأت هذه الجملة وأنا أطرد الناموس وأهذي من الحرارة في غريفة فندق، في الوقت الذي كنت أبيع موسوعات وكتب طب في الغواخيرا الكولومبية.

ـــ لماذا أثرت فيك الى هذا الحد ؟

ـــ لانها غيرت تماما مفهومي للزمن، ربما اتاحت لي ان ألمح في لحظة واحدة العملية كلها لتفسخ ماكندو ومصيرها النهائي. زيادة على هذا اسأل نفسي اليس ممكنا أن تكون المصدر البعيد ل «خريف البطريرك»، وهو كتاب عن اللغز البشري للسلطة، عن عزلتها وبؤسها.

ـــ لائحة التأثيرات لابد أنها أكبر من هذا. من هم الذين اغفلناهم ؟

ـــ سوفوكل، رامبو، كافكا، الشعر الاسباني للعصر الذهبي، وموسيقى الغرف من شوبان حتى بارطوك.

ـــ أيجب أن نضيف شيئا لغرين وبعض قطرات لهمنغواي ؟ لما كنت شابا كنت اراك تقرأ كتبهما باهتمام كبير، هناك قصة لك، «قيلولة الثلاثاء» (أنت تقول إنها احسن قصة قصيرة كتبتها) تدين بالكثير لـ «كناري كهدية» لهمنغواي.

ـــ غراهام غرين وهمنغواي أمداني بدروس ذات طابع تقني خالص. هي قيم في السطح اعترفت بها دائما. لكن التأثير الحقيقي والمهم بالنسبة الي هو للمؤلف الذي تؤثر قراءته في الانسان الى درجة تغيير بعض مفاهيمه عن العالم والحياة.

ـــ لنرجع الى التأثيرات العميقة. أو بتعبير أفضل : التأثيرات السرية. الشعر ؟ ربما تمنيت ان تكون شاعرا لما كنت فتى، وهذا لن تعترف به أبدا... وإن كنت قد أقررت بأن تكونك كان شعريا أساسا.

ـــ نعم، أنا بدأت أهتم بالأدب من خلال الشعر. الشعر الرديء. الشعر الشعبي من النوع الذي ينشر في تقويمات ومنشورات. اكتشفت في النصوص الاسبانية بالتعليم الثانوي اني أحب الشعر بقدر ما أكره قواعد اللغة. كنت مفتونا بالرومانسيين الاسبانيين : نونييث دي آرثي، إسبرونثيدا.

ـــ أين كنت تقرأ شعرهم ؟

ـــ في ثيبا كيرا، وهي كما تعرف القرية الكئيبة نفسها ـــ على بعد ألف كيلومتر من البحر ـــ التي ذهب اليها أوريليانو الثاني للبحث عن فيرناندا ديل كاربيو. هناك، في الثانوية التي كنت فيها داخليا، بدأ تكويني الادبي بقراءتي شعرا رديئا من جهة وكتبا ماركسية كان يعيرني اياها خفية استاذ التاريخ من جهة أخرى. أيام الأحد لم يكن عندي اي عمل، وهروبا من السأم، كنت ادخل الخزانة المدرسية. بدأت إذن بالشعر الرديء قبل أن اكتشف الجيد. رامبو، فاليري...

ـــ نيرودا...

ـــ طبعا، نيرودا الذي اعتبره الشاعر العظيم للقرن العشرين في جميع اللغات. حتى لما يلج الأزقة الواعرة ـــ شعره السياسي، شعره الحربي ـــ يوجد دائما في شعره جودة كبيرة. كان نيرودا ـــ قلت هذا مرات أخرى ـــ يشبه الملك ميداس[25]، كلما مس شيئا صيره شعرا.

ـــ متى بدأت تهتم بالرواية ؟

ـــ بعد ذلك، لما كنت في الجامعة، في السنة الأولى للحقوق (كان عمري حوالي تسعة عشر عاما) وقرأت «التحول». تكلمنا عن هذا الكشف. مازلت اتذكر الجملة الأولى : «لما أفاق غريغوريو سامسا ذات صباح، بعد نوم مضطرب، وجد نفسه في فراشه وقد تحول الى حشرة هائلة». «ما هذا ؟! ـــ فكرت ـــ هكذا كانت جدتي تتكلم». حينئذ بدأت الرواية تثير اهتمامي. قررت ان اقرأ كل الروايات المهمة التي كتبت منذ بداية العالم.

ـــ كلها ؟

ـــ كلها، ابتداء من التوراة الذي هو كتاب ممتاز تجري فيه اشياء عجيبة. تركت كل شيء، حتى دراستي في الحقوق، وتفرغت لقراءة الروايات فقط. لقراءة الروايات وللكتابة.

ـــ في اي كتاب من كتبك تظن ان تكونك الشعري يلاحظ أكثر ؟

ـــ ربما في «خريف البطريرك».

ـــ وهو كتاب عرَّفته أنت بأنه قصيدة نثرية.

ـــ كنت اكتبه كما لو كان الامر يتعلق بقصيدة نثرية. ألا حظت انه يحتوي على أبيات كاملة لروبين داريو ؟. «خريف البطريرك» عامر بغمزات للذين يعرفون روبين داريو. وهو بنفسه إحدى شخصيات الرواية. وهناك بيت شعري له، تركته يرد بلا مبالاة متعمدة،

(25) تقول الأسطورة إن هذا الملك كان يحول إلى ذهب كل شيء مسته يداه.

قصيدة له، نثرية، تقول : «كان في منديلك الأبيض حرف، حرف أحمر لاسم ليس لك يا مالكي».

ــ ماذا تقرأ زيادة على الرواية والشعر ؟

ــ كتبا كثيرة لا تتميز بأهميتها الأدبية بل الوثيقية : مذكرات شخصيات مشهورة، لا يهم ان تكون أكاذيب. سيرا وريبورتاجات.

ــ لنكون لائحة أخرى. أتذكر ان تلك السيرة للقرطبي[26] التي ألفها دومينيك لابيير ولاري كولين، «أوتلبس الحداد لأجلي»، اعجبتك كثيرا. ابن آوي[27]. وحتى بابييون...

ــ وهو كتاب اخاذ يخلو من كل قيمة ادبية. لابد أنه اعيدت كتابته من طرف مؤلف كان يهمه ان يحدث انطباعا بأن الكتاب لمبتدئ.

ــ لنتكلم عن تأثيرات خارجة عن نطاق الأدب. تأثيرات كانت حاسمة في اعمالك. جدتك مثلا.

ــ كانت، كما قلت لك سابقا، امرأة واسعة الخيال متطيرة، وكانت ترعبني ليلة بعد ليلة بقصصها المتعلقة بما وراء القبر.

ــ وجدك ؟

ــ لما كنت في الثامنة روى لي أحداث جميع الحروب التي شارك فيها. أهم الشخصيات الذكرية لكتبي تحمل شيئا كثيرا منه.

ــ أظن أن جديك يمثلان تأثيرا أكبر وأعمق. أقصد منطقة الساحل الكولومبي للكاريبي حيث ولدت انت. يوجد هنالك طبعا تقليد هائل للحكاية الشفوية الموجودة حتى في الاغاني (في الـ Vallenatos). هذه دائما تحكي حكاية. الواقع هو أن كل الناس هنالك يجيدون حكاية القصص. أمك مثلا. ضونيا لويسا. اتذكر اني سمعتها تتكلم عن صديقة لها كانت تتنزه كل ليلة في فناء الدار وهي تمشط شعرها. هي طبعا كانت قد ماتت قبل ذلك بعشر سنين... لكنها كانت مازالت تتنزه في الفناء. من أين هذه القدرة على حكاية أشياء خارقة الى هذا الحد، سحرية الى هذا الحد ؟

ــ كان جداي ينحدران من جليقيين، وكثير من الأشياء الفوطبيعية التي كانا يحكيانها لي جاءت من جليقيا. لكني اعتقد ان ذلك التعلق بما هو فوطبيعي الخاص بالجليقيين هو

(26) EL CORDOBES مصارع ثيران إسباني معروف.

(27) رواية معروفة لفريديريك فورسيث.

إرث افريقي كذلك. الساحل الكولومبي للكاريبي حيث ولدت انا، هو ــ مع البرازيل ــ المنطقة الأميركية اللاتينية التي نحس فيها أكثر بالتأثير الأفريقي. وفي هذا الصدد، الرحلة التي قمت بها الى انغولا في 1978 هي أفتن تجربة مررت بها. أظن انها قصمت حياتي نصفين. أنا كنت أنتظر ان أجد نفسي في عالم غريب، غريب تماما، ومنذ اللحظة التي حططت فيها قدمي هناك، منذ اللحظة ذاتها التي شممت فيها الهواء، وجدت نفسي فجأة في عالم طفولتي. نعم، وجدت طفولتي كلها، تقاليد وأشياء كنت نسيتها. حتى أني عادت الي الكوابيس التي كانت تحاصرني في الطفولة.

«في امريكا اللاتينية علمونا أننا إسبانيون. وهذا صحيح جزئيا، لأن العنصر الأسباني هو جزء من شخصيتنا الثقافية نفسها ولا يمكن ان ينكر. لكن في تلك الرحلة الى انغولا اكتشفت اننا افريقيون كذلك. او بتعبير افضل : أننا خلاسيون. أن ثقافتنا خلاسية، أنها تغتني بإمدادات مختلفة. لم أكن قد وعيت ذلك قط حتى ذلك الوقت.

«في المنطقة التي ولدت فيها توجد أشكال ثقافية ذات جذور افريقية تختلف كل الاختلاف عن الموجودة في المناطق المرتفعة حيث تجلت الثقافات البلدية. في منطقة الكاريبي التي انتمي اليها، امتزج الخيال الفياض للعبيد السود الأفريقيين بخيال السكان الاصليين القبكولومبيين ثم بخيال الاندلسيين وباجلال الجليقيين لما هو فوطبيعي. تلك القابلية للنظر الى الواقع بطريقة سحرية هي خاصة بالكاريبي وكذلك بالبرازيل. من هناك نبع ادب وموسيقى ورسم كرسم بيفريدو لام[28] هي تعبير جمالي لهذه المنطقة من العالم.

ــ الحاصل، اقوى تأثير بلغك ــ أقوى من أي تأثير آخر مكتسب في تكونك الأدبي ــ هو الذي جاءك من هويتك الثقافية والجغرافية. الهوية الكاريبية. هو عالمك، العالم الذي تعبر عنه. كيف يترجم هذا التأثير في كتبك ؟

ــ اعتقد ان الكاريبي علمني ان أرى الواقع بطريقة اخرى، أن أقبل العناصر الفوطبيعية كشيء يكون جزءا من حياتنا اليومية. الكاريبي عالم مختلف اول اعماله في الأدب السحري هو «يوميات خريستوف كولومبس»، وهو كتاب يتحدث عن نباتات خرافية وعوالم اسطورية. نعم، تاريخ الكاريبي زاخر بالسحر، بسحر جاء به العبيد السود الأفريقيون، ولكن حتى القراصنة السويديون والهولنديون والانجليزيون، الذين كانوا قادرين على ان يقيموا مسرح اوبرا في نيوأورليانس ويملأوا بالماس أسنان النساء. الخلاصة البشرية والتناقضات الموجودة في الكاريبي لا نراها في اي مكان آخر من العالم. أعرف جزره كلها : خلاسيات لونهن عسلي وعيونهن خضراء وعلى الرأس مناديل مذهبة، صينيون اختلطت دماؤهم بدماء الهنود يغسلون الثياب ويبيعون الحجب، هنود خضر يخرجون من حوانيتهم (حيث يبيعون

(28) رسام كوبي.

العاج) ليخرأوا وسط الشارع، قرى حارقة غارقة في الغبرة ديارها تذهب بها الاعاصير الحلزونية، ومن جهة اخرى ناطحات سحاب ذات زجاج شمسي وبحر ذو سبعة ألوان. طيب اذا بدأت اتكلم عن الكاريبي فمن الصعب ان أكف عن الكلام. هو ليس فقط العالم الذي علمني الكتابة، بل انه كذلك المنطقة الوحيدة التي لا أشعر فيها بأني أجنبي.

الأعمال

ـ أتعتقد هذا حقا ؟

ـ نعم هذا ما اعتقده : الكاتب على العموم لا يؤلف سوى كتاب واحد، ولو ظهر هذا الكتاب في اجزاء كثيرة بعناوين مختلفة. هذا هو شأن بلزاك وكنراد وميلفيل وكافكا، وفوكنير طبعا. أحيانا يبرز احد تلك الكتب اكثر من الأخرى، الى درجة ان المؤلف يظهر كمؤلف عمل واحد، او عمل واحد أساسي. من يتذكر قصص ثيربانطيس ؟. من يتذكر مثلا «الطالب بيدريرا»(29) التي مازالت تقرأ بالمتعة نفسها التي تقرأ بها احسن صفحاته ؟ في اميركا اللاتينية يعرف رومولو غاييغوس(30) ب «ضونيا باربارا»(31) وهي ليست احسن اعماله. وأستورياس(32) يعرف ب «السيد الرئيس»(33) وهي رواية رديئة، دون مستوى «أساطير غواتيمالية»(34).

ـ إذا كان الكاتب لا يعمل سوى تأليف كتاب واحد في حياته، فما هو كتابك انت ؟. أهو كتاب ماكوندو ؟

ـ أنت تعرف أنه ليس كذلك. اثنتان فقط من رواياتي (الأوراق الساقطة ومئة عام من العزلة) وبعض قصص «جنازة الماما الكبيرة» تجري احداثها في ماكندو. الروايات الأخرى (لم تصل العقيد أية رسالة والساعة السيئة وأخبار موت معلن) مسرح احداثها بلدة اخرى من الساحل الكولومبي.

ـ بلدة بلا قطار ولا رائحة موز.

ـ ... ولكن بنهر. بلدة لا يمكن بلوغها الا بزورق.

ـ إذا لم يكن كتاب ماكوندو، فما هو كتابك الوحيد هذا ؟

---

(29) إحدى قصص ثير بانطيس.

(30) روائي فنزويلي.

(31) رواية معروفة.

(32) روائي غواتيمالي. نال جائزة نوبيل عام 1967.

(33) رواية معروفة حول شخصية الدكتاتور.

(34) هي أول عمل لأستورياس.

ــ هو كتاب العزلة. انتبه جيدا، الشخصية الرئيسية في «الأوراق الساقطة» هي رجل يعيش ويموت في عزلة مطلقة. العزلة موجودة كذلك في شخصية «لم تصل العقيد أية رسالة». العقيد مع زوجته وديكه، وهما ينتظران كل جمعة معاشا لا يصل قط. وهي موجودة في عمدة «الساعة السيئة» الذي لا يتمكن من غنم ثقة البلدة ويحس عزلة السلطة بطريقته الخاصة.

ــ مثل اوريليانو بويندييا والبطريرك.

ــ بالضبط. العزلة هي موضوع «خريف البطريرك»، و «مئة عام من العزلة» طبعا.

ــ إذا كانت العزلة هي موضوع جميع كتبك، اين يجب ان نفتش عن جذور هذا الاحساس المسيطر ؟ ربما في طفولتك ؟

ــ أعتقد ان هذه مشكلة الناس جميعا. لكل واحد طريقته ووسيلته في التعبير عنها. كتاب كثيرون لا يعملون شيئا آخر غير التعبير عنها في اعمالهم (بعضهم لا يدركون ذلك). أنا واحد منهم. أنت لا ؟

ــ أنا كذلك، نعم. كتابك الأول ــ الأوراق الساقطة ــ يحمل بذرة «مئة عام من العزلة». كيف تنظر اليوم الى الشاب الذي الف ذلك الكتاب؟

ــ بقليل من الشفقة، لانه كتبه متعجلا، وهو يفكر بأنه لن يكتب أي شيء، آخر في حياته، ان تلك فرصته الوحيدة، فكان يحاول ان يحشو ذلك الكتاب بكل ما كان تعلمه حتى ذلك الوقت. وعلى الخصوص وسائل وحيل ادبية مأخوذة من الروائيين الأميركيين الشماليين والانجليزيين الذين كان يقرأ مؤلفاتهم.

ــ فرجينيا وولف، جويس، وفوكنير بلاشك. وفي هذا الصدد، تقنية «الأوراق الساقطة» تشبه جدا تلك المستخدمة في «بينما احتضر أنا» لفوكنير.

ــ ليست هي نفسها بالضبط. أنا استخدمت ثلاث وجهات نظر قابلة لتعيين هويتها على وجه أكمل، دون ان اجعل لها اسماء : وجهات نظر شيخ وطفل وامرأة. اذا دققت النظر جيدا سترى ان «الأوراق الساقطة» لها التقنية نفسها والموضوع نفسه (وجهات نظر حول ميت) لـ «خريف البطريرك» لكنني في «الأوراق الساقطة» ما كنت اجرؤ على الانطلاق، المونولوغات منظمة بصرامة. أما في «خريف البطريرك» فان المونولوغات (بالعكس) متعددة، داخل جملة واحدة احيانا. في هذا الكتاب كنت قادرا على الطيران وحدي، قادرا على أن أعمل ما يحلو لي.

ــ لنعد الى الشاب الذي كتب «الأوراق الساقطة». كان عمرك عشرين عاما.

ــ اثنين وعشرين.

ـــ اثنين وعشرين، كنت عائشا في بارانكيبا، وكتبت الرواية عاملا (اذا لم تخني الذاكرة) في وقت متأخر من الليل، بقاعة تحرير جريدة، بعد انصراف الجميع.

ـــ جريدة «إل إيرالدو».

ـــ نعم، أنا عرفت قاعة التحرير تلك : أضواء نيون، مراوح ذات ريش، حرارة شديدة دائما. في الخارج كان يوجد شارع عامر ببارات حقيرة. شارع «كريمن»، أمازالوا يسمونه هكذا ؟

ـــ شارع ال «كريمن»، طبعا، كنت اعيش هناك، في فنادق عابري سبيل كانت هي فنادق العاهرات نفسها. كان ثمن الغرفة بيسوا واحدا وخمسين ثينطابوا لليلة الواحدة. أنا كانوا يعطونني في «إل إيرالدو» ثلاثة بيسوات على العمود الواحد، وأحيانا ثلاثة أُخرى على الافتتاحية. لما كان لا يوجد عندي البيسو والخمسون لادفع ثمن الغرفة، كنت اترك لبواب الفندق مخطوطة «الأوراق الساقطة» كرهن. هو كان يعرف انها بالنسبة الي اوراق مهمة جدا. بعد ذلك بزمن طويل (لما كنت قد كتبت «مئة عام من العزلة») اكتشفت ذلك البواب بين الناس الذين كانوا يقتربون مني ليحيوني أو ليطلبوا مني خطي. لم يكن قد نسي اي شيء.

ـــ هل اعترضتك مشاكل في نشر «الأوراق الساقطة».

ـــ مرت خمس سنين قبل ان أجد لها ناشرا. أرسلتها الى دار النشر «لوصادا» (في الأرجنتين) فردوها الي برسالة للناقد الاسباني «غييرمو دي طوري» يوصيني فيها ان اتعاطى شيئا آخر، لكنه اعترف لي بشيء يملأني الآن رضى : بحس شعري قيم.

ـــ أظن اني سمعتك تقول ان شيئا شبيها بهذا وقع لك في فرنسا. مع روجي كايوا، اذا لم تخني الذاكرة.

ـــ «لم تصل العقيد...» عرضت على غاليمار قبل «مئة عام...» بزمن طويل. قرأها اثنان : خوان غويتيسولو وروجي كايوا. الأول (ولم يكن بعدصديقا حميما بالنسبة لي كما هو اليوم) قام بعرض جيد للكتاب. أما كايوا فقد رفض الكتاب بتاتا. كان لابد ان اكتب «مئة عام...» لكي يعود غاليمار الى الاهتمام بكتاب لي. لكن وكيلي كانت عنده وقتئذ التزامات اخرى في فرنسا.

ـــ بعد «الأوراق الساقطة» وقبل «مئة عام من العزلة» (لم تصل العقيد أية رسالة والساعة السيئة وجنازة الماما الكبيرة) تغدو فجأة واقعية، مقتضبة، صارمة للغاية في لغتها وبنائها، وخالية من أي سحر أو إفراط. كيف نفسر هذا التغيير ؟

ـــ لما كتبت «الأوراق الساقطة»، كان عندي ايمان بأن كل رواية جيدة يجب ان تكون نقلا شعريا للواقع. لكن ذلك الكتاب، كما تذكر، ظهر في وقت كانت فيه كولوميا

تعيش فترة اضطهادات سياسية دموية، وتسبب لي اصدقائي المناضلون في عقدة ذنب فظيعة. قالوا لي : «هي رواية لا تشهر بشيء، لا تفضح شيئا». هذا المفهوم أراه اليوم مفرطا في التبسيط، اراه خطأ، لكنه في ذلك الوقت جعلني افكر اني يجب ان اهتم بالواقع المباشر للبلد، وأن ابتعد قليلا عن افكاري الأدبية الأولية، وهي افكار استرجعتها بعد ذلك لحسن الحظ. تعرضت خلالئذ لخطر كبير هو أن يكسر رأسي.

«لم تصل العقيد أية رسالة» و «الساعة السيئة» وكثير من قصص «جنازة الماما الكبيرة»، هي من وحي واقع كولومبيا، وبنيتها المنطقية حددتها طبيعة الموضوع. أنا لست نادما على كتابتها، لكنها تشكل نوعا ادبيا يسبقه التروي، ويقدم رؤية للواقع راكدة ومقصية الى حد ما. هي كتب ــ مهما بدت جيدة أو رديئة ــ تنتهي في آخر صفحة. وهي أضيق مما أظن أني قادر على عمله.

ــ ماذا جعلك تغير اتجاهك ؟

ــ التأمل في عملي الشخصي. تأمل طويل ادركت في نهايته ان التزامي لم يكن مع الواقع السياسي والاجتماعي لبلدي، بل مع واقع هذا العالم والعالم الآخر، دون ان اوثر ايا من مظاهرهما ولا ان استهين به.

ــ هذا يعني انك، من خلال تجربتك الخاصة فندت الأدب الملتزم الذائع الصيت، الذي ضر اميركا اللاتينية ضررا كبيرا.

ــ أنا في اختياراتي السياسية الشخصية انسان ملتزم، ملتزم سياسيا، كما تعرف أنت جيدا.

ــ ملتزم مع الاشتراكية...

ــ أريد ان يكون العالم اشتراكيا، واعتقد انه سيكون كذلك عاجلا او آجلا. لكنني متحفظ. من ما سمي بيننا بالأدب الملتزم، او بتعبير ادق : الرواية الاجتماعية، وهي ذروة هذا الادب، لاني أظن ان رؤيتها المحدودة للعالم والحياة لم تصلح لشيء من الناحية السياسية. هو ابعد ما يكون عن تعجيل سير عملية الوعي، انه يؤخره. الأميركيون اللاتينيون ينتظرون من الرواية شيئا أكثر من كشف اضطهادات ومظالم يعرفونها معرفة مفرطة. اصدقاء مناضلون كثيرون من الذين يشعرون كثيرا بواجب سن قواعد للكتاب حول ما يجب او ما لا يجب ان يكتبوا، يتخذون (ربما دون ان يدركوا ذلك) موقفا وجعياً بقدر ما يفرضون قيودا على حرية الابداع. أنا ارى ان رواية حب لا تقل قيمة عن اية رواية اخرى. واجب الكاتب في الواقع ــ والواجب الثوري، اذا اردت ــ هو ان يكتب جيدا.

ــ بعد ان تخلصت من التزام واقع سياسي مباشر، كيف توصلت الى العثور على تلك المعالجة الأخرى ــ لنسمها معالجة خرافية ــ للواقع، المعالجة التي أتاحت لك ان تكتب «مئة عام من العزلة» ؟

ــ ربما كانت حكايات جدتي هي التي دلتني على الطريق الى ذلك، كما قلت لك. الخرافات والأساطير واعتقادات الناس كانت بالنسبة اليها جزءا من حياتها اليومية، وهذا بشكل طبيعي جدا. ادركت فجأة، وأنا أفكر فيها، أني ما كنت اختلق شيئا، وإنما ــ ببساطة ــ التقط واحكي عالما من نُذُر وعلوم مداوات واحاسيس محذرة، وتطير اذا اردت، عالم يعود لنا ــ لأمريكا اللاتينية ــ بشكل حميمي. تَذَكَّرْ مثلا هؤلاء الرجال ــ في بلدنا ــ الذين يستطيعون ان يخرجوا من اذن بقرة دودا بواسطة تأدية صلوات. في امريكا اللاتينية، حياتنا اليومية كلها عامرة بحوادث من هذا النوع.

«وهذا فالاكتشاف الذي اتاح لي ان اكتب «مئة عام من العزلة» هو ــ ببساطة ــ اكتشاف واقع معاين بلا قيود، القيود التي حاول عقلانيو وستالينيو كل زمان ان يفرضوها عليه لكي يكلفهم فهمه مجهودا أقل.

ــ والافراط، الافراط الذي يظهر في «مئة عام من العزلة» وفي «خريف البطريرك» وفي قصصك الأخرى ، ايكون في الواقع كذلك أم هو صناعة ادبية ؟

ــ لا، الافراط كذلك جزء من واقعنا. واقعنا مفرط، وهو يطرح علينا نحن الكتاب معضلات بكثرة، معضلات عدم كفاية الكلمات. عندما نتكلم عن نهر فان اكبر نهر يمكن ان يتصوره اوربي هو الدانوب وطوله 2.790 كلومتر. كيف يمكنه ان يتصور الأمازون الذي يعرض في بعض الأماكن الى حد ان الضفة الواحدة لا نلمحها من الأخرى ؟. كلمة عاصفة توحي الى الأوربي بشيء وتوحي الينا بشيء آخر مختلف، والشيء نفسه يحدث مع كلمة مطر، التي لا علاقة لها بطوفاناتنا المدارية الساحية. أنهار المياه التي تغلي والعواصف التي تهز الأرض والأعاصير الحلزونية التي تذهب بديار في الهواء، هذه ليست اشياء مُخْتَلَقة ، بل ابعادا للطبيعة موجودة في عالمنا.

ــ طيب، اكتشفت الاساطير والسحر والافراط، كل ذلك مأخوذ من واقعنا. واللغة ؟ للغة في «مئة عام من العزلة» لمعان وغنى ووفرة لا توجد في كتبك السابقة، اذا استثنينا قصة «جنازة الماما الكبيرة».

ــ يمكن ان ابدو مغرورا، لكن الواقع هو اني كنت متمكنا من هذه اللغة قبل ذلك بكثير، ربما منذ ان بدأت اكتب. كل ما هنالك انني لم اكن قد احتجت اليها.

ــ أتعتقد حقا ان الكاتب يمكن ان يبدل لغته من كتاب لآخر، كما يبدل الانسان قميصه من يوم لآخر ؟ ألا ترى ان اللغة تكون جزءا من هوية الكاتب ؟

ــ أنا أرى ان التقنية واللغة اداتان يحددهما موضوع الكتاب. اللغة المستعملة في «لم تصل العقيد اية رسالة» و «الساعة السيئة» وفي عدة قصص من «جنازة الأم الكبيرة» لغة

بسيطة مختصرة، يسيطر عليها الاهتمام بالفعالية، لغة مأخوذة من الصحافة. في «مئة عام من العزلة» كنا في حاجة الى لغة اغنى لأفسح المجال لدخول واقع آخر، اتفقنا على أن نسميه واقعا اسطوريا أو سحريا.

ــ وفي «خريف البطريرك» ؟

ــ كنت كذلك في حاجة الى التفتيش عن لغة اخرى، متخلصا من التي استعملتها في «مئة عام من العزلة».

ــ «خريف البطريرك» هي قصيدة نثرية. أهي خاضعة لتأثير تكونك الشعري ؟

ــ لا، بل لتأثير الموسيقى أساسا. ما استمعت قط الى موسيقى بذلك القدر الكبير الذي استمعت اليها به لما كنت اكتب هذه الرواية.

ــ أية موسيقى بالتفضيل ؟

ــ في هذه الحالة المحددة، بيلا بارطوك(35) وكل الموسيقى الشعبية للكاريبي. كان لا مفر من أن ينتج عن المزج التفجر.

ــ قلت كذلك ان في هذا الكتاب توجد تلميحات وتعابير تتعلق باللغة العامية.

ــ هذا صحيح. «خريف البطريرك» من وجهة النظر اللغوية هو الأكثر عامية بين جميع كتبي والأقرب من مواضيع وعبارات واغنيات وأمثال منطقة الكاريبي. توجد جمل لا يستطيع فهمها الا سائقوا بارانكييا.

ــ كيف تنظر الى أعمالك وأنت تلتفت الى الوراء ؟ كتبك الأولى مثالا.

ــ قلت لك هذا سابقا : بحنان فيه بعض الأبوية. كما يتذكر الانسان الابناء الذين اصبحوا كبارا واخذوا يبتعدون عن البيت. ارى تلك الكتب الاولى بعيدة وبلا حماية. اتذكر كل المشاكل التي كانت تطرحها على الشاب الذي كتبها.

ــ المشاكل التي يمكن ان تحلها اليوم بمنتهى السهولة.

ــ نعم، المشاكل التي لن تكون اليوم مشاكل.

ــ ايوجد خيط بين تلك الكتب الأولى والكتب التي جعلت العالم كله يعرفك بعد ذلك ؟

ــ يوجد، وأنا أشعر بالحاجة الى معرفة انه كائن في الداخل، وحتى بالحاجة الى مراقبته.

ــ ما هو اهم كتاب بين جمع اعمالك ؟

(35) موسيقي هنغاري معروف (1881 ــ 1945)

ـــ من الناحية الأدبية، اهم عمل (العمل الذي يستطيع ان ينقذني من النسيان) هو «خريف البطريرك».

ـــ قلت كذلك انه هو العمل الذي اسعدتك كتاباته اكثر . لماذا ؟

ـــ لانه الكتاب الذي تمنيت دائما ان اكتبه، ثم انه هو الذي بلغت فيه باعترافاتي الشخصية الى ابعد حد.

ـــ مرموزة كما ينبغي، طبعا.

ـــ طبعا.

ـــ هو الكتاب الذي كلفك تأليفة اطول وقت.

ـــ سبعة عشر عاما، بالاجمال. وكتبت روايتين اهملتا قبل ان اجد الرواية الصائبة.

ـــ أهو اذن احسن كتاب لك ؟

ـــ قبل ان اكتب «اخبار موت معلن»، اصررت على ان احسن رواية لي هي «لم تصل العقيد اية رسالة» . كتبتها تسع مرات وكانت تبدو لي امنع اعمالي.

ـــ أتعتبر اذن «اخبار موت معلن» احسن منها ؟

ـــ نعم.

ـــ بأي مفهوم تقول هذا ؟

ـــ بمفهوم أني تمكنت فيها من ان اعمل ما اردته بالضبط. هذا لم يحدث من قبل قط. في كتب اخرى حدث ان ذهب بي الموضوع، والشخصيات اكتسبت احيانا خاصة وعملت ما حلا لها.

ـــ هذا من أعظم الاشياء في الخلق الأدبي...

ـــ ولكنني كنت في حاجة الى تأليف كتاب اكون قادرا على ان اسيطر عليه سيطرة صارمة، وأظن اني حققت ذلك ب «اخبار موت معلن». الموضوع له البنية المضبوطة للرواية البوليسية.

ـــ العجب : انت لا تذكر قط «مئة عام من العزلة» بين احسن كتبك، وهو كتاب لا يمكن تجاوزه، حسب نقاد كثيرين، اتحقد عليه الى هذا الحد فعلا ؟

ـــ أحقد عليه، نعم. كاد أن يخرب حياتي. بعد ان نشر لم يعد اي شيء كما كان.

ـــ لماذا ؟

ــ لان الشهرة تخل بادراكنا للحياة، ربما توشك ان تكون كالسلطة من هذه الناحية، وهي زيادة على هذا تهديد دائم للحياة الشخصية. هذا للأسف لا يصدقه احد مادام لا يعانيه.

ــ ربما كان النجاح الذي بلغته به يبدو لك خاليا من الانصاف بالنسبة لبقية اعمالك.

ــ هو كذلك فعلا. «خريف البطريرك»، كما قلت لك قبل قليل، هو عمل ادبي اهم. لكنه يتكلم عن عزلة السلطة لا عن عزلة الحياة اليومية. ما يحكى في «مئة عام من العزلة» يشبه حياة جميع الناس. وهو زيادة على هذا مكتوب بطريقة بسيطة، سَلِسَة، خطية، ويمكن ان أقول (قلت هذا قبل الآن) انها طريقة سطحية.

ــ يبدو انك تحتقره.

ــ لا، ولكن كونه مكتوبا بجميع حيل الحياة وجميع حيل المهنة، جعلني افكر قبل ان اكتبه انني استطيع ان افوقه.

ــ أن تهزمه.

ــ أن أهزمه.

الانتظـــار

ذلك العمل الاول كتبه دفعة واحدة، بهيجان صامت، عاملا ليلة بعد ليلة في المكتب الخالي لـ «إل إيرالدو» ببارانكيبا، عندما كانت تسكت الليونوتيبات ويسمع في الطبقة الارضية اللهاث المتأوه لمطبعة. على المكاتب الخالية كانت تدور ريشات المراوح اللاابجدية في تخفيف حده الحرارة. بعيدا، كانت حانات شارع «كريمن» ترسل موسيقاها الربضية. كان يقوم من أمام الالة في وقت متأخر جدا (يوشك أن يكون فجرا)، منهوكا، ولكن بلا رغبة في النوم بعد، وبشخصيات وذكريات من ماكوندو تدور في رأسه. كان يجعل في كيس من جلد أوراق الحديثة الكتابة ويخرج. في الخارج كان يتنفس العرف الفاتر الآتي من المستنقعات والفواكه المعفونة، وهو الرائحة المألوفة للمدينة. كان سكران يتمايل عند باب حانة من الحانات. وكان غبرييل يقطع ــ متأبطا مخطوطته ــ ساحة سان نيكولاس في تلك الساعة المتروكة للشحاذين والفضالة، متوجها الى فندق العاهرات، أعلى مكاتب العدول، حيث كانت تنتظره كل ليلة غرفة مختلفة ــ مقابل بيسو واحد وخمسين ثينطابوا ــ تحتوي دائما على سرير فقط بين أربعة فواصل كرتونية.

في هذا الجو ولدت روايته الاولى. كان في إمكان «الأوراق الساقطة» ــ وهو كتاب قوي محتو على كل كآبة ماكوندو وعلى الحنين الى ايامها الماضية ــ أن يُعرَف به، عن

استحقاق، في اميركا اللاتينية. لكن هذا لم يحدث. الاعتراف، الشهرة ــ سم كما تشاء المكافأة التي يستحقها كل كاتب بعد تأليفه كتابا جيدا أو أربعة كتب جيدة، كما كان الشأن لديه هو ــ لم تصله الا بعد ذلك بسنين كثيرة، لما حدث ــ بشكل مفاجىء بالنسبة إليه ــ أن بدأ خامس كتبه (مئة عام من العزلة) يباع (أولا في بوينوس ايريس، وبعد ذلك في أميركا اللاتينية، وأخيرا في العالم) بنفس السرعة التي يباع بها السحق الساخن.

كان الانتظار خلال ذلك صعبا، صبورا، ربما متحملا ببعض الاباء، ولكن محاصرا بالشك والمشاكل طبعا.

لم تنشر «الاوراق الساقطة» الا بعد خمس سنين من كتابتها. الناشرون القليلون الذين عرض عليهم الكتاب لم يبدوا أي اهتمام به. الناقد الاسباني غييرمو دي طوري، قارىء دار النشر لوصادا، رفض الرواية في بوينوس آيريس بملاحظة خشنة : لم يعترف للرواية بأية قيمة، باستثناء جو شعري ما. حتى أنه سمح لنفسه بأن ينصح مؤلفها بشفقة أن يتعاطى حرفة أخرى. وانتهى غبرييل ــ الذي كان وقتئذ يعمل مخبرا في جريدة «إل اصبيكطادور» البوغوطية ــ ناشرا «الأوراق الساقطة» على نفقته الخاصة ــ بمساعدة بعض الاصدقاء ــ في مطبعة متواضعة ببوغوطا.

صحيح أن الكتاب قوبل بنقد محلي مؤيد، لكن صداه كان أقل من الذي كانت تحدثه الريبورتاجات التي كان غبرييل يكتبها في «ال اصبيكطادور». كانت المغامرة التي عاشها غريق أو حياة بطل في سباق الدراجات (محكية في أعداد متتالية) تنفذ طبعات كثيرة للجريدة.

لما أرسلت «إل إصبيكطادور» غبرييل الى أوربا كمراسل، كان صحافيا معروفا جدا في بلده، لكنه كان مازال خفيا ككاتب. كان غبرييل بالنسبة لصاحبة فندق فلاندر، بشارع كوجا، حيث وصل في ذلك الشتاء من 1955، هو Le journaliste du septiéme étage (36) ــ ومازال كذلك الى الآن لما ترى صورته في الجرائد ــ

أنا التقيت به في ذلك الوقت. كان برجه حينئذ ــ كما كتبت مرة ما ــ هو برج حوت بلا حماية (اليوم تولى سالفه القوي برج الثور الاشراف على حياته) لا يسير الا على هدى رادار أحاسيسه المحذرة. كان نحيفا، بوجه جزائري يثير ريبة الشرطة بسرعة ويربك الجزائريين أنفسهم (كانوا أحيانا يتوقفون ليتكلموا معه بالعربية في عرض بول نيش)، وكان يدخن ثلاث علب سجائر في اليوم وهو يحاول أن يفتح طريقه، دون أن يعرف اللغة في ذلك المحيط من الحجر والضباب الذي هو باريس. كان زمن الحرب الجزائرية، زمن الاغاني الاولى لبراسانس، زمن المحبين الذين يقبلون بعضهم البعض بشده في المترو وفي الابواب. كنا مازلنا

(36) صحافي الطابق السابع.

ــ قبل أحداث بودابست ــ نرى العالم من الناحية السياسية كفلم من أفلام الغرب الاميركي، بالطيبين في جهة، جهة الاشتراكية، والشريرين في الجهة الاخرى.

رجعنا مؤخرا الى تلك السقيفة حيث كان يعيش، في شارع كوجا. النافذة تشرف على سقوف الحي اللاتيني، مازالت تسمع ساعة السوربون وهي تضبط الوقت، لكن لا يسمع الآن النداء الآسف الذي كان يصعد من الشارع كل صباح لبائع خرشوف. كان غبرييل يكتب كل ليلة حتى الصباح ــ وركبتاه ملصقتان بالمدفأة وصورة خطيبته مرثيديس مسمرة في الحائط بدبوس، في متناول نظره ــ رواية أصبحت بعد ذلك هي «الساعة السيئة». بعد قليل من بدءها، اضطر الى أن يوقفها : كانت شخصية عقيد عجوز منتظر بلا جدوى معاشه كمحارب قديم في الحرب الاهلية، تطالب بجوها الخاص، بكتاب. كتبه. كتب «لم تصل العقيد أية رسالة» ليفسح الطريق لـ «الساعة السيئة» من جهة وليُعَزِّم بطريقة أدبية غمومه اليومية وقتئذ كذلك من جهة أخرى : حتى هو لم يكن يعرف (مثل شخصيته) كيف سيأكل في اليوم التالي، وكان دائما ينتظر رسالة، رسالة بنقود لم تصل قط.

مشاكله الاقتصادية كانت قد بدأت بخبر في ثلاثة سطور ظهر في Le Monde، وقرأناه في وقت واحد بمقهى في شارع «إيكول» : كان روخاس بينييا، الدكتاتور الحاكم في كولومبيا وقتئذ، قد أغلق «ال اصبيكطادور» الجريدة التي كان غبرييل مراسلها في باريس. «الامر ليس خطيرا»، قال. ولكنه كان كذلك. الرسائل لم تجيء بشيكات بعد ذلك قط، فوجد نفسه بعد شهر عاجزا عن دفع ثمن الفندق. كان براسانس مازال يغني اغنياته والشبان المحبون مازالوا يقبلون بعضهم البعض في المترو، ولكن باريس لم تكن هي نفسها التي عرفها في الايام الاولى، بل المدينة المرة القاسية التي عرفها عدد كبير جدا من الامريكيين اللاتينيين، ذات غرف جليدية وبلوفرات ممزقة، حيث كان لطعام ساخن وركن جنب الموقد بعض البهاء الجسور اللامنتظر.

كان لفقر بارانكيا جانبه الطريف، وكان على اي حال نسبيا : الاصدقاء كانوا في كل مكان، العامل كان يرسل سيارته الى الفندق الذي ينام فيه هو، أمام مفاجأة البواب والعاهرات. في الكاريبي هناك انسانية. «حيث يأكل اثنان، يأكل ثلاثة»، يقولون هنالك. أما باريس فقلبها ــ بالعكس ــ قاس بالنسبة للبؤس. أدرك غبرييل هذا جيدا يوم اضطر الى طلب نقود في المترو. أعطوه إياها. لكن الرجل الذي حطها في يده بوجه متبرم، لم يرد أن يستمع الى تفسيراته.

قال غبرييل مرة ما إنه يحتفظ بصورة لكل مدينة عاش فيها، صورة أدوم من جميع الصور الأخرى، أما صورة باريس فهي حزينة : «كانت الليلة طويلة للغاية، إذ لم أجد أين أنام، فقضيتها أتمايل على المقاعد من الرغبة في النوم، مسخنا جسمي في البخار السماوي

للمترو، متجنبا رجال الشرطة الذين كانوا يهاجمونني بالضرب حاسبين آني جزائري. وكفت في الصباح فجأة رائحة القنبيط المسلوق، وتوقف جريان السين، كنت أنا الكائن الحي الوحيد وسط الضباب المضيء لثلاثاء خريفي في مدينة خالية. عندئذ وقع ذلك : لما كنت اقطع قنطرة سين ميشيل، سمعت خطوات رجل، تحت وسط الضباب السترة الداكنة واليدين في الجيبين والشعر الحديث المشط، وفي اللحظة التي كنت فيها جنبه على القنطرة رأيت وجهه العظميّ الشاحب لجزء من ثانية : كان يبكي».

«لم تصل العقيد أية رسالة»، كتابه الثاني، هو وليد هذا الزمن. حتى هو لم يفتح له أي باب. أتذكر أن نسخة من المخطوطة ــ في أوراق صفراء ــ ظلت عندي وقتا طويلا. أريت إياها أناسا كان يمكن أن يساعدوا على نشر المخطوطة، لكن هؤلاء لم يكونوا يلاحظون قيمته الادبية على ماكان يبدو.

لما عملنا في كاراكاس كصحافيين، بعد سنين في باريس، استمر غبرييل يكتب في الليل، في ساعات فراغه. الآن كانت قصص «جنازة الماما الكبيرة». لم يكتشف أحد أنه كان قد أصبح كاتبا ممتازا خلف مهنة مخبر في مجلات، وهي مهنة لا يخلو وصوله اليها من فعل المصادفة. مدينة كاراكاس العامرة بالمهاجرين، التي ما زالت بلا روح وراء بناياتها الزجاجية وطرقها السيارة المبنية بالخرسانة المسلحة، حيث يقاس النجاح بملايين البوليبارات، هذه المدينة ليس لديها الوقت لتعترف بعبقريات اذا لم تجيء معترفا بها مقدما. هي مفرطة وكريمة مع غرثيا ماركيث اليوم، لكنها ما أحست حتى بوجوده لما كان هنالك صحافيا نحيفا قلقا في الثلاثين، يكتب ريبورتاجات جيدة ويرسل قصصه القصيرة الى مسابقات الجرائد بلا حظ.

استمر الانتظار بعد ذلك في بوغوطا. واصل غبرييل الكتابة في الليل (الآن كان يكتب «الساعة السيئة»)، بينما كان يُسَيِّر معي فرع وكالة الانباء «برينصا لاتينا» نُشر «لم تصل العقيد أية رسالة» في مجلة أدبية، دون أن يطلب منه مديروها الاذن قبل ذلك أو يدفعوا له أي حق : فكروا بحسن نية أن نشرهم مخطوطة استهان بها الناشرون هو اعتراف سخي من طرفهم. النقد المحلي لـ «لم تصل العقيد أية رسالة» كان مؤيدا طبعا، هكذا كان بعد ذلك أيضا، عند صدور «الساعة السيئة»، وهي الرواية التي فازت بجائزة وطنية كانت ترعاها الشركة البترولية «إسو كولومبيانا».

لكن كان الأمر يتعلق في نهاية المطاف بنجاحات بسيطة. كانت الطبعات قليلة النسخ وحقوق التأليف دنيا، وكان توزيع تلك الكتب محليا فقط. لم يكن أحد يعرف غرثيا ماركيث خارج كولومبيا. وحتى داخل البلد كانوا يقدرونه كممثل قيم لأدب محلي لا ككاتب ذي أهمية كبيرة، هذا باستثناء أصدقائه الاقربين. النخبة البوغوطية النازعة الى الحكم على الناس من خلال اسمائهم العائلية والالبسة التي يرتدونها، هذه النخبة لم تكن تنسى بعد أصله القروي، الساحلي، وشعوره الجعدة وجواربه الحمراء وربما عجزه عن تمييز أدوات أكل السمك من أدوات أكل الفاكهة.

قيل بحق ان البرجوازيين الاميركيين الاتينيين يخلطون فعل الوجود بفعل الامتلاك. قيمة هذين الفعلين هي في ما يمثلانه. يوم تمكن غبرييل أن يسكن فنادقهم نفسها ويأكل الروبيان في مطاعمهم ويعرف مثلهم ـــ أو أحسن منهم ـــ درجة الحرارة المناسبة للخمور وأنواع الجبن والاماكن والعروض المهمة لنيويورك وباريس ولندن، يومها فتحوا له أبوابهم وقد أحسوا أنهم كُرِّموا بتفضله أن يشرب كأس ويسكي معهم، ناسين الآن كل شيء، حتى الأفكار اليسارية القديمة لمؤلف «مئة عام من العزلة» والصداقة بينه وبين فيديل كاسترو.

لكن هذا لم يحدث وقتئذ. لم يكن قد حدث بعد. رغم الكتب المنشورة (بـ «جنازة الماما الكبيرة» الذي نشرته جامعة بيراكروث بالمكسيك، صارت أربعة) فإن الانتظار قد امتد بضعة أعوام أكثر. استمر غبرييل، بعد أن أرسل الى نيويورك كمراسل لـ «برينصا لاتينا» من طرف مدير الوكالة خورخي ريكاردو ماسيتي، استمر يعمل كَمُخَبِّر في النهار ويكتب في الفندق ليلا. تلك كانت أوقاتا صعبة بكل ما في الكلمة من معنى، كان منفيون كوبيون في نيويورك يهددونه-تلفونيا، ويذكرونه أحيانا بأنه لديه زوجة وطفل، وأنه يمكن أن يحدث لهما شيء. كان غبرييل ـــ احتياطا لكل هجوم ـــ يعمل بقضيب حديدي في متناول يده. داخل كوبا من جهة أخرى كان الناس يعيشون ما عرف بعد ذلك بـ «عام الطائفية». كان أعضاء من الحزب الشيوعي القديم يستأثرون بالمناصب الرئيسية في أجهزة الدولة. وكان يهمهم جدا الاستحواذ على «برينصا لاتينا» وخورخي ريكاردو ماسيتي الشاب الارجنتيني النبيه ذي المزايا الانسانية فوق العادية، كان يواجههم. لما سقط كمدير للوكالة تخلينا جميعا ـــ نحن الذين كنا وقتئذ نشاركه حرارته الثورية ورفضه الطائفية الشيوعية ـــ عن وظائفنا. غبرييل كان واحدا منا. (ذلك الحدث بالنسبة الي كان يشير الى انعطاف مقلق في اتجاه الثورة الكوبية. بالنسبة لغبرييل لا، أظن أنه رآه كحادثة في الطريق لم تفتر تعاطفه مع الحكومة الكوبية، وإن كان هذا التعاطف ـــ ومازال الى اليوم ـــ خاليا من طابع المعتقد المستقيم المقبول بلا قيد ولا شرط).

بعد التخلي بقي في نيويورك بلا عمل وبلا تذكرة رجوع. قرر الذهاب الى مكسيكو مع زوجته وابنه، كان هذا لامعقولا، لكن لهذه اللامعقولات عنده منطق خفي، حدسي خالص. ذهب في الناقلة، وكل رأسماله مئة دولار.

يوم حصل في مكسيكو على عمله الاول كمحرر في مجلة نساء، كان نعل حذائه منزوعا. صاحب النشرة الذي كان أيضا منتجا سينمائيا معروفا، حدد الموعد في بار. اضطر هو الى المجيء قبله والذهاب بعده حتى لا يلاحظ ذلك الحذاء المفتوق، بعد سنين كثيرة وجد نفسه في الحالة نفسها التي كان فيها لما جلس ليؤلف كتابه الاول.

لا أتذكر هل تكلم لي عن تلك الرواية التي كان يكتبها أثناء رحلة قمت بها أنا الى مكسيكو أم خلال رحلة قام بها هو الى بارانكيا، حيث كنت أعيش. «هي تشبه البوليرو»،

قال لي. «البوليرو، الذي هو آصَلَ تعبير موسيقي أميركي لاتيني، هو في ظاهره ذو عواطفية مفرطة : لكنه محتو كذلك على غمز، على مبالغة متقلدة بدعابة، على «لا تأخذ الامر أخذا حرفيا الى هذا الحد» يتعذر أن يلتقطه أحد غيرنا نحن الاميركيين اللاتينيين على ما يبدو. كما هو الشأن مع نعوت بورخيس) قال لي وهو يحط أصابعه على الطاولة ويجعلها تمشي وسطها : «أنا مشيت حتى الآن مع كتبي على آمن طريق. دون أن أتعرض لأخطار. الآن أحس أني يجب أن أمشي على الحافة ــ وأخذت اصابعه تتقدم في توازن صعب على طرف الطاولة ــ انتبه، لما تموت احدى شخصيات الكتاب بطلقة، يمر خيط من دمها بالبلدة كلها حتى يصل الى حيث توجد أم الميت. كل شيء هكذا. في حدود ما هو رفيع أو ماهو متكلف. مثل البوليرو». ثم أضاف : «إما أن أضرب ضربتي بهذا الكتاب أو أكسر رأسي».

كان يتكلم عن «مئة عام من العزلة»، الأمر واضح. لما قرأت المخطوطة، بعد إكمالها بوقت قصير جدا، كتبت اليه ورقة قائلا إنه بلا شك ضرب الضربة. وصلني جوابه سريعا : «هذه الليلة سأنام مرتاحا، بعد أن قرأت رسالتك. مشكلة «مئة عام من العزلة» لم تكن كتابتها، بل أن أبلع الجرعة المرة التي هي أن يقرأها الذين يهمونني. ردود الفعل كانت أكثر تأييدا مما كنت أتوقع. أظن أن أسهل مفهوم للاختصار هو الذي جاء من دار النشر «سودا ميريكانا» : تعاقدنا على طبعة أولى للكتاب في 10.000 نسخة، وقبل خمسة عشر يوما، بعد أن أروا خبراءهم عينات المطبعة، ضاعفوا نسخ الطبعة».

نعم، الانتظار الطويل الذي بدأ قبل خمسة عشر عاما ــ لما كان يكتب «الاوراق الساقطة» حتى الصباح ــ كان قد انتهى.

«مئة عام من العزلة»

ــ ماذا كان هدفك لما جلست لتكتب «مئة عام من العزلة» ؟

ــ أن أفتح مخرجا ادبيا متكاملا لكل التجارب التي قد تكون أثرت في، بشكل أو بآخر، خلال طفولتي.

ــ نقاد كثيرون يرون في الكتاب مثلا أو مجازا لتاريخ الانسانية.

ــ لا، أردت فقط أن أترك شهادة شعرية لعالم طفولتي التي مرت كما تعرف في دار كبيرة، كئيبة للغاية، مع أخت تأكل التراب وجدة تتكهن المستقبل، ومع أقرباء كثيرين بأسماء متشابهة لم يميزوا كثيرا بين السعادة والجنون قط.

ــ النقاد يجدون فيه دائما نوايا اكثر تعقيدا.

ــ إذا كانت موجودة، فلابد أنها لا شعورية. ولكن يمكن أن يحدث أيضا الا يجد النقاد في الكتاب ما يستطيعون أيجاده بل ما يريدون، على عكس الروائيين.

ـــ أنت دائما تتكلم عن النقاد بكثير من السخرية، لماذا يضجرونك الى هذا الحد ؟

ـــ لأنهم على العموم يتولون ـــ بهيئة بابوية ودون أن يدركوا أن رواية كـ «مئة عام من العزلة» تخلو تماما من الجدية. وتمتلىء بإيماءات الى احم الاصدقاء، إيماءات هم وحدهم يستطيعون اكتشافها ـــ مسؤولية فك جميع الغاز الكتاب معرضين أنفسهم لخطر قول حماقات كبيرة.

«أتذكر مثلا أن أحد النقاد حسب أنه اكتشف تفسيرات مهمة للرواية لما وجد أن احدى الشخصيات، غبرييل، يذهب الى باريس بالأعمال الكاملة لرابله. انطلاقا من هذا الاكتشاف يمكن أن تفسر جميع الافراطات وجميع التجاوزات البانتاغرويلية (حسب هذا الناقد) بتأثير أدبي. الواقع هو أن تلك الاشارة الى رابله وضعتها كقشرة موز داسها نقاد كثيرون.

ـــ بغض النظر عما يقوله النقاد، الرواية أكثر من استرجاع شعري لذكرياتك الطفولية، أكثر من هذا بكثير، ألم تقل مرة ما إن قصة أسرة بوينديا يمكن أن تكون رواية لتاريخ أميركا اللاتينية ؟

ـــ نعم، هذا ما أظنه، تاريخ أميركا اللاتينية هو كذلك جملة من مجهودات مفرطة ولا مجدية ومن مآس محكوم عليها بالنسيان مقدما. طاعون النسيان موجود بيننا كذلك. بعد مرور الزمن لا أحد يقر بصحة مجزرة عمال شركة الموز، يتذكر العقيد أوريليانو بوينديا.

ـــ والحروب الاثنتان والثلاثون التي خسرها العقيد يمكن أن تعبر عن خيباتها السياسية. بصدد هذا، ماذا كان سيحدث لو انتصر العقيد أوريليانو بوينديا ؟

ـــ كان سيشبه البطريرك إشباها كبيرا. في لحظة ما ـــ أثناء كتابتي الرواية ـــ أحسست بإغراء وصول العقيد الى الحكم. لو كان الامر حدث لكنت كتبت «خريف البطريرك» عوض «مئة عام من العزلة».

ـــ أيجب أن نؤمن بأن من يحارب الاستبداد يتعرض (لحتمية في مصيرنا التاريخي) الى خطر تحوله (خطر كبير) الى مستبد هو بنفسه عند وصوله الى الحكم ؟

ـــ في «مئة عام...» يقول محكوم عليه بالاعدام للعقيد أوريليانو بوينديا : «ما يقلقني هو أنك من شدة كرهك العسكريين، من شدة قتالك إياهم، من شدة تفكيرك فيهم، انتهيت متحولا الى شيء مثلهم». وأتم قائلا : «إذا استمررت على هذا المنوال، ستكون الدكتاتور الاشد استبدادا ودموية في تاريخنا».

ـــ هل صحيح أنك في الثامنة عشرة من عمرك حاولت أن تكتب هذه الرواية نفسها ؟

ــ نعم، كان عنوانها «الدار»، لأني فكرت أن القصة كلها يجب أن تجري داخل دار أسرة بويندييا.

ــ حتى أين وصلت تلك المسوَّدة ؟ أكانت منذئذ قصة أريد بها ان تغطي أحداث مئة عام ؟

ــ لم أتمكن قط من تركيب بناء متصل، بل قطع متفرقة بقيت بعضها منشورة في الجرائد التي كنت أعمل فيها وقتئذ. عدد السنوات لم يكن قط شيئا شاغلا للبال بالنسبة لي. أكثر من هذا : أنا لست متأكدا تماما من أن أحداث «مئة عام من العزلة» تدوم مئة عام في الواقع.

ــ لماذا أوقفتها ؟

ــ لأني في ذلك الوقت لم تكن عندي التجربة ولا النفس ولا الوسائل التقنية لأكتب عملا هكذا.

ــ لكن القصة واصلت دورانها في ذهنك.

ــ حوالي خمسة عشر عاما. لكنني لم أكن أجد الاسلوب الذي يجعلها ممكنة التصديق بالنسبة لي أنا. وبينما كنت ذاهبا يوما الى أكابولكو مع مرثيديس والطفلين، تجلى لي الحل : كان يجب أن أحكي القصة كما كانت جدتي تحكي قصصها، منطلقا من ذلك المساء الذي يذهب فيه الاب بابنه ليريه الجليد.

ــ قصة متسلسلة الاحداث.

ــ قصة متسلسلة الاحداث حيث تدخل الخوارق الحياة اليومية بكل وداعة.

ــ أصحيح أنك رجعت من الطريق وشرعت في كتابتها ؟

ــ نعم، صحيح، لم أصل الى اكابولكو.

ــ ومرثيديس ؟

ــ أنت عارف كم تحملت هي من تصرفات جنونية على هذا المنوال. لولا مرثيديس ما تمكنت من تأليف الكتاب. هي التي حملت على عاتقها كل الاعباء. أنا كنت قد اشتريت قبل ذلك بشهور سيارة. رهنتها وأعطيتها هي المال، مقدرا أنه سيمكننا من العيش حوالي ستة شهور. لكنني ظللت أكتب عاما ونصفا. لما نفد المال لم تقل لي هي شيئا. تمكنت، لا أدري كيف، من أن تشتري بالدين اللحم من الجزار والخبز من الخباز، وأن تجعل صاحب الشقة ينتظر تسعة شهور ليقبض الكراء. تكلفت كل شيء دون أن أعرف أنا شيئا : حتى الحصول على خمسمئة ورقة بعد كل مدة. ما أعوزت قط تلك الخمسمئة ورقة. وهي التي وضعت المخطوطة ــ بعد إنهائي الكتاب ــ في مكتب البريد لارساله الى دار النشر «سوداميريكانا».

ــ حكت لي هذا مرة ما، ذهبت بالمخطوطة الى البريد وهي تفكر : «وإذا كانت الرواية ــ بعد كل هذه المشاق ــ رديئة ؟ «أظن أنها لم تكن قرأتها، أليس كذلك ؟

ــ هي لا تحب قراءة المخطوطات

ــ هي وولداك من أواخر الذين يقرأون كتبك. قل لي، أكنت متأكدا من نجاح «مئة عام من العزلة» ؟

ــ كنت متأكدا أنها ستحظى بنقد مؤيد. لكن لم أكن متأكدا من نجاحها لدى الجمهور. قدرت أن تباع حوالي خمسة آلاف نسخة (من كتبي السابقة لم يكن قد بيع حتى ذلك الوقت غير حوالي ألف نسخة من كل واحد.) دار النشر «سوداميريكانا» كانت أكثر تفاؤلا : قدرت أنه ستباع منها ثمانية آلاف. الواقع هو أن الطبعة الاولى بيعت في خمسة عشر يوما، وفي مدينة واحدة : بوينوس آيريس.

ــ لنتكلم عن الكتاب. ما هو مصدر عزلة أسرة بويندييا ؟

ــ هو بالنسبة لي افتقارهم الى الحب. نلاحظ في الكتاب أن الاوريليانو ذا ذيل الخنزير كان الوحيد من أسرة بويندييا الذي حبلت به أمه عن حب، في قرن. أفراد أسرة بويندييا كانوا عاجزين عن الحب، وهنا سر عزلتهم ، سر خيبتهم. العزلة بالنسبة لي عكس التضامن.

ــ لن أسألك السؤال الذي طرح عليك مرات كثيرة : لماذا يوجد هذا العدد الكبير من الشخصيات باسم أوريليانو وخوسيه أركاديو، فمعروف أن الأمر يتعلق بطريقة أميركية لاتينية للغاية : كلنا نحمل أسماء ابائنا وأجدادنا، وفي اسرتك بلغوا حد الهَتْر فسموا أخا لك غبرييل كذلك. لكن أظن أن هناك وسيلة تمييز الذين يحملون اسم أوريليانو من الذين يسمون خوسية اركاديو، ما هي ؟

ــ وسيلة سهلة للغاية : الذين يسمون خوسية اركاديو يديمون السلالة، أما الذين يسمون أوريليانو فلا. باستثناء واحد وهو خوسية اركاديو الثاني وأوريليانو الثاني، ربما لأنهما ــ لكونهما توأمين متشابهين تماما ــ خلطا في الطفولة.

ــ الحماقات في الكتاب هي من فعل الرجال (اختراعات، خيمياء، حروب، حفلات مفرطة الكبر) أما النساء فيتميزن بالتعقل. أهذا يطابق نظرتك الى الجنسين ؟

ــ أعتقد أن النساء يسندن العالم في الهواء، لكي لا يخرب عند محاولة الرجال دفع التاريخ. في النهاية يسأل الانسان نفسه أي الشيئين الاقل تعقلا.

ــ النساء، على ما يبدو، لا يضمن استمرار السلالة فقط، بل استمرار الرواية أيضا. أهذا ربما سر الطول الخارق لعمر أورسولا إغواران ؟

ــ نعم، هي كان يجب أن تموت قبل الحرب الاهلية، لما كانت تقترب من المئة سنة

من عمرها، لكني اكتشفت أنها اذا ماتت ينهار الكتاب. وعندما تموت يكون بخار الكتاب قد اشتدت كثافته اشتدادا بحيث لا يعود مهما ما يمكن أن يحدث بعد ذلك.

ــ ما هو دور بيطرا كوطيس في الكتاب ؟

ــ يمكن لرأي سطحي أن يدفع الى التفكير أنها لاتعدو كونها مقابل فيرناندا. أعني امرأة من الكاريبي متحررة من الاراء الاخلاقية المسبقة التي لدى نساء الانضيس. لكنني أرجح رأيا آخر وهو أن لشخصيتها علاقة قريبة للغاية من شخصية أورسولا، ولكن بأورسولا ذات مفهوم عن الواقع أخشن بكثير.

ــ أظن أن هناك شخصيات ذهبت ــ لما كنت تكتب الرواية ــ في اتجاه يختلف عن الذي خططته لها. هل يمكن أن تذكر مثالا ؟

ــ نعم، أحد الامثلة هو شخصية سانطا صوفيبا دي لا بيبداد. في الرواية كان يجب ان تغادر الدار ــ كما حدث في الواقع ــ دون أن تودع أحدا، إثر اكتشافها أنها جذباء. ورغم أن مزاج الشخصية كان مبنيا على إنكار الذات وروح التضحية، مما يجعل هذه النهاية في حيز الامكان، إلا أني اضطررت الى تغييره. كانت مفرطة الفظاعة.

ــ أهناك شخصية ما أفلتت من يدك تماما ؟

ــ ثلاث شخصيات افلتت تماما من يدي، بمعنى أن أمزجتها ومصائرها لم تكن هي التي اردتها أنا : أوريليانو خوسيه الذي باغتني شغفه الهائل بعمته أمارانطا، وخوسيه أركاديو الثاني الذي لم يكن قط الزعيم النقابي لعمال الموز كما أردت أنا، وخوسيه أركاديو متعلم حرفة البابا الذي تحول في يدي الى أدونيس منحط غريب قليلا عن بقية الكتاب.

ــ نحن الذين عندنا بعض مفاتيح الكتاب، نعرف أن هناك لحظة تتحول فيها ماكوندو من قرية ــ قريتك ــ الى مدينة (بارانكيبا). رسمت في النهاية شخصيات وأماكن عرفتها في بارانكيبا. أطرح عليك هذا التغيير مشكلة ما ؟

ــ ماكوندو حالة نفسية اكثر منها مكان في العالم. لم تكن الصعوبة حينئذ في الانتقال من مسرح أحداث لقرية الى آخر لمدينة بل في الانتقال من أحدهما الى الآخر دون أن يلاحظ تغير الحنينين.

ــ ماذا كانت بالنسبة اليك أصعب لحظة في الرواية ؟

ــ البداية، أتذكر جيدا اليوم الذي كملت فيه الجملة الاولى بصعوبة كبيرة، وسألت نفسي مذعورا أي شيء معلون سيجيء بعد ذلك. الواقع هو أنني لم أؤمن حقا بأن ذلك الكتاب يمكن أن يسير على قدميه حتى حدث اكتشاف السفينة وسط الغابة. لكن انطلاقا من هذا الحدث صار كل شيء نوعا من الهيجان كان ــ من جهة أخرى ــ مسليا.

ــ أتتذكر يوم انهيتها ؟ كم كانت الساعة ؟ كيف كانت حالتك النفسية ؟

ــ كنت قد كتبت طوال ثمانية عشر شهرا، يوميا، من التاسعة صباحا الى الثالثة بعد الظهر. كنت بلا شك أعرف أن ذلك كان آخر يوم عمل. لكن الكتاب وصل الى نهايته الطبيعية بشكل مباغت، حوالي الحادية عشرة صباحا. لم تكن مرثيديس في الدار، وبواسطة التلفون لم أجد أحداِ لأقول له الخبر. أتذكر حيرتي كأن ذلك وقع البارحة : لم أكن أعرف ماذا أعمل بالوقت الذي كان زائدا عن حاجتي، وظللت أحاول أن أخترع شيئا لأستطيع أن أعيش حتى الثالثة بعد الظهر.

ــ لابد أن هناك جانبا أساسيا للكتاب نسيه النقاد (النقاد الذين تحس نحوهم بكل هذا النفور). ما هو ؟

ــ هو قيمته الأجدر بالذكر : شفقة الكاتب الهائلة نحو مخلوقاته المسكينة.

ــ من كان أحسن قارىء للكتاب بالنسبة اليك ؟

ــ وجدتْ صديقةٌ سوفياتية سيدة كبيرة جدا في السن تنسخ الكتاب كله بيدها، وهو شيء عملته حتى النهاية فِعْلاً. سألتها صديقتي لماذا كانت تعمل ذلك، فأجابت السيدة : «لأني أريد أن أعرف من الأحمق حقا : المؤلف أم أنا، وأظن أن الطريقة الوحيدة لمعرفة ذلك هو أن أعيد كتابة الرواية» يصعب علي أن أتصور قارئا أفضل من تلك السيدة.

ــ إلى كم لغة ترجم الكتاب ؟

ــ الى سبع عشرة

ــ يقال ان الترجمة الانجليزية ممتازة

ــ ممتازة، نعم. اللغة لما ضغطت في الانجليزية اكتسبت قوة.

ــ والترجمات الاخرى ؟

ــ عملت كثيرا مع المترجم الايطالي والمترجم الفرنسي. الترجمتان كلتاهما جيدتان، لكني لا أحس بالكتاب في الترجمة الفرنسية.

ــ في فرنسا بيعت الرواية أقل من انجلترا أو إيطاليا، ولن نتكلم عن البلدان الناطقة بالاسبانية حيث كان النجاح خارقا (هذا بيِّن). الى ماذا تعزو ذلك ؟

ــ ربما الى الديكارتية. أنا أقرب جدا الى حماقات رابليه مني الى صرامة ديكارت. في فرنسا فرض ديكارت نفسه. ربما لهذا السبب لم يصل الكتاب الى مستوى الشعبية التي بلغه في بلدان أخرى، مع أن النقد كان متحمسا. قبل قليل جعلتني روسانا روساندا أدرك أن الكتاب نشر في فرنسا عام 1968، وهو عام لم يكن الوضع الاجتماعي فيه مناسبا.

ــ هل حيرك كثيرا نجاح «مئة عام من العزلة» ؟

ــ نعم، كثيرا.

ــ ألم يهمك اكتشاف سر ذلك ؟

ــ نعم، لا أريد أن أعرف ذلك. أظن أن من الخطر أن أكتشف لأي سبب يباع كتاب كتبته أنا مفكرا فقط في بعض الاصدقاء، لاي سبب يباع في كل مكان بنفس السرعة التي يباع بها السجق الساخن.

«خريف البطريرك»

ــ أتتذكر تلك الطائرة ؟

ــ أية طائرة ؟

ــ الطائرة التي سمعناها تطير فوق كاراكاس، في الثانية بعد منتصف ليلة 23 يناير 1958. أظن أننا رأيناها كلانا من شرفة الشقة، بحارة صان بيرناردينو حيث كنا : رأينا ضوأين أحمرين يتحركان على ارتفاع منخفض في ظلام السماء، فوق مدينة مقفرة بفعل منع التجول، تنتظر مفيقة سقوط الدكتاتور من لحظة لأخرى.

ــ الطائرة التي هرب فيها بيريث خيمينيث.

ــ نعم، الطائرة التي انتهت بها في فنزويلا دكتاتورية دامت ثماني سنين. اسمح لي بأن أتوجه الى القاريء لاحدثه عن تلك اللحظة. هذا مهم لأنك خطر لك حينئذ أن تكتب رواية الدكتاتور : الرواية التي اصبحت ــ بعد سبعة عشر عاما وبعد روايتين ناقصتين ــ «خريف البطريرك».

«في الطائرة كان يوجد الدكتاتور مع زوجته وبناته ووزرائه وأصدقائه الاقربين. كان وجهه منتفخا بسبب أمْ عصبي، وكان هو ساخطا على مساعده لأنه في غمرة عجلة الفرار نسي على أرض المطار تحت الطائرة ــ التي صعدوا اليها بواسطة سلم من حبل ــ حقيبة بأحد عشر مليون دولار.

«كانت الطائرة ترتفع متبعدة نحو البحر، نحو الكاريبي، لما أعلن المذيع (موقفا برامج الموسيقى الكلاسيكية التي سمعناها ثلاثة أيام) سقوط الدكتاتورية. فأخذت تشتغل أضواء نوافذ كاراكاس، ضوءا بعد آخر، مثل شمعات شجرة الميلاد. الهتْر بدأ بعد ذلك، وسط الضباب والهواء البارد للفجر. أبواق، صرخات، صفارات معامل، أناس يحركون رايات في سيارات وشاحنات. قبل قليل من شبوب النار في بناية «الامن الوطني»، أخرجت الجماهير على ظهورها السجناء السياسيين الذين كانوا هنالك.

«كانت المرة الاولى التي نرى فيها سقوط دكتاتور في اميركا اللاتينية.

«ابتداء من تلك اللحظة عشنا ــ أنا وغرثيا ماركيث اللذين كنا مسؤولين في مجلة أسبوعية ــ أياما شديدة الحركة. زرنا هياكل السلطة : وزارة الدفاع (وكانت شبه قلعة توجد

في ممراتها لافتات كتب عليها : «ما تسمعه هنا، ما تراه هنا، يبقى هنا») وميرافلوريس قصر الرئاسة.

«في تلك الدار الكبيرة القديمة التي تعود الى زمن الاستعمار ــ بنافورة وسط الفناء وأصص حولها ــ وجد غرثيا ماركيث رئيس خدم عجوزا عمل هناك منذ الزمن الغابر لدكتاتور آخر: خوان بيثنتطي غوميث. كان غوميث ــ البطريرك العجوز من اصل قروي ذو شارب وعيني تتري ــ قد مات على الفراش مطمئنا، بعد أن حكم بلده بقبضة حديدية حوالي ثلاثين سنة. كان رئيس الخدم ما زال يتذكر الجنرال: السرير المعلق حيث كان ينام قيلولته، ديك المصارعة المفضل لديه.

«أحدث بعد كلامك معه أن فكرت في كتابة الرواية ؟

ــ لا، فكرت في ذلك يوم كان مجلس الحكومة مجتمعا في ذلك المكان ذاته، في ميرافلوريس. بعد يومين أو ثلاثة من سقوط الدكتاتور، أتتذكر ؟. كان شيء ما يحدث، نحن الصحافيين والمصورين كنا ننتظر في قاعة الانتظار بقصر الرئاسة. كانت الرابعة فجرا تقريبا لما فتح الباب فرأينا ضابطا بزيّ الميدان يمشي القهقرى بجزمة وحلة ورشيشة في اليد. مر بيننا نحن الصحافيين.

ــ وهو ما زال يتقهقر.

ــ وهو يتقهقر، مصوبا الرشيشة وموسخا الزربية بطين جزمته. نزل الدرج وركب سيارة حملته إلى المطار، ورحل إلى المنفى.

«حدث في تلك اللحظة (اللحظة التي خرج فيها عسكري من قاعة كان يناقش فيها كيف ستتكون الحكومة الجديدة نهائيا) أن حدست مسألة السلطة، سر السلطة.

ــ بينا كنا بعد ذلك بأيام متوجهين في سيارة نحو المجلة التي كنا نعمل بها، قلت لي : «لم تكتب بعد رواية الدكتاتور الأمريكي اللاتيني.» لأننا كنا متفقين أنها لم تكن «السيد الرئيس» لأستورياس، التي اعتبرناها رواية رديئة جدا.

ــ هي رديئة جدا.

ــ أتتذكر أنك عندئذ انكببت على قراءة سير الدكتاتورين. كنت مذهولا. كان الدكتاتورون الأميركيون اللاتينيون هاذين. في كل ليلة كنت ــ وقت الاكل ــ تحكي إحدى القصص التي وجدتها في الكتب. من كان الدكتاتور الذي أمر بقتل جميع الكلاب السوداء ؟

ــ دوفالييه. الدكتور دوفالييه، دكتاتور هايتي، «بابا دوك»، عمل على ابادة جميع الكلاب السوداء الموجودة في البلد، لأن أحد أعدائه كان قد تحول ــ هروبا من القبض والاغتيال ــ الى كلب. إلى كلب أسود.

ــ ألم يكن الدكتور فرانثيا[37] الباراغوايي هو الذي أمر بأن يتزوج كل رجل تجاوز الحادية والعشرين ؟

ــ بلى، أغلق البلد كما لو كانت دارا ولم يترك غير نافذة مفتوحة ليدخل البريد. كان الدكتور فرانثيا غريبا للغاية، وبلغت مكانته كفيلسوف الى درجة استحقاقه دراسة من تأليف كارليل.

ــ أكان تيوصوفيا ؟

ــ لا، الذي كان تيوصوفيا هو ماكسيميليانو ارنانديث مارتينيث، دكتاتور السلفادور الذي أمر بأن تغلف الاضاءة العمومية للبلد كلها بالورق الاحمر لمحاربة وباء الحصبه. كان ارنانديث مارتينيث قد اخترع بندولا يجعله على الاطعمة قبل الأكل ليعرف هل هي مسمومة.

ــ وغوميث، خوان بيثينطي غوميث، في فنزويلا ؟

ــ غوميث، كان لديه حدس خارق إلى حد أنه كان يبدو قدرة على التكهن.

ــ كان يعمل على أن يعلن موته ثم يبعث، كما يقع لبطريرك كتابك. وفي هذا الصدد، لما أقرأ «خريف البطريرك» أتصوره بمزاج وملامح خوان بيثينطي غوميث. هذا ربما ليس مجرد انطباع شخصي. ألم يكن غوميث في ذهنك لما كنت تؤلف الكتاب ؟

ــ كان قصدي دائما هو أن أعمل شميلة لجميع الدكتاتورين الاميركيين اللاتينيين، لدكتاتوري الكاريبي على الخصوص. ومع ذلك فإن شخصية خوان بيثينطي غوميث كانت هائلة للغاية، وكانت زيادة على ذلك تمارس علي سحرا شديدا، إلى درجة أن البطريرك أخذ منه بلاشك أكثر بكثير مما أخذ من أي دكتاتور آخر. على كل حال، الصورة الذهنية التي لدي عنهما واحدة. هذا لا يعني طبعا أن غوميث هو شخصية الكتاب، لنقل ان البطريرك هو الصورة المثالية له.

ــ أثناء هذه القراءات اكتشفت أن الدكتاتورين يتفقون في أشياء كثيرة. أصحيح أنهم دائما أبناء أرامل، على سبيل المثال ؟ كيف تفسر هذه الخاصية ؟

---

(37) هذه الشخصية الهامة في تاريخ أميركا اللاتينية التي كانت موضوعا لاحدى أعظم الروايات المكتوبة بالاسبانية (رواية «أنا الأعلى» لرووا باسطوس الباراغوايي) كانت حتى وقت قريب في عداد الدكتاتورين الاميركيين اللاتينيين، لكن بدأ يعاد اليها الاعتبار من طرف المؤرخين الماركسيين على الخصوص من الاعمال التي لا ينكرها أحد للدكتور فرانثيا (1766 ــ 1840) حماية بيد من حديد الاستقلال التام للباراغواي الذي كان مهددا من طرف البرازيل والارجنتين والامبريالية البريطانية وقضاؤه على الاوليغارشيات المحلية (المترجم)

ــ الشيء الذي أظن أني اقررته هو أن الصورة المسيطرة في حياتهم هي صورة الأم، وأنهم بالعكس كانوا يتامى على وجه ما. أنا أتكلم عن كبارهم طبعا، لا عن الذين وجدو كل شيء معدا فورثوا السلطة. هؤلاء مختلفون، قليلون، ولا قيمة لهم من الناحية الادبية.

ــ قلت لي إن نقطة الانطلاق لجميع كتبك هي صورة بصرية. ماهي صورة «خريف البطريرك»؟

ــ هي صورة دكتاتور هرم، هرم بشكل لا يتصور، يبقى وحيدا في قصر مليء بالبقر.

ــ قلت أو كتبت لي مرة ما إن الكتاب يبدأ بدكتاتور هرم يحاكم في ملعب (أظن أن الصورة أوحت بها تلك المحاكمة لعسكري باتيستي[38] ــ صوصا بلانكو ــ في هافانا، التي حضرناها أنا وأنت، بعد انتصار الثورة بقليل) أظن أنك بدأت الكتاب مرتين ثم تركته كيف كان ذلك ؟

ــ تعرضت طوال أعوام كثيرة لمشكلة البنية، كما يحدث في جميع كتبي. لا أبدأ الكتاب قط إذا لم أحل هذه المشكلة. تلك الليلة في هافانا، بينما كان يحاكم صوصا بلانكو، بدا لي أن البنية المجدية هي المونولوغ الطويل للدكتاتور العجوز المحكوم عليه بالاعدام. ولكن لا، أولا، ذلك لم يكن صحيحا من الناحية التاريخية : هؤلاء الدكتاتورون كانوا إما يموتون على الفراش أو يقتلون أو يهربون. لكنهم لم يكونوا يحاكمون. ثانيا المونولوغ كان سيحصرني في وجهة نظر الدكتاتور وحدها وفي لغته الخاصة.

ــ أعرف أنك كنت قضيت وقتا طويلا تعمل في «خريف البطريرك» لما أوقفتها لتكتب «مئة عام من العزلة». لماذا عملت ذلك ؟ ليس عاديا ان يوقف الانسان كتابا ليكتب آخر.

ــ الايقاف راجع الى أني كنت أكتب «خريف...» وأنا لا أعرف جيدا كيف هي، ولم أكن أتمكن بالتالي من التوغل فيها. أما «مئة عام...» التي كانت مشروعا أقدم حاولت انجازه عدة مرات، فقد عادت تقتحمني فجأة بالحل الوحيد الذي كان ينقصني : الأسلوب. على كل حال، لم تكن المرة الأولى التي يحدث لي فيها ذلك. أوقفت كذلك «الساعة السيئة»، في 1955، بباريس، لاكتب «لم تصل العقيد...»، وكان كتابا مختلفا مرصوعا داخلها ويمنعني من الاستمرار فيها. قاعدتي ككاتب هي القاعدة نفسها التي اتبعها كقارئ : لما لا يعود كتاب يهمني، أتركه. في كلتا الحالتين يوجد دائما وقت افضل لمواجهته.

ــ لو وجب عليك ان تعرف كتابك في جملة واحدة، كيف تعرفه ؟

ــ على انه قصيدة حول عزلة السلطة.

---

(38) نسبة الى الدكتاتور الكوبي باتيستا.

ــ لماذا أخذت منك كتابته وقتا طويلا ؟

ــ لأني كتبته كما تكتب الابيات الشعرية، كلمة كلمة، كانت هناك أسابيع (في البداية) لم اكتب فيها غير سطر واحد.

ــ في هذا الكتاب اجزت لنفسك حرية التصرف اجازة كبيرة : تصرفت بحرية في النحو وفي الزمن، وربما في الجغرافية كذلك. وبعضهم يؤكدون انك فعلت ذلك في التاريخ كذلك. لنتكلم عن النحو. هناك فقرات طويلة بلا نقط ولا نقط وفواصل، حيث تتدخل وتتداخل وجهات نظر روائية مختلفة. هذا له مبرر لديك بلا شك. ما هي ضرورات الكتاب البعيدة التي دعت الى استعمال اللغة بهذا الشكل ؟

ــ تصور الكتاب بنية متسلسلة الأحداث : كونه هكذا يجعله لا نهائيا وأشد إملالا مما هو. أما بنيته الحلزونية فإنها، بالعكس، تسمح بضغط الزمن وحكاية عدد أكبر جدا من الأشياء، كأنها أدخلت في كبسولة. المونولوغ المتعدد الأصوات يسمح، من جهة اخرى، بتدخل اصوات عديدة دون كشف هويتها، كما يحدث في التاريخ فعلا، وفي تلك المؤامرات الكثيرة بالكاريبي، الزاخرة بأسرار شائعة لا حصر لها. هذا الكتاب هو الأكثر تجريبية بين جميع كتبي، والأهم بالنسبة لي كمغامرة شعرية.

ــ وتترك لنفسك حرية التصرف في الزمن كذلك.

ــ حرية كبيرة. هناك يوم، كما تتذكر، يفيق فيه الدكتاتور فيجد الناس كلهم بقلانس حمراء. يقولون له ان جماعة أشخاص شكلهم غريب...

ــ يشبهون في لباسهم صورة احدى اوراق اللعب.

ــ يشبهون صورة احدى اوراق اللعب، ان هؤلاء يعطون قلانس حمراء مقابل اي شيء (بيض اغوانة، جلد كيمان، تبغ، شكلاط). ويفتح الدكتاتور نافذة تطل على البحر، فيرى هناك، جنب المدرعة التي تركها الـ marines[39]، سفن خريستوف كولومبس الثلاث. هما كما ترى حدثان تاريخيان (مجيء كولومبس ونزول الـ marines) وضعا دون أية مراعاة للترتيب الزمني للوقائع. تعمدت ان اتصرف بكل حرية في عنصر الزمن.

ــ وفي العنصر الجغرافي ؟

ــ كذلك. بلد الدكتاتور يوجد في الكاريبي بلا شك. لكنه كاريبي خليط من الكاريبي الاسباني والكاريبي الانجليزي. أنت عارف أني أعرف الكاريبي جزيرة جزيرة، مدينة مدينة. ولقد أدخلت هناك كل شيء. أدخلت اولا ما هو لي. الماخور حيث كنت أسكن في

(39) جنود البحرية للولايات المتحدة الأمريكية

بارانكيبا، قرطجنة التي عرفتها ايام الدراسة، بارات المرسى حيث كنت اتجه لآكل إثر خروجي من الجريدة في الرابعة فجرا، وحتى السفن التي كانت تقلع في الصباح نحو أوربا وكوراثاو محملة بعاهرات. في الرواية شوارع تشبه شارع «كوميرثيو» في باناما وأماكن توجد في هافانا القديمة وسان خوان(40) أو لاغوايرا(41). هناك كذلك أماكن توجد في جزر الانتيل الانجليزية بهنودها وصينيها وهولندييها.

ــ هناك من يؤكد ان في دكتاتورك تجمتع شخصيتان تاريخيتان مختلفتان : شخصية الدكتاتور المنحدر من أصل قروي (كما كان غوميث) الذي خرج من هرج ومرج حروبنا الأهلية والذي يمثل في وقت معين تطلعا الى النظام والوحدة الوطنية، وشخصية الدكتاتور من نوع سوموثا(42) أو تروخييو(43)، أعني الذي كان في الأصل عسكريا مجهولا برتبة سفلى وبلا اية موهبة، المفروض من طرف الـ marines الأمريكيين الشماليين. ما رأيك في هذا ؟

ــ أدهشني وأسعدني ــ أكثر من تأملات النقاد ــ ما قاله لي صديقي الكبير عمر طوريخوس قبل موته بيومين : قال «أحسن كتاب لك هو «خريف البطريرك» : كلنا هكذا كما تقول انت».

ــ«خريف البطريرك» توشك ان تكون ظهرت ــ لمصادفة غريبة ــ في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه روايات أخرى لكتاب اميركيين لاتينيين حول الموضوع ذاته، موضوع الدكتاتور. أفكر في «الرجوع الى المنهج» لأليخو كاربينتير و «أنا الأعلى» لرووا باسطوس و «صلاة جنازة» لأرتورو أوسلار بييطري(44). كيف نفسر الاهتمام الفجائي للكتاب الأميركيين اللاتينيين بهذه الشخصية ؟

ــ لا أظن ان الاهتمام فجائي. كان الموضوع ملحا في الأدب الأميركي اللاتيني منذ منشئه وأظن أنه سيستمر هكذا. المسألة مفهومة، فالدكتاتور هو الشخصية الأسطورية الوحيدة التي انتجتها اميركا اللاتينية، ودورته التاريخية مازالت نهايتها بعيدة.

«لكن الواقع هو اني لم تكن تهمني الشخصية في حد ذاتها كثيرا (شخصية الدكتاتور الاقطاعي) بقدر ما كانت تهمني الفرصة المتاحة لي من طرفها : فرصة التأمل في مسألة السلطة. وهو موضوع كان كامنا في جميع كتبي.

---

(40) عاصمة بورتو ريكو.

(41) مدينة فنزويلية.

(42) المقصود هو أب سوماثا الذي أسقط من طرف الساندينويين.

(43) دكتاتور دومينيكاني.

(44) روائي فنزويلي.

ـــ طبعا هناك رسم اولي في «الساعة السيئة» و «مئة عام من العزلة». لا مفر من أن أسألك : لماذا يهمك الموضوع الى هذا الحد ؟

ـــ لأني اعتقدت دائما ان السلطة المطلقة هي الانجاز الأعلى والأشد تعقيدا للكائن البشري، وأنها لذلك تختصر كل عظمته وكل ضعته. قال لورد اكطون إن «السلطة تُفسد والسلطة المطلقة تفسد بصورة مطلقة». هذا بالتأكيد موضوع اخاذ بالنسبة للكاتب.

ـــ أظن ان اقترابك الأول من السلطة كان أدبيا صرفا. لابد ان هناك اعمالا وكتابا افادوك بشيء في الموضوع. من يكونون ؟

ـــ أفادني «اوديب الملك» كثيرا. وتعلمت كثيرا من بلوتارك وسويتون[45] ومن كتابات المؤرخين عن يوليوس قيصر عموما.

ـــ وهو الشخصية التي تفتنك.

ـــ لا تفتنني فقط، بل كان يمكن أن تكون الشخصية التي اتمنى خلقها في الأدب. بما أن ذلك لم يكن ممكنا، اضطررت الى ان اكتفي بصنع دكتاتور بأجزاء جميع الدكتاتورين الذين كانوا عندنا في أميركا اللاتينية.

ـــ قلت حول «خريف البطريرك» أشياء كثيرة التناقض في ظاهرها. أولا أنه الأكثر عامية بين جميع كتبك من الناحية اللغوية، بينما الواقع هو انه قد يبدو الاشد افراطا في الزخرفة، الأصعب...

ـــ لا، استعملت في كتابته قدرا ضخما من التعابير والأمثال الشعبية لمنطقة الكاريبي. المترجمون احيانا يفقدون الصواب وهم يفتشون عن معاني جمل يفهمها سائقو التكسيات في بارانكيا من فورهم (ضاحكين). هو كتاب من الكاريبي (غارق في الكاريبية)، من الساحل، هو ترفٍ يجيزه لنفسه مؤلف «مئة عام من العزلة» لما يقرر اخيرا ان يكتب ما يحلو له.

ـــ أنت تؤكد كذلك انه الكتاب الذي تعترف فيه، انه كتاب زاخر بالتجارب الشخصية. قلت مرة انه سيرة ذاتية مرموزة.

ـــ نعم، هو كتاب اعتراف. الوحيد الذي احببت دائما ان اكتبه ولم استطع.

ـــ غريب ان تستعمل تجاربك الشخصية في بناء مصير دكتاتور. هنا يَجِدُ اي محلل نفساني سمعه... قلت مرة ان عزلة السلطة تشبه عزلة الكاتب. ربما كنت تعني عزلة الشهرة. ألا ترى ان الوصول اليها وممارستها جعلاك متضامنا تضامنا سريا مع شخصيتك البطريرك ؟

---

(45) مؤرخ قديم كبلوتارك.

ــ ما قلت قط إن عزلة السلطة مثل عزلة الكاتب. قلت من جهة ــ كما تقول انت بنفسك ــ إن عزلة الشهرة تشبه كثيرا عزلة السلطة. وقلت من جهة اخرى إنه لا توجد اية مهنة اكثر عزلة من مهنة الكاتب، بمعنى انه في لحظة الكتابة لا أحد يستطيع ان يساعدك، ولا أحد يستطيع ان يعرف ما هو الشيء الذي تريد ان تعمله. لا : انت توجد وحيدا وحدة مطلقة، تواجه الورقة البيضاء.

«أما مسألة عزلة السلطة وعزلة الشهرة فالأمر ما فيه شك. التخطيط للمحافظة على السلطة والتخطيط للدفاع عن النفس من الشهرة، يتشابهان في النهاية. هذا هو جزئيا سبب العزلة في كلتا الحالتين. لكن هناك شيء آخر : لا تواصلية السلطة ولا تواصلية الشهرة تزيدان المسألة تعقيدا. هي في آخر الأمر مشلكة إخبار تفصلهما كليهما في النهاية عن الواقع المراوغ المتبدل. السؤال الكبير في السلطة وفي الشهرة هو عندئذ واحد : «من أصدق؟». وهو سؤال اذا ذهبنا به الى حدوده الهذيانية يقودنا الى السؤال النهائي : «اللعنة ! من أنا ؟». الوعي بهذا الخطر (الذي لو لم أكن كاتبا مشهورا ما كنت عرفته) ساعدني كثيرا طبعا في خلق بطريرك ربما لا يعرف حتى اسمه نفسه. وفي هذه اللعبة (لعبة الذهاب والاياب، لعبة ال «اعط تعط») يستحيل الا ينتهي الكاتب متضامنا مع شخصيته مهما بدت بغيضة. ولو كان ذلك بدافع الشفقة وحدها.

اليــوم

هو تغير طبعا. كان برجه برج الحوت فأصبح اليوم برج الثور. كان نحيفا قلقا ويدخن سجائر كثيرة. اليوم لا يدخن، ووزنه زاد عشرة كيلوغرامات ويترك في محدثه انطباع المتانة والاطمئنان، وهو انطباع يذهل الذين عرفوه في الماضي. ما بقي اليوم اي اثر للخيباة البوهيمية التى عاشها في شبابه، لما كان الصباح يفاجئه في قاعة تحرير او بار أو أية غرفة. مواعيده مضبوطة بصرامة بواسطة مفكرة. وبفضل زوجته ووكيله الأدبي يتمكن بلباقة من ان يحتمي من الذين يرغبون في رؤيته، وهم على العموم صحافيون واساتذة او طلاب جامعيون يريدون ان يتكلموا معه عن اعماله. كل ما يقوم به معروف مقدما، يمكن ــ وهو مازال في يناير ــ ان يحدد موعدا في سبتمبر وأن يفي به (وهذا نادر لدى الأميركيين اللاتينيين).

قبل «مئة عام من العزلة»، كان يشعر بحاجة شديدة الى أن يكتب الى اصدقائه الأقربين رسائل كثيرة يتكلم فيها عن كل شيء : الآمال، العوائق، حالات القلق، الحالات النفسية. «بيني وبينك، أنا خائف»، «لا تظن أن هذا التوتر الذي أعيش فيه لن تكون له عواقب»، الخ.. اليوم مبدئيا لا يكتب رسائل. يبقى على اتصال مع اصدقائه تلفونيا. صوته مطمئن، ودي، كاريبي للغاية دوما : «ما أخبارك، أنا غابو». لكنه لم يعد يُسِرُّ أشياءه الحميمة.

لابد من ان تتواطأ ظروف (بعض كؤوس ويسكي، وقت الفجر) كي يخرج الى السطح إحساس من أحاسيسه التي يخبئها في قرارة نفسه. ربما تمكن الانسان آنئذ من أن يكشف في قذاة جملة وفي اللمعان المفاجئ للحدقتين، حنينا خفيا أو حقدا: كم كان سيتمنى الكاتب ذو الثلاثين عاما الذي كنت اراه بيلوفر مثقوب من الكوعين، على سبيل المثال، لو عاش مغامرة مع احدى الفتيات الجميلات المتكلفات اللواتي يعرضن انفسهن اليوم بلباقة على الكاتب ذي الخمسين عاما فيتجنبهن لكي لا يفسد هدوء ونظام حياته.

رغم زمرة المشهورين الذين يصادقهم اليوم، ورغم المعجبين والصحافيين من مختلف الجنسيات الذين يريدون ان يقابلوه، فان الشهرة لم تدوخه. مازال كما كان مع اصدقائه. وهؤلاء الذين يسمونه «غابو» او «غابيتو» (وهو تصغير غبرييل في الساحل الكولومبي للكاريبي) يتصرفون معه بالطريقة نفسها. وخاصة اصدقاء بارانكييا الذين لا تؤثر فيهم الشهرة، شأن الكاريبيين الأصيلين. الآخرون (وقد امسوا غلاظا بشعر مرشوش بالشيب) مازالوا يعاملونه كما عاملوا الصديق الذي كانوا يعيرونه كتب جويس أو فوكنير قبل ثلاثين عاما.

غبرييل ومرثيديس زوجان علاقتهما متينة. هو عرفها لما كانت طفلة عمرها ثلاثة عشر عاما، بجسم رقيق كسلك وعينين ناعستين لم يبد فيهما الخوف قط. هي فعلا تحتفظ برباطة الجأش الغرانيتية نفسها أمام الكوارث و ــ وهنا المفاجأة ــ أمام الانعطافات السعيدة للحياة: ترمق كل شيء بحِدَّة ولكن بهدوء، ربما كما كان اسلافها المصريون ــ من جهة الأب ــ ينظرون الى مياه النيل. ولكنها تشبه كذلك هؤلاء النساء الكاريبيات ــ الموجودات في روايات غرثيا ماركيث ــ اللواتي يشكلن ــ بتمكن عاقل من الواقع ــ السلطة الحقيقية خلف السلطة. الشخصيات المشهورة التي تجدها مرثيديس مع زوجها (لا يهم ان تسمى فيديل كاسترو أو لويس بونيويل أو مونيكا فيتي) تتكلم معها بكيفية طبيعية يمكن ان يروا فيها سمة سيدة مجتمع عريقة واثقة. السر يكمن في انها تواصل تحركها في الحياة كأنها مازالت مع بنات اسرتها في ماغانغي، القرية البعيدة حيث ولدت.

علاقة الابنين الاثنين للزوجين ــ رودوريغو وغونثالو ــ مع ابويهما ممتازة. يسودها التواطؤ ويتوجها دائما اثر دعابة. عند وصولهما الى الدار يقولان مازجين: اين هو الكاتب المشهور؟». في امريكا اللاتينية حيث لا يحترم الاغنياء الفقراء، ولا البيض السود، ولا الآباء الأبناء، تقف التجربة التي قام بها غرثيا ماركيث في الاتجاه العكسي: لا يواجَه الولدان بأي انفجار لاقرار سلطة سهلة الاقرار، بل بمعاملة مساواة دقيقة منذ ان كانا في المهد. النتيجة مقبولة جدا: الولدان ــ وقد اصبح كل واحد منهما سيد خياره الشخصي ــ ينظران الى الناس والى الحياة عموما بقدر كبير من الفطنة والدعابة.

يعيش غبرييل اغلبية العام في مكسيكو. هناك يملك دارا مرفهة في «بيدريغال دي سان آنخيل»، وهو حي ذو مساكن فاخرة بنيت على احجار بركانية حيث يعيش رؤساء

سابقون وأصحاب بنوك وناس اثروا بالعمل في السينما. في نهاية حديقة داخلية للدار بنى غرفة معزولة ليكتب هناك. داخلها يبقى الجو على حالة واحدة طوال العام : هو جو حار يشبه جو ماكوندو، ويبقى حارا حتى عندما تمطر في الخارج ويبرد الجو. ادوات عمله هي حوالي ستة قواميس وكل انواع الموسوعات (بما في ذلك واحدة خاصة بالطيران)، وآلة نسخ، وآلة كاتبة كهربائية صامتة، وخمسمئة ورقة في متناول يده دائما. لم يعد يكتب في الليل كما كان يفعل زمن الفقر البعيد. كل يوم يلبس عفريتة كالتي يستعملها ميكانيكيو الطيران ويعمل من التاسعة صباحا الى الثالثة بعد الظهر. الغداء يحط على المائدة حسب الميقات الاسباني، في الثالثة بعد الظهر. بعد ذلك يستمع غبرييل الى الموسيقى عادة (يفضل موسيقى الغرف، والموسيقى الشعبية الأميركية اللاتينية ايضا، بما في ذلك قطع البوليرو القديمة لأغوستين لارا التي حركت دائما الحنين في جيله).

لكنه ليس كاتبا منعزلا في برج عاج. اذا كان الصباح فترة وحدة تامة، فانه ابتداء من ساعة من ساعات المساء يشعر بحاجة الى ان يتصل بالناس. يتعشى خارج البيت عدة مرات في الاسبوع. يشرب باعتدال. هو عبد للأخبار. تصله كل يوم بالطائرة جرائد بلده، وهو قارئ مفرط للمجلات الأميركية الشمالية والفرنسية. حساباته التلفونية هائلة، لانه يتكلم عن اي شيء مع اصدقائه المتفرقين في اماكن مختلفة من العالم. يتحدث معهم بلا عجلة عن مواضيع مختلفة، كأنه يراهم امامه بكأس كونياك في اليد.

يسافر كثيرا. زيادة على دار في مدينة مكسيكو وأخرى في كويرناباكا[46] لديه شقة في بوغوطا وأخرى في باريس (على بعد ثلاثين خطوة من «لاكوبول») يقيم بها في الخريف.

مساكنه غائصة دوما في الضوء مريحة، ومؤثثة بذوق سليم (دائما يوجد كرسي انجليزي ممتاز من جلد وجهاز رائع من النوع ذي الصفاء التام) وفي امكانه ان ينتقل اليها دون ان يحمل معه اي شيء. الكتب موجودة في الرفوف واللوحات على الحيطان والثياب في الـ closets[47] وزجاجات الويسكي ـــ الويسكي الاسكتلندي الجيد ـــ في البار. كل ما يحتاج اليه عند الوصول هو ان يجعل باقة زهور صفراء في زهرية. هذا يرجع الى فأل قديم. الزهور الصفراء تجلب الحظ.

نعم، هو انسان متطير مثل الهنود الغواخيريين الذين كانوا خدامين في داره. يؤمن بأشياء، بحالات، بناس قابلين لِجَلْب النحس (الـ pava كما يسمونه في فنزويلا، والـ jettatura كما في ايطاليا). لكن المدهش هو أنه لا يغلط. الناس الذين يرى عليهم هالة نحس يكونون منحوسين فعلا. غبرييل لديه، زيادة على هذا، القابليات الغريبة للاحساسات المحذرة التي

(46) مدينة مكسيكية.

(47) المستودعات.

كانت لدى العقيد اوريليانو بوينديا. يستطيع ان يحدس ان جسما من الأجسام سيسقط على الأرض ويتهشم. لما يحدث هذا، لما يسقط الجسم ويتكسر، ينظر هو اليه شاحبا مذهولا. لا يدري كيف ولا لماذا تصله هذه الاحساسات المحذرة. قال لي ذات فاتح يناير في كاراكاس : «سيجري شيء ما قريبا جدا». كنا نستعد للخروج الى الشاطئ بالفوطة والتبان على الكتف. بعد ذلك بثلاث دقائق هزّ المدينة ــ تلك المدينة السهلة المضيئة التي لم تحدث فيها اضطرابات منذ سنين كثيرة ــ قصف : كانت طائرات متمردة تهاجم قصر الرئاسة حيث يوجد الدكتاتور بيريث خيمينيث.

أظن أن له شيئا خاصا بالساحرين. كثير من القرارات المهمة في حياته تعود الى نوع من الحدس نادرا ما يستطيع تفسيره تفسيرا معقولا. ديكارت لن يكون صديقا له بالتأكيد (رابله نعم، لكن ديكارت لا). الديكارتية تضايقه مثل صدرة ضيقة. رغم ان له اصدقاء ممتازين بين الفرنسيين (بدءاً بالرئيس فرانسوا ميتيران)، فان المنطق الذي يتلقاه كل فرنسي مع حليب رضاعته الأول، هذا المنطق يبدو له محدودا : يراه كقالب ليس فيه اتساع الا لجزء من الواقع.

هذا هو السبب الذي يجعله يرفض عادة مقابلات للتلفزيون الفرنسي (زيادة على رعبه القديم من الميكروفون والكاميرات). الأسئلة مثل «ما هو الأدب بالنسبة اليكم ؟ (أو الحياة أو الموت أو الحرية أو الحب) التي اعتاد الصحافيون الفرنسيون (المتعودون منذ زمن المدرسة على معاني وتحليلات مجردة) على أن يواجهوه بها بهدوء غادر، هذه الأسئلة ترعبه إرعابا. دخول هذا النوع من المناقشات لا يقل خطورة بالنسبة اليه من المشي على ارض ملغومة.

وسيلته المفضلة في التعبير هي الطرفة في الواقع. لهذا السبب هو روائي وليس كاتب مقالات. ربما كان الأمر راجعا الى خاصية جغرافية، ثقافية : سكان الكاريبي يرسمون الواقع من خلال الطرف. غرثيا ماركيث لا يميل (كما يفعل مثقفون اوربيون كثيرون) الى الصياغات الاديولوجية. البلاغة الغزيرة التي تركها القشتاليون مزروعة في مرتفعات الانضيس تبدو له فارغة، كاريكاتورية. أنا فكرت دائما ان الصداقة بينه وبين فيديل كاسترو تكاد تكون نابعة أساسا من لغة وطريقة رؤية الواقع وطريقة تفاهم تعود الى منقطتهما المشتركة، منقطة الكاريبي.

هو صديق لكاسترو، لكنه ليس صديقا للحكام الروسيين ولا للبيروقراطيين المُعَبّسين الذين يقودون العالم الشيوعي. اذا نظرنا اليه بصرامة مثقفين اوربيين كثيرين لن يسهل علينا ان نفهمه من الناحية السياسية. بريزنيف بالنسبة اليه شيء وفيديل كاسترو شيء آخر مختلف جدا، مع ان هناك شيء مقبول عامة وهو ان كثيرا من مميزات النظام الكوبي اوحى بها النموذج السوفياتي. (مناقشاتنا حول هذا الموضوع وصلت الى طريق مسدود منذ زمن بعيد). لكن الحقيقة هي انه لا توجد اية صلة بينه وبين الشيوعيين التقليديين. اذا استثنينا اصدقاءه الاقربين، نجد ان قليلين فقط يعرفون الدور الهام الذي يقوم به سياسيا في منطقة الكاريبي

كسفير غير رسمي ذي نوايا حسنة. توجد صلات متينة بينه وبين الاتجاهات الطليعية الاشتراكية الديمقراطية والليبرالية. في قارة معرضة للخيار المؤلم بين يمين رجعي عسكري يدين للولايات المتحدة ويسار متطرف دائن للاتحاد السوفياتي وعقيدي غالبا، في قارة كهذه يدافع هو عن نوع آخر من الخيارات الديمقراطية الشعبية. هذا هو ربما أحد أسباب ميله الى ميتيران.

اليمين الأميركي اللاتيني، المتضامن غالبا مع الدكتاتورين العسكريين، ينظر اليه بكره، كما ينظر الى جاسوس كاستروي. لماذا لا يوزع ماله على الفقراء ؟، يسأل بغيظ اعداء له لا يفرقون بين ماركس والقديس فرنسيس الأسيزي. يغيظهم ان يسمح لنفسه بترف البرجوازيين : الكفيار، المحار، الشامبانيا الجيدة، الفنادق الفاخرة، الألبسة الجيدة التفصيل، السيارات من آخر طراز. هو في الواقع ينفق بمنتهى السخاء ماله الذي حصل عليه بآلته الكاتبة وحدها، دون ان يستغل احدا.

يفاجأ كثيرون لما يسمعونه يقول إن «خريف البطريرك» هو الأكثر تعلقا بسيرته الذاتية بين جميع كتبه. أظن ان هذا صحيح على صعيد خفي ما. هو لم يفتش عن الشهرة كما فتش دكتاتوره عن السلطة. الشهرة نزلت عليه بغتة، بتكريماتها ولكن بضرائبها الثقيلة ايضا. لا يستطيع اليوم ان يعمل ــ أو يقول أو يكتب ــ شيئا بالتلقائية المباغتة التي كان يفعل بها في الماضي. الشهرة يجب ان تساس بالطريقة نفسها التي تساس بها السلطة. هي شكل من أشكال السلطة. تقتضي وقفة متيقظة وغير واثقة ثقة مفرطة. لاشك ان هناك أشياء لا يستطيع ان يقولها اليوم الا لنفسه. ما كان محادثة زمن الشباب والفقر، هو اليوم مونولوغ.

موضوع اعماله كلهاله مبرر. هو ينبع من حياته نفسها. شبح العزلة طارده دائما : وهو طفل ضائع في دار جديه الكبيرة بأراكاطاكا، وهو طالب فقير يقتل كآبة ايام الأحد في حافلة، وهو كاتب شاب ينام في فنادق عابري السبيل ببارانكيبا، وهو اليوم مؤلف يعرفه العالم كله. ومازال هذا الشبح جنبه، حتى في ليالي «لاكوبول»، رغم شهرته ووجوده بين اصدقاء دوما. هو ربح الحروب الاثنتين والثلاثين التي خسرها العقيد اوريليانو بوينديا. لكن المصير الذي وسم سلالة بوينديا هو مصيره ايضا، لا مفر من ذلك.

السياسة

ــ لِنَتَذَكّر الآن مسيرتك السياسية، اذا لم يكن عندك مانع. أبوك رجل محافظ. ورغم انه يقال عادة ان الانسان في كولومبيا يكون ليبراليا أو محافظا تبعا لابيه، فانه ظاهرا لم يحدث اي تأثير في تكوينك السياسي، فانت كنت يساريا منذ وقت مبكر جدا. أُوَلِدَ هذا الموقف السياسي كرد فعل ضد عائلتك نفسها ؟

ــ ضد عائلتي لا، تَذَكَّرْ انه اذا كان ابي محافظا فان جدي العقيد كان ليبيراليا من الذين قاتلوا الحكومات المحافظة بالبندقية. يمكن ان يكون تكويني السياسي الأول قد بدأ معه، فبدل ان يحكي لي خرافات، كان يحكي افظع قصص حربنا الأهلية الأخيرة، الحرب التي خاضها الاباحيون ومضادو الاكليروس ضد الحكومة المحافظة. كان جدي يتكلم لي كذلك عن مذبحة عمال الموز التي وقعت في المنطقة نفسها وفي العام نفسه الذي ولدت أنا فيه. كما ترى كنت، لتأثير عائلي، اقرب الى التمرد مني الى النظام التقليدي.

ــ أتتذكر متى وأين قرأت نصوصك السياسية الأولى ؟

ــ في ثانوية ثيباكيرا حيث درست. كان فيها أساتذة كثيرون كونوا في مدرسة المعلمين من طرف ماركسي، اثناء حكم الرئيس الفونصو لوبيث، العجوز، وكان يساريا. في تلك الثانوية كان استاذ الجبر يدرسنا المادية التاريخية في الاستراحة، واستاذ الكيمياء يعيرنا كتب لينين، وأستاذ التاريخ يحدثنا عن صراع الطبقات. لما خرجت من تلك الزنزانة الجليدية ما كنت اعرف اين هو الشمال ولا اين هو الجنوب، لكن كان عندي يقينان تامان : الأول ان الروايات الجيدة يجب ان تكون نقلا شعريا للواقع، والثاني ان المصير القريب للبشرية هو الاشتراكية.

ــ هل انتميت مرة الى الحزب الشيوعي ؟

ــ لما كان عمري اثنين وعشرين عاما انتميت الى خلية مدة قصيرة، ولا اتذكر اني قمت بأي عمل مهم فيها. لم اكن عضوا بحصر المعنى، بل متعاطفا. كانت علاقتي بالشيوعيين منذئذ متقلبة للغاية، واحيانا كانت تنتهي الى نزاع، فقد كانوا كلما اتخذت موقفا لا يعجبهم ينهالون علي في جرائدهم. ولكني ما فهت قط بتصريحات ضدهم، حتى في اسوأ الحالات.

ــ في 1957 قمنا معا برحلة الى المانيا الشرقية. رغم كل آمالنا في الاشتراكية، كان انطباعنا سيئا. ألم تؤثر تلك الرحلة في اقتناعاتك السياسية ؟

ــ تَذَكَّرْ : انطباعاتي عن تلك الرحلة ــ التي كانت حاسمة في تكويني السياسي ــ اثبتها بشكل نهائي في سلسلة مقالات نشرت وقتئذ في مجلة بوغوطية، وجمعت بعد ذلك بأكثر من عشرين عاما في كتاب نشر بلا اذن مني. لما ظهر هذا الكتاب فكرت انهم نشروه لا لأهميته الصحافية والسياسية، وانما بنية ان يضعوا امام الأنظار التناقضات المفترضة لتطوري الشخصي.

ــ ألم تكن توجد تلك التناقضات ؟

ــ نعم، لم تكن موجودة. اعطيت الشرعية للكتاب وضممته الى اعمالي الكاملة التي تباع بكولومبيا في طبعات شعبية عند النواصي. ما بدلت اي حرف. اكثر من هذا : اظن ان

مصدر وتفسير ازمة بولونيا في 1980 يُبيِّنان في تلك المقالات التي قال العقيديون قبل خمسة وعشرين عاما ان الولايات المتحدة كانت وراء كتابتها. الطريف في الأمر هو أن هؤلاء العقيديين جالسون اليوم على كراسي السلطة البرجوازية والمالية، بينما التطور التاريخي يحكم لي انا.

ـــ ماذا كانت وجهة نظرك حول ما يسمى الديموقراطيات الشعبية ؟

ـــ كانت الفكرة الرئيسية لتلك المقالات هي ان في ما يسمى الديمقراطيات الشعبية لم تكن توجد اشتراكية حقيقية ـــ ولن توجد ابدا عبر تلك الطريق ـــ لان النظام السائد لم يكن مبنيا على أساس الظروف الذاتية لكل بلد. كان نظاما مفروضا من الخارج من طرف الاتحاد السوفياتي، بواسطة احزاب شيوعية محلية عقيدية وبلا قدرة على الابداع ما كان يخطر لها الا ان تدخل بالقوة النموذج السوفياتي في واقع لا يتسع له.

ـــ لننتقل الى تجربة أخرى مشتركة : كوبا. عملنا في الوكالة الكوبية «برينصا لاتينا». أنت تخليت معي لما بدأ الحزب الشيوعي القديم يسيطر على كثير من أجهزة الثورة. أتعْتَقِدُ أن ذلك القرار كان صحيحا أم ترى أن المسألة كانت مجرد حادثة طريق لم نستطع تمييزها ؟

ـــ أعتقد أن قرارنا في «برينصا لاتينا» كان صحيحا. لو كنا بقينا هناك (بتفكيرنا ذاك)، لكانوا دبروا في النهاية على طريقة لطردنا رامين إيانا ببعض اللافتات التي كان العقيديون في ذلك الوقت يلصقونها على الجبهات : أعداء الثورة، خدام الامبريالية، وهلم جرا. ما عملته ـــ كما تتذكر ـــ هو أني انتقلت الى الهامش في صمت، بينما كنت مازلت أؤلف كتبي وأحاول أن أكتب سيناريوات في مكسيكو، وأرقُب عن كثب وباهتمام شديد تطورات سير الثورة الكوبية. نظري هو أن تلك الثورة ـــ بعد العواصف الكبيرة التي كانت في البداية ـــ اتجهت عبر أرض صعبة وأحيانا متناقضة، ولكنها تقدم إمكانيات ممتازة لحياة اجتماعية اعدل وأكثر ديموقراطية، وقريبة منا.

ـــ أأنت متأكد ؟ الأسباب نفسها تؤدي الى النتائج نفسها. إذا كانت كوبا تتخذ النظام السوفياتي (الحزب الوحيد، المركزية الديمقراطية، أجهزة الأمن التي تمارس مراقبة شديدة على السكان، نقابات تتصرف فيها يد السلطة) نموذجا لها، يجب أن نفكر أن هذه «الحياة الاجتماعية الاعدل والاكثر ديموقراطية» يحوم الشك حولها بقدر ما يحوم حول الحياة في الاتحاد السوفياتي. ألا تخشى أن يكون الأمر هكذا ؟

ـــ مشكلة التحليل هي في نقطتي الانطلاق : أنتم تبنون نقطتكم على أساس أن كوبا تابع سوفياتي، وأنا أعتقد أنها ليست كذلك. يكفي أن تعاشروا فيديل كاسترو دقيقة واحدة فقط لتدركوا أنه لا يطيع أوامر أحد. فكرتي هي أن الثورة الكوبية تعيش منذ أكثر من عشرين عاما حالة طوارىء، وهذا بسبب لافهم وعداوة الولايات المتحدة التي لا تقبل السماح بهذا

المثال على بعد تسعين ميلا من فلوريدا. لا بسبب الاتحاد السوفياتي الذي لولا مساعدته (أيا كانت دوافعه وأهدافه) ما كانت الثورة الكوبية موجودة اليوم. ما دامت تلك العدواة كائنة فإن وضع كوبا لا يمكن الحكم عليه الا على أنه حالة طوارىء تجعلها تعيش عيشة دفاع وخارج أرضيتها التاريخية والجغرافية والثقافية. لما يرجع كل شيء الى مجراه الطبيعي عندئذ نتكلم.

— وافق فيديل كاسترو على التدخل السوفياتي في تشيكوسلوفاكيا عام 1968 (موافقة فيها بعض التحفظات، هذا لا ينكر) ماذا كان موقفك أمام الحدث نفسه ؟

— كان موقف احتجاج علنيا، ولن يتغير إذا تكررت الأشياء نفسها. الفرق الوحيد بين موقفي وموقف فيديل كاسترو (مواقفنا لا تتفق دائما ولا تتفق في كل شيء، هذا طبيعي) هو أنه برر في النهاية التدخل السوفياتي وأنا لن أفعل ذلك أبدا. لكن التحليل الذي قام به في خطابه حول الوضع الداخلي للديموقراطيات الشعبية، كان أشد انتقادا وإيلاما من الذي قمت به أنا في المقالات الرحلية التي تكلمنا عنها قبل لحظة. على كل حال، مصير أميركا اللاتينية لم يقرر ولن يقرر في المجر ولا في بولونيا ولا في تشيكوسلوفاكيا، بل سيقرر في اميركا اللاتينية، أما ماعدا هذا فهو وسواس أوربي لا تخرج عن نطاقه بعض أسئلتك السياسية.

— في السبعينات، وعلى اثر اعتقال الشاعر الكوبي ايبيرطو باديا(48) ونقده الذاتي المشهور، اتخذ بعض أصدقائك — أنا بينهم — موقفا مضادا للنظام الكوبي. أنت لا. لم توقع برقية الاحتجاج التي أرسلناها، رجعت الى كوبا وأصبحت صديقا لفيديل. ما هي الاسباب التي جعلتك تتخذ موقفا أكثر تأييدا للنظام الكوبي ؟

— إخبار أجود وأكثر مباشرة، ونضج سياسي يتيح لي فهما للواقع أهدأ وأصبر وأكثر إنسانية.

— هناك كتاب كثيرون مثلك في اميركا اللاتينية يتكلمون عن الاشتراكية (الماركسية اللينينية) كبديل مرغوب فيه. الا ترى أن هذا قريب من «اشتراكية الجد» ؟ لأن هذه الاشتراكية ليست اليوم فكرة مجردة سخية، بل واقعا لا يغري كثيرا. أتقر بهذا ؟ بعد ما وقع في بولونيا لا يمكن تصديق أن طبقة العمال توجد في السلطة بتلك البلدان. ألا ترى (بين رأسمالية معفونة و «اشتراكية» — داخل علامة تنصيص — معفونة كذلك) بديلا ثالثا لقارتنا ؟

— لا أومن ببديل ثالث : أومِنُ بأبدال كثيرة، ربما كان عددها يساوي عدد البلدان الموجودة في اميركاتنا، بما في ذلك الولايات المتحدة. اقتناعي هو أنه يجب أن نخلق حلولنا، ونستفيد في خلقها الى أقصى حد ممكن من الحلول التي وصلت اليها قارات أخرى عبر تاريخ

(48) حدث هذا في مارس 1971 وبعد محاكمة أعيدت الى الشاعر حريته في ابريل من السنة نفسها.

طويل مليء بالعراقيل، لكن دون أن نحاول نقلها بطريقة ميكانيكية، وهو ما عملناه حتى الآن. الامر سيؤدي في النهاية حتما الى اشتراكية ذات شكل خاص.

ــ فيما يخص خيارات أخرى : ما هو الدور الذي يمكن أن تلعبه حكومة ميتيران في أميركا اللاتينية ؟

ــ أثناء لقاء جرى مؤخرا حول مائدة غداء في مكسيكو، سأل الرئيس ميتيران جماعة من الكتاب (كنت بينهم) : «ماذا تنتظرون من فرنسا؟» اتجهت مناقشة الجواب نحو من هو العدو الرئيسي لكل. منا قال الاوربيون الذين كانو حول المائدة ــ وهم مقتنعون أنهم يقبلون على توزيع جديد للعالم كالذي جرى في يالطا ــ إن عدوهم الرئيسي هو الاتحاد السوفياتي. نحن الاميركيين اللاتينيين قلنا إن العدو الرئيسي بالنسبة الينا هو الولايات المتحدة. أنا أكملت الاجابة عن سؤال الرئيس (وهو السؤال نفسه الذي تطرحه علي أنت الآن) على هذا الشكل : «مادمنا جميعا عندنا عدونا الرئيسي، فان ما نحتاج اليه في أميركا اللاتينية هو صديق رئيسي، وهذا الصديق يمكن أن يكون فرنسا الاشتراكية».

ــ اتعتقد أن الديمقراطية كما هي موجودة في البلدان الرأسمالية المتطورة، ممكنة في العالم الثالث ؟

ــ ديمقراطية البلدان المتطورة جاءت نتيجة لتطورها الذاتي، وليس بالعكس. محاولة ادخالها ــ وتطبيقها ــ طازجة الى بلدان ذات ثقافات مختلفة (كبلدان أميركا اللاتينية) لا يقل ميكانيكية ووهمية من محاولة إدخال النظام السوفياتي.

ــ أتعتقد إذن أن الديمقراطية ترف خاص بالبلدان الغنية ؟ تَذَكَّرْ أنها تتضمن صيانة حقوق الانسان التي تناضل أنت من أجلها...

ــ لا أتكلم عن المبادىء، وإنما عن أشكال الديمقراطية.

ــ وفي هذا الصدد، ما هو رصيد نضالك الطويل من أجل حقوق الانسان ؟

ــ هو رصيد يصعب تقديره، لأن نتائج عمل كالذي أقوم به في ميدان حقوق الانسان ليست مضبوطة فوريّة، بل تحدث أحيانا بشكل مباغت تماما، وبفعل اقتران عوامل تجعل تقويم مساعي بينها يوشك أن يكون مستحيلا، هذا العمل (بالنسبة لكاتب مشهور تعود على الربح دائما) مدرسة للتواضع.

ــ ما هو المسعى الذي سرك أكثر من غيره بين جميع المساعي التي قمت بها ؟

ــ المسعى الذي سرني سرورا أسرع وأشد تأثيرا (سرورا مستحقا زيادة على ذلك) هو الذي قمت به قبل الانتصار الساندينوي، لما طلب مني طوماس بورخي (وهو اليوم وزير الداخلية في نيكاراغوا) أن أفكر في وسيلة فريدة تمكن زوجته وابنته (التي عمرها سبع سنين)

من الخروج من سفارة كولومبيا بماناغوا حيث لجأتا. كان الدكتاتور سوموثا يرفض تسليمهما جواز المرور لأنهما كانتا اسرة آخر مؤسس للجبهة الساندينوية باق على قيد الحياة بعينه. أمعنا النظر ـ أنا وطوماس بورخي ـ في الحالة خلال عدة ساعات، حتى وصلنا الى نقطة مفيدة : كانت الطفلة قد عانت مرة من مشكلة كُلوِيّة. شاورنا طبيبا فيما يمكن أن يؤدي اليه ذلك في الظروف التي كانت تحيط بالطفلة فأعطانا جوابه الوسيلة التي كنا نفتش عنها. بعد ذلك بأقل من ثماني وأربعين ساعة. كانت الام والطفلة في المكسيك، بفضل جواز مرور اعطي إياهما لاسباب انسانية لا سياسية.

«أما الحالة الأشد اثباطا للعزم فكانت مساهمتي في تخليص صيرفيين انجليزيين كان قد اختطفهما ثوار السلفادور في 1979. اسماهما إيان ماسي وميكايل ساترتون كان الرجلان سيعدمان بعد ثماني وأربعين ساعة، بسبب عدم وصول الأطراف الى أي اتفاق، لما تلفن لي الجنرال عمر طوريخوس، بطلب من أسرتي المختطفين، ليطلب مني أن أفعل شيئا من أجل انقاذهما. بَلَّغْتُ الرسالة الى الثوار عبر وسطاء كثيرين، وصلت في الوقت المناسب، وعدتهم بالعمل على أن تستأنف فورا مفاوضات فداء الصيرفين فقبلوا. فطلبت عندئذ من غراهام غرين، وكان في أنْتيب أن يتصل بالطرف الانجليزي. دامت المفاوضات بين الثوار والبنك أربعة أشهر، ولم نشارك فيها أنا وغراهام غرين، لأن ذلك هو ما كنا اتفقنا عليه. ولكن كلما كانت تحدث عثرة، يتصل بي أحد الطرفين لتستأنف المفاوضات. وتم تخليص الصيرفيين، لكن ما توصل احد منا ـ أنا وغراهام غرين ـ بأية علامة امتنان. هذا لم يكن يهمني طبعا، لكنه فاجاني. بعد تأمل طويل لم يخطر لي إلا تفسير واحد : أنا وغراهام غرين كنا اتقنا اتقانا ذاك العمل، الى درجة أن الانجليزيين ربما استنتجوا أننا والثوار كنا متواطئين.

ـ كثيرون يعتبرونك سفيرا طائرا في منطقة الكاريبي. سفيرا ذا نوايا حسنة طبعا. أنت صديق لكاسترو، ولكنك صديق لطوريخوس أيضا، ولكرلوس أندريس بيريث، الفنزويلي، ولألفونصو لوبيث ميشيلسين، الكولومبي، وللساندينويين... أنت مخاطب ذو امتياز. ماالذي يجعلك تقوم بهذا الدور؟

ـ صادف وصول الشخصيات الثلاثة المذكورة الى السلطة فترة حاسمة بالنسبة للكاريبي، وكانت المصادفة سعيدة. كان شيئا مؤسفا عدم إمكانية استمرارهم في العمل لزمن أطول بالطريقة المنسقة التي عملوا بها. كان في امكانهم هم الثلاثة، مع فيديل كاسترو في كوبا، ورئيس مثل جيمي كارتر في الولايات المتحدة، أن يسيروا ـ في وقت ما ـ بهذه المنطقة المتنازعة عبر طريق صحيح بلا شك. كان الاتصال الذي حدث بينهم دائما ايجابيا للغاية، ولم أكن شاهدا عليه فقط، بل قدّمت مساهمتي حتى حد إمكاني. أعتقد أن أميركا الوسطى والكاريبي (وهما بالنسبة لي شيء واحد ولا أفهم لماذا تحملات اسمين مختلفين) توجدان في لحظة تاريخية وفي درجة نضج قد تمكنانهما من الخروج من الوحلة التقليدية التي

تغوصان فيها، لكني اعتقد كذلك أن الولايات المتحدة لا تسمح بذلك، لأن السماح يعني التخلي عن امتيازات قديمة مفرطة الكبر. كان كارتر ــ بكل قصوره ــ أفضل مخاطب حظيت به منطقة الكاريبي في السنين الاخيرة، ومصادفة وجود طور يخوس وكرلوس أندريس بيريث ولوبيث ميشيلسين، في الحكم كانت مهمة جدا للحوار. اقتناعي بأن الامر كان هكذا، هو الذي دفعني الى أن أقوم بدور ــ ربما متواضع جدا، لكنه مهم جدا بالنسبة لي ــ في تلك اللحظة التاريخية. وكان ــ ببساطة ــ دور وسيط غير رسمي في عملية كانت ستبلغ شوطا بعيدا للغاية، لولا كارثة انتخاب رئيس أميركي يمثل المصالح العكسية بالذات. كان طوريخوس يقول إن عملي «دبلوماسية سرية»، وقال عدة مرات ــ علنا ــ إن من عادتي أن أبلغ الرسائل السلبية بشكل يجعلها تبدو إيجابية. ما عرفت قط أكان ذلك لوما أن ثناء.

ــ ما هو نوع الحكومة التي تتمناها لبلدك ؟

ــ أية حكومة تسعد الفقراء . تصور !

نســـــاء

ــ ذات مرة جعلك حظك تلتقي أجمل امرأة في العالم (أحدث ذلك في كوكتيل؟). وقع بينك وبين أجمل امرأة في العالم coup de foudre (49) على ما يبدو. هي وعدتك بلقاء في باب بنك، في اليوم التالي. ذهبت الى الموعد. ولما كانت جميع الظروف مواتية لأن يحدث شيء بينك وبين أجمل امرأة في العالم، هربت. كأرنب فكرت أن تلك القصة لا يمكن أن تكون عادية، لأن الأمر يتعلق بأجمل امرأة في العالم، ومرثيديس بالنسبة اليك (حياتك مع مرثيديس) أهم من أي شيء (نحن أصدقاءك نعرف هذا جيدا). أيجب أن نفهم أن السعادة الزوجية يؤدى ثمنها بهذا النوع من التضحيات البطولية؟

ــ غلطك الوحيد في استحضار هذه القصة القديمة هو أن نهايتها لم تكن لها علاقة بالسعادة الزوجية. كونها أجمل امرأة في العالم لا يعني بالضرورة أنها أشد تشويقا، بالمعنى الذي أفهم به أنا هذا النوع من العلاقات. كان انطباعي بعد حديث قصير هو أن مزاجها يمكن أن يسبب لي نزاعات انفعالية، وقد لا أجد عوضا في جمالها. أنا آمنت دائما بأنه لا يوجد أي شيء يعادل وفاء امرأة، بشرط أن يتفق على قواعد اللعبة من البداية، وأن تحترم بلا خداع من أي نوع. الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يحتمله هذا الوفاء هو أي خرق ــ مهما كان طفيفا ــ للقواعد المتفق عليها. ربما بدا لي أن أجمل امرأة في العالم لم تكن تعرف هذا الشطرنج العالمي، وكانت تريد أن تلعب بقطع ذات لون آخر. ربما كان عندها في النهاية فضائل أحسن من جمالها، وهذا لم يكن كافيا لعقد علاقة مفيدة بالنسبة للاثنين. يمكن القول

(49) افتتان مفاجيء

والحالة هذه انها كانت تضحية فعلا، لكن لم تكن كثيرة البطولة. القصة كلها (التي لم تدم أكثر من نصف ساعة) تركت مع ذلك شيئا مهما : قصة قصيرة لكرلوس فوينطيس[50].

ــ إلى أن حد كانت النساء مهمات في حياتك ؟

ــ لا يمكن أن أفهم حياتي كما هي دون الاهمية التي كانت للنساء فيها. أنا ربيت من طرف جدة وعدة خالات كن يتناوبن على الاعتناء بي، ومن طرف خادمات كن يجعلنني أعيش لحظات مفرطة السعادة خلال طفولتي، لأنه رغم أن أحكامهن السبقية لم تكن تقل عن التي كانت عند نساء العائلة، إلا أنها كانت تختلف عنها. التي علمتني القراءة كانت معلمة جميلة جدا، مليحة جدا، ذكية جدا، رسخت في نفسي حب الذهاب الى المدرسة لأراها فقط. توجد في كل لحظة من لحظات حياتي امرأة تأخذ بيدي في ظلام واقع تعرفه النساء أحسن من الرجال، ظلام يعرفن طريقهن فيه أحسن بأضواء أقل. هذا تحول في النهاية الى احساس قريب من التطير : أحس أنه لا يمكن أن يقع لي أي مكروه لما أكون بين نساء. هن يدخلن في نفسي شعورا بالأمن لولاه ما استطعت أن أعمل أي شيء من الاشياء الجيدة التي قمت بها في حياتي. أعتقد خصوصا أني لولاه ما استطعت أن أكتب. هذا يعني كذلك أني أتفاهم معهن أحسن مما أتفاهم مع الرجال.

ــ النساء في «مئة عام من العزلة» يُقْرِرْنَ النظام هناك حيث يدخل الرجال الفوضى. أهذه رؤيتك للدور التاريخي للجنسين ؟

ــ كان هذا التقسيم للادوار بين الرجل والمرأة تلقائيا ولا شعوريا في كتبي، حتى «مئة عام من العزلة». النقاد ــ وخصوصا ارنيسطو بولكينين ــ هم الذين جعلوني ادرك الأمر وهذا لم يعجبني بتاتا، لأني ابتداء من ذلك الوقت لم أعد ابني الشخصيات النسوية بالبراءة السابقة نفسها. على كل حال، لما حللت كتبي أنا بتلك النظرة، اكتشفت أنها تبدو مطابقة فعلا للرؤية التي لدي عن الجنسين : النساء يحفظن استمرار النوع بقبضة من حديد، بينما الرجال يمشون في العالم مصرين على ارتكاب جميع الاعمال الجنونية التي لاحصر لها والتي تدفع التاريخ. هذا دفعني الى التفكير أن النساء ليس عندهن حس تاريخي : فعلا، فلو لم يكن هكذا لما استطعن تأدية وظيفتهن الجوهرية التي هي تخليد النوع.

ــ أين تكونت لديك تلك الرؤية للدور التاريخي للنساء والرجال ؟

ــ ربما في دار جدي، بينما كنت استمع الى الحكايات حول الحروب الاهلية. أنا فكرت دائما أن تلك الحروب كانت ممكنة لأن النساء يتمتعن بتلك القوة التي تكاد أن تكون جيولوجية والتي تمكنهن من أن يلقين بالعالم على أكتافهن دون خوف من شيء. فقد كان جدي يحكي لي أن الرجال كانوا يذهبون الى الحرب ببندقية، وهم لا يعرفون حتى الى أين

(50) روائي مكسيكي

يذهبون، وما في أذهانهم أية فكرة حول متى يرجعون، ودون أن يهمهم ما يمكن أن يحدث في الدار طبعا. هذا لم يكن يهم : كانت النساء يبقين حاملات مسؤولية النوع، والدات الرجال الذين سيخلفون الساقطين في الحرب، بلا مورد إلا قوتهن الذاتية وخيالهن. كن يحال الامهات اليونانيات اللواتي كن يودعن رجالهن لما يذهبون الى الحرب قائلات «ارجع بالترس أو عليه» أي ارجع حيا أو ميتا، ولكن لا ترجع مغلوبا أبدا، فكرت مرات عديدة في إمكانية أن يكون كون النساء على هذا الشكل (وهذا واضح في منطقة الكاريبي) هو السبب في نزعتنا الذكورية. أعني أن تكون هذه النزعة من صنع المجتمعات الامومية، على العموم.

ــ أظن أنك تدور دائما حول الصنف نفسه من النساء، وهو صنف تمثله أورسولا اغواران تمثيلا جيدا في «مئة عام من العزلة» : صنف المرأة الام، المكلفة بحفظ النوع. لكن في هذا العالم توجد كذلك النساء المتقلبات، النساء اللواتي يخصين أو اللواتي «يضئن» فقط (لابد أنك لقيتهن في الحياة). ماذا تفعل بهن ؟

ــ هؤلاء عموما لا يردن إلا أبا. ولهذا كلما كبر الانسان زادت اللقاءات بينه وبينهن. كل ما يحتجن اليه هو قليل من الصحبة الطيبة، هو أحد يفهمهن قليلا، وحتى أحد يعطيهن قليلا من الحب، وهن يقابلن ذلك بالشكر عادة، يحتجن الى قليل من كل شيء فقط، طبعا، لأن عزلتهن لا يمكن ربُّها.

ــ أتتذكر المرة الاولى التي هزتك فيها امرأة ؟

ــ المرأة الاولى التي فتنتني ــ كما قلت لك ــ هي المعلمة التي علمتني القراءة لما كان عمري خمس سنين. لكن ذلك كان شيئا مختلفا. الاولى التي أقلقتني كانت فتاة تعمل في الدار. في ليلة كانت تسمع موسيقى عند الجيران، فاخرجتني هي بمنتهى البراءة للرقص في الفناء. كان مس جسمها جسمي ــ وعمري ست سنين ــ هزة انفعالية هائلة لم أبرأ منها بعد، لأني ما أحسست بعد ذلك قط بهزة لها تلك الشدة وخصوصا هزة بمثل ذلك الشعور بالاختلال.

ــ ومن هي آخر امرأة أقلقتك ؟

ــ يمكن أن أقول لك إنها امرأة رأيتها البارحة في مطعم بباريس، ولن أكون كاذبا. هذا يجري لي كل لحظة ولذلك لا أعد. لدي غريزة خاصة جدا : لما أدخل مكانا عامرا بالناس، أحس بإشارة غامضة تجعلني حتما التفت الى المكان الذي توجد فيه المرأة التي تقلقني أكثر بين الجمع. هي ليست أجمل الحاضرات عادة، لكن يوجد بيني وبينها تجانس عميق، بلاشك. أنا لا أفعل أي شيء : يكفيني أن أعرف أنها هناك، ذلك يسرني سرورا. هو شيء طاهر جدا، رائع جدا، الى درجة أن مرثيديس نفسها تساعدني أحيانا على العثور عليها واختيار الموضع الذي يناسبني اكثر.

ـــ أنت تؤكد أنك لست من أصحاب النزعة الذكورية مطلقا. أيمكنك إعطاء مثال لتبرهن لأية مرتابة من صاحبات النزعة الانوثية أنك كما تقول فعلا ؟

ـــ المفهوم الذي عند صاحبات النزعة الانوثية حول النزعة الذكورية ليس واحدا عندهن جميعا، ولا يتفق مع مفهومي الشخصي. هناك أنوثيات، مثالا، كل ما يردنه هو أن يكن رجالا، وهذا يعرفهن تعريفا نهائيا بأنهن ذكوريات خائبات. وهناك أخريات يؤكدن طبيعتهن كنساء بسلوك أشد ذكورية من ذكورية أي رجل. ولهذا يصعب جدا اثبات أي شيء في هذا المضمار، على الاقل من الناحية النظرية. هذا يثبت بالممارسة : لن أذكر غير واحد من كتبي، «أخبار موت معلن»، وهو بلا شك تصوير بالاشعة لجوهر الذكورية وتنديد بها في الوقت نفسه في مجتمعنا. وهو مجتمع أمومي طبعا.

ـــ كيف تعرف الذكورية إذن ؟

ـــ أقول إن الذكورية ـــ سواء عند الرجال أو عند النساء ـــ ما هي الا اغتصاب لحق الغير. الأمر بهذه البساطة.

ـــ البطريرك رجل بدائي من الناحية الجنسية. صنوه يذكره بهذا في لحظة موته مسموما. أتظن أن ذلك أثر في مزاجه أو مصيره ؟

ـــ أظن أن كيسينغير هو الذي قال إن السلطة مهيجة للشهوة. التاريخ يبرهن على كل حال على أن ذوي النفوذ يعيشون كأنهم في محنة بسبب نوع من السعر الجنسي. أنا أقول إن فكرتي في «خريف البطريرك» هي أكثر تعقيدا : السلطة تنوب عن الحب.

ـــ تماما : في كتبك، من يبغي السلطة ويبلغها يبدو عاجزا عن الحب. لا أفكر في البطريرك فقط، بل في العقيد أوريليانو بوينديا كذلك. هذا العجز أهو سبب أم نتيجة حب السلطة ؟

ـــ من داخل فكرتي أرى أن العجز عن الحب هو الذي يدفعهم الى البحث عن عزاء السلطة. لكنني لست متأكدا قط من هذه التأملات النظرية التي هي في حالتي استدلالية دائما. أفضل أن أتركها لآخرين يجيدون القيام بها ويتسلون أكثر.

ـــ الملازم الأول في «الساعة السيئة» يبدو أنه يعاني مشاكل جنسية. أهو عنين أم لوطي ؟

ـــ ما حسبت قط أن الملازم الاول في «الساعة السيئة» لوطي، لكن يجب أن أقبل أن سلوكه يمكن أن يثير الشك. الواقع هو أن الامر كان في رواية للمسودة خبرا يتهامس الناس به في البلدة، لكنني حذفته لأنه بدا لي مفرط السهولة. فضلت أن يفصل القراء ذلك. الشيء الذي لاشك فيه هو عجزه عن الحب، رغم أني لم أفكر في ذلك بطريقة واعية لما بنيت

الشخصية، ولم أعرف الأمر الا بعد ذلك، لما كنت أعمل في مزاج العقيد أوريليانو بوينديا. على كل حال، الترابط الموجود بين هاتين الشخصيتين والبطريرك لا يمشي في خط سلوكهم الجنسي، وإنما في خط السلطة. الملازم الأول في «الساعة السيئة» كان أولى محاولة ملموسة لي لاستكشاف سر السلطة (على مستوى متواضع جدا كمستوى حاكم بلده) والاشد تعقيدا كانت محاولة البطريك. الترابط يمكن اثباته : العقيد أوريليانو .بوينديا أمكن أن يكون ـــ بالتأكيد ـــ الملازم الاول لـ «الساعة السيئة»، على صعيد، والبطريرك، على صعيد آخر. أعني أن سلوكه في الحالتين كلتيهما كان سيكون هو نفسه.

ـــ أيبدو لك العجز عن الحب خطيرا جدا حقا ؟

ـــ أعتقد أنه لا توجد مصيبة بشرية أكبر منه. لا بالنسبة للذي يعانيها فقط، بل بالنسبة للذين يجعلهم حظهم السيء يعبرون مداره كذلك.

ـــ هل للحرية الجنسية حدود بالنسبة اليك ؟ ما هي ؟

ـــ كلنا رهائن أحكامنا السبقية. نظريا اعتقد أن الحرية الجنسية يجب الا توقف عند أي حد (بوصفي إنسانا ذا عقلية متحررة) لكني في الممارسة لا أستطيع النجاة من أباطيل تكوني الكاثوليكي ومجتمعي البرجوازي، وأوجد ـــ مثلكم جميعا ـــ تحت رحمة نوعين من الاخلاق

ـــ أنت أب لذكرين. أسألت نفسك مرة ما كيف تكون لو أنك أب لبنتين ؟ صارما ؟ متساهلا ؟ ربما غيورا ؟

ـــ أنا أب لذكور فقط وأنت أب لإناث فقط. لا أستطيع أن أقول لك إلا أني غيور على ولدي بقدر ما أنت غيور على بناتك.

ـــ قلت مرة ما إن جميع الرجال عنينون، ولكن توجد دائما امرأة تحل المشكلة. أترى كبتنا الذكوري قويا حتى هذا الحد ؟

ـــ أظن أن فرنسيا هو الذي قال هذا : «لا يوجد رجال عنينون، بل نساء لا يعرفن» الواقع هو أن كل رجل عاد يصل الى تجربة جنسية جديدة ميتا من الخوف (رغم أن هذا لا يعترف به الا قليلون جدا) أظن أن لهذا الخوف تفسير حضاري : هو خائف ألا يحسن التصرف مع المرأة ولا يحسن التصرف في الواقع، لأن الخوف يمنعه من أن يتصرف كما تفرض عليه نزعته الذكورية. كلنا عنينون بهذا المعنى، وفهم المرأة ومساعدتها وحدهما يتيحان لنا أن نخرج من الورطة ببعض الوقار. ذلك ليس سيئا : فهو يمنح الحب فتنة اضافية، بمعنى أن كل مرة تبدو كأنها الاولى، وكل زوجين يجب أن يبدآ التعلم مرة أخرى من البداية كما لو كانت المحاولة الاولى لكل واحد منهما. عدم وجود هذا الانفعال وهذا الغموض هو الذي يجعل الخلاعة مملة مرفوضة.

ـــ لما كنت شابا وفقيرا جدا وغير معروف بتاتا، تعذبت أحيانا بسبب الحرمان من النساء. اليوم ـــ بفضل الشهرة ـــ صارت فرصك معهن وافرة. لكن الحاجة الى المحافظة على نظام حياتك الخاصة تجعل منك هذا الشيء النادر جدا الذي هو الرجل الصعب. ألا تحس ـــ في قرارة نفسك ـــ بأن هذا ظلم من طرف القدر ؟

ـــ ما يمنعني من أن أكون واطيء حمقاوات عموميا ـــ كما يقال ـــ ليس الحاجة الى صيانة حياتي الخاصة، بل كوني لا أفهم الحب كاقتحام لحظي وبلا نتائج. هو بالنسبة لي علاقة متبادلة طويلة، ذات طبخ بطيء، وهذا هو الشيء الذي تكاد تكون مضاعفته مستحيلة في ظروفي الحالية. ما أعني طبعا الاغراءات العابرة، التي تجيء نتيجة للغرور والفضول وحتى الملل، والتي لا تترك آثارا حتى من الحزام الى الاسفل. على كل حال، أنا متيقن أنه لا توجد ـــ من زمن طويل جدا ـــ أية قوة أرضية قادرة على أن تخل بما تسميه أنت نظام حياتي الخاصة، والتي نفهم جميعا ـــ بلا تفسيرات كثيرة ـــ ماذا تعني.

تطير، عادات غريبة، ميول

ـــ قلت هذا مرة ما : «الذي لا يومن بالله، ليومن بالتطير». هو موضوع جدي بالنسبة اليك.

ـــ جدي جدا.

ـــ لماذا ؟

ـــ أعتقد أن التطير، أو ما يسمى بالتطير، يمكن أن يكون راجعا الى ملكة طبيعية منبوذة من طرف الفكر العقلاني (كالذي يسود في الغرب).

ـــ لنبدأ بالاشياء العادية جدا : الرقم 13. أتعتقد فعلا أنه منحوس ؟

ـــ أفكر العكس تماما. الذين يعرفون هذا يريدون أن يقنعوا الاخرين بأنه رقم ذو مفعول موذ (والاميركيون الشماليون صدقوا ذلك : في فنادقهم لا توجد الشقة رقم 13)، فقط لكي لا يستعمله الاخرون فيستفيدوا هم وحدهم من السر، وهو أن هذا الرقم رقم فال، والشيء نفسه يحدث مع القطاط السوداء وفعل المرور تحت درج.

ـــ في دارك زهور صفراء دائما. ما معناها ؟

ـــ مادامت الزهور الصفراء موجودة فلن أصاب بأي مكروه. لكي أكون آمنا احتاج الى زهور صفراء (إذا كانت ورودا صفراء أحسن) أو الى نساء حولي.

ـــ مرثيديس تحط وردة على مكتبك دائما.

ــ دائما. يقع لي مرات كثيرة أن أجد نفسي أعمل بلا نتيجة، لا يخرج من ذهني أي شيء، أمزق ورقة بعد اخرى، حينئذ أعود الى توجيه نظري نحو الزهرية فأكتشف السبب : الوردة ليست. هناك أفجر صرخة فيجيئون بالزهرة ويبدأ كل شيء يسير سيرا حسنا.

ــ هل اللون الاصفر لون سعد بالنسبة اليك ؟

ــ الاصفر نعم، لكن الذهب لا، ولا لون الذهب، الذهب والخراء بالنسبة لي شيئان متطابقان. الأمر في حالتي رفض للخراء، حسب ماقال لي محلل نفسي. منذ أن كنت طفلا.

ــ في «مئة عام من العزلة» تقارن شخصية الذهب بخراء كلب.

ــ نعم، عندما يكتشف خوسيه أركاديو بوينديا طريقة ليحول المعادن الى ذهب ويري ابنه نتيجة تجربته يقول له هذا : «يشبه خراء كلب».

ــ أنت إذن لا تحمل معك ذهبا قط.

ــ لا. لا دملوج ولا سلسلة ولا ساعة ولا خاتم من ذهب ولن ترى في داري أي شيء فيه ذهب كذلك.

ــ أنا وأنت تعلمنا في فنزويلا شيئا أفادنا كثيرا في حياتينا : هو العلاقة الموجودة بين الذوق الغير السليم والنحس. الـ pava كما يسمى الفنزويليون هذا المفعول المؤذي الذي يمكن أن تحتويه أشياء أو أوضاع أو أشخاص ذووا ذوق متصنع.

ــ هو دفاع عجيب قام به الحس الشعبي في فنزويلا ضد انفجار الذوق الغير السليم للاغنياء الجدد.

ــ أظن أنك أنجزت لائحة كاملة للاشياء التي تحتوي pava. أتتذكر الآن بعضها ؟

ــ طيب، هناك التي هي بيِّنة. الحلزونات وراء الباب...

ــ حويضات السمك في الدار...

ــ الزهور البلاستيكية، الطواويس، شيلان مانيلا... اللائحة كبيرة جدا.

ــ ذكرت مرة هؤلاء الشبان الاسبانيين الذين يدخلون مطعما للغناء لابسين دُثُراً طويلة سوداء.

ــ الـ estudiantinas. توجد أشياء قليلة تحتوي ما يحتويه هؤلاء من pava.

ــ وثياب الحفلات ؟

ــ كذلك، لكنها متدرجة. الفراك اكثر pava من السموكين ولكن أقل من الردنغوت. السموكين المداري هو الزي الوحيد من هذا النوع الذي يستثنى.

ــ أما لبست فراكا قط ؟

ـــ نعم ما لبسته قط

ـــ ألن تلبسه أبدا ؟ إذا فزت بجائزة نوبيل يجب عليك أن تلبسه.

ـــ حدث في مناسبات أخرى أن جعلت كشرط لحضوري أية حفلة أو حادث الا ألبس الفراك. لا حيلة لي : الـ pava كائنة فيه.

ـــ كنا وجدنا أشكالا ادق للـ pava. قلت مرة، على سبيل المثال، إن تدخين الانسان وهو عار ليس مؤذيا، ولكن تدخينه وهو عار ويمشي فيه أذى.

ـــ وكذلك مشيه عاريا منتعلا الحذاء

ـــ طبعا

ـــ أو مجامعته امرأة وهو لابس الجورب. هذا أسوأ شيء، لا يمكن أن تنتهي العملية انتهاء حسنا.

ـــ أية أشياء أخرى تحتوي نحسا ؟

ـــ الكُسّح الذين يستفيدون من عاهاتهم للعزف على آلة موسيقية. مثالا : القُطعُ العازفون على آلات بأرجلهم أو على ناي بالأذن. أو العازفون العميان.

ـــ لاشك أن هناك كلمات ذات مفعول مؤذ. أعني كلمات لا تستعملها قط لما تكتب.

ـــ عموما الكلمات المأخوذة من لغة علماء الاجتماع : Contexto, paràmetro, nivel كلمة simbiosis تحتوي pava.

ـــ وكذلك enfoque.

ـــ طبعا. وماذا عن الـ minuvàlida ؟ لا أستعمل قط الـ y/o أو الـ por أو الـ contra de.

ـــ وهل هناك أشخاص يحدثون المفعول نفسه ؟

ـــ نعم لكن من الأحسن ألا نتكلم عنهم.

ـــ أنا متفق معك. هناك كاتب يحمل الـ pava حيثما ذهب. لن أذكره، لأني اذا فعلت سيذهب هذا الكتاب الى الجحيم، ماذا تعمل لما تلقى إنسانا هكذا ؟

ـــ أتجنبه. وفوق كل شيء، لا أنام حيث ينام هو. أتذكر أننا أكرينا ــ أنا ومرثيديس ــ قبل بضعة أعوام شقة في قرية بـ «كوسطا برابا»(51). اكتشفنا فجأة أن جارة ــ وكانت سيدة جاءت لتحيينا ــ تحتوي pava. أنا رفضت أن أنام في ذلك المكان، كنت ابقى هناك

(51) في قطلونية، شمال اسبانيا.

في النهار، ولكن في الليل لا. في الليل كنت أذهب الى شقة صديق، تضايقت مرثيديس من ذلك، لكنني لم استطع ان أعمل غير ذلك.

ــ أهناك أماكن تحدث فيك المفعول نفسه ؟

ــ نعم، ولكن ليس لأنها تجلب النحس هي ذاتها، بل لأني احسست فيها ذات لحظة نذير شؤم. وقع لي هذا في كاداكيس[52]. أنا عارف أني اذا رجعت الى هنالك أموت.

ــ كنت تذهب اليها كل صيف. ماذا جرى ؟

ــ كنا نازلين في فندق لما بدأت تهب ريح الشمال، تلك الريح الفظيعة التي تحطم الاعصاب. ظللنا أنا ومرثيديس ثلاثة أيام محبوسين في الغرفة لا نستطيع أن نخرج. عندئذ استولى علي، بلا أي شك، إحساس بأني أواجه خطرا قاتلا. عرفت أني اذا خرجت حيا من كاداكيس، لن استطيع الرجوع اليها أبدا. لما انقطعت الريح ذهبنا فورا عبر تلك الطريق التي تعرفها أنت، الضيقة الزاخرة بالمنعطفات. لم استطع التنفس باطمئنان الا لمابلغنا خيرونا. كنت قد فلت بمعجزة، لكن لن افلت في المرة القادمة اذا رجعت.

ــ كيف تفسر أحاسيسك المحذرة المشهورة ؟

ــ أعتقد أنها راجعة الى أخبار وعلامات خزنها اللا شعور.

ــ أتذكر ذلك الفاتح يناير **1958** في كاراكاس، لما احسست بأن شيئا خطيرا سيقع قريبا جدا ووقع فعلا : قصف قصر الرئاسة الذي كاد أن يكون أمام عيوننا، والذي ما استطاع أحد أن يتوقعه. مازلت أسأل كيف ولماذا جاءك ذلك الاحساس المحذر.

ــ بالتأكيد لأني لما أفقت في الفندق الذي كنت ساكنا فيه، سمعت طائرة حربية تطير، لابد أن في لا شعوري بقي إحساس بأن شيئا غير عاد يحدث، فأنا كنت قد جئت من أوربا حيث لا تطير الطائرات الحربية فوق المدن الا في زمن الحرب.

ــ أتبرز تلك الاحاسيس المحذرة بشكل واضح تماما ؟

ــ لا، بل بغموض، كخوف متعلق بشيء محدد، نعم. اسمع، قبل مدة كنت في برشلونة، وبينما أنا اعقد خيوط حذائي انتابني إحساس بأن شيئا حدث في داري بمكسيكو. ليس مكروها بالضرورة. شيئا. لكنني خفت لأن ولدي رودريغو كان سيذهب الى أكابولكو في السيارة ذاك النهار. طلبت من مرثيديس أن تتلفن الى الدار. كان وقع شيء فعلا لما كنت اعقد خيوط الحذاء : كانت الفتاة التي تعمل في الدار قد ولدت. ابنا. تنفست بارتياح لأن الهاجس ما كانت له علاقة برودريغو.

(52) بلدة سياحية اسبانية قرب خيرونا في الشمال.

ــ أظن أن احساساتك المحذرة وحدسك أفادتك إفادة كبيرة. كثير من القرارات المهمة في حياتك مبنية عليها.

ــ ليس أهم القرارات فقط، وإنما كلها.

ــ كلها ؟ فعلا ؟

ــ كلها وكل يوم. كلما قررت شيئا، فعلت ذلك بطريقة حدسية.

ــ لنتكلم عن عاداتك الغريبة. ماهي أكبرها ؟

ــ أقدمها وأبقاها جميعا هي دقة المواعيد. أحافظ عليها منذ أن كنت طفلا.

ــ قلت سابقا إنك لما ترتكب خطأ بالآلة الكاتبة تبدل الورقة. أهي عادة غريبة أم إحساس محذر ؟

ــ عادة. الغلطة الآلية أو الشطب بالنسبة لي يغدو خطأ أسلوب. (يمكن أن يكون مجرد خوف من الكتابة كذلك).

ــ أعندك عادات غريبة مع الثياب ؟ أعني هل هناك ثياب لا تلبسها لأنها تجلب لك النحس ؟

ــ هذا نادر جدا. على العموم إذا كانت تحتوي pava فاني أعرف ذلك قبل أن اشريها، ومع ذلك فذات مرة كففت عن لبس سترة بسبب مرثيديس. بينما كانت راجعة من المدرسة بالطفلين، خيل اليها أنها رأتني في احدى نوافذ الدار بتلك السترة التي كانت بمربعات. أنا كنت في الواقع في مكان آخر. لما حكت لي ذلك لم أعد الى لبس السترة قط. وكانت تعجبني حقا.

ــ لنتكلم عن ميولك، على طريقة مجلات المرأة. شيء ممتع أن أطرح عليك الأسئلة التي نطرحها نحن الصحافيين على ملكات الجمال. كتابك المفضل ؟

ــ أوديب الملك.

ــ وموسيقيك المفضل ؟

ــ بيلا بارطوك

ــ والرسام ؟

ــ غويا.

ــ من هم مخرجوا السينما الذين يعجبونك أكثر ؟

ــ أورسون ويلس، خصوصا في فلمه «قصة خالدة»، وكوروساوا في «باربا روخا»

ــ والفلم الذي اعجبك اكثر بين جميع التي شاهدتها في حياتك ؟

ـــ الجنرال ديلا روبيري، لروسيليني

ـــ وفلم آخر ؟

ـــ جول وجيم، لتروفو.

ـــ ما هي الشخصية السينمائية التي تتمنى لو كنت خلقتها أنت ؟

ـــ الجنرال ديلا روبيري

ـــ والشخصية التاريخية التي تهمك أكثر ؟

ـــ يوليوس قيصر، ولكن من وجهة نظر أدبية

ـــ والتي تكرهها اكثر ؟

ـــ خريستوف كولومبس كان يحمل pava زيادة على ذلك. هذا تقوله شخصية «خريف البطريرك»

ـــ من هم أبطال الروايات المفضلون عندك ؟

ـــ غارغانتوا والكونت دي مونتي كريستو والكونت دراكولا.

ـــ واليوم الذي تكرهه ؟

ـــ الأحد .

ـــ اللون معروف : الاصفر. ولكن أي نوع من الاصفر بالذات ؟

ـــ حددت هذا مرة : أصفر بحر الكاريبي في الثالثة بعد الظهر ، كما نراه من جامايكا.

ـــ والطائر المفضل ؟

ـــ قلت هذا كذلك، هو الـ canad à l'orange.

شهرة ومشهورون

ـــ لنتكلم عن موضوع مضايق : الشهرة. هل للصداقات المفرطة العدد التي اكتسبتها بعد ان اصبحت مشهورا نفس عمق صداقاتك الاخرى ؟ أتعرف متى تكون حقيقية ومتى ترجع الى الجاذبية التي تثيرها الشهرة فقط ؟

ـــ كان اصدقائي خلال بضعة اعوام مقسمين من طرفي الى اصدقاء قبل وأصدقاء بعد «مئة عام من العزلة». كنت اعني بهذا ان الاولين يبدون لي اكثر ثقة، لاننا تصاحبنا لاسباب كثيرة مختلفة لا توجد بينها شهرتي. ومع مرور الزمن ادركت غلطي : أسباب الصداقة كثيرة ولا تسبر، واحدها ـــ الجاذبية التي تثيرها الشهرة ـــ لا يقل مشروعية من اي سبب آخر. هذا يعمل في اتجاهين بطبيعة الحال : حتى انا عرفت الآن ناسا مشهورين كثيرين لم يكن في إمكاني ان أعرفهم من قبل، عرفتهم بسبب شهرتهم، وبسبب شهرتهم فقط، وبعد ذلك اصبحت صديقا لهم لأني اكتشفت تشابها لا علاقة له بشهرتهم ولا بشهرتي. لنقل ان الشهرة ايجابية من هذه الناحية، لأنها تقدم فرصا غنية جدا لخلق صداقات لولاها

كانت مستحيلة. ومع ذلك، ورغم الود الذي اكنه لاحدث اصدقائي، فان اصدقائي الذين عرفتهم قبل «مئة عام من العزلة» مازالوا بالنسبة لي جماعة خاصة، شبه محفل ماسوني، يقويه عنصر موحد يكاد لا يقبل التلف، وهو الحنين المشترك.

ـــ ألا ترى ان الشهرة احدثت بعض التغيير في علاقتك بهم ؟ مثالا : انت لا تكتب الآن رسائل كما كنت تفعل من قبل.

ـــ هذا صحيح : لا افتح نفسي لأحد بالبراءة السابقة نفسها، لا لأني غير قادر على ذلك وسط الحيرة التي تغرقنا الشهرة فيها، بل لأن الحياة في النهاية تجعل الانسان اقل براءة تدريجيا. صحيح أني ما عدت اكتب رسائل منذ حوالي اثني عشر عاما، لكني لا اكتبها لاصدقائي ولا لأحد، منذ ان عرفت مصادفة ان احدهم باع رسائل شخصية لي لدار المخطوطات لجامعة بالولايات المتحدة. اكتشافي أن رسائلي كانت بضاعة هي كذلك سبب لي اكتئابا فظيعا، فلم اكتبها بعد ذلك قط.

ـــ اليوم تنادي اصحابك بالتلفون...

ـــ أو أدور حول العالم لأكون معهم، وبكلفة جنونية، وهذا دليل آخر على التقدير الهائل الذي اكنه لهم.

ـــ بين احدث اصدقائك يوجد رؤساء دول. أعرف ان بعضهم ينصتون اليك او يشاورونك. ألا يمكن أن يكون لديك ميل الى أن تكون رجل سياسة ؟ أو ربما يتعلق الأمر بافتتان سري بالسلطة...

ـــ لا، ما يحدث هو أني عامر بشغف جارف للحياة، وأحد مظاهرها هو السياسة. لكنه ليس المظهر الذي يعجبني اكثر، وأسأل نفسي هل كنت سأهتم به لو ولدت في قارة اخرى بمشاكل سياسية اقل من الموجودة في اميركا اللاتينية. أعني أني أعد نفسي سياسي طوارئ.

ـــ جميع الكتاب الأميركيين اللاتينيين من جيلك يمارسون السياسة. ولكن انت اكثر. ذكرت صداقتك لبعض رؤساء الدول مثالا.

ـــ علاقتي الشخصية بهم هي نتيجة اخرى لفرص العلاقات التي تكاد ان تكون لا محدودة والتي تتيحها الشهرة (سواء شهرتهم أو شهرتي). لكن الصداقة مع بعضهم هي نتيجة تشابه شخصي لا علاقة له بالسلطة والشهرة.

ـــ ألا تعترف بأنك تحس بافتتان سري نحو السلطة ؟

ـــ نعم، احس بافتتان كبير نحو السلطة، وهو ليس سريا. بل العكس : اعتقد انه واضح في كثير من شخصياتي، حتى في اورسولا اغواران ـــ وهي ربما أقل شخصياتي إثارة

لاهتمام النقاد من هذه الناحية ـــ ، وهو مبرر وجود «خريف البطريرك» طبعا. السلطة هي بلا شك اسمى تعبير لطموح وارادة البشر، ولا افهم كيف يوجد كتاب لا يشغل بالهم شيء يؤثر في الواقع الذي يعيشون فيه ويقرره احيانا.

ـــ وأنت شخصيا، أأغرتك السلطة ؟

ـــ لا. توجد في حياتي ادلة كثيرة على أنني تجنبت بصرامة كل امكانية للسلطة، على أي مستوى، فأنا ليس لدي الميل ولا التكون ولا التصميم. وهي عناصر ثلاثة أساسية في أية مهنة، وأظن انها لدي واضحة وضوحا تاما ككاتب. أن تخطئ في اختيار العمل الذي تصلح له هو خطأ سياسي خطير كذلك.

ـــ فيديل كاسترو صديق حميم لك. كيف تفسر هذه الصداقة ؟ أي شيء يلعب أهم دور فيها، هل وفاقكما السياسي أم كونكما رجلين من الكاريبي ؟

ـــ أصغ جيدا، صداقتي لفيديل كاسترو التي اعتبرها انا شخصية جدا ومدعومة بود كبير، بدأت بسبب الأدب. أنا كنت خالطته مخالطة عرضية لما كنا نعمل في «برينصا لاتينا»، في 1960، ولم احس بوجود اشياء تجمعنا. بعد ذلك، لما أصبحت كاتبا معروفا وغدا هو اشهر سياسي في العالم، التقينا عدة مرات وكان كل واحد منا ينظر الى الآخر بكثير من الاحترام والانجذاب، لكني بدا لي ان تلك العلاقة لا يمكن ان تبلغ أبعد من وفاقنا السياسي. ولكن ذات فجر، قبل حوالي ست سنين، قال لي انه يجب ان يذهب الى داره لان هناك تنتظره وثائق كثيرة ليقرأها. قال ان ذلك الواجب الذي لابد منه يُمِلّه ويتعبه. فاقترحت انا عليه ان يقرأ بعض الكتب التي تجمع بين القيمة الادبية والابهاج الجيد المخفف من تعب القراءة الاجبارية. ذكرت له كثيرا منها، واكتشفت اكتشافا مفاجئا وهو انه كان قرأها كلها، وبرأي سديد جدا. تلك الليلة اكتشفت الشيء الذي لا يعرفه الا قليلون : أن فيديل كاسترو قارئ شره محب ومطلع اطلاعا جديا للغاية على الأدب الجيد لكل زمان، وأنه حتى في اصعب الظروف يوجد كتاب مهم في متناول يده يملأ به اي فراغ. أنا اعرته كتابا لما تواعدنا في الرابعة فجرا، بعد ليلة كاملة من الحديث، وفي الثانية عشرة من النهار، التقيته وكان قد قرأ الكتاب. هو زيادة على هذا قارئ بلغ انتباهه وتدقيقه الى حد انه يجد تناقضات ومعلومات غير صحيحة حيث لا تتوقع مطلقا أنها موجودة. بعد ما قرأ «حكاية غريق» ذهب الى الفندق حيث كنت فقط ليقول لي ان هناك خطأ في تقدير سرعة المركب، ولذلك فساعة الوصول لا يمكن ان تكون التي ذكرتها انا. كان على حق. ولهذا فقبل أن انشر «اخبار موت معلن»، ذهبت اليه بالمخطوطة، فأشار الى خطإ في مواصفات بندقية الصيد. الانسان يحس ان عالم الأدب يعجبه، أنه يشعر بالراحة داخل هذا العالم، وهو يجد متعة في الاعتناء بالشكل الأدبي لخطبه المكتوبة التي يزداد عددها مع مرور الزمن. قال لي مرة بمظهر لا يخلو من حزن : «في تناسخي المقبل اريد ان اكون كاتبا».

ـــ وصداقتك لميتيران، هل أساسها الأدب كذلك ؟

ـــ حتى صداقتي لميتيران بدأت بسبب الأدب. تكلم معه بابلو نيرودا عني لما كان سفيرا للشيلي في فرنسا، ولما زار ميتيران المكسيك، قبل حوالي سنتين، دعاني للفطور. أنا كنت قرأت كتبه التي اعجبني فيها دائما موهبة أدبية لا تخفى على أحد، وحماسة للغة مستحيل ان نجدها في غير كاتب بالفطرة. هو كذلك قرأ كتبي. تلكمنا في الأدب كثيرا في تلك المرة وفي الليلة التالية، أثناء عشاء، لكني احسست دائما أن تكوننا الأدبي مختلف وكتابنا المفضلين يختلفون. وخصوصا لأني لا أعرف الأدب الفرنسي جيدا وهو يعرفه معرفة عميقة ككل متخصص. ومع ذلك فالظروف التي نلتقي فيها دائما، وخصوصا بعدما وصل الى رئاسة الجمهورية، تجرنا الى أن نتكلم في السياسة دائما وأن نكاد لا نتكلم قط في الأدب، خلافا لما يحدث لي مع فيديل كاسترو. في اكتوبر 1981، دعاني الرئيس ميتيران في مكسيكو الى الغداء (أنا وكرلوس فوينطيس ولويس كاردوثا إي أراغون الشاعر الكبير والناقد الفني الغوا تيمالي). كان غداء سياسيا مهما جدا. لكن بعد ذلك عرفت ان السيدة دانييل ميتيران اصيبت بخيبة كبيرة لانها كانت تتوقع حديثا ادبيا. في الخطبة القصيرة التي ألقاها ميتيران بقصر الاليزيه، لما قلدني وسام جوقة الشرف في ديسمبر 1981، كان الشيء الذي أثر في، وكاد ان يسيل دموعي، هو جملة لا شك أنها هزته بالدرجة نفسها التي هزتني بها أنا :

Vous appartenez au monde que j'aime (53)

ـــ كنت صديقا حميما للجنرال عمر طوريخوس رجل باناما القوي. كيف نشأت تلك الصداقة ؟

ـــ صداقتي للجنرال طوريخوس بدأت بسبب دعوى. أنا كنت صرحت في مقابلة (ربما في 1973) انه كان ديماغوجيا يتترس بحملته من اجل استرجاع قناة باناما، وإنه في الواقع لم يكن يعمل اي شيء من أجل تحقيق التغييرات الاجتماعية التي كانت ضرورية في باناما. فبحث عني القنصل البانامي في لندن ليقول لي ان طوريخوس يدعوني الى زيارة باناما حتى يمكن ان أتأكد بنفسي الى أي حد كان تصريحي ظالما. فكرت ان ما يفتش عنه طوريخوس هو طلقة دعائية، فقلت له اني اقبل الدعوة، ولكن بشرط الا يذاع خبر زيارتي. فقبل. لكن قبل يومين من وصولي الى باناما، اذاعت وكالات الانباء خبر زيارتي. فواصلت طريقي الى كولومبيا ولم اتوقف في باناما. وألح طوريخوس في الدعوة وهو خجل جدا مما حدث في الواقع بسبب خداع أحد يختلف عنه. أنا زرته سرا بعد ذلك بشهور، لكن لما أردت ان أراه لم استطع ان اجده الا بعد أربع وعشرين ساعة، رغم اني طلبت مساعدة الأمن الوطني. لما استقبلني أخيرا غارقا في الضحك، قال لي : «اتعرف لماذا لم يستطع «الأمن» ان يجدني ؟ لأني كنت في

(53) أنت تنتمي الى العالم الذي أحبه أنا.

داري، وهي المكان الوحيد الذي لا يتصور احد ــ حتى «الأمن» ــ أني موجود فيه». منذ تلك اللحظة نشأت بيننا صداقة يملأها تواطؤ كاريبي حقيقي، ومرة ــ لما غدت المفاوضات حول قناة باناما متوترة جدا ملتبسة ــ ظللنا انا وهو وحيدين خمسة عشر يوما في قاعدة فارايون العسكرية، نتكلم عن كل شيء ونشرب ويسكيا. ما كنت اجرؤ على الذهاب لأن في ذهني كانت تدور فكرة سيئة وهي أنه اذا بقي وحده لن يتحمل التوتر وسيطلق على نفسه الرصاص. لن أعرف ابدا هل كان لخوفي اساس، لكن على كل حال انا اعتقدت دائما ان الجانب الاكثر سلبية في شخصية طوريخوس هو نزوعه الى أن يكون شهيدا.

ــ أتكلمت معه مرة عن الكتب ؟

ــ لم تكن لدى طوريخوس عادة القراءة، كان مفرط القلق ونفاد الصبر مما جعله لا يقرأ بطريقة منظمة، لكنه كان يبقى على اطلاع على الكتب الموجودة في الواجهة. كان لديه حدس يكاد ان يكون حيوانيا، حدس ما عرفت مثله في حياتي، وحس واقعي كان يمكن خلطه أحيانا بملكة تكهنية. كان طوريخوس ــ خلافا لفيديل كاسترو الذي يتكلم بلا توقف عن فكرة دائرة في ذهنه، حتى يتمكن من اتمامها من كثرة التكلم عنها ــ يحبس نفسه في حالة كتم مطبق، ونحن اصحابه كنا نعرف أنه يفكر شيئا آخر مختلفا عما يتكلم عنه. ما عرفت في حياتي رجلا اكثر ارتيابا ومفاجأة منه.

ــ متى رأيته آخر مرة ؟

ــ قبل ثلاثة ايام من موته. في 23 يوليو 1981 كنت معه في داره بباناما، فدعاني الى ان ارافقه في رحلته الى المناطق الداخلية للبلد. ولأول مرة منذ اصبحنا صديقين قلت له لا، ولم ادر قط لماذا فعلت. ذهبت الى مكسيكو في اليوم التالي. بعد ذلك بيومين ناداني صديق بالتلفون ليقول لي ان طوريخوس مات في الطائرة التي سافرنا فيها معا مرات كثيرة، كما سافر فيها اصدقاء كثيرون. هزني هزا رد فعل عميق من الغضب، لأني ادركت لحظتئذ فقط اني احبه حبا كبيرا جدا، أكبر مما كنت اظن انا نفسي وأني لن اتمكن أبداً من التعود على موته. مع مرور كل يوم اتأكد من انني لن أتعود.

ــ حتى غراهام غرين كان صديقا حميما لطوريخوس. أنت كنت تقرأ كتب غرين كثيرا، وبعد ذلك عرفته. ما هو انطباعك عنه ؟

ــ هو احد الكتاب الذين قرأتهم اكثر وأحسن، ومنذ ان كنت طالبا، وهو احد الذين ساعدوني اكثر على كشف المناطق المدارية. فالواقع في الأدب ما هو تصويري بل خلاصي، والعثور على العناصر الاساسية لتلك الخلاصة هو احد اسرار فن القص. غراهام غرين يعرف هذا جيدا، ومنه تعلمته أنا، وأظن ان ذلك يبدو في بعض كتبي ــ خصوصا في «الساعة السيئة» ــ بشكل مفرط الوضوح.

«لا اعرف اي كاتب اخر اشبه الى ذاك الحد الصورة التي كانت لدي عنه قبل أن اعرفه، كما وقع لي مع غاراهم غرين. هو رجل كلام قليل، لا يبدو عليه اهتمام كبير بالأشياء التي يقولها محدثه، لكن بعد عدة ساعات معا يحس انهما تحدثا بلا توقف. مرة، أثناء سفر طويل في الطائرة، قلت له هو وهمنغواي من الكتاب الذين لا يمكن ان نكتشف فيهم تأثيرات ادبية. فأجابني : «تأثير هنري جيمس وكونراد واضح في اعمالي». ثم سألته لماذا لم يعطوه جائزة نوبيل في نظره. كان جوابه سريعا. «لأنهم لا يعتبرونني كاتبا جديا». الغريب في الأمر هو ان هذين الجوابين أثارا تفكيري بشكل مفرط الى حد اني احتفظ بذكرى ذلك السفر كأنه كان حديثا متواصلا دام خمس ساعات. منذ ان قرأت «السلطة والمجد» (لا أتذكر متى) تصورت ان مؤلفها لابد ان يكون كما هو فعلا.

ــ كيف تفسر ان تنشأ بينه وبين طوريخوس صداقة تشبه التي كانت بينك وبينه ؟

ــ صداقته لطوريخوس (كصداقتي لهما) كان فيها بعض التواطؤ. دخول غراهام غرين الولايات المتحدة مقيد منذ عدة اعوام، لانه في طلب تأشيرة صرح أنه كان عضوا في حزب شيوعي لمدة شهور قليلة في شبابه. أنا يحدث لي الشيء نفسه، لأني كنت مراسلا لوكالة الأنباء الكوبية في نيويورك. في هذه الظروف اراد طوريخوس ان نكون بين مدعويه في توقيع اتفاقية قناة باناما (الذي جرى بواشنطن في 1978)، فأعطانا كلينا جوازين رسميين باناميين. لن انسى ابدا سخرية غراهام غرين وهو نازل من الطائرة الرسمية في قاعدة اندريوس البحرية بواشنطن، وسط اناشيد وطلقات مدافع لا تحدث في الولايات المتحدة الا لما يصل رؤساء الدول. في اليوم التالي كنا معا في الاحتفال، على بعد اقل من عشرة امتار من المائدة التي كان يجلس اليها جميع حكام اميركا اللاتينية، بما في ذلك سطرويسنير من الباراغواي، وبينوتشيط من الشيلي، وبيديلا من الأرجنتين، وبانثير من بوليفيا. مافهنا ــ لا أنا ولا هو ــ بأي تعليق ونحن نرقب بالشهية الطبيعية في هذه الحالة حديقة الحيوان العصارية تلك. مال غراهام غرين فجأة نحوي وقال لي في اذني بالفرنسية : Banzer doit être un homme très malheureux (54). لن أنسى هذا ابدا، وخصوصا لأنه بدا لي ان غراهام غرين قال ذلك بشفقة هائلة.

ــ من هو الكاتب الغير الحي الذي امكن ان يكون صديقا لك ؟

ــ بترارك (55).

ــ استقبلك البابا جان بول الثاني. ما هو الانطباع الذي تركه في نفسك ؟

ــ نعم، استقبلني البابا لما لم يكن قد مر على انتخابه غير شهر واحد، والانطباع

---

(54) لابد أن بانثير رجل شقيّ جدا.

(55) شاعر إيطالي (1304 ــ 1374).

الذي تركه في هو أنه انسان ضائع لا في قصر الفاتيكان فقط بل في العالم الواسع. كان كأنه مازال اسقف كراكوف. لم يكن تعلم حتى كيف تسير شؤون مكتبه، ولما كان يودعني لم يستطع ان يدير في المغلاق مفتاح المكتبة، وظللنا محبوسين لحظة، حتى فتح احد الخدام الباب من الخارج. لا أحكي هذا كانطباع سلبي، بل العكس تماما : بدا لي رجلا بقوة جسمية هائلة، بسيطا ودودا للغاية، الى درجة انه كاد ان يبدو مستعدا للاعتذار عن كونه بابا.

— لاي سبب زرته ؟

— زرته لأطلب منه المساعدة في بعض برامج حقوق الانسان بأميركا اللاتينية، لكنه كان يبدو مهتما بحقوق الانسان في اوربا الشرقية وحدها. غير أنه لما ذهب الى المكسيك بعد ذلك بأسابيع قليلة وواجه لأول مرة فقر العالم الثالث، بدا لي انه بدأ يرى جانب البشرية الذي ما كان يعرفه حتى ذلك الوقت. المقابلة دامت حوالي خمس عشرة دقيقة، تلكمنا بالاسبانية لانه كان يريد ان يتمرن عليها قبل الذهاب الى المكسيك، وبقي لدي الى الان انطباع مؤاس بأنه لم يعرف من هو أنا اطلاقا.

— رأيتك مرة ما تأكل في باريس ومعك مارغو همنغواي. عن ماذا يمكن ان تتلكم انت معها ؟

— تحدثني كثيرا عن جدها. وأنا احدثتها كثيرا عن جدي.

— من هي الشخصية الأكثر ادهاشا التي عرفتها ؟

— مرثيديس زوجتي.

ترجمة : محمد العشيري

محمد العشيري

الترجمة العربية لروايات غبرييل غرثيا ماركيث

أكثر الروائيين الاميركيين حظا في لغتنا (من حيث كمية أعماله المترجمة الى هذه اللغة) هو الكولومبي غ. غرثيا ماركيث بلا شك. عربت له حتى الآن أربع روايات : «مئة عام من العزلة» و «لم تصل العقيد أية رسالة» و «خريف البطريرك» و «أخبار موت معلن»، واذا لم تخن الذاكرة فإن مجموعة القصص الثالثة والأخيرة له التي نشرها عام 1973 ترجمت بكاملها هي كذلك وصدرت عن دار ابن رشد في بيروت (دون أن نعد العدد الكبير من القصص القصيرة المعربة المبعثرة في المجلات والصفحات الادبية للجرائد).

أول رواية عربت لماركيث هي «مئة عام من العزلة» وهي أفضل أعماله (هذا رغم أنف مؤلفها الذي يصرح ــ في الحوار الطويل المنشور بهذا العدد نفسه من «الثقافة الجديدة» ــ بأن أحسن رواياته هي «خريف البطريرك»). معروف أن شهرة ماركيث انفجرت في 1967 بـ «مئة عام ...» ولم تترجم هذه الى لغتنا الا بعد سنين كثيرة من ظهورها. وعربت عن الفرنسية. وإذا قلنا إن ماركيث بنفسه يؤكد ــ في الحوار المذكور قبل سطور ــ إنه لا يحس بمخلوقه ــ مئة عام ... ــ في الترجمة الفرنسية وأضفنا إننا عند المقارنة بين الترجمة العربية والاصل الاسباني وجدنا من الاخطاء ما يمكن ان نملأ به صفحات وصفحات وختمنا قائلين ان اصدقاء غير قليلين أكدوا بعد قراءتهم الترجمة العربية لـ «مئة عام...» إنها ما أعجبتهم البتة، فإن الحكم على هذه الترجمة سيبرز وحده في ذهن قارىء هذا دون حاجة الى أن نطبعه هنا بحروف. وبما أننا كنا نوينا الا نتعرض ببعض التفصيل الا لروايات ماركيث المعربة عن الاسبانية مباشرة فسنوقف الكلام عن «مئة عام...» هنا.

سنبدأ بآخر رواية كتبها ماركيث «أخبار موت معلن» وهي التي وصلتنا ترجمتها العربية على صفحات مجلة «الدستور» (ترجمها عن الاسبانية الدكتور محمد عبد الله الجعيدي). النص الذي سنقارنه هنا بالاصل هو الفقرات الاولى من الفصل الثالث للرواية (استعملنا هذا الفصل لأنه الوحيد المتوافر لدينا) وهو الذي ظهر في عدد أغسطس 1981 من «الدستور» واحتل الصفحات 54، 55، 56، 57 منها. أما النص الاصلي الذي سنعتمد عليه فهو الطبعة الاولى للرواية التي صدرت عام 1981 عن دار BRUGUERA.

أول ما يثير الانتباه في الترجمة هو كون المترجم سمح لنفسه بترقيم الفصل ــ والفصول الخمسة للرواية بلا شك ــ خلافا للنص الأصلي الذي لا أثر فيه لأي ترقيم.

في السطور الأولى من هذا الفصل الثالث (الصفحة 79 من النص الاسباني) يقول الروائي :

... los gemelos declararon al final del juicio que hubieran vuelto a hacerlo mil veces por los mismos motivos

ونقل المترجم هذا هكذا (الصفحة 54 العمود 1 من «الدستور») :

«وفي نهاية المحاكمة أعلن التوأمان أنهما عادا لفعله ألف مرة لنفس الأسباب».

الخطأ زاعق ! المترجم كان يجب أن يقول :

«صرح التوأمان أنهما لو كانت تكررت الاسباب نفسها لعادا الى ارتكاب فعلهما ولو حدث ذلك ألف مرة».

بعد فقرات نصطدم بخطأ يشبه هذا :

نقرأ في النص الاسباني (ص 82) :

Jamàs habrìan vuelto a salir de aquì...

ونقل المترجم هذا هكذا (الصفحة 54 العمود 2)

«ـــ ماعادا قط بعد خروجهما من هنا».

مع أن النص يقول :

«ـــ لو كانا دخلا الى هنا لما خرجا أبدا»...

ولقد ترجم الدكتور الجعيدي كلمة pendejo مرتين بـ «جبان»، وهذه هي ترجمتها في القاموس الاسباني ـــ العربي للمستعرب المعروف ف. كورينطي، مع أن الكلمة لها معنى مختلف في أميركا اللاتينية ـــ شأن عدد لا حصر له من الكلمات والتعابير الاسبانية ـــ وهو «غبي»، وهذا هو المعنى المقصود في النص.

ونقرأ في الصفحة 85 :

«Pensamos que eran vainas de borra chos», declararon varios carniceros, lo mismo que Victoria Guzmàn y tantos otros que los vieron después.

وعربها المترجم هكذا (الصفحة 54 أسفل العمود 3) :

«وصرح العديد من الجزارين :

ـــ ظننا أنها تصرفات سكارى.

وحدث الشيء ذاته لبيكتورية غوثمان ولكثيرين آخرين رأوهما فيما بعد».

مع أن المقصود ـــ كما هو واضح في النص الاصلي ـــ هو أن بيكتورية غوثمان والآخرين أدلوا بالتصريح ذاته.

وفي الصفحة نفسها نقرأ :

Otro me dijo que no sería capaz de sacrificar una vaca...

ونقلها المترجم هكذا (ص 54 أعلى العمود 4) :

«وقال لي آخر إنه غير كفء لذبح بقرة...»

وصعب على الانسان أمام خطإ كهذا الا يقول إن أي مبتدىء يعرف أن no sería capaz معناها «لن يجرؤ» أو «لن يستطيع».

وإحدى قمم هذه الاخطاء ربما كانت ذلك الخطأ الذي يصدم أسفل العمود الخامس من الصفحة 54 للمجلة.

يقول الروائي في الصفحة 87 :

... hubo tantos clientes descarriados de la boda...

ونقلها المترجم هكذا :

«ولكن كثيرا من الزبائن في تلك الليلة كانوا مشغولين بالعرس»...

مع أن فعل descarriar ليس معناه شُغِل بل ضل (الطريق) والمقصود في النص هو أن الزبن ضلوا طريق العرس أو حادوا في جولاتهم عن هذا الطريق ! وعند الصفحة 88 نقرأ :

... cuyas ventanas estaban apagadas

وبسذاجة مهولة نقلها المترجم هكذا (الصفحة 55 العمود 1)

«كانت نوافذه (...) مغلقة».

مع أن الكاتب يعني أن النوافذ كانت مطفأة (أي أن أضواء النوافذ كانت مطفأة).

وفي الجملة التالية نرى طين الترجمة يزداد بلة : يقول الروائي :

LA más grande del balcon era la del dormitorio de Santiago Nasar

ونقلها المترجم هكذا :

«وكانت شرفة غرفة نوم سانتياغو نصار أكبر الشرفات» والصحيح هو :

«وكانت أكبر نوافذ الشرفة هي نافذة غرفة نوم سانتياغو نصار» !

أخيرا (لا نريد أن نثقل أكثر على من سيقرأ هذا) عرب المترجم سؤال : Le pasó algo ? (الذي معناه في سياق الكلام هو : أجرى له شيء ؟ أو أحدث له شيء ؟) هكذا :

« ــ هل حدث لك شيء ؟»

إن بعض الاخطاء الملاحظة في هذه الترجمة (الخطأ الاخير المشار اليه، على سبيل المثال) يمكن أن تبرر بأنها راجعة الى السرعة، السرعة في الترجمة، والى عدم مراجعة هذه الترجمة (وهذا التبرير يجعل الانسان يستنتج أن قلم المترجم كان مدفوعا لا بالحس الجمالي الذي يبغي ــ ويتلذذ بـ ــ نقل تحفة أدبية من لغة الى أخرى بل بحس تجاري همه هو أن يضع أمام عيون القراء في أقرب وقت ترجمة عربية «عن الاسبانية» لآخر عمل صادر عن أحد أعظم الاقلام الكاتبة باللغة الاسبانية اليوم...) ولكن جهل المترجم باللغة التي ترجم عنها بيّنّ بيانا تاما عبر فقرات ترجمة هذا الفصل الثالث (كما نرى في أغلبية الاخطاء المشار اليها هنا).

يجب أن نقول (وبهذا ننهي الكلام عن هذه الترجمة) إن الامر يكتسب حجم الاشياء المهولة لما نعرف أن المترجم دكتور وعامل في جامعة مدريد ــ كلية الاداب وأن دراساته ومترجماته تظهر باستمرار على صحفات المجلات العربية من الخليج الى المحيط («المعرفة» السورية ــ العدد 246 ــ «الفكر» التونسية ــ عدد اكتوبر 1982 ــ، «العربي» الكويتية، «الدوحة» القطرية وغيرها).

أما رواية ماركيث الثانية المترجمة عن الاسبانية فقد صدرت عام 1980 عن دار الفارابي بعنوان «ليس لدى الكولونيل من يكاتبه» (ترجمها عن الاسبانية صالح علماني، ودققها سعيد حورانية) والنص الاصلي الذي قارنا به الترجمة هو الصادر عن دار PLAZA & JANES عام 1974، ورغم هفوات تطل هنا وهناك (لم نقارن بالاصل الا الفصل الاول من الترجمة) فان مستوى الترجمة العام لم يبلغ الدرك الذي هوت اليه ترجمة «اخبار موت معلن». من بين الهفوات نذكر :

عبارة en el fondo del baul (الصفحة 9 من النص الأصلي) ترجمت هكذا :

«في أسفل الصندوق» (الصفحة 8 من الترجمة) بدل «في قعر الصندوق» وهو أدق.

وعبارة Ahora Agustin estaba muerto (الصفحة 10) هكذا «لقد مات أغوستين الآن» (ص. 9) مع أن المقصود هو أن أغوستين كان ميتا في مثل هذا الوقت. في الصفحة 12 من الرواية تقول زوجة العقيد :

- Pregúntele al doctor si en esta casa le echamos agua caliente.

وجاء قولها في الترجمة هكذا :

ــ اسأل الطبيب عما اذا كنا قد ألقينا عليه ماء ساخنا في هذا البيت.

وفي الهامش فسر المترجم معنى هذا القول. وكان يحسن به أن يترجم قول المرأة بعبارة عربية تقال في المناسبة نفسها (هذا من مبادىء الترجمة الذي لا يخفى الا على قليلين) أو أن يترجم مقصودها في جملة عادية مثل :

ــ اسأل الدكتور ما هو السبب الذي جعله لا يزورنا.

خوليو كرطاثار (الأرجنتين)

زهـــرة صـفـــراء

اذا قلت اننا نحن الآدميين خالدون فقد تبدو المسألة مزاحا. ولكن الحقيقة هي اننا خالدون. أعرف ذلك عن طريق النفي، اعرف ذلك لأني عرفت الانسان الفاني الوحيد. حكى لي قصته في خمارة بـ rue Cambronne. كان سكران تماما، الى درجة ان قول الحقيقة لم يكن يكلفه اي شيء، دون ان يهمه ان يضحك صاحب الخمارة والزبناء القدامى حتى كانت الخمر تخرج من عيونهم. لاشك انه رأى بعض الاهتمام مرسوما في وجهي، فقد التصق بي بثبات وانتهينا بالسماح لأنفسنا بترف الجلوس الى طاولة في ركن حيث يمكن ان نشرب ونتكلم في سلام. قال لي انه من متقاعدي البلدية وان امرأته رجعت الى دار والديها لتقضي هناك مدة، وهذا مجرد طريقة مثل اية طريقة اخرى لقبول واقع انها هجرته. لم يكن عجوزا ولا جاهلا، كان وجهه هزيلا وعيناه عيني مسلول. كان في الواقع يشرب لينسى، وقد اخذ يصرح بذلك بعد كأس النبيذ الخامسة. ما شممت عليه تلك الرائحة التي هي إمضاء باريس والتي يظهر انها لا تشم الا علينا نحن الأجانب. وكان يعتني بأظفاره وفي رأسه لم تكن توجد قشرة.

حكى أنه في احدى حافلات الخط 95 رأى فتى في حوالي الثالثة عشرة، وأنه بعد لحظة من النظر اليه اكتشف ان الفتى يشبهه كثيرا، أو على الأقل يشبه الذكرى التي كان يحتفظ بها عن نفسه في تلك السن. أخذ شيئا فشيئا يسلم بأنه يشبهه في كل شيء : الوجه واليدين، الخصلة التي تنسدل على جبينه، العينين البعيدين عن بعضهما، وكان يشبهه اكثر في خجله، في كيفية لوذه بمجلة حكايات مصورة، في حركة رد الشعر الى الوراء وفي الرعونة الحتمية للحركات. كان يشبهه الى درجة انه كاد ان يضحك لذلك، ولكن لما نزل الفتى في rue de Rennes نزل هو كذلك تاركا صديقا ينتظره خائبا في مونبارناس. فتش عن ذريعة ليتكلم مع الفتى، سأله عن شارع وسمع دون ان يفاجأ الآن صوتا كان صوت طفولته هو. كان الفتى متوجها الى ذاك الشارع نفسه، مشيا قليلا في خفر. حينئذ نزل عليه نوع من الوحي. لم يكن اي شيء مفهوما، غير انه كان شيئا يمكن ان يستغني عن الفهم، شيئا يغدو منطمسا أو سخيفا لما يحاول — كما يفعل الآن — شرحه.

باختصار، وجد سبيلا الى معرفة دار الفتى، وبالاعتبار الذي كان يسبغه عليه ماض عمل فيه مدرب كشافة، فتح طريقه حتى ذلك الذي يعد حصن الحصون : البيت الفرنسي. وجد بؤسا بكرامة وأما عجوزا وخالا متقاعدا وقطين. بعد ذلك لم يكلفه كثيرا ان يكل اليه اخ له ابنه الذي كان في حوالي الرابعة عشرة، وصار الغلامان صديقين. وأخذ يذهب كل اسبوع الى دار لوك. كانت الأم تستقبله بقهوة أعيد طبخها، كانا يتكلمان عن الحرب، عن الاحتلال، عن لوك أيضا. ما كان قد بدأ كوحي، اخذ ينتظم الآن بطريقة هندسية، شرع

يتخذ ذلك الشكل الذي يحلو للناس ان يسموه قدرا. كان يمكن التعبير عن ذلك حتى بكلمات كل يوم : لوك كان هو مرة اخرى، لم يكن هناك فناء، كلنا خالدون.

ــ كلنا خالدون يا أخ. تصور، ما كان احد استطاع ان يثبت ذلك ومجيء دوري أنا، في حافلة 95. خطأ صغير في جهاز الآلة، طية في الزمان، تناسخ متزامن عوض ان يكون متعاقبا. لوك كان يجب ان يولد بعد موتي، وعوض ذلك... دون ان نعد المصادفة العجيبة : عثوري عليه في حافلة. اظن اني قلت لك ذلك، كان عبارة عن نوع من اليقين التام، بلا كلمات. كان ذلك والسلام. ولكن بعد ذلك بدأت الشكوك، لأن الانسان في تلك الأمور يعتبر نفسه غبيا او يشرب مسكنات. والى جانب الشكوك البراهين التي تقضي عليها الواحد بعد الآخر، البراهين على أني لم اكن مخطئا، على انه لم يكن هناك مجال للشك. ما سأقوله لك الآن هو ما يضحك هؤلاء السخيفين أكثر، لما يخطر لي احيانا ان احكي لهم. لوك لم يكن أنا مرة اخرى فقط، بل كان سيصير مثلي انا، مثل هذا المسكين التعيس الذي يتكلم معك. كانت تكفي رؤيته وهو يلعب، رؤيته وهو يسقط بكيفية سيئة دائما، متسببا في وثوء رجل أو اخراج ترقوة، وتلك العواطف بارزة على الوجه، وذلك التورد الذي كان يصعد الى الوجه بمجرد ان تطرح عليه اي سؤال. أما الأم فبالعكس، كيف يعجبهن الكلام، كيف يحكين للانسان اي شيء ولو كان الفتى هناك يموت حياء، اغرب الأشياء الحميمة، طرائف السن الأول، رسوم الثماني سنين، الأمراض... السيدة الطيبة ما كانت تشك في اي شيء، طبعا، وكان الخال يلعب معي الشطرنج، كنت كأني واحد من العائلة، حتى اني سلفتهم مالا كي يصلوا الى آخر احد الشهور. ما كلفتني معرفة ماضي لوك أي جهد، كان يكفي ادخال اسئلة بين المواضيع التي يهتم بها المسنون : روماتيزم الخال، البوابة الشريرة، السياسة. هكذا اخذت اعرف طفولة لوك بين بيادق الشطرنج وتأملات حول ثمن اللحم، وهكذا اخذ الاثبات يتحقق بلا اي خطإ. ولكن افهمني، بينما نطلب كأسا اخرى : لوك كان هو انا، ما كنت انا في طفولتي، ولكن لا تتصور ذلك كاستنساخ. الأحسن ان نقول إن ذلك كان صورة مشابهة، افهمت ؟، أقصد ان في السابعة من عمرينا وقع لي انفكاك في معصم ولوك وقع له في الترقوة، وفي التاسعة مرضنا بالحصبة والحمى القرمزية على التوالي، زيادة على ذلك : كان التاريخ يتدخل يا أخ، انا بقيت مريضا بالحصبة خمسة عشر يوما بينما لوك عالجوه في اربعة ايام، التقدم الطبي وأشياء من هذا القبيل. كل شيء كان متشابها، ولهذا، وعلى سبيل المثال، يمكن ان يحدث أن يكون خباز الناصية تجسدا جديدا لنابوليون، وهو لا يعرف ذلك لأن النظام ما تغير، لانه لا يمكن ابدا ان يلتقي بالحقيقة في حافلة. ولكن اذا تمكن بطريقة ما ان يعرف تلك الحقيقة، يمكن ان يفهم انه كرر وأنه يكرر الآن نابوليون، أن الانتقال من غاسل أوان الى صاحب مخبزة كبيرة في مونبارناس هو نفس صورة القفزة من كورسيكا الى عرش فرنسا، وأنه اذا حفر شيئا فشيئا في تاريخ حياته سيجد اللحظات التي تقابل حملة مصر والزعامة وأوسترليتز، وربما ادرك كذلك ان شيئا ما سيحدث له مع مخبزته بعد سنين قليلة وأنه سينتهي

في سانتنا هيلانة ربما تكون غرفة صغيرة في طابق سادس، ولكن مهزوما كذلك، محوطا كذلك بمياه الوحدة، فخورا كذلك بمخبزته التي كان امتلاكه اياها كطيران نسر سرعة. انت تدرك هذا، اليس كذلك ؟

أنا كنت أدرك ذلك، غير أني قلت مدليا برأيي اننا في الطفولة نصاب كلنا بأمراض تقليدية في اجل محدد، وإننا يكاد يتكسر لنا كلنا شيء ونحن نلعب الكرة.

ــ عرفت، أنا ما تكلمت لك إلا عن المصادفات الظاهرة. مثالا، كون لوك يشبهني لم يكن ذا اهمية، ولكن الوحي في الحافلة كان مهما. الشيء المهم حقا هو التسلسل المنظم، وهذا يصعب شرحه لأنه يخص المزاج، ذكريات غامضة، حكايات الطفولة. في ذلك الوقت، اقصد لما كنت في سن لوك، مررت بفترة مريرة بدأت بمرض طويل جدا، بعد ذلك، اثناء النقاهة، ذهبت لألعب مع الأصحاب فتكسرت احدى ذراعي، وما كدت اخرج من ذلك تماما حتى وقعت في حب اخت زميل في المدرسة، فتعذبت كما نتعذب لما نكون عاجزين عن النظر في عيني فتاة تسخر منا. لوك مرض كذلك، ما كاد يتماثل للشفاء حتى استدعي للذهاب الى السرك، ولما كان ينزل من المدرج زلق فانفك رسغه. بعد ذلك بقليل فاجأته امه ذات مساء يبكي جنب النافذة، بمنديل صغير ازرق معصر في يده، منديل لم يكن من البيت.

بما ان لابد ان يقوم احد بدور المعارض في هذه الحياة قلت ان غراميات الطفولة هي التتمة المحتومة للحدر والجناب. ولكني قبلت ان مسألة الطائرة كانت شيئا آخر. طائرة بمروحة يحركها نابض اهداه اياها في عيد ميلاده.

ــ لما اعطيته اياها تذكرت من جديد الميكانو التي اهدتني اياها امي لما كان عمري اربعة عشر عاما وتذكرت ما وقع لي. وقع اني كنت في الحديقة، رغم ان عاصفة صيفية كانت ستهب وكان الرعد يسمع في ذلك الوقت، وكنت بدأت أركّب مرفاعا فوق طاولة الفسحة، قريبا من باب الشارع. سمعت احدا يناديني من البيت فاضطررت الى الدخول لحظة. لما رجعت لم اجد علبة الميكانو وكان الباب مفتوحا. جريت وأنا اصرخ يائسا الى الشارع حيث ما كان يرى احد، وفي تلك اللحظة بالذات سقطت صاعقة على الشاليه المقابل. جرى كل ذلك بسرعة هائلة، وكنت اتذكره وأنا اعطي لوك الطائرة وهو ينظر اليها بالسعادة نفسها التي نظرت انا بها الى الميكانو. جاءت لي الأم بفنجان قهوة، وكنا نتبادل كلام كل يوم حين سمعنا صرخة. كان لوك قد جرى نحو النافذة كأنما يريد ان يلقي بنفسه في الفراغ. كان وجهه ابيض وعيناه مليئتين بالدموع، تمكن من ان يتمتم ان الطائرة انحرفت في طيرانها وخرجت بالضبط من فتحة النافذة المواربة. وأخذ يردد باكيا : « لا أراها، لا أراها». سمعنا صراخا في الأسفل، دخل الخال يجري ليقول ان حريقا شب في الدار المقابلة. أفهمت الآن ؟ نعم، الأحسن ان نشرب كأسا أخرى.

بما أني ظللت صامتا، قال الرجل بعد ذلك انه كان قد بدأ يفكر في لوك فقط، في مصير لوك. كانت امه تريد ان ترسله الى مدرسة للفنون والخدمات الدينية ليفتح بتواضع ما كانت هي تسميه طريقه في الحياة، ولكن ذلك الطريق كان قد فتح وهو وحده ـــ هو الذي لا يمكن ان يتكلم دون ان يعتبروه احمق ويبعدوه الى الأبد عن لوك ـــ كان يستطيع ان يقول للأم وللخال ان لا شيء ينفع، انهما مهما فعلا فإن النتيجة ستكون هي نفسها، الاذلال، الورتين المثير للشفقة، السنين الرتيبة، الخيبات التي تأخذ في قضم الملابس والنفس، الملجأ في وحدة حاقدة، في خمارة حارة. ولكن اسوأ ما في كل ذلك لم يكن هو مصير لوك، الأسوأ هو أن لوك كان سيموت بدوره ورجل آخر سيكرر صورة لوك وصورته هو، حتى يموت ليدخل رجل آخر بدوره في العجلة. كان لوك حينذاك يكاد لا يهمه، في الليل كان ارقه يقذف الى ابعد من ذلك، الى لوك آخر، الى آخرين سيسمون روبير او كلود او ميشيل، نظرية حتى اللانهاية من ناس مساكين يكررون الصورة دون ان يعلموا، موقنين انهم احرار مخيرون. كان السكر يدفع الرجل الى الحزن، ولم يكن ممكنا ابعاده عن ذلك.

ـــ الآن يضحكون علي لما اقول لهم لوك مات بعد ذلك بشهور قليلة، هم اغبياء جدا ولا يمكن ان يفهموا أن... نعم، لا تنظر الي هكذا انت كذلك. مات بعد ذلك بشهور قليلة، بدأ كل شيء بالتهاب شعبي، هكذا كما اصبت انا في تلك السن نفسها اصابة كبدية. أنا كانوا حملوني الى المستشفى ولكن ام لوك اصرت على ان يبقى في الدار ويعالج هناك، كنت أنا أكاد اذهب كل يوم، صاحبا معي احيانا ابن اخي ليلعب مع لوك. كان فقر ذاك البيت كبيرا جدا، الى درجة ان زياراتي كانت عزاء بكل ما في الكلمة من معنى : الصحبة للوك، علبة الرنكات او حلوى المشمش. تعودوا على ان اقوم أنا بشراء الأدوية، بعد ان تكلمت لهم عن صيدلية يخفضون لي فيها الأثمان تخفيضا خاصا. في النهاية قبلوني ممرضا للوك، ويمكن لك ان تتصور ان في بيت كذاك البيت، حيث يدخل الطبيب ويخرج دون اهتمام كبير، لا احد ينعم النظر كثيرا في هل الأعراض النهائية تتفق تماما مع التشخيص الأول للمرض... لماذا تنظر الي هكذا ؟ اقلت شيئا غير لائق ؟

لا لم يكن قد قال اي شيء غير لائق، خصوصا الى ذلك الحد من الخمر. بل العكس تماما، هذا اذا لم يكن تصور موت لوك المسكين كشيء شنيع يدل على ان اي انسان ميال الى الخيال يستطيع ان يبدأ توهما في حافلة 95 وينهيه جنب فراش يوجد فيه فتى يحتضر بصمت. لكي اطمئنه قلت له ذلك. ظل ينظر الى الفضاء برهة قبل أن يتكلم من جديد.

ـــ طيب، كما تريد. الحقيقة هي اني في تلك الأسابيع (بعد الجنازة) احسست لأول مرة بشيء يمكن ان يشبه السعادة. كنت مازلت ازور من وقت لآخر ام لوك، احمل اليها علبة بسكويت، ولكنها في ذلك الوقت لم تكن تهمني كثيرا، لا هي ولا البيت، كنت كأني غارق في يقين عجيب، يقين بأني هو أول فان، باحساسي ان حياتي مازالت تستهلك يوما بعد يوم،

كأس خمر بعد كأس، وبأنها في الأخير ستنتهي في اي مكان وفي اية ساعة، مكررة حتى النهاية مصير انسان مجهول مات لا احد يعرف اين ومتى، ولكن انا سأكون مت حقا، بلا لوك آخر يدخل في العجلة ليكرر بسخافة حياة سخيفة. حاول أن تفهم ذلك الكمال يا أخي، اغبطني على تلك السعادة، على اللحظات التي دامتها.

لأنها على ما كان يظهر لم تدم. الخمارة والخمر الرخيصة كانتا تبرهنان على ذلك، والعينان اللتان تلمع فيهما حمى ليست للجسم. ومع ذلك عاش بضعة شهور يتلذذ كل لحظة من كفافه اليومي، من فشله في الحياة الزوجية، من إفلاسه في الخمسين، وهو متأكد من فنائه الذي لا احد يستطيع ان يغير فيه شيئا. ذات مساء، بينما هو يقطع اللوكسمبورج، رأى زهرة.

ــ كانت في حافة مربع بستان، زهرة صفراء مثل كل الزهور. كنت توقفت لاشعل سيجارة وتشاغلت بالنظر اليها. كان الأمر كأن الزهرة تنظر الي هي كذلك، تلك الاتصالات، احيانا... أنت عارف، يحس بها اي انسان، ذاك الشيء الذي يسمونه الجمال. ذلك بالضبط، الزهرة كانت جميلة، كانت زهرة جميلة جدا. وأنا كان محكوما علي، كنت سأموت يوما بشكل نهائي. كانت الزهرة رائعة، دائما ستوجد زهور لناس المستقبل. فهمت العدم فجأة، ذاك الذي اعتقدت انه السلام، نهاية السلسلة. أنا كنت سأموت ولوك كان ميتا، لن تكون هناك أبدا زهرة لاحد مثلنا، لن يكون اي شيء، لن يكون اي شيء اطلاقا، والعدم هو ذلك، الا تكون هناك زهرة اخرى ابدا. احرقت الوقيدة المشتعلة اصابعي. وثبت في الساحة الى حافلة ما عرفت الى أين كانت متوجهة وأخذت انظر بكيفية لا معقولة، انظر الى كل شيء يرى في الشارع والى كل شيء موجود في الحافلة. لما وصلنا الى النهاية نزلت وركبت حافلة اخرى متوجهة الى الارباض. ركبت حافلات ونزلت منها المساء كله، حتى مضت فترة على هبوط الليل، وأنا افكر في الزهرة وفي لوك، وافتش بين الراكبين عن احد يشبه لوك، عن احد يشبهنا أنا ولوك، عن احد يمكن ان يكون انا مرة اخرى، عن احد انظر اليه وأناعارف انه أنا، ثم اتركه بعدئذ يذهب دون ان اقول له شيئا، وأنا اكاد احميه ليواصل حياته التعيسة السخيفة، حياته الغبية الفاشلة الى حياة اخرى غبية فاشلة الى حياة اخرى غبية فاشلة الى حياة أخرى...

سددت.

ترجمة : محمد العشيري

ــ خوليو كرطاثار : كاتب ارجنتيني. ولد عام 1914. يعتبر احد روائيي أمريكا اللاتينية الكبار.

عن كتاب :

- FINAL DEL JUEGO. JULIO CORTAZAR. EDITORIAL SUDAMERICANA. BUENOS AIRES. ARGENTINA. 1972

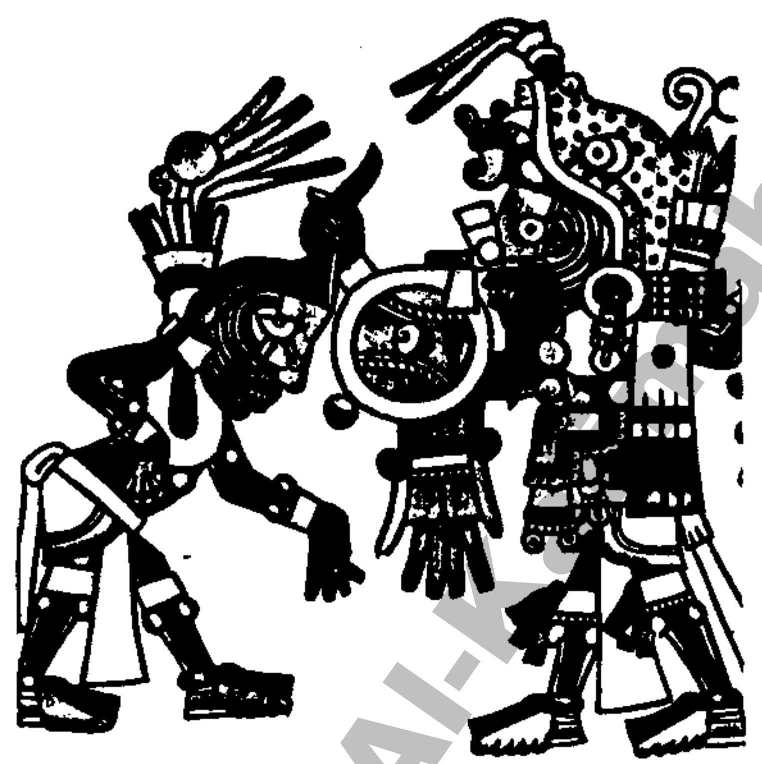
ماريو بينيديتي (الأوروغواي)

صـلاة جنـازة فـي مقهـى (1)

نعم، اسمي ادواردو. أنت تسألني عن اسمي لتبدأ الحديث معي بطريقة ما، انا افهم ذلك. لكن انت تعرفني منذ زمن طويل ولو من بعيد. كما أعرفك أنا. منذ الوقت الذي بدأت تلتقي فيه امي في مقهى «لارانياغا وريبيرا»، او في هذا نفسه. لا تظن اني كنت اتجسس. لا، لا. أنت ربما تفكر ذلك، ولكن لأنك لا تعرف القصة كلها. أحَكَتْها لك امي ؟ منذ وقت طويل وأنا اريد ان اتكلم معك، لكني ما كنت اتشجع. ولهذا فشكرا على كل حال لانك سبقتني الى ذلك. أعرفت لماذا كنت اريد ان اتكلم معك ؟ لأني يظهر لي أنك رجل طيب. ماما كانت طيبة كذلك. أنا وهي لم نكن نتكلم كثيرا. في الدار إما كان يسود السكوت أو كان ابي يتكلم. لكن بابا كان لا يتكلم الا لما يجيء سكران، وكان هذا يكاد يحدث كل ليلة، وعندئذ لم يكن كلامه كلاما بل صراخا. نحن الثلاثة ــ أنا وماما واختي ميرتا ــ كنا خائفين منه. عمرى الآن ثلاثة عشر عاما ونصف، وتعلمت اشياء كثيرة، منها ان الرجال الذين يصرخون ويعاقبون ويسبون ما هم في الواقع غير اشقياء مساكين. ولكن في ذاك الوقت كنت انا مازلت اصغر بكثير ولم اكن اعرف ذلك. ميرتا لا تعرف ذلك حتى الآن، ولكن هي اصغر مني بثلاث سنين، وأنا عارف انها احيانا تفيق في الليل وهي تبكي. الخوف. أشعرت انت مرة بالخوف ؟ ميرتا تظن دائما ان بابا سيظهر سكران وأنه سيزول حزامه ويضربها. مازالت لم تتعود على حالتنا الجديدة. أما أنا فبالعكس، حاولت أن أتعود. أنت ظهرت قبل عام ونصف، ولكن بابا يسكر قبل ذلك بكثير، وما كادت الخمر تقبضه حتى بدأ يضربنا نحن الثلاثة. أنا وميرتا كان يضربنا بالحزام، وهو يؤلم كثيرا، ولكن ماما كان يضربها بقبضته. كان يضربها لأنه يريد ذلك فقط، بلا سبب غير هذا: لأن الحساء كان ساخنا جدا أو لأنه كان باردا جدا، أو لأنها لم تنتظره مفيقة حتى الثالثة بعد منتصف الليل، او لأن عينها كانت منتفخة من كثرة البكاء. ما عرفت كيف كانت تعمل، ولكن لما كان هو يضربها لم تكن هي تبكي، ولا حتى تعض شفتيها، وكان هذا يزيد بابا غيظا. هي كانت تعرف هذا، ومع ذلك كانت تفضل ألا تبكي. انت عرفت ماما لما كانت قد صبرت وتعذبت كثيرا، ولكن قبل اربع سنين من ذلك فقط (أنا أتذكر جيدا) كانت مازالت جميلة وكان لونها لون عافية. زيادة على ذلك كانت امرأة قوية. في بعض الليالي لما كان بابا يسقط اخيرا ضاجا ويبدأ فورا يشخر، كنا انا وهي نرفعه ونذهب به حتى الفراش. كان ثقيلا جدا، وزيادة على ذلك كان حمله كحمل ميت. هي التي كانت تكاد تتحمل كل الثقل. انا كنت احمل رجلا واحدة فقط، رجلا بسروال ملطخ بالوحل تماما وحذاء بني بخيوط محلولة. انت ستظن بلا

شك ان بابا كان حيوانا حياته كلها. ولكن لا. بابا حطمه عمل قذر آذوه به. وآذاه به ابن عم لماما بنفسه، ذاك الذي يعمل في البلدية. أنا ما عرفت قط ماذا عمل، لكن ماما كانت من زاوية ما تعذر انطلاقات الغضب لبابا، لانها كانت تشعر بقليل من المسؤولية لكون احد افراد عائلتها هي آذاه كما فعل. ما عرفت قط اي نوع من الأعمال القذرة آذاه به، لكن الحقيقة هي ان بابا كلما كان يسكر يلومها كأنها المسؤولة الوحيدة. قبل ذاك العمل القذر كنا نعيش حياة بلا مشاكل. لا من ناحية المال، فنحن انا وأختي ولدنا في مسكن واحد (مسكن يكاد يكون مشتركا) قرب «بيبا ضولوريس»، أجرة بابا ما كفت قط، وماما كان لابد ان تعمل معجزات دائما لتعطينا ما نأكل وتشتري لنا من وقت لآخر صدرية صوف أو حذاء قماشيا. مرت بنا ايام كثيرة جعنا فيها (لو عرفت ما اقبح ان تبقى جائعا)، ولكن في ذاك الوقت كان السلام موجودا في دارنا على الأقل. بابا ما كان يسكر ولا يضربنا، وأحيانا كان يذهب بنا حتى الى السينما. في احد نادر كان المال فيه موجودا. انا أظن انهما ما احبا بعضهما كثيرا قط. كانا مختلفين جدا. حتى قبل ذاك العمل القذر، لما لم يكن بابا يشرب، كان انسانا متكدرا. احيانا كان يغبق في الظهر ولا يكلم احدا، ولكن لم يكن يضربنا ولا يسب ماما على الاقل. ليته بقي هكذا حياته كلها. بعد ذلك جاء العمل القذر فتحطم هو. بدأ يذهب الى البار ويرجع بعد منتصف الليل دائما، برائحة كريهة لعرق رخيص. في الأيام الاخيرة كان الأمر اسوأ، لانه كان يسكر نهارا ولا يخلي لنا حتى تلك الهدنة. أنا متأكد ان الجيران كانوا يسمعون كل صرخاته، لكن لم يكن احد يقول شيئا، طبعا، لان بابا جسمه كبير جدا وهم كانوا يخافون منه. حتى انا كنت اخاف منه، لا على نفسي فقط او على ميرتا، وانما على ماما بالخصوص. أحيانا كنت لا أذهب الى المدرسة، لا لأني احب ان أهرب منها، بل لأبقى احوم حول الدار، فانا كنت اخاف دائما ان يجيء بابافي النهار سكران فوق الحد فيطحنها بالضرب. أنا ما كنت قادرا على الدفاع عنها، أنت ترى كم انا ضعيف وصغير، في ذاك الوقت كنت اضعف وأصغر، لكني كنت اريد ان ابقى قريبا لأخبر البوليس. اعرفت انت أن بابا وماما لم يكونا من ذلك الوسط ؟ اجدادي لن اقول كان عندهم مال، ولكن كانوا يعيشون في ديار نظيفة على الأقل، ديار بشرف على الشارع وحمامات بحوض استبراء ومغطس. بعدما وقع ما وقع ذهبت ميرتا لتعيش مع جدتي خوانا، أم ابي، وأنا اعيش الآن في دار جدتي بلانكا، ام ماما. الآن كادتا ان تتخاصما بسبب كفالتنا، ولكن لما تزوج بابا وماما اعترضتا على ذلك الزواج (أفكر الآن انهما ربما كانا على حق) وقطعتا علاقتهما بنا. أقول بنا لان بابا وماما تزوجا لما كنت انا في شهوري الستة الأولى. هذا حكوه لي في المدرسة ففرقعت انف بيطو، ولكن لما سألت ماما قالت لي ذلك صحيح. طيب، انا كانت عندي رغبة في ان اتكلم معك، لانك (لا أعرف ماذا ستفكر لما تسمع هذا) كنت مهما بالنسبة لي، والسبب بسيط وهو انك كنت مهما بالنسبة لماما. أنا احببتها كثيرا، طبعا، لكن اظن اني ما استطعت قط ان اقول لها ذلك. كنا دائما خائفين جدا، وما كان يبقى لنا وقت للحب.

لكن لما كانت هي لا تراني كنت انظر اليها وأحس لا اعرف بالضبط بماذا، بشيء مثل انفعال لم يكن شفقة، وإنما خليطا من الحب وكذلك الغيظ لاني اراها مازالت شابة وقريبة جدا من ان تكون عجوزا، ومقهورة جدا بسبب ذنب ليس ذنبها وعقاب لم تكن تستحقه. وأؤكد لك أن امي ــ أنت ربما عرفت هذا ــ كانت ذكية، وبهذه المناسبة اقول اظن انها كانت اذكى بكثير من ابي، وهذا بالنسبة لي كان هو الأسوأ : ان اعرف انها كانت ترى تلك الحياة الكريهة بعينيها مفتوحتين جيدا، ما قذر الفقر ولا الضرب ولا حتى الجوع على ان يخبلها. كان ذلك يحزنها، نعم. في بعض الأحيان كان يتكون حول عينيها تهجيج ازرق تقريبا، لكنها كانت تغضب لما أسألها مالها. كانت في الواقع تتصنع الغضب. ما رأيتها قط غاضبة على حقا. ولا على احد. لكن قبل ان تظهر انت كنت انا لاحظت انها تزداد غما، تزداد انطفاء تزداد وحدة. ربما بسبب هذا استطعت ان ألاحظ الفرق بوضوح. زيادة على ذلك جاءت متأخرة قليلا ذات ليلة (ولكن كانت دائما تجيء قبل بابا بكثير) ونظرت الي بطريقة مختلفة، جدا، الى درجة اني عرفت ان هناك شيئا يحدث. كأنها عرفت لأول مرة اني قادر على ان افهمها. عانقتني بقوة، بشبه خجل، ثم ابتسمت لي. اتتذكر انت ابتسامتها ؟ انا اتذكرها. نعم. أنا شغلني ذاك التغير جدا، الى درجة اني غبت مرتين او ثلاثا عن العمل (في الأيام الاخيرة كنت اعمل موزعا في مخزن) لاتبعها واعرف ماذا هناك. عندئذ رأيتكما. انت وهي. أنا فرحت كذلك. الناس يمكن ان يفكروا اني شرِّير، وربما كان غير جائز ان افرح لان امي كانت تخون ابي. يمكن ان يفكروا ذلك. ولهذا لا اقوله قط. انت شيء آخر. انت كنت تحبها. وكان ذلك بالنسبة لي كحظ. لانها كانت تستأهل ان يحبوها. انت كنت تحبها، اليس كذلك ؟ رأيتكما معا كثيرا وأنا متأكد من ذلك. احاول ان افهم بابا كذلك طبعا. ليس ذلك سهلا، لكنني احاول. ما استطعت قط ان اكرهه، افهمت ؟ ربما لانه ابي، رغم الشيء الذي عمله. لما كان يضربنا انا وميرتا او يهجم على ماما كنت في غمرة رعبي اشعر بالشفقة. الشفقة عليه وعليها وعلى ميرتا وعلى نفسي. احس بها الآن كذلك، الآن وقد قتل هو ماما ومن يدري كم سيبقى في السجن. في البداية لم يكن يريد ان ازوره، ولكن منذ اقرب من شهر وأنا ازوره في ميغيليتي وهو يقبل ان يراني. يبدو شيئا غريبا بالنسبة لي ان اراه طبيعيا، اعني دون ان اجده سكران. هو ينظر الى، وفي اغلبية الاحيان لا يقول لي شيئا. اظن انه لما يخرج لن يضربني. زيادة على ذلك، أنا سأكون رجلا، ربما أكون تزوجت، وربما يكون عندي اولاد كذلك. لكن أنا لن اضرب اولادي، ما رأيك ؟ زيادة على ذلك انا متأكد ان بابا لو ما كان سكران لما عمل ما عمل. اتظن انت العكس ؟ اتظن انه كان سيقتل ماما على كل حال ذاك المساء الذي تبعني فيه ليعاقبني فاكتشفكما اخيرا انتما الاثنين ؟ لا أظن. لاحظ انه ما مسك انت. لم يهجم على ماما الا بعد ذلك، لما شرب عرقا فوق الحد. انا اظن انه في ظروف اخرى، كان سيفهم ان ماما في حاجة الى حب، الى عطف، وأنه بالعكس ما اعطاها غير الضرب. لان ماما كانت طيبة، انت بلا شك تعرف ذلك جيدا، مثلي. لذلك لما اقتربت مني قبل قليل



وعرضت علي ان اتناول معك قهوة وخبزا محمصا، هنا، في نفس المقهى الذي كنت تلتقيها فيه، احسست انني يجب ان احكي لك كل هذا. ربما لم تكن انت تعرفه، أو كنت تعرف قليلا منه، لأن ماما كانت ساكوته وفوق كل شيء لم يكن يعجبها ان تتكلم عن نفسها. انا متأكد الآن اني عملت عملا مفيدا. لانك الآن تبكي، وبما ان ماما ميتة، فان بكاءك هو كجائزة لها هي التي ما بكت قط.

ترجمة : محمد العشيري

ـــ ماريو بينيديتي، اديب من الأوروغواي ولد عام 1920. يعيش حاليا منفيا في إسبانيا. يكتب الشعر والقصة والرواية والمقالة. له انتاج شعري غزير. من اعماله الروائية : الهدنة (1960) وعيد ميلاد خوان آنخيل (1971).

عن كتاب :

- LA MUERTE YOTRAS SORPRESAS. M. BENEDETTI. SIGLO XXI EDITORES MEXICO. 1979.

(1) نُنَبِّهُ القراء إلى أننا في هذه القصة (وفي قصص أخرى من هذه المختارات) تعمدنا أن نقترب من عاميتنا المغربية نظرا لأن المتكلم الوحيد فيها هو صبي لغته بسيطة قريبة من العامية الأوروغوايية (والحوار في القصص الأخرى عامي محلي غالبا) (المترجم)

خوان رولفو (المكسيك)

ألا تسمع نباح الكلاب ؟

ــ أنت الذي هناك فوق يا إغناثيو، قلّ لي اذا كنت تسمع علامة ما لشيء أو ترى ضوءا ما في مكان ما.

ــ لا أرى شيئا.

ــ قربنا الآن بلا شك

ــ نعم، ولكن أنا لا أسمع شيئا.

ــ انظر جيدا.

ــ لا أرى شيئا.

ــ يا لتعاستك يا إغناثيو !

واصل الظل الاسود للرجلين تحركه من الاعلى الى الاسفل، متسلقا الاحجار، متضائلا ناميا في تقدمه وضفة الجدول. كان ظلا وحيدا، متمايلا.

كان القمر خارجا من الأرض كقطعة لهب مستديرة.

ــ نحن الآن قربنا بلا شك من تلك القرية يا إغناثيو، أنت الذي لا يغطي شيء أذنيك، حاول أن تسمع هل الكلاب تنبح أم لا. تذكر أنهم قالوا لنا «طونايا» وراء الجبل، ونحن تركنا الجبل وراءنا قبل ساعات. تذكر يا إغناثيو.

ــ نعم، ولكن لا أرى علامة لشيء.

ــ بدأت أتعب

ــ نزلني

أخذ العجوز يتقهقر حتى مس الجدار المتهدم، وهناك أصلح وضع الحمل على كتفيه دون أن يطلقه. لم يكن يريد الجلوس، مع أن رجليه كانتا تنثنيان، لأنه بعد ذلك لن يستطيع أن يرفع جسم ابنه الذي ساعدوه على ان يلقيه على ظهره قبل ساعات، هناك في المكان الذي تركاه وراءهما. وهكذا جاء به منذئذ.

ــ كيف أنت ؟

ــ مهلوك

لم يكن يتكلم كثيرا. كلامه كان يزداد قلة بعد كل لحظة. تارة كان يبدو أنه نائم. وتارة أنه برد. كان يترعد. هو كان يعرف متى تمسك الرعدة بولده من خلال الهزات التي

تصيبه بها ولأن قدميه كانتا تدخلان في جانبيه كمهماز. بعدئذ كانت يدا الابن اللتان تحيطان عنقه تحركان رأسه كما لو كان جلجلا.

هو كان يضغط اسنانه كي لا يعض لسانه، وعند انتهاء ذلك كان يسأله :

ــ هل يؤلمك كثيرا ؟

فكان يجيب :

ــ قليلا

في البداية قال له : «نزلني هنا... خلني هنا... اذهب أنت وحدك. أنا الحق بك غدا أو لما أقوى قليلا». قال له هذا خمسين مرة تقريبا. الآن لم يعد يقول حتى هذا.

هناك كان القمر. قبالتهم. قمرا كبيرا أحمر يملأ بالضوء عيونهما ويمد ظلهما على الأرض ويزيد ظلامه.

كان هو يقول :

ــ لا أرى الطريق الآن

لكن لم يكن يجيبه أحد.

الآخر كان هناك فوق، مضاء كله بالقمر، ووجهه الذي فقد الدم واللون يعكس ضوءا قاتما. وكان هو هنا تحت.

ــ أسمعت يا إغناثيو ؟ قلت لك لا أرى جيدا.

والآخر كان يبقى ساكتا.

واصل المشي، وهو يعثر. كان يتقلص ثم ينتصب ليعود يعثر من جديد.

ــ هذا ما هو طريق بتاتا. قالوا لنا طونايا وراء الجبل. والجبل بقي وراءنا وطونايا لا نراها، ولا نسمع أي صوت يقول لنا هي قريبة. لماذا لا تريد أن تقول لي إنك ترى، أنت الذي هناك فوق، يا إغناثيو ؟

ــ نزلني يا أبي.

ــ أتحس بآلام ؟

ــ نعــم.

ــ سأذهب بك الى طونايا مهما كلفني الامر. هناك سأجد من يداويك. قالوا هناك طبيب. سآخذك اليه. جئت بك محمولا منذ ساعات ولن أتركك مرميا هنا ليقتلك أي كلب.

ترنح قليلا. خطى خطوتين جانبيتين أو ثلاثا وعاد الى الانتصاب.

ــ سأذهب بك الى طونايا.

ــ نزلني.

صوته صار خافتا، كان مهموسا فقط :

ــ أريد أن أرقد قليلا.

ــ ثم هناك فوق. أنا أقبضك الآن جيدا.

كان القمر يصعد أزرق تقريبا في سماء صافية. وجه العجوز الذي بله العرق امتلأ بالضوء. أغمض عينيه لكي لا ينظر أمامه، فهو لم يكن يستطيع ان يحني رأسه الممنوع من الحركة بين يدي ابنه.

ــ كل هذا الذي أعمله، لا أعمله من أجلكم، أعمله من أجل المرحومة أمكم، لأنكم كنتم ابنها، لذلك أعمله. هي كانت ستُعَيّرني لو كنت تركتكم مرميين هنالك، حيث وجدتكم، ولو لم ألمكم لآخذكم إلا حيث يداوونكم، كما أعمل الآن. إنها هي التي تشجعني، لا أنتم، أولا لأنكم ما اعطيتموني غير مشاكل خالصة، عذاب خالص، عار خالص.

كان يعرق أثناء الكلام. لكن ريح الليل كانت تيبس عرقه. وعلى العرق اليابس كان يعود يعرق.

ــ قد ينقصم ظهري، ولكن لابد أن أصل بكم الى طونايا، لكي يداووا تلك الجروح التي أصابوكم بها. أنا متأكد أنكم لما تحسون بالشفاء ستعودون الى خطواتكم المنحرفة. ذلك لا يهمني الآن. على أن تذهبوا بعيدا، حيث لن أعود الى سماع أخباركم، على أن تعملوا ذلك... لأنكم بالنسبة الي ما أنتم ابني الآن. أنا سخطت على دمي الذي يجري فيكم، المقدار الذي كان لي منه سخطت عليه، قلت : «ليعفن الدم الذي اعطيته أنا في كليتيه !» قلت هذا منذ أن عرفت أن أماكن حركتكم هي الطرقات، حيث تعيشون على السرقة وعلى قتل الناس... والناس الطيبين. والا، ها هو هناك صاحبي طرانكيلينو. الذي عمدكم أنتم. الذي سماكم. هو كذلك صادفة سوء الحظ بالتقائه بكم، منذئذ قلت : «هذا لا يمكن أن يكون ابني»

ــ انظر لعلك ترى الآن شيئا، أو تسمع شيئا، أنت الذي تستطيع أن تعمل ذلك من هناك فوق، لأني أحس أنني أصم.

ــ لا أرى شيئا.

ــ هذا أسوأ لك يا إغناثيو.

ــ أنا عطشان.

ــ اصبر ! لابد أننا قربنا. ولكن الظلام شديد ولابد أنهم أطفأوا الضوء في القرية. لكن يجب على الاقل أن تسمع هل تنبح الكلاب. حاول أن تسمع.

ــ أعطني الماء.

ــ هنا لا يوجد ماء. ما هنا غير الاحجار. اصبر. وحتى لو كان، لن أنزلك لتشرب ماء. لن يساعدني أحد على رفعك مرة أخرى، وأنا وحدي لا أقدر.

ــ أنا عطشان جدا، وأريد أن أنام.

ــ أتذكر لما ولدت. هكذا كنت في ذاك الوقت. كنت تفيق جوعان وتأكل لترجع الى النوم، وأمك كانت تعطيك الماء، لأنك كنت قضيت على حليبها، ماكان يكفيك شيء،

وكنت عنيفا جدا. ما فكرت قط أنك مع مرور الزمن سيطلع ذاك العنف الى رأسك... لكن هذا هو ما جري. أمك، الله يرحمها، كانت تريد أن تكبر قويا كانت تظن أنك لما تكبر ستكون عولها. ماكان عندها غيرك. الولد الآخر الذي كانت ستلده قتاها، وأنت كنت ستقتلها مرة أخرى لو كانت بقيت حية حتى هذا الوقت.

شعر أن ذاك الرجل الذي يحمله على كتفيه لم يعد يضغط ركبتيه وبدأ يرخي رجليه مأرجحا إياهما من جهة الى أخرى. وبدا له أن الرأس هناك فوق يهتز كما لو كان ينشج.

أحس أن نقطا كبيرة كأنها دموع تسقط على شعره.

ــ أتبكي يا إغناثيو ؟ ذكرى أمكم هي التي تجعلكم تبكون، أليس كذلك ؟ لكنكم ما عملتم قط أي شيء من أجلها، رددتم دائما جميلنا بالشر. كأننا عوض المحبة عمرنا جسمكم بالشر. وهل ترون ؟ الآن جرحوكم. ماذا جرى لاصحابكم ؟ قتلوهم كلهم، ولكن هم ما كان عندهم أهل. هم كان يمكن أن يقولوا : «ما عندنا أحد يتأسف علينا» وأنتم يا إغناثيو ؟

القرية كانت هناك الآن، رأى السقوف تلمع تحت ضوء القمر. غمره شعور بأن ثقل ابنه كان يسحقه لما أحس أن مأبضيه كانا ينثنيان في المجهود الاخير. لما وصل الى الدار الاولى، أتكأ على حظار الرصيف وأطلق الجسم الذي ارتخى كأنه فُكَّ.

حل بصعوبة الاصابع التي كان ابنه يمسك بها عنقه، ولما غدا متخلصا منه، سمع كيف أن الكلاب تنبح في كل مكان.

ــ وأنت لم تكن تسمعها يا إغناثيو ؟ ــ قال ــ ما ساعدتني حتى بهذا الأمل.

ترجمة محمد العشيري ــــــــــــــــــــــــ

ــ خوان رولفو، ولد في سايولا (المكسيك) عام 1918. لم ينشر سوى عملين أدبيين : «السهل يخترق» (قصص قصيرة 1953) و «بيدرو بارامو» (رواية 1955)، ومع ذلك فإن تأثيره على كثير من كبار أدباء أميركا اللاتينية لا ينكره أحد من هؤلاء الادباء.

عن كتاب :

- EL LLANO EN LLAMAS. JUAN RULFO. FONDO DE CULTURA ECONOMICA. MEXICO 1973.

غبرييل غرثيا ماركيث (كولومبيا)

أرملـــة مونتييـــــل

لما مات ضون خوسيه مونتييل شعر كل سكان البلدة انهم قد انتقموا، الا أرملته. ولكن مرت عدة ساعات قبل أن يصدق الجميع انه مات حقا. كثيرون منهم استمروا على شكهم بعد ان رأوا في غرفة الميت الجثة بمخدات واغطية كتانية داخل صندوق أصفر مقبب مثل بطيخة. كان محلوق الذقن جيدا، لابسا ثيابا بيضاء وجزمة مبرنقة، ووجهه جعل الذين رأوه يفكرون انه لم يبد قط حيا كما بدا آنئذ. كان هو ضون شيبي مونتييل نفسه الذي تعودوا ان يروه ايام الأحد مستمعا الى قداس الثامنة، الفرق هو انه كان يمسك بيديه مسيحا مصلوبا عوض السوط. لم يقتنع سكان البلدة بأنه ما كان يتصنع الموت حتى تمت لولبة غطاء التابوت وحوط في الضريح العائلي الفخم.

بعد الجنازة، الشيء الوحيد الذي بدا لكل السكان ــ باستثناء الأرملة ــ أنه لا يصدق هو كون خوسيه مونتييل قد مات موتا طبيعيا. بينما كان جميع هؤلاء ينتظرون ان يثقب ظهره بالرصاص في كمين، كانت ارملته متأكدة انها ستراه يموت على سريره شيخا، معترفا وبلا ألم، كقديس عصري. لم تغلط الا في بعض التفاصيل. مات خوسيه مونتييل في ارجوحة النوم ذات اربعاء في الثانية بعد الظهر، بسبب الغضب الذي منعه منه الطبيب. لكن زوجته كانت تنتظر كذلك ان تحضر البلدة كلها الجنازة، وأن تجعل الزهور الكثيرة المرسلة الدار تبدو صغيرة. ولكن لم يحضر سوى موالي النظام مثله والجمعيات الدينية، ولم تدخل الدار غير اكاليل الزهور التي ارسلها المجلس البلدي. أرسل ابنُها من مقر عمله القنصلي بألمانيا وابنتاها الاثنتان من باريس برقيات في ثلاث صفحات. كان بينا انهم كتبوها واقفين، بالمداد العمومي لمكتب البريد، وأنهم مزقوا اوراقا كثيرة قبل ان يتمكنوا من ايجاد 20 دولارا من الكلمات. ما قال احد منهم انه سيرجع. وفي تلك الليلة، بينما كانت ارملة مونتييل تبكي على المخدة التي كان الرجل الذي اسعدها يريح عليها رأسه، عرفت لأول مرة طعم الحقد، في الـ 62 من عمرها. كانت تفكر «سأنعزل الى الأبد». «الأمر بالنسبة الي هو كما لو كانوا جعلوني في صندوق خوسيه مونتييل نفسه. لا أريد ان يبقى اي رابط بيني وبين هذا العالم». كانت صادقة.

تلك المرأة الهشة ــ التي عذبها التطير والتي تزوجت في الـ 20 امتثالا لرغبة والديها بالرجل الوحيد الذي سمح لها برؤيته على مسافة اقرب من الـ 10 امتار ــ لم تكن قط على اتصال مباشر بالواقع. بعد ثلاثة ايام من اخراج جثة زوجها، ادركت من خلال الدموع انها

يجب ان تقاوم، ولكنها لم تتمكن من معرفة اتجاه حياتها الجديدة. كان لابد ان تنطلق من البداية.

كان يوجد بين الاسرار الكثيرة التي اخذها خوسيه مونتييل معه الى القبر سر تركيبة الخزينة. تكلف حاكم البلدة المشكلة. امر بوضع الصندوق في الفناء مسندا الى الجدار، وأطلق شرطيان النار ببندقيتيهما على قفله. وصلت طوال صباح بكامله الى سمع الأرملة الطلقات التي كانت صرخات حاكم البلدة تأمر بها، في دفعات متتابعة. «هذا هو ما كان ينقصنا»، فكرت. «خمس سنين وأنا أتوسل الى الله ان تكف الطلقات، والآن يجب ان اقبل شاكرة ان يطلقوا النار وسط داري» في ذلك اليوم بذلت مجهودا لتركيز ذهنها، منادية الموت، ولكن، ما اجابها احد. كانت قد بدأت تنام لما هز الدار من اساسها انفجار هائل. كانوا قد اضطروا الى نسف الخزينة بالديناميت.

أطلقت أرملة مونتييل زفرة. لم يكن اكتوبر بأمطاره المستنقعية يريد ان ينتهي وكانت هي تحس بالضياع في ابحارها بلا اتجاه وسط فوضى الثروة الفاحشة لخوسيه مونتييل. كان السيد كارميتشاييل الخادم القديم والنشيط للعائلة قد تولى شؤونها. لما واجهت أرملة مونتييل الواقع الحسي لموت زوجها اخيرا خرجت من حجرة النوم لتعتني بالدار. جردتها من كل زخرفة وأمرت بتغليف الأثاث بألوان محزنة، وجعلت اناشيط جنائزية في صور الميت المعلقة على الحيطان. في شهرين من العزلة كانت قد اكتسبت عادة قضم الأظفار. وذات يوم انتبهت ــ بعينين محمرتين منتفختين من كثرة البكاء ــ الى ان السيد كار ميتشاييل يدخل الدار بالمظلة مفتوحة.

ــ سد تلك المظلة ياسيد كار ميتشاييل ــ قالت له ــ بعد كل المصائب التي والتنا لم يكن ينقصنا غير ان تدخل انت بالمظلة مفتوحة.

ووضع السيد كار ميتشاييل المظلة في الركن. كان رجلا اسود عجوزا ذا بَشَرة لامعة ولباس ابيض وفتيحات صنعها بمدية في حذائه للتخفيف من ضغط الكَتَب.

ــ سأخليه هكذا حتى ييبس فقط.

ولأول مرة منذ ان مات زوجها فتحت الأرملة النافذة.

ــ ما كَفَتْ كل هذه المصائب، انضاف اليها هذا الشتاء كذلك ــ تمتمت، قاضمة اظفارها ــ. يظهر ان المطر لن يتوقف ابدا.

ــ لن يتوقف لا اليوم ولا غدا ــ قال المدير ــ. هذه الليلة ما خلاني الكتب انام.

كانت هي تثق بالتنبؤات الجوية لكتب السيد كار ميتشاييل. نظرت الى السويحة الموحشة والى الديار الصامتة التي لم تفتح ابوابها لمشاهدة جنازة خوسيه مونتييل، واحست

حينئذ باليأس بأظفارها واراضيها التي لا حدود لها والالتزامات التي لاتحصى والتي ورثتها عن زوجها ولن تتمكن ابدا من فهمها.

ــ العالم ارتكبت اخطاء في صناعته ــ قالت ناشجة.

الذين زاروها تلك الأيام دفعتهم تصرفاتها الى التفكير انها فقدت صوابها. لكنها لم تكن قط مفيقة كما كانت وقتئذ. منذ قبل بداية المذبحة السياسية وهي تقضي صباحات اكتوبر الحزينة قبالة نافذة حجرتها مشفقة على الموتى ومفكرة ان لو لم يسترح الله يوم الأحد لتمكن من اكمال صنع العالم.

ــ كان يجب عليه ان يستغل ذلك اليوم كي لا تبقى هذه الأشياء الكثيرة ناقصة ــ كانت تقول ــ في نهاية المطاف كانت الأبدية كلها قدامه ليستريح.

الفرق الوحيد بعد موت زوجها هو انها وقتئذ كان لديها سبب معين لتصور افكار كئيبة.

وهكذا بينما كان اليأس يهلك ارملة مونتييل، كان السيد كار ميتشاييل يحاول ان يتفادى الغرق. لم تكن الأمور تسير سيرا حسنا. بعد ان أصبح سكان البلدة ناجين من خطر خوسيه مونتييل الذي كان يحتكر التجارة المحلية بالارهاب، اخذوا يقومون بعمليات انتقامية. لم يجئ الزبناء المنتظرون، فراب الحليب اثناء الانتظار في جراره التي كانت تملأ الفناء، واختمر العسل في قرباته، وعمر الجبن بدود غليظ في خزانات المستودع المظلمة. في الضريح المزين بمصابيح كهربائية وملائكة من مادة تشبه الرخام، كان خوسيه مونتييل يؤدي عن ست سنين من الاغتيالات والتعسفات. لم يكن احد في تاريخ البلد قد غني الى تلك الدرجة في وقت قصير كذاك. لما وصل الى البلدة أول حاكم عينته الدكتاتورية، كان خوسيه مونتييل مؤيدا متعقلا لجميع الانظمة قضى نصف حياته لابسا كلسونا قاعدا في باب طحانة الرز التي يملكها. في وقت من الأوقات تمتع بسمعة اعتباره انسانا محظوظا ومؤمنا صادقا، لانه نذر بصوت عال ان يمنح الكنيسة تمثالا ل سان خوسيه في حجم طبيعي اذا ربح في اليانصيب، وبعد ذلك بأسبوع ربح ستة كسور فأوفى نذره. المرة الأولى التي شوهد فيها بحذاء في قدميه كانت وقت وصول الحاكم الجديد. كان هذا نائب شرطة اعسر خشنا جاء بأوامر صريحة لتصفية المعارضين. بدأ خوسيه مونتييل متحولا الى مخبره السري. ذاك التاجر البسيط ذو المزاج الهادئ ــ شأن السمان ــ الذي لم يكن يثير اي تخوف، قسم خصومه السياسيين الى اغنياء وفقراء. الفقراء ثقبوا بالرصاص في الساحة العمومية. والأغنياء اعطي اياهم اجل 24 ساعة ليغادروا البلدة. كان خوسيه مونتييل يخطط للمذبحة منزويا مع الحاكم نهارات بكاملها في مكتبه الخانق، بينما كانت زوجته تشفق على الموتى. عند مغادرة الحاكم المكتب كانت هي تقف في طريق زوجها.

ــ ذاك الرجل مجرم ــ كانت تقول ــ. استخدم نفوذك في الحكومة ليأخذوا هذا الحيوان الذي لن يبقي انسانا واحدا في البلدة.

كان خوسيه مونتييل مشغولا جدا ايامئذ، وكان يبعدها دون ان ينظر اليها قائلا : «لا تكوني مهبولة». لم تكن صفقته في الواقع هي موت الفقراء بل طرد الأغنياء. بعد ان كان الحاكم يثقب ابوابهم بالرصاص ويحدد لهم الأجل لمغادرة البلدة، كان خوسيه مونتييل يشتري اراضيهم ومواشيهم بثمن يتولى هو تحديده.

ــ لا تكن احمق ــ كانت زوجته تقول له ــ. ستفلس بسماعدتك اياهم وانقاذهم من الموت جوعا في مكان آخر، وهم لن يشكروا جميلك ابدا.

وكان خوسيه مونتييل الذي لم تكن اشغاله تسمح له حتى بالابتسام يبعدها عن طريقه قائلا :

ــ إذهبي الى مطبخك ولا يضايقيني هكذا.

على تلك الوتيرة صفيت المعارضة في اقل من عام، وغدا خوسيه مونتييل اغنى واقوى رجل في البلدة. أرسل ابنتيه الى باريس، وتمكن من الحصول على وظيفة قنصلية لابنه في ألمانيا، ثم تفرغ لتوطيد امبراطوريته. لكنه لم يتمكن من الاستمتاع بثروته الهائلة ستة اعوام كاملة.

بعد ان تمت الذكرى الأولى لموته لم تسمع الأرملة السلم يصر إلا تحت ثقل خبر سيئ. كان احدهم يجيء مساء دائما. «اللصوص مرة اخرى» كانوا يقولون. «البارحة ذهبوا بمجموع 50 عجلا». كانت ارملة مونتييل ساكنة في كرسيها الهزاز، قاضمة اظفارها، جاعلة من حقدها غذاءها.

ــ قلت لك هذا ياخوسيه مونتييل ــ كانت تقول، متكلمة وحدها ــ هذه بلدة كنود. انت مازلت ساخنا في قبرك وهاهم جميعا يديرون لنا ظهورهم.

ما رجع الى الدار احد. الآدمي الوحيد الذي رأته في تلك الشهور الطويلة طولا لا نهاية له التي لم يكف فيها المطر عن الهطل، هو المواظب السيد كار ميتشاييل الذي ما دخل قط الى الدار بالمظلة مسدودة. لم تكن الأمور تسير سيرا احسن. كان السيد كار ميتشاييل قد كتب عدة رسائل الى ولد خوسيه مونتييل. اوعز اليه بفائدة ان يجيء ليسير الأعمال بنفسه، بل انه وصل الى السماح لنفسه بالادلاء ببعض الملاحظات الشخصية حول صحة الأرملة. كانت الردود كلها مراوغة. اخيرا اجابه ولد خوسيه مونتييل بصراحة قائلا انه لا يجرؤ على العودة لخوفه من ان يثقبوه بطلقة رصاص. عندئذ صعد السيد كار ميتشاييل الى حجرة الأرملة واضطر الى الاعتراف لها بأن الافلاس لا مفر منه.

ــ أحسن ــ قالت هي ــ. لم اعد احتمل الجبن والذباب. خذ ما انت في حاجة اليه اذا اردت وخلني اموت في سلام.

الرابطة الوحيدة التي وصلتها بالعالم بعد ذلك هي الرسائل التي كانت تكتبها الى بنتيها في اواخر كل شهر. «هذه البلدة تحل بها اللعنة»، كانت تقول لهما. «ابقيا هناك نهائيا، ولا تخافا علي. أنا سعيدة وأنا أعرف انكما سعيدتان». كانت ابنتاها تتناوبان في الرد عليها. رسائلهما كانت دائما مرحة، كان بينا انها كتبت في اماكن فاترة ومضاءة جيدا، وان الفتاتين تريان نفسيهما منعكستين في مرايا كثيرة لما تتوقفان للتفكير. حتى هما لم تكونا تريدان العودة. «هذه هي الحضارة»، كانتا تقولان. «هناك، بالعكس، ليس وسطا مناسبا لنا. يستحيل ان نعيش في بلد متوحش يغتال فيه الناس لأسباب سياسية». كانت أرملة مونتييل وهي تقرأ الرسائل تشعر بأنها في حالة افضل وتستحسن كل جملة برأسها.

وفي ذات مرة تكلمت لها بنتاها عن اسواق اللحم بباريس. كانتا تقولان لها انهم هنالك يذبحون خنازير لونها متورد، ويعلقونها بكاملها في الأبواب مزينة بتيجان وأكاليل ازهار، في النهاية اضافت الرسالة بخط مختلف عن خط ابنتيها : «تصوري ان اكبر وأجمل قرنفولة يجعلونها في عجز الخنزير». ابتسمت ارملة مونتييل لأول مرة بعد عامين وهي تقرأ تلك الجملة. صعدت الى حجرتها دون ان تطفيء اضواء الدار، وقبل ان تنام حولت اتجاه المروحة الكهربائية نحو الحائط. بعد ذلك اخرجت من درج المنضدة مقصا واسطوانة ضماد ومسبحة، وضمدت ظفر الابهام الأيمن الذي هيجه القضم. ثم بدأت تصلي، لكنها بعد قليل بدلت المسبحة الى يدها اليسرى، لانها ما كانت تحس بالخرز عبر الضماد. سمعت للحظة رجة الرعد البعيد. بعدئذ نامت ورأسها محني على صدرها. تدحرجت يدها حاملة المسبحة على جنبها، وعندئذ رأت «الماما الكبيرة» في الفناء بغطاء ابيض ومشط في حجرها، وهي تقتل القمل بإبهامها. سألتها :

ــ متى اموت ؟

رفعت «الماما الكبيرة» رأسها.

ــ لما يبدأ دبيب التعب في ذراعك.

ترجمة : محمد العشيري

ــ هذه القصة القصيرة ظهرت ضمن مجموعة «جنازة الماما الكبيرة» (1962) وحولت الى فلم من طرف المخرج الشيلي المعروف ميغيل ليتين.

عن كتاب :

- TODOS LOS CUENTOS (1947-1972) G. GARCIA MARQUEZ.

PLAZA Y JANES, S.A. EDITORES. 1976.

أوغوسطو رووا باسطوس (الباراغواي)

الارض البـــور

كانا بلا وجه، العرق يقطر منهما والظلام يأكلهما. لم يكن هناك إلا خيالاهما الادميان بشكل غامض، الجسمان الممتصان في ظلهما. متشابهان ومع ذلك مختلفان جدا. أحدهما لا حياة فيه، ماش على مستوى الأرض بسلبية البراءة أو باللامبالاة المطلقة. الآخر مقوس لاهث بفعل مجهود جره بين الشجرات والزبل. كان من حين لحين يتوقف ليسترد أنفاسه. ثم يبدأ من جديد مقوسا أكثر عموده الفقري فوق حمله. رائحة المياه الراكدة للنهير لابد أنها كانت في كل مكان، الآن أكثر مع التتونة ذات الحلاوة المنفرة للارض البور التي تنتن بالصدإ وبراز الحيوانات، تلك الرائحة اللزجة بفعل الانذار برداءة الجو التي كان الرجل من حين لآخر يضربها بيده لينتزعها من وجهه. قطيعات من زجاج أو من معدن كانت تتصادم وسط العشب، وإن كان مؤكدا عدم امكانية أن يسمع أحد الاثنين ذاك الغناء الرقيق المواقت الطيفي. ولا ضجة المدينة الخافتة التي كان يبدو هناك أنها تهتز تحت الأرض. والذي يجر ربما كان يسمع فقط ذاك الصوت الرخو الخافت للجسم عند طفره على الارض وفحيح بقايا أوراق أو الضرب الخافت للحذاء على العلب والردم. أحيانا كان ظهر الآخر يعلق بالشجيرات الصلبة أو بحجر. عندئذ كان هو يفكه جارا إياه مغمغما صيحة غاضبة أو مطلقا مع كل جهد الها... الهوائية التي يطلقها الشحانون لما يرفعون الحمل المستعصي على المجهود الكتفي. كان بينا أنه يزداد ثقلا. ليس فقط بفعل تلك المقاومة السلبية التي تتوقف بالحواجز بعناد من حين لآخر. ربما كذلك بسبب خوفه هو والاشمئزاز أو العجلة الآخذة في نهش قواه، دافعة إياه الى الانتهاء بسرعة.

في البداية جره من الذراعين. لو لم تكن الليلة مظلمة الى ذاك الحد لأمكن أن يرى زوجا الايدي المشبوكة، نسخة سلبية من كليشيه يمثل عملية إنقاذ مقلوبة. لما علق الجسم من جديد، أمسك الساقين وأخذ يجره وهو يدير له ظهره ويحني جسمه حنيا الى الأمام ويرتكز بقوة على الحفر. أخذ رأس الآخر يهتز اهتزازا مسرورا، مغتبطا على مايبدو بالتغيير. بعثر مصباحا سيارة فجأة عند منعطف ضوءا ارتمى على شكل موجات على تلال الزبل وعلى العشب وعلى الأرض اللا مستوية. الذي كان يجر استلقى جنب الآخر. اكتسبا للحظة تحت تلك اللمسة الشاحبة شيئا من وجه، أحدهما كاب خائف، الآخر يكسوه تراب، وهو ينظر الى الاشياء لا متأثرا. عاد الظلام الى ازدرادهما بسرعة.

قام وواصل الجر قليلا، لكنهما كانا قد بلغا مكانا شجيراته أكثر ارتفاعا. أصلح وضعه على قدر استطاعته، غطاه بزبل وأغصان يابسة وردم. بدا أنه يريد فجأة حمايته من تلك الرائحة التي كانت تملأ الأرض البور أو من المطر الذي لن يتأخر سقوطه. توقف، أمر يده على جبهته التي يسقيها العرق، سعل وبزق بغيظ. آنئذ سمع ذاك الاستهلال الذي افزعه. كان يصعد ضعيفا مخنوقا من العشب، كما لو أن الآخر بدأ يشتكي ببكاء طفل حديث الولادة تحت ضريحه الزبلي.

هم بالهروب، لكنه توقف مبهورا بفعل الومضة الفوتغرافية لبرق قلع أيضا من الظلام الكتلة المعدنية للقنطرة، مريا إياه أنه لم يبتعد كثيرا. حتى رأسه مغلوبا. جثا واقترب وهو يشم تقريبا ذاك الاستهلال الرقيق المخنوق الملح. قرب الكومة كانت توجد حزمة مبيضة. ظل الرجل برهة طويلة لا يعرف ماذا يجب أن يعمل. قام ليذهب، خطا خطوات قليلة مترنحا، لكنه لم يستطع التقدم. الاستهلال كان الآن يجره. رجع شيئا فشيئا، باللمس، لاهثا. عاد الى الجثو وهو مازال مترددا. ثم مد يده. خشخش ورق الحزمة. وسط أوراق الجريدة كان شُكَيْل بشري يتخبط. أخذه الرجل بين ذراعيه. كانت حركته خرقاء نسية، حركة من لا يعرف ماذا يعمل ولكن على كل حال لا مفر له من أن يعمله. انتصب ببطء كما لو كان مشمئزا من حنان فجائي شبيه بالضياع الأشد، وبعد أن خلع سترته، دثر بها المخلوق المبلل المتباكي.

ابتعد بالاستهلال عن العشب، مضاعفا سرعته تدريجيا، جاريا تقريبا، واختفى في الظلام.

ترجمة : محمد العشيري

ـــ آوغوسطو رووا باسطوس. ولد في اسونثيون (الباراغواي) عام 1917. يعيش في المنفى منذ 1947. من أعماله : «ابن إنسان» (رواية 1960) و «أنا الأعلى» (رواية 1974) هو حاليا أستاذ اللغة الغوارانية (لغة هنود الباراغواي) بجامعة تولوز.

عـن كتاب :

- ANTOLOGIA PERSONAL. AUGUSTO ROA BASTOS.

EDITORIAL NUEVA IMAGEN. MEXICO 1980.

لويس بريتو غرثيا (فينيزويلا)

لست رجـل أعمـال

أستدعيت للوقوف أمامكم جميعا ايها السادة ومسبقا ارفض رفضا باتا كل جرم، كل ما هنالك هو اني لست رجل أعمال. أنا كنت افكر كيف افتح طريقي في الحياة وإذا بمستر غودوين يظهر قدامي فجأة ويعرض علي ان يمول لي حملة الانتخابات الرئاسية، أنا أسأل، وإذا انهزمنا، وحينئذ يوضحون لي لا يهم، حتى حملات المرشحين الآخرين يمولها مستر غودوين. وبعد ترقيتي الى هذا المنصب العالي من طرف مشيئة الشعب، يظهر لي مستر غودوين نهار التنصيب ويسألني ماذا انوي ان أعمل بالمناجم الهائلة الكائنة في الجمهورية، وأنا بماذا أجيبكم يا مستر غودوين الا بأني لست رجل اعمال. يقول لي مستر غودوين، لا يهم، أنا استغلها لكم، ولكن ــ وهذا من الضرورات ــ يستحسن ان تزودوني، لاسباب مرتبطة «النمو»، بالقروض اللازمة (بلا فائدة) داخل «خطة تشجيع الصناعة» وأشياء أخرى ستُرَكِّبونها فورا رغم انكم لستم رجل أعمال. ولكن من اين اخرج أنا المال لأعطيكم قروضا يا مستر غودوين، أسأل، فيجيبني، لا يهم، أن اسلفكم إياها، ولكن بالفوائد المناسبة لبلد في طريق النمو. اقول له بفرح شديد اتفقنا اتفقنا، آه، ولكن مستر غودوين يبدو عليه الحزن، يقول لي اني لا افهم، لا افهم، إن الأمر ليس سهلا، إن من المستحيل ان نعمل شيئا إذا لم يكن هناك جو مؤات للاستثمارات، أعني، اعفاء من الضرائب، اعني، سجونا، اعني، دبابات، اعني، طائرات، اعني، غواصات، اعني، مخبرين، اعني، جنرالات بُوسَيِّمات وأشياء من هذا القبيل، وأنا أقول له، ولكن كل هذا سيكلفكم ثمنا باهضا يا مستر غودوين، ولكن هو يجد الحل حالا، وهو ان اتحمل انا جميع المصاريف، وكيف، اقول له انا الذي لسْت رجل اعمال، فيقول مستر غودوين، انا أبيعكم بعض فضالات من كل تلك الاشياء، ولكن بأية ريالات أشتريها منكم، بسهولة، يقول، أنا أسلفكم إياها، ولكن بفوائد مناسبة.

تلك المنن تستأهل طبعا تخفيضات خاصة في الضرائب وإعفاءات في تعريفات الايراد ودخول حر لكل الأشياء التي يبيعنا اياها مستر غودوين، ورغم هذا، مسكين مستر غودوين، في نهاية العام يجب الا نقبض اية ضريبة من شركاته لان هذه تبيع معدات المناجم بثمن اقل من كلفتها لمستر غودوين نفسه، وهكذا، لتفادي الافلاس، تخفيضات اخرى، اعفاءات اخرى، قروضا أخرى، جو ثقة للاستثمارات، ولتسديد كل ذلك لابد ان ترفع الضرائب وأن تباع للاجانب الأراضي الجبال البحيرات الديار الرجال الأطفال السماوات الماء الأسماك الأنهار البحار الغابات الصخور الاجواء الطيور وينتشر الجوع والطاعون ويحتج الشعب ويقع هرج

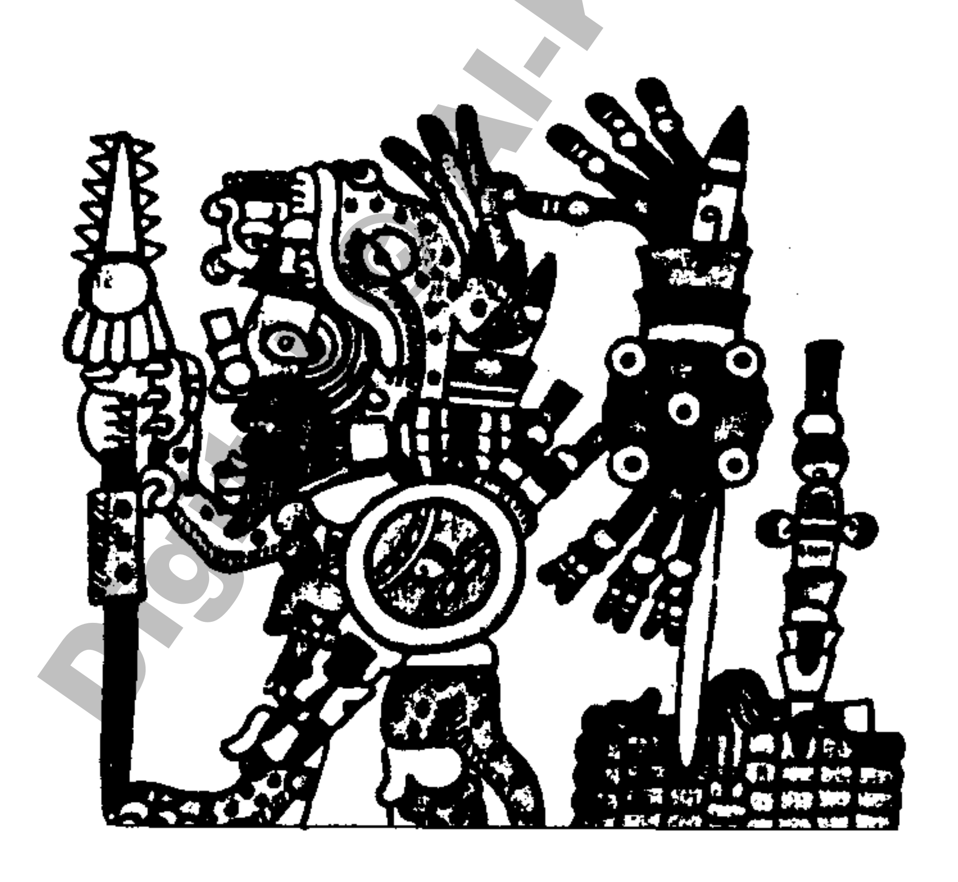
ومرج وتجيء الثورة، وأؤخذ لاقف امام هذه المحكمة العليا وكيف استطيع ان افسر لكم، كيف استطيع ان اقنعكم ان المسألة ليست راجعة الى سوء نية، ان ما يجري هو اني — ببساطة — لست رجل اعمال

ترجمة م. العشيري

ــ لويس بريتو غرثيا. ولد عام 1940 في كاراكاس. من أعماله : الهاربون (قصص، 1964). فاز بجائزة «كاسا دي لاس اميركاس» سنة 1970.

عن كتاب :

RAJATABLA. LUIS BRITTO GARCIA. SIGLO VEINTIUNO EDITORES. MEXICO, 1971



روخيليو سينان (باناما)

الضحية الوحيدة للثورة( )

ــ لا يا ماما، أنا أقرأ.

يوجد فعلا كتاب بين يدي، لكني لا أقرأ. أحلم فقط. أحب أن أشرد. أن أتصور أشياء. مثالا : أني نجمة سينما. البطلة جارية على حصان في الغابة. يطاردها المتوحشون. يقترب منها فجأة حبشي ضليع، عار، ذو بشرة لامعة سوداء. السود يعجبونني. أتمنى أن أكون غريتا غاربو. تتقن أدوارها. أين شاهدتها ؟ هذه الليلة أفضل الذهاب الى السينما. أذهب غدا...

ــ ألا تلبسين ثيابك يالاوريتا ؟

ــ الآن يا ماما.

أحلم، لا أعمل شيئا آخر. لو كان الأمر سهلا لكتبت أحلامي. قال لي أحدهم يوما إننا لكي نكتب كتابا لا نحتاج الا الى قلم وورقة. لو كان هذا صحيحا... من كان يقول لي هذه الاشياء ؟ أظن أن ذلك حدث في دار المعلمين. عندك ذهن تحليلي. كان يرقص جيدا. رغم كبره كان يعجبني قليلا، لكن أمير الاحلام لم يكن في ذلك الوقت يفارق أحلامي. الواقع اليوم شيء آخر مختلف جدا. في ذلك الوقت كان بابا حيا وكان عندنا ما نعيش به بأحسن طريقة ممكنة. كم الساعة الآن ؟ العجب، أظن أن الظلام بدأ ينزل. ربما يصل ذاك ولا يجدني متجهزة. أقول له أن ينتظرني. الشيوخ يجب أن ينتظروا.

سأكون له بالسيف لا بدافع الحب. اللعنة على الفقر ! بعض الناس عندهم كل شيء وبعضهم ما عندهم شيء. ما عدت أحتمل هذا. أريد التغيير. كثيرات عملن هذا على كل حال. وماذا جرى ؟ الا يمشين في الشوارع فخورات جدا ؟ على الأقل سيكون عندي بعض المال. على جسمي العاجي سيسقط مطر من ذهب. جوبيتار وداناي. أعيش في بيلا كبيرة وأذهب الى السينما كلما أردت ذلك.

بعد قليل أبدأ مغامرتي الاولى. الأمر يبدو شيئا سينمائيا. أصحيح يالاوريتا أنك تريدين أن تضحي من أجل عائلتك ؟ ألا تحرك عقدك الخفية ؟ من يدري... من السهل أن تكوني عفيفة والمال موجود، إذا لم يكن موجودا، لابد من التنازل.

ــ الآن يا ماما.

( ) هذه القصة أرسلها إلينا المؤلف ضمن مجموعة من أعماله.

يمنحونك رتبة معلمة ويعطونك منصبا اذا عملت ما يريدونه منك، أما إذا لم تعملي ذلك فلا. أوغاد ! ما بقي غير أن أقرر. أن أرمي بالاخلاق ورائي وأتسلح ببعض الوقاحة. نعم ياعزيزتي لاورا. جسمك جميل. أنت مليحة. لحسن الحظ ستكون في محفظتك رزمة غليظة من الاوراق البنكية، ستكون عندك ثياب فاخرة وأحذية أنيقة والجواهر التي تختارينها...

لو تركت ذهني يشرد من يدري الى أين يأخذني. لأني متعددة. واحدة وألف في نفس الوقت. ما أنا قط المرأة نفسها. ومع ذلك، أنا دائما تامة في كل لحظة من حياتي. اليوم أنا امرأة وغدا أكون امرأة أخرى. سيجيء يوم أكون فيه متعبة وألتفت الى الوراء كامرأة لوط وأتحول الى تمثال من ملح. أقصد لما أنظر الى الطريق الذي قطعته وأقرر. ماذا ؟

تخيل خالص. مازلت هنا مضطجعة تماما وضون بيبي سيجيء الآن. أيكون مؤدبا ؟ المال يعمل كل شيء. هناك في المدرسة كنت أحسن حالا مما أنا الآن. لم أكن في حاجة الى التفكير في هذه الأشياء. كنت طاهرة، بسيطة. ومع ذلك، لما قرأت «نانا» أحسست أني عاهرة. أتمنى أن أعيش حياة نساء الموانيء. البحارة يقبلون ويرحلون. ليتني كنت بحارا...

تقمصت شخصيات كثيرة في تلك الفترة. أميرة أسطورة. غريتا غاربو. نانا... ذهني المجنون كان يلذذني جاعلا إياي أعيش بأوهام. الأشياء المجردة كانت بالنسبة لي صحيحة دائما، أكثر واقعية من الاشياء العادية. أكان واقعي أنا موجودا الى جانب تلك الاوهام الرائعة ؟ لو ما كان موجودا. لو ما هو موجود. لو لم تكوني أنت ياعزيزتي لاورا مضطرة الى تسليم جسمك اليوم ــ جسمك الاهيف هيفا ذي النهدين المنتفخين ــ لرائل عجوز لن يعرف قيمته. طيب، اللعنة ! على الاقل سنتمتع بالسينما. سنغير حياتنا...

إذا استمررت في هذا الغم أجن.

طيب يا ضنون بيبي، كم تعطي ؟ ألف دولار ؟ ألفين ؟ مليونا ؟ الهرم المغازل ! لأنه سياسي فقط. اللص ! وأخي أرسله الى الخارج ليصلح لشيء. أسمعت يابيدرو ؟ أنت تشرب فقط، لا تعمل شيئا آخر. أين يجد المال ؟ إذا استمر هكذا يضيع. أنت عارف ياضون بيبي، أخي أريد أن أرسله الى فرنسا. وظيفة في القنصلية ؟ لا، منحة دراسية أحسن.

ــ الآن يا ماما !

مسكينة ! يقلقني ذاك السعال. طبعا ! بما أنها تهلك نفسها بالعمل. لو عرفت ياماما كيف أحبك. لما يجيء المال أعتني بك اعتناء كبيرا جدا جدا. كم الساعة ؟ البارحة جاء بيدرو سكران. كيف هي هذه الحياة ! لماذا تشكين يالاورا وأنت بنفسك ــ قل الحق ! ــ لحق بك العام وأنت تشربين ؟ لما كنت ترقصين (كم كان رقص تيتو جيدا !) كان كل شيء حولك يدور. النزهة في «لاس صاباناص» أعادت الي لحسن الحظ قليلا من صوابي. واسمع ياتيتو، يجب أن أقول لك هذا، هذه ما هي الطريقة التي تعامل بها الفتيات. اضبط يديك قليلا.

طيب، على كل حال... لو كنت جريئة أكثر، صريحة أكثر... أسلم نفسي للذي أيقظ غرائزي.: لايهم من ... أسود أو أبيض... لو ما كانت الاحكام السبقية الغبية تستعبدنا جاعلة إيانا نعيش وراء أقنعة... يالروعة الحياة في المدن العصرية ! واسمع ياضون بيبي، اطلب ما تريده، ولكن لا تنس الرحلة... الله ! أنا أرى نفسي في الباخرة، كل الركاب ينظرون الي. يالاناقة هذه الفتاة ! أهي كوبية ؟ لا ياسيدي. بانامية ! ويقع في حبي شاب مليونير (لاشك أنه روائي) أخبار المجتمع : البارحة تم عقد قران... لا ! لا ! شطب هذا ! «تزوج البارحة الوارث المشهور فلان الفلاني الميس لاورا ماكدونال نجمة المترو ـــ غولدوين ـــ ماير المعروفة».

لا تكوني حمقاء يالاوريتا. اليوم تخطين أجد خطوة في حياتك وأنت تخلين ذهنك يلعب لعبه المعتاد. أستعيشين بالاوهام الى الأبد ؟ حمقاء ! في التاسعة يجيء ذاك الرجل وربما يجدك مازلت لابسة البيجامة. طيب يابنت، الى الحمام ! لحم طري لذاك الخنزير. مؤسف، ولكن لابد من ذلك. طيب، قم وامش، قال المسيح، أقوم فعلا. وحركة قيامي نحو هدف مصير مشؤوم، أليس مثل رمز ؟ أنت خرجت من الموت يالازارو المسكين، لتدخل الحياة، أتكون حالتي كهذه ؟ لا، أنا أنزل من الحياة الى الموت. لماذا أفكر كثيرا ؟ قلت الى الحمام ! قدماي الخفيفتا الحركة تدخلان الخفين. جسمي الاهيف ينتصب. فوطة. الصابون ؟ هاهو. تمش. لما يكون عندي المال سيكون حمامي من رخام، أو لما يكون عندي الرخام سأتمتع باستحمامات من ذهب. كيف سيكون ذلك ؟

ـــ اسمعي ياماما، باب الحمام لابد أن نصلحه. أكاد أرى من الخارج عارية.

الماء لذيذ. نسيت أن أرى كم الساعة. إذا جاء ضون بيبي لن يجدني لابسة ثيابي. يجلس وينتظر. الشيوخ صبارون في لعبة الحب. وإن كان الرجل غير مفرط الشيخوخة على كل حال... غسل النهدين بالصابون لذيذ. تزلق اليدان عليهما بنعومة. هذا النهد يؤلمني قليلا. طبعا ! بسبب ما وقع البارحة. ومع ذلك، طاهرة. الاشياء التي يستطيع أن يعملها الذهب. كم ليلة انتظرت في مضجع العذرية ـــ مضجع العذراء الشهيدة ـــ الشيء الذي لم يصل قط. كم مرة رأيت شبانا تغيرت وجوههم بفعل الاحتكاك بنهدي المنتفخين. مداعباتهم كشفت لي متعا مجهولة. ومع ذلك ظللت طاهرة. الآن، العكس، يجيء سيد، سياسي، يعرض علي ألف شيء وأنا أقبل. المال يستطيع أن يعمل كل شيء. طيب، انتهيت. الآن، لأخرج وألبس ثيابي. اليوم، أول يناير، تتغير حياتك يالاوريتا. الازدهار يبدأ غدا. أخرج من الحمام. لأر كم الساعة. العجب، ستكون التاسعة الآن ! اذا جاء يرعبني ! اجرى، اجرى، والبسي ثيابك يابنت ! سدي الباب الآن. يمكن أن يجيء أخوك ويجدك عارية. لما جاء خورخي تلك المرة يفتش عني. كيف خجلت ! هو كان داخلا وأنا كنت خارجة من الحمام عارية تماما. كدت ألا أذهب الى حفلة الرقص... والآن وأنا هنا قبالة المرآة، كما كنت آنئذ، أتصور الشيء الذي يمكن أن يكون قاله.

اليوم ألبس كسوة البارحة نفسها. أيذهب بي الى الرقص ؟ الى الـ Kelly's، طبعا ! تشربين بيرة أم ويسكيا ؟ لا، شامبانيا. إذا رآني أخي يقلب كل شيء على رأسي. وقعت البارحة فضيحة كبيرة في خمارة. «الصحافي الشاب بيدرو غيرا أطلق الرصاص على زعيم الحركة، الخ...» لكن هذا لن يحدث. بيدرو لا مبال. ربما كان يرقص في الـ Kelly's. أين يجد المال ؟ لا، لاشك أن أخي الطيب يسكر الآن في بار رخيص. لا يعمل شيئا غير ذلك... الجوربان في حالة جيدة. البارحة لبستهما لأول مرة. عندي ساقان جميلتان، بلاشك. الآن البس الـ BLOOMERS . بقيت خمسة أيام لذلك. أو ربما أسبوع. أعندي Kotex ؟ نعم، عندي. اسمع ياضون بيبي، اليوم لا، لا يمكن. أنت عارف. يالالأسف ! أو أقول له (أحسن) : «أنا أحب ياضون بيبي. افهمني. أحبه وهو يحبني» لا تخافي يا آنسة. تزوجي وكوني سعيدة، خذي : ألف دولار. ألفين. خذي ما تحتاجين اليه... الآن ألبس الكسوة.

ــ أناديتني، ماما ؟... نعم ؟ ... وصل ؟ ... طيب ... قولي له أن ينتظر ...

أتزين قليلا وأخرج. انتهى الروج. والعطر ؟ مازال عندي قليل منه. أنا متجهزة الآن. طيب، وداعا. الى الحياة الجديدة. وداعا سرير العذرية، شهادتي، كتبي البالية، وداعا.

ــ كيف أنت ياماما ؟ ما رأيك ؟ ولكن، ماذا جرى لك ؟

ــ أنا خائفة على أخيك. جاء وأخذ معه البندقية.

ــ البندقية ؟ ولماذا ؟

ــ ما عرفت. بما أنه ينتمي الى «الفعل الجماعي»...

ــ لا تخافي ياماما. ربما أخذها ليبيعها. نعم ! نعم ! أظن أنه قال لي سيبيع البندقية. طيب وداعا !

ــ الله يحفظك. بسرعة !

ــ اذا جاء تيتو قولي له ذهبت الى السينما...

ــ لا تجري (متى يدخلون الضوء في الدهليز ؟) لا تتأخري.

ــ طيب، وداعا... كيف أنت، ضون بيبي ؟ (لماذا يضغط على يدي هكذا ؟)

ــ أنا بألف خير إذا كنت معك ياأوريتا.

ــ ... (لماذا ينظر الي هكذا ؟) وأنا، تصور... ياالاناقة هذه الـ roadster ! من أي نوع هي ؟

ــ كريزلير، لكن أنت تستأهلين شيئا أحسن.

(أتصرف كأني ما سمعت شيئا) آه، لم أنتبه ! كل الجارات ينظرن الي. ياللغيظ ! أخت روساورا هناك في شباكها. تخرج الأم. ماذا تقول لها ؟ والناس كثيرون هناك فوق ! فضوليات ! ينطلق لحسن الحظ... وإذا أرادوا أن يعرفوا ذلك ليعرفوا. حسد. حسد خالص.

عندما أسوق أنا سيارتي الكريزلير سيقتلهن الغيظ. يسوق جيدا على كل حال. كيف هو الهواء منعش ! الى أين سنذهب ؟

ــ عندي لك خبر مفرح يالاوريتا...

ــ (لماذا يمسك ذراعي ؟)

ــ ... أنا وجدت ...

ــ انتبه ياضون بيبيتو ! رد بالك الى السيارة !

ــ ... وظيفة خالية لأخيك.

ــ (أنا أفضل منحة دراسية. فيما بعد). ممتاز ! ستكون هدية رأس سنة جيدة.

ــ قولي له أن يذهب الى مكتبي غدا.

خرجنا الى أبينيدا ثينطرال. كم هم الناس كثيرون ! نساء أسرة رودريغيث هناك. ما رأتني أية واحدة منهن. أحسن. مازالت هناك حفلات رقص اليوم. يحيي. من ؟ سيدات في سيارة. لماذا يتسمن هكذا ؟ ليذهبن الى الجحيم ! توقفت الكريزلير. شرطي المرور يشير بيديه. يصفر. يصفر مرة أخرى. ماذا جرى ؟ نواصل السير. الناس يخرجون من ــ ويدخلون الى ــ الحوانيت. بيجامات عجيبة ! تشبه تماما تلك التي جعلتها «ضورا» في الاقتراع. ربح الرقم 51. أنا كان عندي الـ 32. كان بعيدا. لما يكون عندي مال أشري واحدة. الكريزلير دخلت شارعا ضيقا. كيف هو مظلم ! غرف للاكراء. دولار واحد. أيكون هذا هو المكان الذي يجيئون اليه بـ «أنا مارية» ؟ لا، لا، لاشك أنهم يذهبون بها الى الانطيرناثيونال. وأنا، الى أين ؟ ضون بيبيتو عنده غارصونيير بلا شك.

دخلنا الى الـ RITZ. ضون بيبيتو يسوق جيدا. دخل السيارة ووقفها ببراعة مع أن الأمر صعب لأن الفناء عامر. يقترب نادل. آبنوس خالص لافريقيا البعيدة. تعجبني هذه الاغنية. من كان يغنيها ؟ يعزف على القيثارة جيدا. من أفريقيا أو من آسيا ؟

ــ ماذا نشرب يا لاوريتا ؟

ــ (يريد أن يسكرني. فهمت) اطلب أنت. أنا لا أعرف ماذا أطلب.

ــ زوج كوكتيلات شنغهاي

يستدير النادل ويبتعد. هناك سيارات أخرى كثيرة. ناس يتسلون. فتيات مع خطبائهن. لكن الوجوه لا تميز. يظهر أن الظليل متعمد.

ــ هذا مكان ممتاز، لا أحد يضايق يمكن أن نرقص فيما بعد اذا أردت.

أيرقصني هنا في الخمارة ؟ لا غرابة أن يعمل هو ذلك. ربما يذهب بي الى ماخور. من يدري كم مخبأ يعرف.

جاء الدكتور نبيطو في سيارة أخرى. مع من ؟ ما تمكنت من أن أراها جيدا. رجل انتيلي عملاق يقطع رؤوس مجموعة من الديوك. النُّدُل الاخرون يقهقهون لما يرون كيف تتلوى

الحيوانات المسكينة. أحيانا يسقط الساطور سقوطا خاطئا. فيطلق الديك المسكين زعقات تثير اعصابي. يجعلها النادل على خشبة ويقطع رؤوسها بضربة واحدة، ثم يرمي الأجسام بلا رؤوس في برميل. الدم ينطلق انطلاقا شؤبوبيا. كيف هو الدم كثير ياربي !

آه، أخيرا جاءوا بالكوكتيلين. يأخذ ضون بيبيتو واحدا ويقدمه لي. أي خليط هذا ؟

ــ اشربي يالاوريتا، اشربي. لا تفكري كثيرا. هذا سيىء.

بجرعة واحدة يتوارى ما في كأسه. ينادي الـ Waiter من جديد.

ــ اثنتين اخريين

ــ لا، لا، يكفي. لماذا كل هذه الكؤوس.

النادل يبتعد بالطلب

ــ اذا كنت تبغين أن تغيري حياتك يجب عليك أن تقرري. أنت عارفة، أنت تعجبينني... تعجبينني لأنك شابة، لأنك جميلة.. يكفي !

شربت كأسي. أنا عازمة. سأكبح ضميري مكممة وساويسي الاخيرة. لا أريد أن يستعبد ذهني بأصول وأحكام سبقية. أريد أن أعيش حياتي متمتعة كما ينبغي، بلا فقر، بلا جوع.

ــ معي يكون عندك كل شيء، كل ما تبغينه... ثياب، سيارة، دار أنيقة، رحلات... يمكن لك أن تعيشي مطمئنة، ولن تحتاجي الى عمل...

كوكتيلات أخرى. يشرب في صحتي. أغمزه. ابتسم. أريد أن أسكر. الكوكتيلات الاخرى خنقت وجهي. أحس أني أكثر مرحا.

ــ نعم يا ضون بيبي ... أريد أن أتمتع... كوكتيلات أخرى !

أسمع الجوقة. تعزف تانغوا. يشبه تانغو البارحة.

ــ لا! لا! أتوسل اليك ! لا تبسني ! سيروننا.

ــ أحبك ! أنت عارفة يالاوريتا !

(لماذا يضغط علي هكذا ؟) يرجع الـ Waiter . يسمع طلب كوكتيلات أخرى. يذهب.

ــ في اي شيء تفكرين يالاوريتا ؟

ــ (بدأ يرفع الكلفة. هذا سيىء.)

ــ لا أفكر في شيء... أفكر فيك ياضون بيبي...

(يعانقني بقوة. يضغط علي).

ــ لا تعامليني بـ ضون. أكره ذلك. قولي لي أنت فقط. قولي لي بيبي.

ــ لا تبسني، أرجوك. سيروننا.

ــ أتحسين بوعكة ؟ اشربي آخر. سنذهب الآن. أتريدين أن ترقصي ؟

يعزفون موسيقى أفريقية كوبية. أشعر بإيقاعات قديمة.

ــ هيـا !

أخرج من السيارة. رأسي يدور. الهواء بارد لحسن الحظ. هو يقترب مني. (قولي لي بيبي يالاورا) أتكيء على ذراعه. أأكون سكرانة ؟ نمشي نحو الصالون. تملأني رغبة جنونية في ان أضحك أو أبكي. ياللمتاهة ! الصالون غارق في الظليل لحسن الحظ. نرقص. العزف ممتاز ! لذيذ ! ...Si te quieres الناس كثيرون ! ...por el pico ... يرقص جيدا ! ...divertir ... ما هذا التصرف ؟ ...maniii ...[1] كيف يضغط علي ! مع من هي ضورا سميت ؟ تشبهني. نعم، نعم... مع المدير. كنت أتوقع ذلك. انتهت أغنية «بائع فستق العبيد».

ــ أنجلس ؟ (أشعر بتحسن)

ــ كما تبغين... رقصك ممتاز يالاوريتا.

ــ (ما كنت في حاجة الى الثناء) أحيانا فقط. لما يكون مرافقي بارعا (اِلْتَقِطْ هذا التلميح في الهواء إذا لم تكن غبيا).

الشامبانيا متجهزة الآن. ينزع النادل سدادة الزجاجة دون أن يحدث الفرقعة الضرورية. الغبي ! أنا أفضل الفرقعة المعتادة. جلس قريبا جدا مني. يشرب النخب معي.

ــ لنشرب... في صحة العام الذي يبدأ الآن !

ــ (باللضجيج !) في صحته !

ــ ولكن يالاورا، مالك ؟ افرحي !

هو على حق. يجب أن افرح هذه الليلة. الغد اثنان يناير... حياة جديدة، فرح، ترف، متع.

ــ اصبر ياضون بيبي. افهمني ! كل هذا يبدو لي مفاجئا ولا معقولا للغاية... تصور نفسك في موضعي... هكذا فجأة... يخيل الي أني أسقط في هاوية... زيادة على ذلك، هذا الضجيج، الموسيقى... الاضواء... الناس... (اسكتي الآن يالاوريتا، أنت سكرانة وتتكلمين بلا سبب !)

ــ هذا هو الشيء الذي يعجبني ! لما تتكلمين تكونين أجمل ... ولكن لا تحزني... لأنك عندئذ لا تكونين جميلة...

(1) تقول الاغنية ما معناه : إذا أردت أن تتسلى من فمك، كل فستق العبيد.

فالس آخر ؟ تعجبني الفالسات. لا أرقص على موسيقاها، لكن أحب سماعها. أين سمعت هذا الفالس ؟ أنا في فيينا... فتيات وتلاميذ بحرية يدورون وهم يغنون أغنية حب... لاوريتا، الارشيدوق يريد أن يرقص معك. شكرا جزيلا، لا أرقص.. أحس بثقل في جسمي.

ــ الحياة جميلة يالاورا... كؤيس أخرى... أنرقص ؟

ــ لا أدري... نشرب أحسن...

ماذا وقع في الباب ؟ رجل يصرخ. هو سكران تماما بلاشك. يدفعونه. يصيحون. يقترب شرطي مصفرا.

يجيء أحدهم الى الطاولة ويتكلم مع ضون بيبيتو. ماذا يقول ؟

ــ كيف ؟ ثورة ؟ لا يارجل، ولكن هذا الشعب وديع.

ضجيج كثير ! يؤلمني رأسي. من يكون ذاك الذي يصرخ في الخمارة ؟ أغنية «بائع فستق العبيد» من جديد. طراق، طراق. سقطت كأس. من رماها ؟ أحس بضيق شديد ! جلس ضون بيبيتو جنبي...

ــ طيب يالاورا، كأس أخرى ... الاخيرة ونذهب ... اشربي ! اشربي !

ما أشد رغبتي في النوم ! لما تكون عندي داري أنام النهار كله. كم الساعة الآن ؟ لا أستطيع، لا أستطيع أن أقف. يساعدني ضون بيبيتو. الحمد لله، خرجنا. لماذا يضغط علي هكذا ؟ ...Manicero se va (1) آه كدت أسقط. والآن لماذا يطلقني ؟ كنت أتوقع ذلك. برودة لذيذة ! أتنفس. ذهبت السيارات الآن ...Luna, Lunita (2) أين أذهب لاصيف ؟ سفر سعيد... «نهنيء الآنسة الجميلة...» الآنسة رائحة ؟ مطبخ. لا يارجل، هي عشيقة ضون بيبي. الشقية ! يالالاسف ! استهانت بالارشيدوق من أجل ذاك العجوز الغبي. طيب، كلهن يعملن الشيء نفسه على كل حال...

ــ احذري ! خليني أفتح لك الباب

ــ (متى يهديني الكريزلير ؟) الله ! أنا في حالة سيئة جدا... آه! ... الخليط آذاني... آه ! ... أشعر بالغثيان...

ــ لاتخافي يالاورا.

ــ منديلي... أين يمكن أن أكون خبأته ؟

ــ خذي منديلي أنا.

ــ (ياللرائحة الزكية !) ألف شكر يا ضون بيبي. ياللعار !

---

(1) بائع فستق العبيد ذاهب ...

(2) ياقمر، يا قمير...

ــ ما وقع بأس. اركبي. سترين... النسيم سيجعلك تشعرين بتحسن...

يسد الباب. يشعل المحرك. تنطلق السيارة. يالبرودة الهواء ! الى أين سنذهب ؟ أدخل ذراعه ورائي. يضغط علي من جديد. إذا استمر يقبلني سننقلب. آخر خبر. حادثة سير مفجعة، الخ... لماذا يستمرون في قطع رؤوس الديوك ؟ الدم كثير ياربي ! من أين نحن ذاهبون ؟ لا أتذكر هذه الاشجار. الوقت متأخر جدا بلاشك. رأسي يدور. أريد أن أنام. أسند اليه رأسي. ما ألذ النسيم ! استمطر ؟ ــ لا ياسيدتي، الرطوبة التي تحسين بها هي لهواء البحر... كيف هي الأمواج كبيرة ! أنا في مقدم السفينة. ما أقوى هذه الرياح ! كيف تصفر ! يمكن أن تغرق السفينة... ــ يا آنسة، أقدم لك الروائي سينكلير. ــ أوه، متشرفة... ــ آأنت مسافرة الى كاليفورنيا يالاوريتا ؟... ــ طبعا ! ياروائيي العزيز أنت تعرف جيدا أن لي عقدا تمثيل دور في انتاج ضخم لشركة المترو... ــ نعم، طبعا، هو شريط عن الثورة... أجئت بالبندقية ؟ ــ أظن أني لن أحتاج اليها. أنت تعرف جيدا أن هذا الشعب وديع. البرد ! تسمع صفارات الانذار. ماذا جرى ؟ كل الناس يجرون وهم يصرخون. يطلون من جانب السفينة. الاجراس تنذر بالخطر. ماذا يمكن أن يكون قد جرى ؟ فتاة سقطت في البحر ــ تصور، كانت هذا الصباح تقتل ديوكا والآن أرادت أن تسبح. مصيبة !... كانت ضحت من أجل ذويها. الذنب ذنب الأخ. انظر، هاهم جاءوا بها !... نعم ياضون بيبي، لا تخف... يمكن لك أن تعريها... نحن نشرب شامبانيا بينما تعمل أنت ذلك... ما أجمل هذا الجسم ! تمثال ! أكان الثمن غاليا ؟ تقريبا... أهديتها سيارة كريزلير... لكن لا تؤلمها ياضون بيبيتو، بسها فقط : لا حاجة إلى أن تعضها... من يعطي أكثريا سادة ؟ أتريد أن تشري النهدين ؟ أنا أفضل الرجلين. ولكن سيارة كريزلير شيء قليل... فلم رائع ! غابة وطبول وصراخ متوحشين... يحطيون بالبطلة صائحين ويرقصون برماح حادة... الضحية تتأوه عارية مربوطة الى شجرة... ــ أتمثل في الفلم أنت كذلك ياضون بيبيتو ؟ ــ نعم، طبعا... أما رأيت رمحي ؟... ــ كيف يلمع !... ــ تصور، أنا رئيس القبيلة !... طيب، طيب... السكوت ! يجب أن يعيدوا تمثيل المشهد !... كل واحد الى موضعه !... أيها السيد الرئيس، هذا دورك ! تشجع ! الآن ! اضربها بالرمح ! والآن أنت يا آنسة، أطلقي صرخة قوية جدا.. حسن جدا... الآن استمروا في قطع رؤوس الديوك... الدم كثير ياربي !... موسيقى جنائزية وأجراس تدق... ماذا يحملون في ذاك الصندوق ؟... جثة البطلة الميتة... مسكينة ! تصور، سلمت نفسها لضون بيبيتو ودفعها الغم الى أن تلقي بنفسها في البحر... البرد !... ألا تحسون بهذا البرد الشديد ؟ غط رجليها على الأقل. لاحاجة الى ذلك. تكفي خوذة من حديد محمى في الرأس. اطرق فقط يا دكتور !... ولكن، ماذا جرى ؟... لماذا يدقون هذا الدق كله ؟... لا تخلوهم يدخلون... سدوا الباب !... الله، مازالوا يدقون !... ولكن ماذا يريد هؤلاء المتوحشون الملاعين ؟ ــ افتحوا ! افتحوا الباب !... الباب ! ... ! الباب!...

أفيق أخيرا. ماذا جرى ؟ أين أنا؟ في رأسي وجع. هناك دق في الباب. البرد شديد !

أنا عارية. اتغطى. يظهر أني حلمت. آه، فهمت. الرماح... المتوحشون... من كان ذاك الدكتور ؟ مازالوا يدقون. من يتحرك جنبي ؟ ضون بيبيتو ! العجب ! لم يكن حلما... كنت أتوقع ذلك... ولكن، كيف هو السرير كبير... ما لاحظت هذا بتاتا. حجرة أعزب كبيرة. غارصونيير ؟ ينهض ضون بيبي فجأة. أنا أتصنع النوم. يقوم. أنظر اليه خفية. يلبس بيجامة رائعة. من أين يمكن أن يكون شراها ؟ يفتش عن الخفين. شرقية بلاشك. يلبس الخفين. صينية بالتأكيد. يتجه الى رف. أو ربما هندية. يخرج كيمونا رائعا من حرير ياباني ؟ أظن أن تيتو هو الذي تكلم لي عن الخاي ـــ كاي. يخرج ضون بيبيتو في المبذل. سد الباب وراءه. هو محتاط. أسمع خطواته في الحجرة الأخرى. المكتبة ؟ يسمع صوت يصرخ : «افتحوا بسرعة!...» مازالوا يدقون بقوة. بالنفاد الصبر ! أسمع صوت الباب وهو يفتح. صوت ضون بيبيتو المترعد الغير الواثق يملأني قلقا.

ـــ ماذا جرى ؟ ما معنى هذه الأسلحة ؟

الله. أقفز قفزة. أتغطى (أنا عارية). أين هو حذائي ؟ أقترب من الباب على أطراف أصابعي. كيف هو الزليج بارد ! ما هنا أية فتحة أرى منها رائحة تفاح. أنا جائعة جدا. في رأسي وجع. فمي ناشف. اعطي حياتي من أجل قطرة ماء. لو كان هنا شق. من يكون الذين دخلوا ؟ أيكون أصدقاء له، ناسا سكارى ؟ إذا وجدوني عارية، فضيحة ! يتناقشون. ضون بيبيتو يتصنع الغضب. أعرفه. هو ليس رجل مواقف حازمة. الجبان !

ـــ ... ولكن هذا تَعَدٍّ !

ـــ لا تفوث أكثر... البس ثيابك... عندنا أمر بأن نأخذك أسيرا...

لمن هو ذاك الصوت ؟ أنا أعرفه. آه، طبعا ! كيف يمكن أن أغلط وهو صوت أخي. أريد أن أراه. لابد. أضطر الى أن أفتح الباب قليلا. هكذا بحيث أرى ما يجري دون أن يروني عارية. هم ثلاثة رجال مسلحين موسخين. أخي موجود معهم. يفسر :

ـــ هاجموا الثكنات.. والحكومة سقطت... انتصرنا... من يحكم الآن هو المجلس الثوري... بسرعة... يجب أن نأخذك معنا... بسرعة !...

ماذا عملت يا أخي ؟ أنت هدمت قصري الورقي. وداعا أيتها الرحلة الى فرنسا. لن تحصل على منحتك ولن يكون عندنا مال ليداووا ماما في مصحة. أأكون ضحيت لأجل هذا ؟

أسمع صوت ضون بيبيتو مرة أخرى.

ـــ طيب، انتظروني !

يجيء نحو حجرة النوم. أدخل السرير بقفزة. أتغطى. هو يفتح ويدخل. أنا أنظر اليه بعيني نصف مغمضتين. هو مضطرب. مسكين ! لماذا أقول له مسكين ؟ هو وغد. هتك

عرضي. يجب أن يعوضني. أين يخبىء المال ؟ عنده حساب في البنك بلا شك. ودفتر الشيكات ؟ لا تتركوه يهرب دون أن يسدد ما عليه... قليل الحياء ! لبس ثيابه كلها تقريبا. «لا تقلقي يالاورا. سأعطيك شيكا. كم تريدين» مازالوا يدقون في الخارج بالبنادق. هم قلقون بلا شك. ضون بيبي يمشط شعره. هو متجهز الآن. يقترب مني.

ــ لاوريتا...

أفتح عيني.

ــ سيأخذونني الى السجن...

(عملوا عملا حسنا يا ملعون !)

ــ البسي ثيابك يا لاوريتا. يمكن أن يرجعوا... افهمي...

ــ لا تخف يا ضون بيبي. (يا جبان ! متى تعطيني الشيك ؟ بسرعة، بسرعة يا شُيَيْخ ! أخرج المال. أين هو دفتر الشيكات ؟)

ــ من الأحسن أن تذهبي... خذي !

(دولار واحد ؟)

ــ ... لترجعي في طكسي.

(الشقي !)

أنظر اليه بحقد. لا أقول شيئا. ماذا يفيد الكلام ؟ يقترب مني. يطبع قبلة على جبهتي. يااللاحترام ! شفتاه باردتان. دم ضفادع. أنا أغمض عيني. أعود الى فتحهما. هل خرج ؟. أسمع صفق الباب وهم يسدونه. يبتعدون. أقوم بسرعة. البسي ثيابك بسرعة يالاورا ! يجب ان أكون في الدار في اقرب وقت. ثورة. اللعنة ! من تكلم البارحة عن هذا ؟ لا اتذكر البتة. لن أسكر مرة أخرى. ينقصني جورب. اين يكون ؟ امشط شعري وأنا هكذا عارية. الآن لا يمكن ان يراني احد. اريد ان استحم. لا، يجب ان ارجع بسرعة. يالسوء حظك يالاوريتا !... لما كانت تبدأ حياة المتع والافراح. وماذا ؟ المغامرة انتهت. ضون بيبيتو اخذوه اسيرا وأنا هنا البس ثيابي وقد تحولت الى مجدلية. وماذا ؟ المغامرة انتهت. ضون بيبيتو أخذوه أسيراً وأنا هنا ألبس ثيابي وقد تحولتُ الى مجدلية. لماذا البكاء ياغبية ؟ لا أجد الجورب الآخر. ارى فجأة امرأة اخرى عارية. من تكون ؟ هي انا بنفسي. انظر الى نفسي في المرآة. شاحبة جدا ! أكان حلما ؟ «يجب ان يعيدوا تمثيل المشهد ! اعدوا الرماح جيدا ! أين هو ضون بيبيتو ؟ ذهبوا به اسيرا لانه وغدا !» ما اعطاني حتى ثمن زوج جوارب، الشحيح ! ايها الجورب الملعون، لا اجدك. ارفع المخدات. لا شيء. شريتهما بدولارين. يجب ان اجده. هاهو ؟ الحمد لله. ألبسهما. الحذاء. انتهيت ! اجري يالاوريتا. ألبس ثيابي بسرعة. أتزين قليلا. انا الآن كما يجب ان اكون. الآن الى الشارع ! اخرج من حجرة النوم وأهذه هي الصالة ؟ ما رأيتها البارحة. السكر الذي كنت احمله هو السبب. كم هي الكتب كثيرة ! ليتني اقرأها. من كان

الروائي ؟ الحياة خليط من السهر والأحلام. أين قرأت هذه الجملة ؟ افتح الباب. لا أحد في الدرج. انزل دون ان احدث اي صوت. احدهم جاء. من ؟ انتظر. كم الساعة ؟ لاشك ان الصباح بدأ يطلع. ستكون اكثر من الرابعة او الخامسة صباحا. لا يهم من هو، المهم انه مر دون ان يتوقف. لأسرع، احسن لي. ارمي نفسي في الشارع، بسرعة ! امشي لصق الجدار. سأنعرج عند الناصية. لا. أسمع خطوات. وأصوات. من يكونون ؟ اختبئ. جنديان ببندقيتين. يكادان يمران جنبي. يلاحظ عليهما الاضطراب. احدهما يطلق جملة غامضة دون ان يرى مرافقه.

ــ يظهر انه ليس هناك ضحايا ــ يقول.

انتظر مختبئة. احس بخطواتهما تبتعد. لا أعود اسمعها. أواصل طريقي في الشارع المنحدر. اقال ليس هناك ضحايا ؟ وأنا ماذا انا ؟ الضحية الوحيدة للثورة. ربما كان لابد ان يحدث هذا. كان مكتوبا. لكن هذا ليس وقت استقصاء ما اذا كانت هذه المغامرة حلما ام قصرا من ورق. أنت الآن غادية الى الدار من هذا الشارع الصغير. باكية ؟ مسكينة لاورا ! ماذا يفيدك البكاء ؟ لا تكوني ساذجة، يا ! امسحي عينيك احسن لك. الفلم انتهى. كم انت ممثلة عظيمة بالاوريتا ! طيب ، نقطة نهائية، الى الدار، البطلة تضيع وسط الضباب، مفكرة... مفكرة في اشياء كثيرة لهذه الحياة المرة. هذه الحياة الخنزيرة !

باناما 1932

ترجمة : محمد العشيري

ــ روخيليو سينان. ولد في باناما عام 1904. كتب الشعر والرواية والمسرحية والقصة القصيرة. من مؤلفاته : طيور الحلم (قصص، 1954)

ــ عن كتاب :

-CUENTOS DE ROGELIO SINAN. EDITORIAL UNIVERSITARIA CENTROAMERICANA. 1982 .

خوسيه إميليو باتشيكو (المكسيك)

احتفـــال الجـــرأة

مكـــافـــأة

لسائق الطكسي أو أي إنسان يخبر عن مكان السيد **اندريس كنطانا** الذي توجد صورته في الهامش والذي فُقد يوم الثلاثاء 5 في الطريق من أبنيدا خواريث الى شوارع طونالا في كولونيا روما حوالي الـ 23 و 30 دقيقة، ولا يُعرف مكانه حتى هذا التاريخ، أي خبر الى التلفونين التاليين :

03 ــ 92 ــ 511 و 50 ــ 12 ــ 533

احتفـــال الجـــرأة

قصة لأندريس كنطانا

الأرض تبدو صاعدة، حقول الرز تخفق في الهواء، تكبر الأشجار المأكولة بفعل مسقطات الاوراق، تحت الدوي المتراكز للمروحة يهبط الهلكبتير عموديا، خمسة عشر هلكبتيرا أخرى تحط في القرب، وأنت تفقز بالرشيشة في يديك، تطلق النار وتأمر باطلاق النار على كل شيء، على كل شيء متحرك وحتى على اللا متحرك، لن يبقى خيزران على خيزران، لن يبقى أي ناج من المجزرة، لن يكون هناك شهود على ما كان قبل ذلك قرية،

اليد، الرصاصة، السكين، الحربة، قاذفة اللهب، القنبلة، الكُرنافة، كل شيء صار أداة موت، ولما ترجعون الى الهلكبتيرات تحس أنت يا نقيب كيلير، بطمأنينة من أدى الواجب، وسط الحطام تحترق جثث شيوخ وأطفال ونساء اغتُصبن وعُذبن، لم يكن يوجد أي ثائر في القرية أو، كما تقول انت، جميع السكان كانوا ثوارا، الاجسام المقطوعة المحروقة المحطمة تعرف سير عملية التعفن بينما أنتم تطيرون عائدين بلا خسائر في الارواح، بإحساس مضاد لتقزز وفظاعة المعارك الاولى،

ما أبعدك الآن عن كل ذلك يا نقيب كيلير، وأنت، بأجرة محارب قديم، بقميص أخضر، بـ Rolleiflex (1) بغليون سيليكاتي، تصغي إلى شروح الفتاة التي تصف بالانجليزية كيف عثر على قبر «معبد الكلام المنقوش»، أنت موجود في «قاعة المايا» بـ «متحف تكلم مع «الأشغال العمومية» ليعتذر على غيابه أمام رئيس المصلحة. قام ببعض

الأنثروبولوجيا»، بعيدا آلاف الكيلومترات عن ذلك الجحيم الذي ساهمْتَ في إشعاله لكي يسمم العالم كله،

أنت تتأمل كل شيء بالتعجب الواجب والاعجاب السهل لمن يزور متحفا هو جزء من خط سير لا بد منه، في الواقع لم يؤثر فيك أي شيء، أحسن التحف كنت قد رأيتها في مثيلات لها من صنع مقلدين، طبعا، في القرب هي مختلفة، ولكن على كل حال لا تجعلك تتأثر كثيرا بقايا عالم أبيد على يد امبراطورية كانت لا تقل قوة عن امبراطوريتك يا نقيب كيلير،

ولكنهم يخرجون، يقطعون الفناء، الريح تجيء بنقط ماء من الفَسْقِيَّة، يدخلون قاعة ميشيكا، هنا، تقول المرشدة، هنا بقي كل ما نجا من تدمير مكسيكو ـــ طينو شتيتلان، نسبة مئوية صغيرة فقط مما يقدر أن يكون أنتجه الفنانون الاستيكيون، العنف الا متحرك للتماثيل يفجر فيك ردا لم تقدر على أن تقلعه منك الرقة والزخرفة الغزيرة لفن المايا،

يبرز فجأة الحجر الشرس الذي ركز فيه نحات، كمن يحجر فكرة متسلطة على عقله، الصورة المقدسة لكوواليكووي، أنت تبقى ممغنطا من طرفها، ممغنطا ليس هناك كلمة أخرى، توقف Tours الخميس والجمعة والسبت لترجع كل صباح الى المتحف، وتجلس هناك قبالة الاهة سماء جهنمية وتتعرف فيها على شيء عرفته دائما بالبداهة يا نقيب،

الحاحك الشديد على المجيء أيقظ الشكوك بين الحراس، ولتبرر سلوكك، لتستر افتتانك الشاذ، شريت دفترا وبدأت ترسم كوواطليكووي بجميع تفاصيلها، أنت الذي ما وضعْتَ على ورق أبسط رسم منذ أن غادرت الـ High school ،

نهار الأحد ستظهر بداية مقاومة، عوض أن ترجع الى المتحف ستقضي الصباح في الاسواق وفي المساء تقيد نفسك في النزهة «احتفال الجرأة» مع اصدقاء الـ Tours الأخرى الذين يسألونك لماذا ما كنت معهم في كسوشيميلكو وبويبلا وتيوتيواكان، أين كنت مختبئا هذه الأيام،

ستُجيب، أنا أرسم أحسن التحف، وهم لماذا يمكنك أن تشري كتبا، صورا، Slides (2)، تقليدات مصغرة، تستمرون في الكلام، وعند الوصول الى «مصطرع مكسيكو»، ينطلق صوت النفير، يظهر في الحلبة المصارعون وفرقهم، يخرج الثور الاول، يصارعونه بالقماش الاحمر، ينخسونه بالرمح، يطعنونه بالمناخس ويقتلونه، يظهر الثاني، أنت يهولك المنظر، يا لوحشية المكسيكيين، كيف يعذبون الحيوانات هكذا، يالهذه البلاد، هذا يفسر تأخرهم، فقرهم خضوعهم، عدوانيتهم، تخرج من إحتفال الجرأة، ترجع الى المتحف، تعود الى تأمل الالاهة، الى الاستمرار في رسمها مغتنما الوقت القليل الذي ستبقى فيه القاعة مفتوحة لا تزال،

يسدون الابواب، أنت تقطع الشارع وتنتظر طكسيا على رصيف البحيرة، الرجل الذي يبيع المثلوجات يدفع عربيته النحاسية، يقترب ويقول، يا سيد، عفوا، أنتم يهمكم كثيرا كل ما هو استيكي أليس كذلك ؟ أتريدون أن تروا شيئا لن تنسوه أبدا ؟ لا تخافوا، لن يكلفكم ثنطابوا واحدا، أنت باسبانيتك التي تخرج بصعوبة ترد، ماهو، أي شيء هو،

لا أستطيع أن أقول لكم الآن يا سيد، لكن أنا متأكد أن ذلك سيهمكم، كل ما يجب عليكم أن تعملوه هو أن تركبوا في آخر عربة لآخر مترو الليل يوم الثلاثاء في محطة انسورخينطيس، المترو سيتوقف بين «ايسابيل لا كاطوليكا» «وبينو سواريث»، انزلوا وسيروا في النفق نحو الشرق حتى تجدوا ضوءا أخضر، هناك سأكون أنتظركم،

البائع سيوقف طكسيا، سيقول له اسم فندقك، ويكاد يدفعك الى داخل السيارة، في الطريق فكرت أن ذلك كان مزاحا، لعبة مكسيكية بليدة للضحك على السياح، بعد ذلك ستغير رأيك يا نقيب كيلير،

ويوم الثلاثاء ليلا ستكون في إنسور خينطيس، بقميص أخضر، بـ Rolleiflex، بغليون سيليكاتي، منتظرا أن تعلن مكبرات الصوت الرحلة الاخيرة، ثم ستطلع في العربة الأخيرة مع عاملين أو ثلاثة يرجعون الى ديارهم في ثيوداد نيثاو الكويوتل، سترى مرور المحطات، سيتوقف المترو، ستنزل أنت في منتصف النفق أمام مفاجأة الراكبين، ستسير نحو الضوء الوحيد الذي ما زال مشعولا بعد مرور المترو، الضوء الاخضر، القميص الاصفر اللامع الطيفي تحت الضوء الاخضر، الرجل الذي يبيع المثلوجات قبالة المتحف،

الآن أنتما الاثنين تتوغلان عبر الممر الحجري الذي يدفع الرشْحُ ورائحة الوحل الى الاستنتاج أنه فتح في قاع البحيرة الميتة التي تقوم عليها المدينة، أنت تجعل Flash واحدا في كاميرتك، الرجل يمنعك من ذلك، لا، لا تضيع صورك، قريبا ستجد أشياء كثيرة للتصوير،

يضاء الممر بمشاعل من خشب عطر، أنت تسأل عن اسمه، يجيبك، أو كوطي، ثم تستفهم لماذا جئت بي الى هنا ؟، لترى «الحجر المرسوم عليه»، أعظم تمثال استيكي، ذاك الذي يحيي ذكرى انتصارات أو يثوطل ولم يستطيعوا العثور عليه اثناء حفر المترو، أنت ستكون أول انسان ابيض يراه منذ دفنه الاسبانيون في الوحل حتى لا يُذَكِّر المغلوبين بعظمة ماضيهم، لكي يخضعوا تماما لحديد الوسم وللسوط وللاعمال الشاقة، لكي يفقدوا ذاكرتهم وفخرهم بأرضهم واحترامهم لأنفسهم ويمكن أن يُحَوَّلوا الى بهائم للعمل وحمل الاثقال،

يفاجئك كلام الرجل، ولو أنك لا تفهمه تماما يا نقيب كيلير، عينا مخاطبك كأنهما تلمعان في نصف الظليل، أنت رأيتهما من قبل، أين، عينان منحرفتان ولكن بشكل آخر، «العالم الجديد» أسيوي أيضا، لكنك لست خائفا، المسدس الاتماتيكي يربض في جيبك،

أنت تتوقع أن ترى مدينة تحأرضية تكون صورة طبق الاصل تماما للطينو شتيتلان التي تظهر في النماذج المصغرة للمتحف، لاترى شيئا من ذلك، ترى فقط، من حين لحين، قطع ردم، قطع معابد ومساكن أستيكية استعملت قبل اربعة قرون كأساس وحشو للعاصمة الاسبانية الجديدة،

رائحة الْوَحَل تمسي أقوى، أنت تبدأ تعطس، زكمتك الرطوبة، تقول لمرافقك، سأذهب من هنا، إِسْتَأْنَ، سنصل الآن، تلح متهجيا تقريبا، أريد أن أخرج من هنا الان، تعطي أوامر، من هو دونك يجب أن يطيعها، والآخر يجاوب فعلا، الآن سنصل الى مخرج،

بعد نحو خمسين أو ستين خطوة يريك بابا، يفتحها وتَفَضَّلْ، يقول، وأنت تدخل بلا تردد، بعد ثانية تجد نفسك محبوسا في غرفة بلا اضاءة ولا تهوية الا التي تحدثها فتحة ذات شكل مطلسم، أهي غليفو الريح ؟ أهي غليفو الموت ؟،

الأرض هنا، عكس النفق، ثابتة مستوية، وفي ركن هناك حصيرة، أنت تستلقي عليها ولكن لا تنام، تخرج المسدس، تصوبه نحو الباب، كل شيء لا واقعي جدا، يبدو لا منطقيا جدا، الى درجة أنك لا تتمكن من ترتيب الاحاسيس التي تلقيتها،

لكن ينومك التعب، رائحة الوحل، ايقاع احاديث بعيده بلغة مجهولة، الخطوات في الممر الرطب التحأرضي، لما تفتح عينيك أخيرا تفهم، البارح كان يجب عليك ألا تتعشى تلك الاكلة المكسيكية الفظيعة، حلمت حلما بليدا كاد أن يتحول الى كابوس، كيف يمكن للا شعور أن ينهب ما هو واقع، المترو، بائع المثلوجات، المتحف، ويُعْطيه نظاما أو لا نظاما مختلفا،

ياللراحة وقد وجدت نفسك مفيقا في هذه الغرفة بالهوليداي أين، أتكون قد صرخت أثناء الحلم ؟ لحسن الحظ أنه لم يكن الحلم الآخر، المتسلط على عقلك، حلم الفيتناميين الخارجين من القبور في نفس الحالة التي تركتهم أنت عليها ولكن بعد أن سوأها العفن، لحسن الحظ،

تسأل نفسك كم الساعة، تمديدك، اليد تتحرك في الفراغ محاولة الوصول الى اللمبة، ليست هناك، الطاولة أخذوها، أنت تقوم لتنير الضوء الوسطي للغرفة،

حينئذ يقتحم الزنزانة الرجال الذين يأخذونك الى الحجر الدائري المحدد الكبير في أحد المعابد التوأمة، يفتحون صدرك بجرح، يقلعون قلبك (في الاسفل يرقصون، في الاسفل يعزفون موسيقاهم الحزينة جدا) ليقدموه غذاء مقدسا للالاه اليغور، للشمس التي تنقلت عبر غابات الليل والتي (بينما جسمك يا نقيب كيلير، جسمك المفتوق يتدحرج مضرجا بالدم على المدرج) تلمع الآن، تولد الآن ثانية في مكسيكو ــ طينو شتيتلان، أبدية، ظافرة بين البركانين.

نظر أندريس كنطانا الى الورقة «ريبولوثيون» التي أدخلها قبل قليل في الـ Smith-Corona. كتب بين خطين صغيرين الرقم 78 والتفت الى اليسار ليقرأ صفحة الـ The Population Bomb.

شغلته صرخة :

ــ Ef, Bi, Ai : ارفع يديك، لا تتحرك ــ

في التلفزيون ذي الصوت المرفوع الى اقصاه بالشقة المجاورة. قبالته هجم الفتيان الذين يكونون مجموعة روك على نفس الفقرة التي تدربوا عليها منذ الرابعة مساء :

Where's your momma gone
Where's your momma gone
Little baby don
Little baby don
Little baby don
Where's your momma gone
Where's your momma gone
Far, far, away.

قام، سد النافذة المفتوحة على الفناء الداخلي الكئيب، عاد الى الجلوس وقرأ من جديد :

SCENARIO II In 1979 the last non-Communist government in Latin America, that of Mexico, is replaced by a Chinesesupported military junta. The change occurs at the end of a decade of frustration and failure for the United States Famine has swept repeatedly across Asia, Africa, and South America Foodriots have often become anti-American riots.

فكر في اللفظ الذي يترجم كلمة Scenario أحسن. راجع القسم English-Spanish للـ New World. «رواية للاوبرا، قصة، خلاصة. ليس هذا سياق الكلام. ربما «احتمال، افتراض» ؟ ترك فراغا، أعاد قراءة الجملة الأولى وبسبابة يده اليسرى (اليمنى شلت بسبب حادث طفولي) كتب بسرعة :

في 1979 حلت محل (قلبت ؟) حكومة المكسيك (الحكومة المكسيكية ؟)، وهي الأخيرة اللا شيوعية التي كانت باقية في أميركا اللاتينية، لَجْنَة عسكرية مدعومة من طرف الصين (بدعم صيني ؟).

عند انتهائه قرأ الفقرة بصوت عال :

ــ «حلت محل حكومة»، فظيع على السمع. «عية، نية، رية» كتابة سيئة، ترجمتي تزداد سوءا. أخرج الورقة وضغطها على الطاولة تحت ذراعه اليمنى ليمزقها بسبابة وابهام اليد اليسرى. رن التلفون.

ـ نعـــم.

ـ عفوا، أيمكن أن أتكلم مع السيد كنطانا ؟

ـ نعـم، أنا هو.

ـ آه، ماذا جرى لك يا أندريس، كيف أنت، ما أخبارك.

ـ عفوا، من يتكلم ؟

ـ أما تتذكرني ؟ طبعا، ما تكلمنا منذ قرون، أنا اريبلاييث، أصدعك كعادتي.

ـ ريكاردو، آه، فرحتني يا رجل. كيف وقعت المعجزة ؟

ـ أنا مبحر في مشروع كبير جدا وأريد أن أعرف هل أعول عليك.

ـ نعـم، كيف لا، أي شيء هو ؟

ـ اسمع، المسألة تحتاج الى أن نجتمع ونتكلم، لكن سأقول لك شيئا عنه لعلك تتشجع، سنؤسس مجلة في مكسيكيتو. رغم أن تقدير الاشياء صعب دائما، أظن أنها ستنجح نجاحا عظيما.

ـ مجلة أدبية ؟

ـ نعم جزئيا، المسألة هي أننا نريد أن تكون نوعا من Esquire, أميركي إسباني. أو على الأصح، خليطا من Esquire و Play-boy و Penthouse و The New Yorker ولكن بإشعاع لاتيني.

ـ آه، حسن إذن.

ـ المشروع ممتاز هه ؟ المال موجود والمعلنون والتوزيع والصحافيون : كل شيء. الطبع سيكون في باناما والاشهار سيكون مختلفا من منطقة الى اخرى. سننشر ريبورتاجات وأخبارا واستجوابات وأبوابا ثابتة وامرأتين أو ثلاث نساء عاريات طبعا، ونريد كذلك أن ننشر في كل عدد قصة قصيرة لم تنشر من قبل.

ـ بالنسبة للقصة الاولى كنا فكرنا أن نشري واحدة من غابو[3]... لكني الححت على أننا يجب أن نعرف على نطاق قاري بكاتب مكسيكي، مادامت المجلة تصنع هنا في مكسيكيتو، فيها هذا النقص، ماذا سنعمل. فَكَّرْتُ فيك طبعا، آ أستاذ الاساتذة، أرجو أن تشرفنا.

ـ شكرا، شكرا جزيلا.

ـ إذن، موافق ؟

ـ نعم، طبعا... لكن المشكلة هي... هي أني ما عندي أية قصة جديدة، لا أكتب منذ مدة.

ـ لماذا ؟

ـ ممم... مشاكل، شغل، الأشياء المعروفة باختصار.

ـــ اسمع، اجلس وفكر في قصتك ابتداء من الان بالذات، ولما تكملها جيء بها. أظن أنك لن تتأخر كثيرا. نحن نريد أن نخرج العدد الاول في اقرب وقت.

ـــ ولكن ...

ـــ اسمع، يجب أن أقول لك إن العمل الادبي يكافأ مكافأة حسنة. على الصعيد الدولي ليس شيئا كبيرا ولكن بالمقارنة مع ما يعطى عادة في مكسيكيتو تبدو المكافأة ثروة... طلبت أن يعطوك ستة الاف بيسو.

ـــ ستة آلاف بيسو على قصة ؟

ـــ المبلغ لا بأس به، أليس كذلك ؟ إذن ابدأ في الكتابة الان يا أستاذي العزيز. خذ معلوماتي من فضلك.

سجل أندريس العنوان والتلفون في الزاوية العليا اليمينية لجريدة يقرأ فيها :

يجب توثيق المكانة الممتازة التي يتمتع بها المكسيك داخل السياحة العالمية.

أكثر من عبارات الامتنان لريكاردو. ودعه. لم يرد الاستمرار في الترجمة. كان ينتظر أن تجيء هيلدا ليخبرها بالمعجزة.

فوجئت امرأته لما لم تجده شاكيا يائسا كعادته. أمام مثل ذاك الحماس لم تحاول أن تثنيه، مع أن محاولة بدء وانهاء قصة في ليلة واحدة بدت لها مفرطة الطموح.

لما ذهبت هيلدا لتنام جلس أندريس أمام الالة. كان لا يعمل في الليل منذ أعوام بعلة أنه اذا فعل سيزعج الجيران. الواقع هو أنه مر زمن طويل ما كتب فيه شيئا غير الترجمات والكتابات البيرقراطية. اكتشف أندريس لما كان طفلا ميله الى القصة، فقرر أن يكون كاتبا وأن يكرس نفسه لهذا الفن الادبي وحده. في مراهقته كانت معظم الكتب التي تكون مكتبته مجموعات قصص قصيرة. ضد تشتت اصدقائه كان هو يفتخر بأنه يكاد لا يقرأ قصائد ولا مقالات ولا روايات ولا مسرحيات ولا كتبا سياسية، وأنه بالعكس كان يدمن قراءة روائع القصص القصيرة التي كتبت في العالم.

لكن أباه كان يريد أن يورثه مكتبه فأرغمه على دراسة الهندسة المعمارية. سجل أندريس نفسه وتظاهر بأنه يحضر الدروس. كان في الواقع يذهب الى كلية الاداب كمستمع، وهناك اتصل بجماعة اربيلاييث الذي كان ينشر مجلة «خندق».

كان ريكاردو يكتب قليلا، بخلاف أندريس : كانت كتاباته تقتصر على افتتاحيات دفاعا عن الحركة العمالية للسكك الحديدية وعن الثورة الكوبية، وعروض حادة ضد الكتب

التي كانت موضة. ومع ذلك، كان عنده مشروع «رواية كبيرة» ستكون بالنسبة للبرجوازيين المكسيكيين، حسب كلماته نفسها؛ ما كانت A la recherche du temps perdu(4) بالنسبة للفرنسيين.

ولكن قبل أن تقسم الحرب الادبية والاختلافات السياسية الجماعة بقليل، عرف أندريس هيلدا التي كان عمرها سبعة عشر عاما وكانت دائما جنب ريكاردو. تحابا وتكلما مع اربيلاييث بشجاعة وقررا الزواج. لم ينس أندريس قط مساء ذاك الـ 28 مارس عام 1959 الذي قبلت فيه هيلدا عرضه أن يتزوجا، ألقي القبض على ديميتريو باييخو وبدأ الجيش والشرطة احتلال مقرات الحركة العمالية للسكك الحديدية.

قال الوالدان لأندريس إن من الخطإ أن يوقف دراسته، نظرا لأنه لا يستطيع أن يعيش بالكتابة. ورغم ذلك لم يعترضا على الزواج وأهدياه مبلغا ليتمكن من العيش في الشهور الأولى. وحاول أندريس، وكان ما زال يكتب كل ليلة، أن يفتح طريقه كسيناري للسينما الوطنية ومساهم في الصفحات الأدبية للجرائد. في أواخر 1960 كان مشروع الاعتماد على القلم في العيش قد انتهى بالفشل، كانت هيلدا قد فقدت ابنها الأول والوحيد، وخرجا بعد ذلك من الدار الصغيرة في «كويوأكان» ليكتريا شقة داخلية مظلمة في شوارع طونالا. بعدئذ عملت هيلدا في boutique أختها بـ «لائونا روصا»، وحصل أندريس، وكان قد درس عاما ونصفا في المعهد المكسيكي ــ الامريكي الشمالي للعلاقات الثقافية، على وظيفة مترجم في دار متخصصة في الكتب التي تشجع الرابطة الامريكية و «الحلف من أجل النمو». لما سحق التضخم ميزانيته الهشة، تمكن أصدقاء أبيه من أن يحصلوا له على وظيفة مصحح أسلوب في «كتابة الأشغال العمومية».

نشر أندريس في السنين الاولى لزواجه كتابه الوحيد : تحريفات. باع 127 نسخة ــ كانت الطبعة مكونة من 2000 ــ وما فاز الا بتقريظ واحد (محابٍ) كتبه ريكاردو الذي لم ير الاثنين قط منذ اقترانهما. بعد ذلك بقليل كفت المجلات المكسيكية عن نشر القصص القصيرة وجعل ازدهار الرواية عدد المهتمين بكتابتها يقل قلة كبيرة. وشارك أندريس عبثا في مباراتين من أجل منحتين. فقد حماسه وأخذ يرجيء الى أجل غير محدد مشروعا لمجموعة جديدة من القصص.

كان يقول لهيلدا في الليل : ميلي في النهاية كان هو الكتابة وأنا أمارسها على كل حال /

يمكن أن تكون كتابة الترجمات والكتيبات وحتى التقارير البيرقراطية في مثل جودة قصة على كل حال أليس كذلك ؟ /

بمفهوم نخبوي قديم فقط يمكن أن نعتقد أن الشيء الوحيد الصالح هو المسمى أدب الخلق الست متفقة ؟ /

زيادة على هذا لا أريد أن أزاحم الكويتيين المكسيكيين المنتفخين بفعل الدعاية، روايات من الدرجة الرابعة كتلك أنا قادر على أن أكتب عشرا منها في العام الا ترين هذا ؟ /

ومع ذلك فهو الآن سيقبض ستة آلاف بيسو على قصة قصيرة واحدة : المبلغ الذي كان يقبضه في شهور بأمسية بكاملها قبالة الالة، مترجما تلك التي كان يسميها «الكُتُلا مقروءة»، يمكن أن يسدد ديونه في المكتب، أن يقتني أشياء كثيرة يحتاجها، أن يأخذ لنفسه عطلة ويسافر، أن يأكل في مطاعم. باختصار، بستة آلاف بيسو استعاد موهبته الادبية الخامدة وترك وراءه العلل التي كانت تخفي فشله الذاتي :

في التخلف لا يمكن أن تكون كاتبا /

الكتاب مات : الآن ما يهمني هو الـ mass-media[5] /

طيب، عندما يتعلق الامر بالكتابة كل شيء صالح، لن يضيع أي مجهود، تجربتي البيرقراطية ستكون لها نتائج سترين /

ماذنبي أنا إذا كنت خُلقت في بلاد الخراء هذه وانتميت الى جيل من السخيفين المخصيين /

اسمعي، لما تندثر جميع الكتب الناجحة اليوم في المكسيك سيقرأ أحدهم «تخريفات» وعندئذ /

بسبابة يده اليسرى بدأ يكتب بلا توقف، ما كتب قط بمثل ذاك المقدار من السلاسة. في الخامسة صباحا ذهب لينام وهو يحس بكمال ما عرفه من قبل. كان قد دخن علبة Viceroy وشرب أربع كوكاكولات ولكنه كتب «احتفال الجرأة».

أفاق أندريس في الحادية عشرة والربع، استحم وحلق ذقنه بسرعة، تلفن الى ريكاردو باحساس منتصر.

ــ لا يمكن. كانت عندك مكتوبة.

ــ والله لا : كتبتها هذه الليلة، سأصححها الآن وأنقلها الى المبيضة. أظن أنها جيدة. سنرى ماذا يكون رأيك فيها ليتها تعجب.

ــ طبعا ستعجب.

ــ متى أعطيك إياها.

ــ هذه الليلة اذا اردت. أنتظرك في التاسعة بمكتبي.

التصحيحات، أعاد كتابة النص على الالة، وفي الخامسة بدأ النص النهائي بلا شطب ولا حروف موضوعة على اخرى في ورق bond de Kimberley Klark[6]. هيلدا قالت له إنها ستذهب الى السينما مع أختها حتى لا تبقى وحدها أثناء ذهابه لتسليم القصة القصيرة.

في الثامنة والنصف ركب أندريس المترو في محطة «إنسورخينطيس» انتقل الى قطار آخر في «بالديراس» ونزل في «خواريث». دخل المكتب في الوقت المحدد. كانت الكاتبة جميلة جدا الى درجة أن أندريس خجل من سترته القطيفية وسرواله البني وصغره ويده الكسحاء. انتظر لحظات قبل أن يدخل الى المكتب المفرط الاضاءة لريكاردوا الذي قام من مكتبه ليعانقه.

كانت قد انصرمت اكثر من اثني عشر عاما منذ الـ 28 مارس 1959. ريكاردو كان شكله يجعل من الصعب التعرف عليه، ببدلة من نسيج شنتونك أزرق فيروزي ولحية أعلى الخدين كثيفة وشارب ثاباطي[7] ومنظار كالذي كان يستعمله شومان. أحس أندريس من جديد أنه في غير محله وسط ذلك المكان (نوافذ تطل على طريق الاشجار، حيطان مغطاة بصور جدرانية تُكبِّر مطبوعات حجرية قديمة للمدينة).

أدرك توا أن وضع اللاحنين الذي اتخذه ريكاردو، وضع الـ «كما كنا نقول البارحة»، كان متكلفا. اللاجدية الودود في التفلون كانت ستمحي الآن وقد أخذ اربيلاريث (وهو في موقف قوة) أندريس الى ساحته هو. تفحص أحدهما الآخر ثواني :

ــ هو تبدل / حتى أنا / ما عمل أحد منا ما كان سيعمله / كلانا انتهى خائبا ولكن من كان نصيبه أسوأ /

بادر ريكاردو الى وضع حد للتوتر فعرض عليّه أن يجلس على الكرسي المريح وجلس معه مقدما له سيجارة Benson & Hedges ثم تصفح المخطوطة التي أخرجها أندريس من محفظته.

ــ حجمها مناسب تماما... والآن، اذا سمحت بلحيظة، سأقرأ قصتك مع مستر هردويك الـ editor in-chief[8] للمجلة. بعد ذلك أقدمه لك. هو رجل صاحب أفكار مهمة. عمل في الـ Time Magazine.

ــ لا، من الأحسن الا تقدمه لي : ذلك يؤلمني.

ــ يؤلمك ؟ لماذا ؟

ــ لا أتكلم الانجليزية.

ــ كيف ؟ لكنك ترجمت الاف الكتب.

ــ ربما يكون السبب هو ذاك. هما شيئان مختلفان.

ــ كيف أنت غريب. لن أتأخر.

لما بقي أندريس وحده أخذ يتصفح مجلة كان ريكاردو تركها على مكتبه. أثار انتباهه اعلان :

Located on 1500 feet of Revolcadero beach and rising 16 stores like an Aztec pyramid, the 40 million Acapulco Princess Hotel and Club de Golf opened as this jet set resorts largest and most lavish yet. Its 200 acres of gardens, pools waterfalls and fairways are ten minutes by car from International Airport.
The Princess has 777 rooms with private terraces overlooking either the palmtree dotted golf course or the turquoise Pacific. Guests specify either a green (golf) view or blue (Pacific) view when making reservations. One of the most spectacular hotels you will ever see,it has a lobby modeled after the great central court of an Aztec temple with sunlight and moonlight filteringthrough the translucent roof. The 20000 ft. lobby's atrium is complemented by 60 feet palm-trees, a flownig lagoon and mayan sculpture.(9)

لكنه كان قلقا، لم يكن قادرا على التركيز. دلف الى النافذة ونظر الى المدينة الوطئة، الى أضوائها الغامضة. قضى وقتا طويلا ينظر اليها، دخن سجائر كثيرة جدا، دخلت الكاتبة لتعرض عليه فنجان نيسكافي، ثم لتقدمه له، أخيرا لتودعه.

تأمل أندريس المطبوعات الحجرية المكبرة. أحس بحنين مستحيل نحو تلك المكسيكو الميتة قبل عشرات السنين من ولادته. تخيل قصة رجل مِنْ كثرة النظر إلى مطبوع حجري انتهى داخل هذا المطبوع، متحركا بين تلك الشخصيات المنتمية الى عوالم أخرى، ناظرا الى معاصريه الذين يرونه من القرن العشرين. ثم فكر، كما يفعل دائما، أن القصة ليست له، أن أحدهم كتبها، هو قرأها قبل زمن قصير لا يتذكر أين.

أو ربما لا : ربما اخترعها هناك بالذات، في ذاك المكتب الغريب قُبالة طريق الاشجار ــ مكان غير مناسب لتحرير مجلة لها المال والطموح اللذان تكلم عنهما ريكاردو. لم يستطع بعد أن يستوعب لقاء صديق ــ عدو السنين الغابرة :

أيكون ترك التفكير في هيلدا ؟
لو رآها هل تعجبه بنفس درجة إعجابه بها قبل اثنى عشر عاما ؟
ماذا كانت العلاقات الحقيقية بينهما ؟
لماذا لم تقل له هيلدا غير أشياء غامضة حول الموضوع ؟
وَ
أيكون ريكاردو كتب روايته ؟
أيتمكن من كتابتها في المستقبل ؟
لماذا كان رئيس التحرير القديم لـ «خندق» موجودا في ذاك المكتب ؟

أتكون البلاد فظيعة الى هذا الحد، أيكون العالم فظيعا الى هذا الحد، بحيث أن كل شيء قابل للفساد أو الافساد ولا سبيل لأن ينجو أحد ؟

وَ

ماذا يكون رأي ريكاردو فيه هو ؟ أكان يكرهه، يحتقره، يحسده ؟

إثناؤه على «تخريفات» أكان لاظهار علو نفسه، أم كان إهانة في منتهى الذكاء، أم رسالة مُشَفّرة الى هيلدا ؟

وَ

الستة آلاف بيسو أهي مكافأة لنبوغه ـــ نبوغ قاص لا يذكره أحد نشر كتابا واحدا عاديا منسيا عن استحقاق ـــ أم طريقة لمساعدة هيلدا، وهو يعرف

(من قال له ؟ هي نفسها؟)

المشاكل الزوجية، العشرة الزنخة الحزينة، المزاج العكر للذي انتهى الى الفشل، إهانة وجوب اثبات الحضور في «الاشغال العمومية»، أسلوب تراجمه الذي يزداد سوءا، مواعيد هيلدا في boutique أختها، الزبونات الغنيات اللواتي هي عبدة لهن ؟

كف أندريس عن طرح الاسئلة على نفسه. نظر الى ساعة الحائط : كانت قد مرت أكثر من ساعتين، كان ريكاردو مازال في مكتب مستر هردويك ـــ يتناقشان حول القصة ؟ ـــ التأخر لم يكن يمكن أن يفسّر سوى كأسواء التكهنات، لذلك لما ظهر ريكاردو من جديد بالنص في يده، أحس أندريس أنه سبق له أن عاش اللحظة وفي استطاعته أن يتلو التتمة.

ـــ اسمع، سامحني، تأخرتُ قرونا، كنا نتكلم ونتكلم عن الـ historia(40).

حتى في الذكرى الغامضة لاندريس قال ريكاردو historia وليس قصة قصيرة. كلمة مأخوذة عن الانجليزية طبعا، غير مهم، ترجمة ذهنية لـ story. قال بخوف وبلا أمل، وهو متأكد من الجواب :

ـــ وما رأيكما فيها ؟

ـــ ممم، ما عرفت كيف أقول لك هذا يا أستاذ. قصتك أعجبتني، مهمة، مكتوبة بطريقة لا بأس بها. لكن خفضت المستوى، لا شعوريا، وقد فكرت أنك تكاد تكتبها لمجلة بناء على طلب. أفهمت ؟ الاحداث مفرطة التسلسل، هي من نوع قصص الـ american magazine، لا ؟

نظرة اضطراب عوض الجواب /

أندريس يلوم نفسه على احساسه بأن تضييع الستة آلاف بيسو يؤلمه أكثر من الفشل الادبي /

لكن ريكاردو كان قد استمر :

ـــ صدقني، أنا متأسف جدا على هذا. تمنيت من قلبي أن يقبلها المستر، أنت أول من كلمته في المسألة كما رأيت.

ـــ لا داعي لأن تقدم اعتذارات يا رجل. قل إنها لا تصلح والسلام. المسألة بسيطة، مافيها مشاكل.

أغضبت اللهجة ريكاردو. قام بحركة ليضبط نفسه وأضاف :

ـــ نعم هناك مشاكل : لا نتمكن من رؤية الشخصية. تنقصك الدقة. بعض الفِقْرات معقدة، الأخيرة مثلا، بفضل حبك تعويض جميع علامات التنقيط بالفاصلة. حكايتك لا واقعية بأسوإ معنى الكلمة، bookish جدا، أليس كذلك ؟ زيادة على هذا مسألة «الجوهر القباسباني المدفون ولكنه حي» لم تعد شيئا جديدا. فوينطيس[11] عمل أشياء مهمة بهذا، ولما عملها استنفد الموضوع أيضا. طبعا أنت تراه من زاوية أخرى، ولكن على كل حال... والمسألة تتعقد باستعمال ضمير المخاطب المفرد. هو وسيلة فقدت جدتها ويزيد الشبه بفوينطيس، you know.

ـــ الآن غدا كل شيء مكتوبا. كل قصة تخرج من قصة أخرى، أليس كذلك ؟ ولكن لنختصرْ، ما بقي لي ما أقوله، اعتراضاتك لا تجادل... إلا مسألة فوينطيس : ما قرأت قط كتابا له. لا أقرأ الأدب المكسيكي... لأجل الصحة الذهنية ـــ أحس أندريس أنه يبدو مثيرا للشفقة، كان صوت كبريائه المغلوب يدل على فراغ.

ـــ إذن أنت غالط في عدم قراءتك ما يكتبون جنبك.. اسمع، ذكّرْتني كذلك بقصة لكورطاثار[12].

ـــ «الليلة على ظهرها» ؟[13]

ـــ تماما .

ـــ يمكن .

ـــ وما دمنا نتكلم عن التأثيرات أو السوابق، سمها كما تحب، فكرت في قصة لروبين داريو... أظن عنوانها «ويشيلوبوشْتلي» هي من آخر ماكتب، نشرها في غواتيمالا.

ـــ أكَتَبَ داريو قصصا ؟ ما عندي أية فكرة. ظننت أنه كان شاعرا فقط... طيب، إذن... سأنسحب.

ـــ لحيظة : بقيت الخاتمة. الحبكة بدت لمسترهردويك معادية لليانكيين والى جانب العالم الثالث بكيفية وحشية. وجد رموزا كثيرة.

ـــ رموز ؟ ولكن ما هناك أي رمز : كل شيء مباشر جدا وواضح جدا.

ــ ليس الى هذا الحد. النهاية يظهر أنها توحي بشيء غير موجود في النص. هي استعارة سياسية، لنقل رغبة حسنة، خداعة بشكل خفيف من جهة أخرى. كأنك تريد أن تفوز بتصفيقات «المستعجلين» في الجامعة أو تؤدي تحية حنينية لايامنا في «خندق» : «المكسيك ستقبر الامبريالية اليانكية، كما دفنت قبل قرن طموحات نابوليون الثالث» ــ أليس كذلك ؟ اسمح لي أن أقول لك شَمُّكَ أخطأ. المستر هردويك ضد حرب فيتنام هو كذلك، طبعا، وأنت عارف أن موقفي ما تغير في جوهره : تغير العالم وهذا مختلف كل الاختلاف. ولكن كيف أمكن أن يخطر لك أن تجيء الى مجلة ممولة من هناك فوق بقصة تصب فيها رغبات في إفزاع السياحة ومضايقة اليانكيين...

ــ ربما تكون على حق، ربما نصبت لنفسي فخاخا أنا وحدي لكي لا تُنشر قصتي.

ــ يمكن، who knows، ولكن لنُخَلِّ الكلام بطريقة علم النفس لأننا سننتهي مكتشفين أن قصتك عدوان مكتوم ضدي أنا.

ــ لا يا رجل، ماذا تقول ــ تصنع الضحك مع ريكاردو، صمت قليلا وأضاف ــ طيب، سأختفي، شكرا جزيلا على كل حال.

ــ لا تأخذ الأمر هكذا، لا تكن لا معقولياً. أنتظر شيئا آخر لك طبعا، ولو أنه لن يكون للعدد الأول. زيادة على ذلك، هذه المجلة لا تعمل على الطريقة المكسيكية : العمل الذي تكلف به أحدا تسدده. خذ... ألف بيسو فقط، أحسن من لاشيء... هيا، لا تخجل من قبولها، هكذا تعودوا في الولايات المتحدة، ولا يستاء أحد. آه، إذا ماكان عندك مانع خَلِّ لي الاصل هنا بعض الايام كي أري المدير إياه وأبرر التسديد. بعد ذلك أرسله إليك في البريد أو مع office-boy.

ــ حسن جدا. وأنا أجيء لك الى هنا بقصيصة أخرى.

ــ ممتاز. خذ الوقت الكافي، لا تتسرع وسترى كيف ستنجح مع اليانكيين هذه المرة. المسألة أنهم في منتهى الصرامة، مِهْنيون جدا، استكماليون جدا. في بعض الأحيان كانوا يأمرون بإعادة كتابة إشارة كتب بسيطة جدا ست مرات، تصور كيف يكون الأمر بالنسبة لنص ابداعي... اسمع، التسديد لا يهم : يمكن لك أن تنشر قصتك في أية مجلة «محلية».

ــ لماذا، ليست جيدة. أحسن لنا أن ننساها... طيب، ستبقى ؟

ــ نعم، يجب أن أتكلم في التلفون.

ــ في هذه الساعة ؟ الوقت متأخر لذلك، لا؟

ــ متأخر جدا، ولكن يجب أن نعمل بسير حثيث حتى نتمكن من أن نجعل عجلة المجلة تدور. طيب، عزيزي أندريس، أشكرك لأنك عملت ما كلفناك به، ومن فضلك سلم كثيرا على هيلدا.

ــ كيف لا. شكرا لك أنت. تصبح على خير.

خرج أندريس الى الممر الغارق في الظلام حيث ماكان يشتعل غير الاضواء في لوح المصعد. ضغط الجرس وبعد قليل انفتح القفص المضاء إضاءة مزعجة بمقعد صبي المصعد فارغ. أغرق زر الطبقة الارضية. فتح له بابَ الشارع حارسٌ ناعس بوجه مخفي وراء كوفية، رجع أندريس الى ليل مكسيكو، مشى حتى محطة خواريث ونزل الى الساحة المقفرة.

فتح محفظته ليفتش عن شيء يقرأه ريثما يجيء المترو. ماوجد غير نسخة «احتفال الجرأة». مزقها ورماها في الزبّل، كان الجو حارا في النفق. وفجأة غمره الهواء البارد الذي جلبه القطار الذي مالبث أن توقف بلا صوت. صعد أندريس الى العربة الثانية، انتقل مرة أخرى الى قطار آخر في «بالديراس» وجلس في مقعد فردي.

ماكان هناك غير ثلاثة ركاب غافين. أخرج أندريس من جيبه ورقة الألف بيسو، تأملها لحظة وخبأها من جديد، في زجاج الباب نظر الى انعكاسه وهو مطبوع بفعل ضوء العربة وظلام النفق.

ــ وجه سخيف ــ قال لنفسه ــ لو التقيت مصادفة مع نفسي في الشارع لأحسست باحتقار لاحد له. لن يعرض نفسه لاهانة من هذا النوع غير أبله بحالي. كيف أشرح هذا لهيلدا، كل شيء شرير. لماذا لا يصطدم القطار. أتمنى أن أموت.

لما رأى الرجال الثلاثة يتأملونه، أدرك أنه كان تكلم بصوت عال، مومئا. حرف نظرته ولكي يشغل نفسه بشيء تناول ورقة الألف بيسو وخبأها في محفظته.

نزل في إنسورخينطيس لما كانت مكبرات الصوت تعلن أنها الرحلة الاخيرة وأن أبواب المحطة ستسد. ومع ذلك توقف اندريس ليقرأ كتابة محفورة بحد بركار أو مسمار على إعلان Raleigh :

مجرمون، لن ننسى طلاطيلولكو (14) وصان كوصمي (15)

ــ كان يجب أن يقول «ولا صان كوصمي» ــ صحح أندريس ذهنيا، بطريقة ميكانيكية، وهو يتقدم نحو المخرج. انطلق القطار الذي كان ذاهبا في اتجاه سرقسطة.

قبل أن يكتسب صف العربات السرعة رأى أندريس بين الركاب الاربعة للعربة الاخيرة رجلا أميركيا شماليا بلا أدنى شك : قميص أخضر، Rolleiflex، غليون سيليكاتي بين شفتيه.

صرخ أندريس كلمات لم يتمكن النقيب كيلير من سماعها فضاعت في النفق. بادر الى صعود الدرج مشتاقا الى الهواء الطلق للساحة. بيده الماهرة الوحيدة دفع الباب الدوارة. لم يستطع حتى أن يفتح فمه لما قبضه الرجال الثلاثة الذين كانوا له بالمرصاد.

ترجمة محمد العشيري

(1) اسم نوع من آلات التصوير

(2) صويرات

(3) هو غبرييل غرثيا ماركيث

(4) رواية «البحث عن الزمن الضائع» لبروست.

(5) التلفزيون والراديو والسينما والصحف، إلخ.

(6) هو نوع من الورق الفاخر.

(7) نسبة الى إميليانو ثاباطا أحد قادة الثورة المكسيكية التي انفجرت عام 1910. كان له شارب كبير جداً.

(8) رئيس التحرير.

(9) واقعا على بعد 1500 قدم من شاطىء ريبولكاديرو، ومرتفعا بستة عشر طابقا مثل هرم أستيكي، يفتح فندق «أكابولكوبرانسس» ونادي الغولف اللذين كلفا 40 مليون دولار أبوابهما مثل مجموعة منتجعات النوافير هذه، أوسع وأغزر ما عرف في نوعه. أكراته (الاكري 4000 متر مربع) المئتان من الحدائق والمسابح ومساقط المياه والجداول تبعد عشر دقائق بالسيارة عن المطار الدولي.

يحتوي «البرانسس» على 777 غرفة لكل منها شرفة خاصة تطل على شاطىء الخليج المنقط بالنخيل أو على بحر الباسيفيك الفيروزي ويحدد الضيوف اثناء حجوزاتهم ما اذا كانوا يفضلون مشهدا اخضر (الخليج) أو أزرق (الباسيفيك). إنه واحد من اكثر الفنادق التي يمكن ان تروها اثارة، فهو يملك رواقا مصنوعا على غرار الساحة المركزية الكبرى في معبد أستيكي بسقفه الشفاف الذي تتلطف عبره أشعة الشمس وضوء القمر. ردهة الرواق التي يبلغ طولها 20000 قدم تكملها 60 قدما من النخيل، والاهوار المعلقة ومنحوتات المايا.

(10) حكاية أو قصة

(11) روائي مكسيكي معروف.

(12) هو الكاتب الارجنتيني المعروف

(13) القصة موجودة في مجموعة «نهاية اللعب».

(14) مجزرة طلاطيلولكو، ارتكبتها الحكومة المكسيكية في صفوف الطلاب (50 قتيلا حسب المصادر الرسمية و 300 حسب مصادر أخرى)

(15) صان كوصمي : شارع في مكسيكو. وقع فيه اصطدام بين الطلاب والشرطة بهذا الشارع عام 1970.

— خوسيه إميليو باتشيكو. ولد عام 1939 بالعاصمة المكسيكية. من مؤلفاته : ستموت بعيداً (رواية 1967) وبداية المتعة (قصص 1972) وهي المجموعة التي توجد بين قصصها القصة المترجمة هنا.

— ANTOLOGIA DE CUENTOS MEXICANOS TOMO 2. MARIA DEL CARMEN MILLAN. EDITORIAL NUEVA IMAGEN S.A. MEXICO. 1977.

أوراثيو كيروغا (الأوروغواي)

الرجـــل الميــــت

كان الرجل وساطوره قد انتهيا من تنظيف المجاز الخامس لبستان الموز. كان مازال امامهما مجازان للتنظيف ؛ ولكن بما أن في هذين المجازين تكثر اشجار الشركا والخييزى البرية، كان العمل الذي ينتظرهما بسيطا. ألقى الرجل اذن نظرة طافحة بالرضى على الشجيرات المكشوطة وعبر الاسلاك الشائكة ليستلقي قليلا على عشب النجيل.

لكن لما هبط السلك الشائك ومر الجسم، زلقت قدمه اليسرى على قطعة قشرة ساقطة من العمود، في الوقت الذي افلت الساطور من يده. بينما كان الرجل يسقط، خيل اليه، بطريقة بعيدة عن الجلاء، أنه لا يرى على الأرض الساطور بوضوح.

آلان كان مستلقيا على النجيل، راقدا على جنبه الأيمن، كما كان هو يريد تماما. فمه الذي انفتح انفتاحا اقصى، كان قد انسد كذلك. كان في الوضع الذي تمنى ان يكون فيه، ركبتاه مثنيتان ويده اليسري على صدره. الفرق هو ان خلف ذراعه، وتحت الحزام مباشرة، كان يبرز من قميصه مقبض الساطور ونصف نصله. لكن البقية لم تكن ترى.

حاول الرجل ان يحرك رأسه، بلا جدوى. ألقى نظره بمؤخر عينه على مقبض الساطور الذي مازال يبلله عرق يده. قدر ذهنيا اتساع ومسير الساطور داخل بطنه، وثبت لديه بكيفية باردة، رياضية، حتمية، التأكيد بأنه وصل الآن الى نهاية وجوده.

الموت. خلال حياتنا نفكر مرات كثيرة انناذات يوم، بعد اعوام، شهور، اسابيع وأيام تحضيرية، سنصل بدورنا الى عتبة الموت. انها السنة المحتومة، المقبولة المتوقعة، لدرجة اننا اعتدنا ان نسمح لخيالنا بأن يأخذنا راضين الى تلك اللحظة العليا بين اللحظات، التي نطلق فيها آخر زفرة.

لكن بين اللحظة الحاضرة وتلك الزفرة الأخيرة، كم حلم، كم اضطراب، كم امل، كم مأساة نتوقع في حياتنا ! ماذا يدخر لنا هذا الوجود الطافح بالقوة قبل ان يقصى من الخشبة البشرية ؟! هذا هو عزاء، متعة، باعث هذياننا الجنازي : ما أبعد الموت عنا ! وكم هي لا متوقعة الأيام التي سنعيشها !

سنعيشها... ؟ لم تمر ثانيتان : الشمس مازالت في العلو نفسه بالضبط، الظلال ما تقدمت ميليمترا واحدا. انتهى فجأة الآن الهذيان الآجل بالنسبة للرجل المستلقي : انه يموت. ميت. ليعتبر نفسه ميتا في وضعه المريح.

لكن الرجل يفتح عينيه وينظر . كم مر من الوقت ؟ اية كارثة طرأت على العالم ؟ اي اختلال للطبيعة رشح هذا الحدث الرهيب ؟

سيموت ببرودة، بحتمية، بلا مناص، سيموت.

الرجل يقاوم ــ كم هو لا متوقع هذا الهول ! ــ ويفكر : هو كابوس، نعم ! ماذا تبدل ؟ لا شيء. وينظر : أليس بستان الموز هذا بستانه ؟ ألا يجيء كل صباح لينظفه ؟ من يعرفه كما يعرفه هو ؟ هو يرى البستان بوضوح، كثافته قليلة جدا، والأوراق العريضة تواجه الشمس عارية. هي هناك، قريبة، منسولة بفعل الريح. لكنها الآن لا تتحرك... هذا هدوء الظهر، قريبا ستكون الثانية عشرة.

بين اشجار الموز، هناك فوق، يرى الرجل من الأرض الصلبة سقف داره الأحمر. الى اليسار، يلمح الغابة وبستان القرفة. لا يستطيع ان يرى اكثر من ذلك، لكنه يعرف جيدا ان وراءه يوجد طريق المرسى الجديد، وأن في اتجاه رأسه، هناك تحت، في قاع الوادي، يرقد نهر «بارانا» كبحيرة. كل شيء، كل شيء كما كان دائما تماما، الشمس النارية، الهواء المتذبذب المنفرد، اشجار الموز اللامتحركة، الأسلاك الشائكة ذات الاعمدة الغليظة العالية التي يجب ان يبدلها قريبا.

ميت ! ولكن أهذا ممكن ؟ أليس هذا نهار بين نهارات كثيرة خرج فيها من داره فجرا بالساطور في يده ؟ ألا يوجد في هذا المكان نفسه، على بعد اربعة امتار منه، حصانه، احمره، وهو يشم الأسلاك الشائكة هادئا ؟.

ولكن نعم ! احدهم يصفر... لا يستطيع ان يرى، لانه يدير للطريق ظهره، لكنه يحس برنين خطوات الحصان على القنيطرة... إنه الفتى الذي يمر كل صباح متجها الى المرسى الجديد، في الحادية عشرة والنصف. ودائما مصفرا... من العمود المقشر الذي يكاد يمسه بجزمته الى سياج الشجيرات الغابوي الفاصل بين بستان الموز والطريق يوجد خمسة عشر مترا طويلة. يعرف ذلك جيدا، لأنه هو بنفسه لما رفع الأسلاك الشائكة قاس المسافة.

ماذا يجري اذن ؟ أذاك هو ظهر طبيعي بين اظهر كثيرة في «ميسيونيس»، في غابته، في مرتعه، في بستان موزه القليل الكثافة ام لا ؟ بلاشك ! نجيل قصير، مخروطات نمل، صمت، شمس عمودية...

لا شيء، لم يتغير شيء. هو وحده مختلف. منذ دقيقتين اثنتين، لم يعد لشخصه، لشخصيته العائشة، اية صلة بالمرتع الذي كونه هو بنفسه بالفأس طوال خمسة شهور متوالية، ولا ببستان الموز الذي خلقه بيديه وحدهما. ولا بأسرته. لقد قلع فجأة بعنف، بطريقة طبيعية، بفعل قشرة لامعة وساطور في بطنه. قبل دقيقتين : يموت.

الرجل المنهوك جدا المستلقي في النجيل على جنبه الايمن، يأبى دائما ان يقبل ظاهرة بهذه الخطورة، أمام المظهر العادي الرتيب لكل الأشياء التي يراها. يعرف الساعة جيدا : الحادية عشرة والنصف... فتى كل نهار مر الآن على القنطرة.

ولكن مستحيل ان يكون قد زلق...! مقبض ساطوره (قريبا يجب أن يبدله بآخر، امسى قليل الفعالية الآن) كان مضغوطا جيدا بين يده اليسرى والأسلاك الشائكة. هو يعرف جيدا، بعد عشر سنين في الغابة، كيف يُستعمل ساطور غابوي. هو منهوك جدا فقط، بعد عمل ذلك الصباح، ويستريح هنيهة كعادته.



الدليل...؟ ولكن ذاك النجيل الذي يدخل الآن عبر ملتقى شفتيه زرعه هو بنفسه، في بقع من الأرض تبعد كل واحدة منها عن الأخرى مترا واحدا ! وذاك هو بستان موزه، وذاك هو حصانه، لاهثا بحذر أمام اشواك الأسلاك ! يراه جيدا، يعرف انه لا يجرؤ ان يجوز ركن الأسلاك الشائكة، لان هو مُستَلْقٍ تحت العمود. هو يراه جيدا، ويرى خيوط العرق الداكنة التي تنطلق من الغارب والردف. الشمس تسقط عمودية، والهدوء تام، فأشجار الموز لا تتحرك منها اية هُدّابة. هو رأى الأشياء عينها كل نهار، وكل نهار كان ك «ذاك النهار».

... منهوك جدا، لكنه يستريح فقط. لابد ان عدة دقائق قد مرت الآن... وفي الثانية عشرة الا ربعا، ستنطلق من هناك فوق، من الدار ذات السقف الأحمر، نحو بستان الموز زوجته وولداه الاثنان، كي يفتشا عنه ليتغدوا. يسمع دائما ــ قبل الأصوات الأخرى ــ صوت ولده الأصغر الذي يريد ان يتخلص من يد أمه : بيابيا ! بيابيا !

أليس ذاك...؟ طبعا، يسمع ! إنها الساعة. يسمع صوت ولده فعلا...

ما أشد وطأة هذا الكابوس...! لكنه نهار مثل النهارات الكثيرة، عادٍ مثلها جميعا طبعا ! ضوء قوي جدا، ظلال مصفرة، حر صامت لفرن على اللحم يجعل الحصان اللامتحرك يعرق أمام بستان الموز الممنوع.

... منهوك جدا، جدا، ولكن هذا فقط. كم مرة عبر في ظهر كهذا، وهو راجع الى الدار، ذاك المرتع الذي كان ارضا مشذبة لما جاء هو، والذي كان قبل ذلك غابة عذراء ! وقتئذ كان يعود منهوكا جدا ايضا، بساطوره يتدلى من يده اليسرى، بخطوات بطيئة.

مازال يستطيع ان يتبعد بذهنه اذا اراد، يستطيع اذا اراد ان يغادر جسمه لحظة ويرى من الصهريج الذي بناه هو المنظر الدائم العادي : الحصيات البركانية مع نجيل صلب، بستان الموز ورماله الحمراء، الأسلاك التي تصغر في العقبة متكئة عليها متجهة نحو الطريق. وأن يرى في مكان أبعد المرتع الذي من صنع يديه وحدهما. وتحت عمود مقشر، يستطيع ان يرى نفسه مستلقيا على جنبه الأيمن برجليه منثنيتين، شأنه كل نهار تماما، وهو ككتلة صغيرة مشمسة على النجيل، يستريح لانه متعب جدا...

لكن الحصان الذي يخططه العرق والذي لا يتحرك حذرا أمام زاوية الأسلاك الشائكة، يرى هو كذلك الرجل على الأرض ولا يجرؤ على دخول بستان الموز، كما يريد. أمام الأصوات التي غدت قريبة ــ بيابيا ! ــ يدير اذنيه المتحركتين نحو الكتلة لحظة طويلة، طويلة : ولما يطمئن أخيرا، يقرر ان يجوز بين العمود والرجل المستلقى الذي استراح الآن.

ترجمة محمد العشيري ________

ــ أوراثيو كيروغا. ولد عام 1879 ومات في 1937. يعد استاذ القصة القصيرة في أميركا اللاتينية.

عن كتاب :

LOS DESTERRADOS. HORACIO QUIROGA. EDIT. LOSADA. BUENOS AIRES. ARGENTINA. 1980.

خورخي لويس بورخيس (الأرجنتين)

الدخيلة

يقولون (وقولهم هذا بعيد الاحتمال) إن القصة رُويتْ من طرف إدواردو أصغر الأخوين نيلسون، خلال السهر جنب جثة كرستيان الاخ الأكبر الذي مات ميتة طبيعية حوالي ألف وثمانمئة وكذا وتسعين، في دائرة مورون. الحقيقة هي أن أحدهم سمعها من أحدهم، أثناء تلك الليلة الطويلة التي ضاعت بين جُرعة ماطي وأخرى، وأعاد حكايتها سنتياغو دابوبي الذي سمِعْتُها منه. بعد ذلك بأعوام، حَكَوْها لي من جديد في توردير، حيث وقعتْ. الرواية الثانية، وهي أكثر إسهاباً قليلا تؤيد إجمالًا رواية سنتياغو، مع التغيرات والاختلافات التي هي طبيعية في مثل هذه الحالات. أكتبها الآن لأن فيها يوجَز ــ إذا لم يكذب ظني ــ انعكاسٌ مقتضب ومأساويّ لطَبْع سكان الأرباض القدامى. سأفعل ذلك بأمانة، لكني أرى منذ الآن أني لن أقاوم الاغراء الادبي الذي سيدفعني إلى أن أبرز أو أضيف تفصيلا من التفاصيل.

في توردير كانوا يُسَمّونهما الأخوين نيلسين. قال لي راعي الكنيسة إن سلفه كان يتذكر بمفاجأة أنه رأى في دار هؤلاء توراة بالية ذات غلاف أسود بخطّ قوطيّ. في الصفحات الأخيرة لمح أسماء وتواريخ مخطوطة. كانت الكتاب الوحيد الموجود في الدار. التاريخ الضائع لأسرة نيسلين الذي سادتْه المغامرة، الضائع كما سيضيع كل شيء. كانت الدار الكبيرة، التي لم تعد الآن موجودة، من آجُرّ غير مُجَيَّر. من الدهليز كان يُلمح فِناءٌ من بلاط أحمر وآخر من تراب. ما دخل هنالك إلا قليلون، من جهة أخرى. كان الأخوان نيلسين يحميان عزلتهما. في الغُرَف الخالية من الأثاث كانا ينامان على أسِرَّة. كان تَرَفُهُمَا هو الحصان والسَّرج والسكين ذا النَّصْل القصير والزِّيّ الفاخر لأيام السبت والخمر العربيد. أعرف أنهما كانا طويلَي القامة ذَوَيْ شعر ضارب الى الحمرة. كانت الدانمارك وإيرلندة، اللتان لم يسمعا قط الكلام عنهما، تجريان في دماء ذانك الاوربيَّيْن المولودين خارج أوربا. سكان الحارة كانوا يخافون من «الأَحْمَرَيْن». ليس مستحيلا أن يكونا قتلا أحدا. ذات مرة وقعتْ مُضاربة بينهما وبين رجال الشرطة فواجهها هؤلاء جنبا الى جنب. ويُقال إن الأصغر تشاجر مع خوان إيبيرا فلم يخرج من المشاجرة بأسوإ نصيب، وهذا كثير حسب الخبراء. عَمِلا بقَّارَيْن ومُساعِدَيْن في جَرِّ العربات وسارِقَيْ دواب ومُقامِرَيْن مرة ما. كان معروفَيْن بالبخل، إلا لما يُحَوِّلُهما الشراب والقمار الى إنسانَيْن كريمَيْن. لا يُعرف أيُّ شيء عن أقربائهما ولا عن المكان الذي جاءا منه. كانا يملكان عربة وزَوْجَ ثيران.

من الناحية الجسميّة كانا يختلفان عن الرُّفقة المتواطئين الذين أعطوا «كوسطا برابا» لَقَبَهم المتبوع من طرف العدالة. هذا وما نَجهله، يساعد على فهم الاتحاد الذي ساد بينهما. كان التنازُع مع أحدهما يعني الاستعداد لمواجهة عدوَّين اثنين.

كان الأخوان نيلسين داعرَيْن، لكن قصصهما الغراميّة كانت حتى ذلك الوقت قصص دهاليز وديار سُمْعَتها سيئة. لم يَنْجُوَا إذن من القيل والقال لما أخذ كرستيانُ خوليانا بورغوس الى الدار لتعيش معه. صحيح أنه بعمله هذا ربح خادمة، ولكن ليس أقل صِحَّةً أنه أغرقها في حَلْيٍ رخيصة فظيعة وكان يعرضها في الحفلات. في الحفلات المتواضعة المقامة في ديار يقتسم السكنَ فيها بضعةُ أُسر فقيرة، حيث يُمْنَع هَزُّ الكتفَيْن والردْفَيْن وحيث كان الناس لا يزالون يرقصون في وَضَح النهار. كانت خوليانا ذات جَبْلَة سمراء وعينين نجلاوين، يكفي أن ينظر إليها أحد لتبتسم. لم يكُنْ شكلُها يبدو قبيحا وسط حارة فقيرة يُستَهلك فيها النساء بفعل العمل والاهمال.

كان إدواردو في البداية يرافقهما. بعد ذلك قام برحلة إلى أُرِيثيفيس من أجل شُغْل لا أدري ماهو. لما رجع أخذ معه الى الدار فتاة كان خطفها في الطريق، وبعد أيام قليلة طردها. أمسى أشرس من قبل. كان يَسْكَر وَحْدَهُ في المخْزَن ولا يفتح لأحد قلبَه. كان واقعا في حُبّ امرأة كرستيان. الحارة، وقد عرفَتْ ذلك رُبَّما قَبْلَه، توقّعتْ بسرور غَدار المنافسةَ الدفينة بين الأخوين.

ذات ليلة رأى إدواردو بعدما رجع متأخرا من الناصية، الحصانَ الأسودَ لكرستيان مربوطا بالوَتَد. كان الاخ الأكبر في الفناء ينتظره في أحسن ملابسه والمرأة تتنقل بالماطي في يدها. قال كرستيان لإدواردو :

ـــ أنا ذاهب الى سهرة في فاريياس. ها هي خوليانا قُدّامك. إستَعْمِلْها إذا أحْبَبْتَ.

كانت اللهجة بين آمرة وودّيّة. ظل إدواردو ينظر إليه ملياً. لم يكن يعرف ماذا يعمل. وقف كرستيان، ودَّعَ إدواردو، لم يودع خوليانا التي كانت شيئاً، ركب الحصان وابتعد خَبَّاً، بلا عجلة.

تقاسماها منذ تلك الليلة. لن يعرف أحد تفاصيل ذاك الاقتران القذر الذي كان يَشين احتشام الربَض. سار الاتفاق سَيْراً حسناً بضعة أسابيع، لكن استمراره لم يكن ممكنا. الأخوان فيما بينهما ما كان يفوهان باسم خوليانا، حتى لاستدعائها. لكنهما كانا يفتشان عن أسباب لكي يختلفا، وكانا يجدانها. كانا يُناقشان بَيْعَ كمية من الجلود، لكن موضوع النقاش كان شيئا آخر. كان كرستيان يرفع صوته فيسكت إدواردو. كل واحد منهما كان يراقب الآخر، دون أن يعرفا. في الربض القاسي لم يكن الرجل يقول ـــ حتى لنفسه ـــ إن امرأة من النساء يمكن أن تثير فيه اهتماما أبعد من الرغبة والمجامعة، ولكن الاثنين كانا يحبان. هذا كان ـــ بكيفية ما ـــ مُهينا بالنسبه لهما.

ذات مساء، في ساحة لوماص، التقى إدواردو خوان إيبيرًا الذي هَنَّأه على تلك الْفِتْنَة التي حصل عليها. أظن أنه حدث حينئذ أن سَبَّه إدواردو. هو لن يسمح لأحد بأن يسخر من كرستيان أمامه.

كانت المرأة تَخْدِمهما بخضوع بهيميّ. لكنها لم تكن قادرة على إخفاء بعض الميل للأصغر الذي لم يرفض المشاطرة، لكنه لم يُدَبِّرها.

ذات يوم أَمَرَا خوليانا أن تُخرج كُرْسِيين الى الفناء الأول وألا تبقى معهما لأنهما سيتكلمان. هي توقعتْ حوارا طويلا فاستلقتْ لتنام القيلولة، لكنهما أيقظاها بعد قليل. جعلاها تملأ كيسا بكل ما تملكه، دون نسيان المسبحة الزجاجيّة والصُّلَيْب الذي تركتهما لها أمها. ركَبُوها العربة دون أن يوضحوا لها أي شيء وبدأوا رحلة صامتة مُمِلّة. كانت قد أمطرت، الطرق كانت واعرة جدا، وحوالي الخامسة صباحا وصلوا الى مورون. هناك باعاها لِمَوْلاة الماخور. كانت الصفقة عُقِدتْ قبل ذلك. قبض كرستيان المبلغ وقسمه مع الآخر بعدئذ.

في توورديرا أراد الأخوان نيلسين ــ وكانا حتى ذلك الوقت ضائعين في التعقُّد (الذي كان كذلك روتينا) الذي هَيْمَنَ على ذلك الحب الغائص في الشذوذ ــ أن يستأنفا حياتهما القديمة كإنسانين. رجعا الى القمار الى مصطرع الديوك، إلى السهرات الطارئة. ربما اعتقدا مرة ما أنهما نَجَوَا، لكنهما اعتادا ــ كل واحد من جهته ــ على أن يتغيبا بلا مبررات ــ ولكن بمبررات مُبَرَّرَةٍ للغاية. قبل رأس السنة بقليل قال الأصغر إن له شغلا في العاصمة. ذهب كرستيان الى مورون. في أوتاد الدار التي تعرفها مَيَّزَ الجواد الاصفر لإدواردو. دخل. كان الآخر هناك، ينتظر نَوْبَتَه. يظهر أن كرستيان قال له :

ــ إذا استمررنا هكذا نُتْعِب الجوادين نُقِرُّ بها أحسن.

تكلم مع صاحبة الدار، أخرج من الحزام بعض القطع النقدية، فأخذاها معهما. كانت خوليانا ماشية جنب كرستيان. نَخَسَ إدواردو جواده كي لا يراهما.

رجعا الى ما قيل منذ قليل. كان الحل الشنيع قد فشل. كلاهما استسلما لاغراء اللجوء الى الغِشّ. كان قابل يحوم حولهما، لكن المحبة بين الأخوين نيلسين كانت كبيرة ــ مَنْ يدري أية شدائد وأخطار قاسيا معا ! ــ ففضّلا تفريغ غيظهما مع آخرين. مع غريب، مع الكلاب، مع خوليانا التي جاءت بالشقاق.

كان شهر مارس يشرف على النهاية والحرارة تأبى أن تخفّ. ذات أحد (أيام الأحد اعتاد الناس أن يلجأوا إلى ديارهم باكرا) رأى إدواردو وكان راجعا من المخزن أن كرستيان يَقْرِن الثورين. قال له كرستيان :

ــ تعال. يجب أن نأخذ بعض الجلود إلى الـ «باردو». وضعتُها في العربة. لنَغْتَنِم البرودة.

أظن أن سوق الـ «باردو» كان يقع الى الجنوب، ذهبا عبر الـ «كامينو دي لاس طروباس»، ثم عبر طريق ثانوي. كان الريف يزداد كبرا مع هبوط الليل.

اقتربا من أرض مَقْصَبَة. رمى كرستيان السيجارة التي كان أشعلها وقال بلا عجلة :

ــ الى العمل يا أخي. بعد ذلك تُعاوِنُنا الجوارح. قَتَلْتُها اليوم. لِتَبْقَ هنا بثيابها. لن تؤذِيَ أكثر بعد الآن.

تعانقا وهما يكادان يبكيان. الآن كانت تجمع بينهما آصرة أخرى : المرأة التي ضَحَّيا ــ آسفَيْن ــ بها وواجِبُ نسيانها.

ترجمة محمد العشيري

خ. ل. بورخيس. ولد في بوينوس آيريس عام 1899. شاعر وكاتب قصة قصيرة معروف بكتابته وبعنصريته ورجعيته.

عن كتاب :

- NARRACIONES. JORGE LUIS BORGES. EDICIONES CATEDRA S.A. MADRID. 1980



تكوين لجنة الدعم الثقافي للثورة الفلسطينية

على إثر الغزو الاسرائيلي للبنان بغاية تصفية الثورة الفلسطينية وإخضاع الشعب اللبناني، وفي سياق تعبئة مثقفين في بعض الاقطار العربية، واستجابة لاقتراح ــ دعوة «الثقافة الجديدة» (راجع العدد 24 ــ 1982)، توصلت مجموعة من المنابر والمثقفين في المغرب الى تكوين «لجنة الدعم الثقافي للثورة الفلسطينية» تعمل في طار اتحاد كتاب المغرب، وبعد خمسة أشهر من الاجتماعات، شرعت اللجنة في تنفيذ برنامجها بمعرض للوحات والكتب والمجلات المغربية للاعلان عن بداية نشاطها، وقد تم المعرض في الرباط (من 20 الى 30 يناير 1983 بمسرح محمد الخامس) والدار البيضاء (من 5 الى 15 فبراير، بقاعة عبد الصمد الكنفاوي).

ساهم في هذا المعرض عدد من الكتاب المغاربة :

الفنانون التشكيليون :

ميلود ــ شبعة ــ حسن السلاوي ــ ربيع ــ القاسمي ــ كريم بناني ــ الحريري ــ ايكن ــ الحياني ــ المليحي ــ عزيز السيد ــ الملياني ــ بلكاهية ــ حفيظ ــ رحول ــ الملاخ ــ فاطمة حسن.

المجلات :

آفاق ــ الثقافة الجديدة ــ المقدمة ــ الجسور ــ المشروع ــ المبادىء ــ أقلام ــ البديل ؟.

دور النشر والمؤسسات :

منظمة التحرير الفلسطينية ــ كلية الاداب (الرباط) ــ كلية الحقوق (الرباط) ــ مكتبة المعارف ــ دار النشر المغربية ــ سمير ــ دار الرشاد ــ دار الثقافة ــ المركز الثقافي العربي.

وهذا نص البلاغ :

بلاغ حول تكوين لجنة الدعم الثقافي للثورة الفلسطينية

منذ انسحاب القوى الفلسطينية المحاربة عن بيروت، وبعد مقاومة مستميتة قوبلت بالصمت المتواطىء للانظمة، بات من الواضح ان الثورة الفلسطينية وما تجسده من رموز نبيلة قد أصبحت مهددة بأخطار التصفية واهدار الحقوق وتخريب الثقافة والكيان، ذلك أن حرب لبنان كشفت النقاب أمام الرأي العام العالمي عن الوجه الحقيقي للدولة الصهيونية العنصرية في ممارستها تقتيل الفلسطينيين واللبنانيين العزل ونهب الممتلكات والوثائق والكتب وتدمير المؤسسات الثقافية. وبقدر ما فضحت حرب لبنان اسرائيل بقدر ما رسخت صورة الثورة الفلسطينية المعطاء وفعالية التحالف اللبناني الوطني الفلسطيني، لكن نتائج هذه الحرب والمتمثلة أساسا في إجلاء الفلسطينيين عن منطقة المواجهة وفي احتلال بلاد عربية من لدن القوات الصهيونية وما يستتبع ذلك من عواقب، انما هي في الواقع صدمة رجت الكيان وأعادت طرح الأسئلة الصعبة على ضمير كل مواطن عربي، فالصراع عند هذا المستوى وفي غياب المواجهة العربية الجماعية يؤشر على مدى الانهيار الذي وصل اليه الوجود العربي، وعلى الاخطار المحدقة بالحضارة والثقافة العربيتين، فأمام التخطيطات الدقيقة للصهيونية والامبريالية الهادفة الى تفكيك الامة واضرام الطائفية وتأبيد التبعية وتحطيم مظاهر المقاومة، لا نجد في المقابل تفكيرا يرمي الى صدّ العدوان وانجاز التحرير وتحقيق الديمقراطية وفك الحصار عن الجماهير المضطهدة.

لأجل ذلك فإننا نعتقد ان تدعيم روح المقاومة الشعبية يستلزم الدفاع عن الوجود الفلسطيني سياسيا وثقافيا وحضاريا، لان فلسطين أصبحت تلخص موضوعيا جوهر الصراع العربي ضد السيطرة الاسرائيلية والامبريالية كما تمثل حصيلة القيم الايجابية في النضال والممارسة الديمقراطية. ومن هذا المنطلق فإن مجموعة من المثقفين والادباء والمفكرين المغاربة الذين ينتمون الى عدة منابر واتجاهات تقدمية، قد عملوا منذ أربعة أشهر على تأسيس لجنة الدعم الثقافي للثورة الفلسطينية في اطار اتحاد كتاب المغرب، متوخين من وراء ذلك تحمل بعض من المسؤوليات التي تلقيها على عاتقهم المرحلة الدقيقة من مسيرة الثورة الفلسطينية ومن تاريخ الامة العربية، وبعيدا عن ادعاء امتلاك اجوبة على الأسئلة التي تطرحها حرب لبنان والهجرة الفلسطينية الرابعة، فإن لجنة الدعم مقتنعة بضرورة انتهاج سبيل العمل المتواصل والطويل النفس الذي من شأنه أن يخدم الثقافة الفلسطينية ويسند قضيتها خاصة داخل المغرب. وعلى هذا الاساس فان الاهداف البارزة الآن أمام اللجنة، والقابلة للتطوير على ضوء الممارسة تتجلى في ما يلي :

1 ـ السعي لجعل القضية الفلسطينية دائمة الحضور في الوجدان والفكر والاهتمامات المغربية، وذلك من خلال ترسيخها كمحور للنقاشات واللقاءات والممارسات بكيفية تتجاوز المناسبة وتتعدى نطاق المقتضيات الظرفية. ومعنى ذلك أن قضية فلسطين ستصبح نقطة دائمة في طليعة جدول أعمال ومواقف العاملين بلجنة الدعم الثقافي للثورة الفلسطينية.

2 ـ الحرص على تعميق التفكير النظري والبحث في المسائل والمعضلات التي تتصل بتجربة الثورة الفلسطينية وفي طرائق التعامل معها. والغرض من ذلك هو اعطاء تجربة الفلسطينيين حجمها المناسب من الاهتمام وجعلها حافزا لمواجهة التحديات المطروحة على الفكر وحركات التحرر العربي.

3 ـ ايلاء الثقافة الفلسطينية، أدبا وفنا وفكرا، الاهتمام الكبير الذي يتيح لها أن تغدو عنصر إخصاب وتفاعل مع الثقافة المغربية ويجعلها كذلك في متناول القراء والمتلقين المغاربة.

ان تحقيق هذه الاهداف يتطلب امكانات كبيرة، لكن الضمان الاساسي يتمثل قبل كل شيء في التفاف المثقفين والادباء والمفكرين حول لجنة الدعم الثقافي للثورة الفلسطينية، وفي التزامهم بالعمل الدؤوب المتواصل. ونحن لا نشك في أن شعورنا جميعا بفداحة النكبة وثقل المسؤوليات سيمهد السبيل أمام الارادات الواعية لتخطي كل العقبات خدمة لقضية فلسطين ولثقافتها.

ولجنة الدعم الثقافي للثورة الفلسطينية إذ تفتتح نشاطاتها بتنظيم معرض للكتب واللوحات والمجلات المغربية تدعو جميع المؤمنين بعدالة القضية الفلسطينية الى الاسهام في تحقيق أهداف اللجنة وفي تعزيز صفوفها.

اتحاد كتاب المغرب
لجنة الدعم الثقافي للثورة الفلسطينية

شهـــادات

تفرض الممارسات الثقافية في المغرب طرحا ونقاشا وتحليلا يتجاوز الذاتي للتعرف على القوانين الموضوعية الموجهة والمؤطرة لهذه الممارسات. وقد اختارت «الثقافة الجديدة» تدعيم مستويات الطرح والنقاش والتحليل منذ البداية، لقناعتنا بأن طبيعة هذه الممارسات يجب أن تكون علنية، بعيدة عن مجال «الاسرار» وليست الغاية من المساهمة في نشر البيانات هي التشهير بهذه الجهة أو تلك، ولكن بالاساس إثبات شهادة مرحلة ثقافية.

في هذا العدد ننشر رسالة مفتوحة توصلنا بها من عبد الحي الديوري، وإلى جانبها بيانا توضيحيا من الاتحاد الاقليمي لمسرح الهواة بفاس، والمجلة مفتوحة لكل شهادة مضادة.

رسالــة مفتــوحــة :

«وجهـة نـظـر الكـاتـــب»

في رسالتي هذه أود أن أرفع عدة التباسات بشأن مقال موقع باسمي ونشر في جريدة « سندباد» عدد 3 بتاريخ 1 الى 15 نونبر 1982 (بالفرنسية).

أبدأ بتقديم الوقائع :

1 ــ عملت عدة أشهر على إنجاز تحليل اجتما ــ سمياتي للشريط السينمائي بالمغرب، وذلك تلبية لطلب توجهت به جريدة «لوبينيون» الى قصد المشاركة في «ملف حول السينما المغربية».

أود أن أوضح هنا قبل كل شيء أن قبولي لتلبية هذه الدعوة لم يحصل الا شريطة أمرين اثنين وقع الاتفاق عليهما بكل وضوح مع المسؤول عن الصفحة الثقافية لهذه الجريدة :

ا) ــ الشرط الأول هو أن البحث الذي قمت به كان موضوعا في اطار مشروع جماعي أذكر بصدده أسماء السادة مومن السميحي، عبد الكبير الخطيبي، الطاهر بنجلون، نور الدين الصايل ومثقفون اخرون.

ب) ــ الشرط الثاني أنه لا علاقة بين ما يسمى بـ «الصفحة» أو «الملحق» الثقافي وشكل النشر لهذه المجموعة من الأبحاث إذ أن هذه الاخيرة تتخذ شكل وثيقة مستقلة : «ملف حول السينما المغربية»، وكان من المتفق عليه ن تتكلف جريدة «لوبينيون» بمصاريف النشر.

وبدون هذين الشرطين لا يعقل ولا يمكن أن يعقل بالنسبة لي أن أسلم بحثا متخصصا ومطولا (100 صفحة على التقريب) لجريدة يومية أيا كانت.

2 ــ سلمت بحثي هذا الى المسؤول عن الصفحة الثقافية لجريدة «لوبينيون» والمسؤول على إنجاز الملف في أواخر شتنبر 1982.

3 ــ وقع الاتفاق آنذاك، وبطلب مني بصفتي كاتب هذا البحث، على الاجتماع بعد ذلك بثلاثة أيام قصد مراجعته وقبل نشره في الملف المشار اليه أعلاه والذي كان السيد عبد الله بن سماعين قد التزم باخراجه الى السوق خلال فترة انعقاد المهرجان الوطني للفيلم المغربي بالرباط ما بين 9 و 15 أكتوبر 1982.

4 ــ بقيت جلسة العمل المتفق عليها بدون انعقاد نتيجة التغيب المتعمد للسيد بن سماعين عن المواعيد العديدة لعقد هذه الجلسة الى أن أعلمت هاتفيا أنه نُشر مقال موقع باسمي في جريدة إسمها «سندباد» وعلمت أن رئيس تحريرها هو السيد عبد الله بن سماعين الذي كان قد تمكن في المغرب وباسم ثقافته المتبحرة من ترؤس الصفحة الثقافية لجريدة «لوبينيون».

إن الالتباسات المتعلقة بما نشره السيد بن سماعين والتي يجب رفعها هنا هي كالتالي :

1 ــ لقد سلمت النص الى جريدة «لوبينيون» لا الى جريدة «سندباد». وإذا كان من حقي الاحتجاج بشدة على هذا الاختلاس، فإنه من واجب السيد مدير جريدة «لوبينيون» أن يتخذ التدابير اللازمة بشأن مستخدمه في الصفحة الثقافية : السيد عبد الله بن سماعين.

2 ــ من البديهي أن عملية الاختلاس هذه ناتجة عن عدم أمانة السيد بن سماعين، إذ :

ا) تم نشر هذا «المقال» بدون مشورتي ككاتب، بل أنه وقع وراء ظهري وعنوة.

ب) تمت عملية النشر خارج الاطار المتفق عليه :
«الملف حول السينما المغربية / لوبينيون» (هذا الاطار الذي أصبح فارغا بعد أن نسفه السيد عبد الله بن سماعين، إذ سبق أن نشر مقال السينمائي المغربي مومن السميحي ــ الموجه أساسا الى «لوبينيون» والمعنون : سميائية ــ تحليل نفسي ــ سينما : التسلسل اللامتناهي للتحليل» في العدد 2 من جريدته الجديدة».

3 ــ ليس هناك فحسب الاختلاس وسوء الائتمان ولكن هناك عملية رقابة شديدة وتشويه في النص : ان السيد بن سماعين بتر جملا من النص وغير بعض عناوين الفقرات ضاربا عرض الحائط بثقة القارىء في مهمته، وعمل بكيفية منهجية (همجية) على حذف جميع المؤشرات والرموز الموجودة في النص الذي وضعته بين يديه والتي كان من فائدتها وضع النص في إطاره النظري كبحث اجتماسمياتي. إضافة الى عدد كبير من «الأخطاء» فيما نشر (بمعدل خطإ في كل سطر تقريبا) والتي أودت بالمعنى المقصود الى الخراب.

أمام هذا التصرف المعيب المبني على سوء النية ــ الشيء الذي يؤسف له بالنسبة للصحافة الوطنية وبالنسبة للعمل الثقافي وللثقافة عامة في هذا البلد ــ أمام هذا التصرف الهدام الشرس، لم يبق لي سوى أن أخبي القارىء المحترم الذي من أجله وضعت هذا البيان أساسا بأن عنوان البحث المذكور هو «مشادات» (ALGARADES) وأنه سينشر قريبا.

الرباط في 10 نونبر 1982
عبد الحي الديوري

بيــــان توضيحــي

نحن الجمعيات ومكتب الاتحاد الاقليمي لمسرح الهواة المنتخب من طرف الجمع العام الذي تم بتاريخ 25 /6/ 82 نعلن للرأي الوطني الوضعية التي خلقها «المكتب» المطبوخ الذي شكله محمد عادل.

إن هذا المكتب اللاشرعي لا يمثل في حقيقته الا محاولة سطو سافرة على الحقوق التي تتمتع بها جمعيات المسرحية الموجودة بالاقليم.

ــ حق انتخاب المكتب الذي تريده.

ب ــ حق الطموح نحو تطوير المسرح بالاقليم، وذلك عمليا وليس بمكاتب جمعيات نحن أبعد من أن نختارها لتمثيليتنا.

وعليه، فإن مكتب عادل ليس إلا استمرارا لممارسات شهدها وعانى منها الاتحاد الاقليمي في سنوات جموده العجاف، فمن اختلاس أموال وممتلكات الاتحاد، إلى العزوف نهائيا عن النشاط المسرحي، الى وضع مكتب وهمي خلق نفسه في الكواليس، وشكل «وهذا هو الخطير» بالنسبة للسيد المذكور ورقة يدخل بها مكتب الجامعة الوطنية لمسرح الهواة.

إننا نحن الجمعيات المنضوية في إطار الاتحاد نرى أن عملا من هذا النوع يمثل انتهازا للثقافة والمسرح ومحاولة إيقاف كل طموح نحو خلخلة الجمود المسرحي بالاقليم. كما أنه سيشكل خطوة نحو تعميق الزيف الثقافي ومصلحية المسرح. ولهاذا فنحن نهيب بكافة المهتمين بهذا المجال الثقافي الحيوي وكل الغيورين على تطور المسرح وتقدمه في هذه المدينة، نهيب بهم أن يضموا أصواتهم الى كل الجمعيات التي وضعت ثقتها في المكتب الشرعي المنتخب علنيا بتاريخ 25 /06/ 1982، ويعمل معنا على إدانة العمل الذي يجعل من المسرح سلعة للاترزاق و ورقة لاعتلاء المناصب...

كما نوجه دعوتنا الى السلطات المعنية أن تتدخل لبتر مثل هذه الممارسات والحفاظ على بنود القانون الاساسي للاتحاد والمسطرة القانونية للانتخابات الجمعوية، وذلك بسحب شهادة الايداع من مكتب محمد عادل.

عن المكتب / والجمعيات المشاركة في الجمع

الامضـــاءات

جمعية البذرة الفنية ــ ابن دباب، فاس (قباط محمد) ــ جمعية الأمل الثقافية ــ المنزل ــ (رشيد جبوج) ــ جمعية المسرح الضاحك ــ فاس ــ جمعية عمل الشعب للحر للمسرح البهلولي ــ البهاليل، (ايحمد حدو عابي) ــ جمعية نجوم المسرح والموسيقى ــ صفرو ــ جمعية مسرح الأقنعة ــ فاس ــ جمعية البعث المسرحي ــ فاس (الشاهدي جمال) ــ جمعية الشروق المسرحي ــ دار الشباب حي المهنيين ــ فاس (بقالي عبد السلام) ــ مجلس دار الشباب ــ البطحاء، فاس ــ أوراش الشباب المتطوع ــ فاس (الكاتب العام) ــ جمعية الاشعاع الثقافي ــ تيفلت ــ (العلوي محمد) ــ حركة الطفولة الشعبية ــ فرع فاس ــ نادي الشابة ــ فاس ــ الجمعية المغربية لتربية الشبيبة ــ فرع فاس ــ جمعية الكشافة المغربية الاسلامية ــ محلية صفرو ــ (المعلم ادريس) ــ الجمعية المغربية لتربية الشبيبة ــ صفرو ــ (الدويشي محمد) ــ الجمعية المغربية لتربية الشبيبة ــ فرع البهاليل (الكاتب العام) ــ الكشفية الحسنية المحمدية المغربية ــ مندوبية فاس ــ الكشفية الحسنية المغربية ــ سرب توبقال، فاس (الكاتب العام)

عريضــة حول مشكل الاتحاد الاقليمي لمسرح الهواة

نحن الجمعيات والاندية الموقعة أسفله :

ندين الممارسات اللاقانونية التي مارسها بعض الافراد بتشكيل مكتب مطبوخ لا قانوني للاتحاد الاقليمي لمسرح الهواة بفاس، ونتضامن مع مكتب الاتحاد الشرعي معلنين تشبثنا به كاطار يمثل القانون والشرعية، ونطالب المندوبية الاقليمية للشبيبة والرياضة والسلطات المحلية باعطاء الشرعية للمكتب الذي انتخب حسب المسطرة القانونية للاتحاد الاقليمي لمسرح الهواة بفاس

توقيع الجمعيات والاندية